



المملكة العربية السعودية
جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا الشرعية
فرع العقيدة

التبشير والاستعمار في نيجيريا

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب

خضر مصطفى النيجيري



إشراف

فضيلة الشيخ محمد قطب

١٣٩٨ هـ ١٣٩٩

١٩٧٨ م ١٩٧٩

(جمهورية نيجيريا الفدراليـــة)

دولة النيجر

Sokoto سوكوتو

Katsina كاتسينا

Kano كانو

Maiduguri مادوغرى

Zaria زاريا

Kaduna كادونا

Jos جوس

Ilorin الورن

Ibadan إبادن

Abeokuta ابيوكوتا

Badagry

Benin بنين

Lagos لاجوس

Enugu اينوجو

Onitsha أونتشا

Calabar كلابار

P.Har Court

Brass براس

المحيط الأطلسي

دولة الكاميرون



الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحـــة

- المقدمـــة :
لمحة تاريخية عن ماضى الاسلام فى بلاد السودان الغربى ودوافع الغزو الأوربى للعالم الاسلامى ١

التمهيد الأول : عرض وجيز لتاريخ الاسلام فى غرب أفريقيا ٢

التمهيد الثاني : دوافع الغزو الأوربى للعالم الاسلامى ١٧

الباب الأول : الاستعمار فى نيجيريا والرحلات التجارية والاستكشافية والاحتلال البريطانى وآثاره :............ ٢٨

* الفصل الأول : دخول الاستعمار والرحلات التجارية والاستكشافية ٢٩
  • المبحث الأول : الرحلات التجارية ٣١
  • المبحث الثاني : الرحلات الاستكشافية.......... ٣٩
* الفصل الثاني : احتلال بريطانيا لنيجيريا وآثار غزوها الاستعمارى وويلات نظام حكمها ٤٤
  • المبحث الأول : احتلال بريطانيا لنيجيريا......... ٤٥
  • المبحث الثاني : آثار الغزو الأوربـى ٦٦
  • المبحث الثالث : ويلات نظام الحكم الاستعمارى فـى هذه البـلاد ٧٦

الباب الثانـى : التبشير المسيحى فى مختلف مناطق نيجيريا ووسائـل دعايته المختلفة وظهور الحركة القومية فى الكنيسة المسيحية ٨٣

* الفصل الأول : حركة الغزو الصليبى فى مختلف مناطق نيجيريا
  • المبحث الأول : التبشير فى جنوب نيجيريا ٨٤
  • المبحث الثاني : معركة الصليب مع الهلال فى المناطـق الشمالية ١٠٦



" تابع الفهـــرس "

الموضـــــوع	الصفحـة

* الفصل الثاني : وسائل المبشرين في نشر الدعاية التبشيرية ١٢٥

• المبحث الأول : التعليم الغربي ميدان فسيح للتبشيـــــر ونشر العلمانية اللادينية ١٣٠

• المبحث الثاني : ميدان التطبيب ٢٠٥

• المبحث الثالث : دور وسائل الإعلام في نشر الدعاية التبشيرية ٢١٨

• المبحث الرابع : وسائل أخرى ذات أهمية في الدعاية التبشيرية ٢٣٤

* الفصل الثالث : ظهور الحركة القومية في الكنيسة وامتدادها إلـى شئون الحكم والسياسة ٢٦٠

الباب الثالـث : آثار النفوذ الغربي على مختلف شئون الحياة فـــي هذه البلاد ٢٨٧

ـ المبحث الأول : التغيير السياســي ٢٩٢

ـ المبحث الثاني : التغيير الاجتماعي والحضاري ٣٠٨

ـ المبحث الثالث : التغيير الديني ٣١٥

ـ الخاتمـــة : الاستشراق نحو مستقبل زاهر ٣٢٩

ـ قائمة المـــراجـع ٣٤١

◊◊◊◊◊◊◊

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله الطيبين وصحابته الكرام أجمعين ، وبعد ..

فإن المتتبع لتاريخ علاقات الدول الغربية المسيحية مع العالم الخارجي يلاحظ أن الحروب الاستعمارية الصليبية التى كانت تجتاح البلاد الإسلامية منذ قرون طويلة كان دافعها الأول أحقاد دينية متأصلة فى أعماق قلوب الغربيين ، ومن وراء تلك الأحقاد الشديدة يكمن خوف رهيب من قوة الإسلام الهائلة .

إن للغرب الصليبى مواقف عدائية عنيفة تجاه الإسلام والمسلمين لم تتغير على مر العصور وتعاقب الأجيال ، ولا يمكن أن تتغير إلّا إذا حققوا مطامعهم ـ لاقدر الله ـ فى محو الإسلام من الوجود والقضاء على الأمة الاسلامية " ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ...الآية(1) " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ...الآية(2) ولقد حاولت دول أوربا تدمير الاسلام فى الحروب الصليبية الرهيبة ففشلت محاولاتها وجهودها فشلا ذريعا وردت جيوشها على أعقابها ، ثم أعادت الكرة علينا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ، التاسع عشر والعشرين الميلاديين وأعدت للحرب عدتها من جديد وداهمت حصوننا المنيعة بحملات عسكرية جرارة وبعثات تبشيرية وأفكار ومبادىء ونظم جديدة لا يختلف هدفها عن هدف الحملات الصليبية الأولى .. إن هدفها هو تحطيم الاسلام والقضاء على المسلمين ، ومنذ النصف الأول من

---

(1) سورة البقرة (٢١٧)

(2) سورة البقرة (١٢٠)

القرن التاسع عشر الميلادى اشتدت روح التنافس بين الدول الغربية تبعا لشدة أطماعها وجشعها فى الحصول على المواد الأولية والثروات الطبيعية الضخمة التى أودعها الله فى أرض أفريقيا الخضراء، وفتح الأسواق واستغلال الأيدى العاملة من أبناء شعوب المستعمرات، والاستيلاء على الطرق البرية والبحرية، واحتلال المراكز الاستراتيجية الهامة • وقد امتد سباق هذه الدول وتزاحمها الشديد فى طول البلدان الأفريقية وعرضها من أجل اقتسامها فيما بينها •

وشاء القدر أن تقع دولة نيجيريا فى نصيب الحكومة البريطانية الاستعمارية فواصلت غزواتها وحروبها الضارية غربا وشرقا وشمالا واستخدمت فيها الأسلحة الحديثة الفتاكة وهى تهدد وتتوعد وتضرب بقسوة فى سبيل تحقيق غاياتها الاستعمارية وأطماعها التوسعية وأهدافها الصليبية • وقد ظلت هذه البلاد تحت نيّر الاستعمار البريطانى فترة لاتقل عن قرن من الزمان منذ أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى حتى سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م التى نالت فيها الاستقلال • ولئن كان الاستعمار شرا مستطيرا ، فإن التبشير المسيحى أشد ضررا وأبلغ خطرا من الاستعمار لأنه هو طليعة جيوش الاحتلال الاستعمارى التى مكنت الاستعمار من النفوذ إلى مناطق كثيرة من هذه البلاد • وإن المبشرين والمستعمرين والتجار الأوربيين جميعا وإن اختلفت وظائفهم وتباينت أهدافهم وأطماعهم وتنوعت وسائلهم وخططهم يلتقون عند غاية قصوى واحدة هى تحطيم الاسلام، وكسر شوكة المسلمين واستعمار بلادهم والسيطرة على شئونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية •

إن القضية خطيرة للغاية إذ لاتزال الحملات الصليبية الحديثة تهدد كيان الأمة الاسلامية وتحاول ابتلاعها •

إن ألوف الأغرار من الناس حينما ينظرون إلى الحروب الاستعمارية الغربية بعيون

مجردة يعتقدون أن الدافع إليها مجرد أطماع توسعية وظروف اقتصادية قاسية أدت بأوربا فترة من الزمن إلى التطلع إلى خارج بلادها بحثا عن الثروات الطبيعية الضخمة التى حباها الله شعوب البلدان الأفريقية لتستغلها لصالحها الذاتية على كره من أهلها . كما أن هناك كثيرا من أبناء المسلمين اليوم وعلى الأخص تلك النخبات المثقفة التى ارتضعت لبان التعليم الغربى والثقافة الأوربية ينظرون إلى الحروب الاستعمارية الحديثة فى مختلف مناطق هذه البلاد على أنها حروب مجردة عن النزعات الدينية والأحقاد التى تغلى فى صدور الأوربيين الصليبيين . ولقد أسفر الصبح لذى العينين ووقفنا على مايكيده لنا أعداؤنا ولمسنا البراهين القاطعة التى كشفت لنا نوايا المستعمرين والمبشرين وعملاءهم المحليين ، وفضحت مؤامراتهم ومكايدهم ومخططاتهم ؛ وظهرت لنا جليا دوافع الغزو الاستعمارى الغربى على أنها أحقاد دينية متوغلة فى أعماق قلوب الغربيين تهدف إلى تحطيم الاسلام وتدمير قوة المسلمين ، وجانب ذلك أطماع دنيوية تتمثل فى سعى الغربيين الحثيث لتحقيق السيطرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وتظهر أهمية دراسة الغزو الاستعمارى الصليبى لهذه البلاد من حيث إنها تكشف النقاب عن وجوه المستعمرين المتسلطين والمبشرين، وتكشف كل الذرائع التى يتسترون وراءها للنيل من الإسلام والمسلمين فى هذه البلاد ، كما توقف المسلمين على معرفة ما يحاك ضدهم من المكايد وما يدبر لهم من المؤامرات، وما يتعرضون له من الأخطار، ليسارعوا إلى مجابهته ومقاومته، والدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم وقيمهم ومثلهم وحضارتهم .
" يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا " (١) . ... الآية .
" وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم " (٢) ... الآية ..

---

(١) سورة النساء (٧١)
(٢) سورة الأنفال (٦٠)

هذا ولم يحاول أحد قبلُ وضع كتاب أو إعداد رسالة أو بحث باللغة العربية في هذا الموضوع الخطير يستعرض فيه نشاط المبشرين وجهود الإرساليات التبشيرية في نشر المسيحية في نيجيريا ويوضح فيه مساعي رجال الاستعمار ومخططاتهم في سبيل السيطرة على شئون هذه البلاد .

وإن هناك بعض الكتاب الأوربيين وعددا قليلا من أبناء هذه البلاد المثقفين المسيحيين الذين تتلمذوا على الأوربيين وترعرعوا في أحضان المبشرين ، قد تولوا دراسة أعمال التبشير وأيام الاستعمار الغربي في هذه البلاد وقدموا فيها بحوثا ومؤلفات في اللغة الإنكليزية، وإن كانت دراساتهم وبحوثهم لاتتسم بالدقة والعمق، ولاتستوعب جميع جوانب الموضوع، ولاتتخلى عن الميول الشخصية سعيا وراء تحقيق أهداف معينة، مما جعلنا لانعتمد على كثير مما ورد في تلك البحوث والدراسات لأنهم كانوا ينظرون إلى الموضوع من زاوية معينة محدودة ومنظار خاص لا يتفق مع المنهج الذي وضعناه في دراسة هذا الموضوع والهدف الذي نسعى وراء تحقيقه . ولقد ركزوا تركيزا كبيرا على الجانب التاريخي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وجانب نشر المدنية والحضارة والديانة المسيحية من أعمال الاستعمار وجهود الإرساليات التبشيرية . وقد فسروا ذلك كله على النحو الذي يحقق لهم المزيد من الانتصار في معركتهم الضارية التي شنوها على شعوب المستعمرات وضربوا صفحا عن الجانب الأهم الذي هو أساس المشكلة وهو جانب الحقد الديني الذي دفعهم إلى أتون المعركة . فكلما مروا في كتاباتهم وبحوثهم بالصراع الديني الذي كان يجري على أشده مروا به مرور الكرام لأنهم يريدون أن تجري الأمور وتسير الخطط والناس عنها غافلون حتى لا ينتبهوا إلى الأخطار التي تهددهم فيعدوا العدة الكفيلة بمجابهتها والتغلب عليها .

ولما رأيت أنه لم يسبق إعداد رسالة أو وضع كتاب في هذا الموضوع باللغة العربية رأيت من الواجب عليّ أن أسد هذه الثغرة التي طالما بقيت نقصا وتقصيرا كبيرا من جانبنا

فى سبيل خدمة ديننا والمحافظة على كيان الأمة الاسلامية الذى بات مهددا بالخطر منذ أمد طويل . ولقد حاولت تتبع جميع جوانب هذا الموضوع، وقصصت آثار المبشرين ونشاطهم، وتلمست وسائلهم فى الدعاية التبشيرية، كما تقصيت أعمال المستعمرين ودرست خططهم وتلمست غاياتهم فى مختلف مناطق هذه البلاد ، ثم قدمت خلاصة ذلك كله فى هذه الصفحات . وأرجو أن ينفع الله بهذه الرسالة المسلمين ممن لا يعرفون اللغات الأجنبية أو لا تسمح لهم ظروف أعمالهم الخاصة بتتبع كل ما يكتبه الغربيون والأفارقة المسيحيون فى هذا الموضوع ، وأن ينفع الله بها أيضا الشبان المثقفين حتى يقفوا على رواسب الاستعمار والغزو الفكرى الغربى الذى لا يزال يجتاح أنحاء العالم الإسلامى بعد رحيل الاستعمار الرسمى عنه ، وكذلك الأخطار والمزالق التى تلقى فى طريق الشبان المسلمين بقصد اجترائهم مع تيارات هذا الغزو المخطط المقصود .

وليس قصدى فى هذه الرسالة أن أؤرخ للتبشير المسيحى كحركة دينية فى تطورها وامتدادها وأخبار مبشريها والنزاعات والمشاكل الداخلية القائمة بين الفرق المسيحية ، كما أننى لا أريد أن أتعرض للاستعمار كفكرة توسعية مجردة قامت فى الدول الأوربية وامتدت صولتها إلى مختلف بقاع العالم ، ولكننى سأحاول إبراز دوافع التبشير والاستعمار وتوضيح وسائل المستعمرين والمبشرين وخططاتهم وغاياتهم ، وآثار أعمالهم ومساعيهم على شئون حياة شعوب دولة نيجيريا من نواح مختلفة . ويجب على المسلمين فى بلادنا أن يكونوا فى غاية اليقظة والحذر، وأن يتنبهوا للوسائل التى عددناها فى ثنايا هذه الرسالة من نشاط الدعاية التبشيرية وانتشار التعليم الغربى اللادينى والثقافة والحضارة الغربية المادية ومجال التطبيب ووسائل الإعلام المختلفة ، والأعمال الاجتماعية وما إلى ذلك .

إنّ كلّ هذه إلّا سبل متشعبة تهدف إلى غاية قصوى هي تمكين النفوذ الأجنبي وانتشار مبادئه وأفكاره وقيمه ونظمه وحضارته المادية . وقد كان المستعمرون والمبشرون يقومون بأعمال كثيرة تبدو في ظاهرها أنها أعمال خير تهدف إلى سعادة هذه البلاد ، وقد كشفت الأيام عن الغايات التي يسعون وراءها .. إنهم يريدون أن ينفذوا من خلال هذه المظاهر إلى تحطيم الأديان ومحو الحضارات وخاصة الإسلام والحضارة الإسلامية ، حتى يستطيعوا أن ينفذوا من خلال ذلك إلى النيل من المسلمين وتقويض البناء الاسلامي من أساسه . وقد رأينا كيف استطاعوا أن يحدثوا في هذا البناء ثغرات متعددة وثقوبا كثيرة دخلوا علينا من خلالها ، فيجب علينا أن نقوم بجهد متواصل وعمل كبير لسد هذه الثغرات وتلك الثقوب قبل أن ينهار البناء كله من أساسه .

وسأتناول الكلام في هذه الرسالة عن مختلف مناطق هذه البلاد . ولكنني سأركز تركيزا كبيرا على المناطق الشمالية الإسلامية ، وعلى جماهير المسلمين في المناطق الغربية . ورغم أن الموضوع واسعة آفاقه ، مترامية أطرافه ، تستعصى الإحاطة بجميع جوانبه ويصعب استقصاء جميع مجالاته ، فقد بذلت أقصى المجهود في معالجته لأهميته ، ولمسيس حاجة المسلمين في الوقت الحاضر إلى أمثال هذه البحوث والدراسات التي تسلط الأضواء الكاشفة على كيد الأعداء وما يزرعونه في بلادهم من الألغام والمتفاعلات ليسارعوا إلى إبطال مفعولها قبل فوات الأوان وتفاقم الأخطار .

ولقد قسمت الرسالة إلى ثلاثة أبواب رئيسية ، تتضمن عدة فصول ومباحث ، وقدمت لها بتمهيدين استعرضت في أولهما نبذة تاريخية عن ماضي الإسلام في بلاد

السودان الغربى وأخبار الممالك الإسلامية التي قامت فيها فى أحقاب التاريخ الطويلة الماضية ، وما للإسلام فيها من أيام مشرقة وأمجاد تليدة على طول تاريخ هذه البلاد ، كما تتبعت فى ثانيهما دوافع الغزو الأوربى للعالم الاسلامى، وقصصت الأحداث التاريخية الهامة من الحروب الصليبية الرهيبة حتى الغزو الاستعمارى الحديث . وقد توصلت إلى حقيقة مهمة طالما حاولت الدول الغربية إخفاءها عنا : هى أن الدافع الأول للغزو الأوربى الحديث فى زحفه الاستعمارى وحملاته التبشيرية هو الحقد الصليبى الذى تتأجج ناره فى قلوب الغربيين الحانقين على الإسلام والحاقدين على المسلمين ، وأن الدوافع الأخرى من مطامع دنيوية سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وحضارية لم تكن إلا بواعث وجدت أثناء الطريق إلى الهدف الأكبر .

ويحتوى الباب الأول على فصلين ، تحدثت فى أولهما عن دخول الاستعمار إلى نيجيريا ، والرحلات التجارية والاستكشافية التى قامت بها الدول الاستعمارية الغربية إلى هذه البلاد تمهيدا لغزوها واحتلالها، وبالتالى التمكن من السيطرة على شئون البلاد واستغلال خيراتها . وأما الفصل الثانى فقد تناولت فيه الحديث عن احتلال بريطانيا لهذه البلاد وقبضها على زمام الحكم، وشرحت آثار غزوها الاستعمارى فى إحداث تحولات خطيرة فى شئون البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، وبينت ويلات الحكم الاستعمارى البريطانى فى هذه البلاد ، مما لاتزال البلاد تعانى آثاره رغم استقلالها عن السلطة الاستعمارية المباشرة،وانتقال السلطة إلى أيدى النخبات الوطنية التى رباها الاستعمار والتبشير .

وأما الباب الثانى فيحوى ثلاثة فصول ، تحدثت فى الفصل الأول منها عن حركة التبشير فى مختلف مناطق هذه البلاد ، وركزت كثيرا على المناطق الشمالية الإسلامية حيث دخل الصليب غمار حرب ضارية مع الهلال . ثم استعرضت فى الفصل الثانى وسائل

وخطط المبشرين في نشر الدعاية التبشيرية، وبسطت الكلام في ميدان التعليم نظرا لأهميته عند المستعمرين والمبشرين أنفسهم، وللدور الكبير الذي يلعبه في تثبيت أغلال الاستعمار في أيدي شعوب البلدان المستعمرة، وبذر بذور المبادئ المسيحية والأفكار الغربية اللادينية ومبادئ الحضارة المادية في نفوس الناس وخاصة الصغار . ثم تكلمت عن ميدان التطبيب، وبينت النشاط الكبير الذي تقوم به الإرساليات التبشيرية في هذا الميدان، وفي مجال الإعلام ووسائله المتعددة ، كما عرجت على ذكر مجالات أخرى ذات أهمية كبيرة في مجال التبشير والتغيير الاجتماعي .

وفي الفصل الثالث تحدثت عن الحركة القومية التي نبتت في الكنائس المسيحية نتيجة بعض الأوضاع والظروف المحيطة بها . وذكرت أن هذه الحركة وإن كانت في أساسها خطرا على مصالح الاستعمار والتبشير في هذه البلاد ، فقد تعمدت القوى الصليبية الاستعمارية نفخ روحها في نفوس شعوب المستعمرات وتعميق جذورها وتضخيمها لمنع قيام انبعاث روحي إسلامي كانت هذه القوى تعلم علم اليقين أنه هو الخطر الأكبر على كيانها ومصالحها وغاياتها . وقد استطاع الاستعمار أن يسوق المسلمين نحو الاتجاهات التي مهد لها كل التمهيد، فقبلوا السير على الطريق الذي أراد الاستعمار أن يسيروا عليه، ووضع من أجله خططا مدروسة حتى انجرفوا مع تيارات النعرات القومية، وتعلقوا بأهداب الشعوبية والإقليمية، وقاتلوا تحت لواء الحمية الجاهلية، ولم يعودوا يفكرون في رابطة العقيدة التي هي أساس التجمع والوحدة الحقيقية، وسمو وارتقاء الجنس البشري .

وفي الباب الثالث استعرضت آثار النفوذ الغربي على مختلف شئون الحياة في هذه البلاد . وقد قمت بدراسة التغييرات التي حدثت في شتى مجالات الحياة وأفردت كل مجال بحديث مفصل ودراسة مستوعبة . وقد تناولت الحديث عن مجال السياسة والشئون الاجتماعية والاقتصادية ومجال الحضارة والثقافة وأخيرا شرحت التغيير الذي

حدث فى مفهوم الدين فى نفوس الناس من حيث التصور والسلوك • ثم ختمت الرسالة بفصل مستقل فى الاستشراق نحو مستقبل زاهر للإسلام والمسلمين فى نيجيريا وهذه هى خلاصة الخطوات التى سلكتها فى البحث •

ولقد حرصت فى هذه الرسالة على وضع القارئ أمام وجهات نظر عديدة من مصادر أوربية ومحلية وعربية • ولم تكن الدراسة بالسهلة المعبدة ، لأنها دراسة متسعة بسبب تشعب مجالاتها، وترامى أطراف البلاد ، وطول أمد الاستعمار، وانتشار أعمال التبشير فى ربوع البلاد • وقد واجهت صعوبات كثيرة فى العثور على بعض المراجع والمصادر لأن الإرساليات كانت تعمل جاهدة لمنع طبعها ونشرها فى المجتمع • وقد حاولت الاطلاع على السجلات والتقارير الرسمية لبعض الإرساليات التبشيرية ولكننى منعت من الإطلاع على بعضها لما علم القائمون بشئون مكتبات الإرساليات بأننى مسلم رغم أننى لم أعرف نفسى لهم • وأذكر بوجه خاص مكتبة الإرسالية الكاثوليكية فى مدينة لاجوس العاصمة • وقد زاد فى الصعوبات التى واجهتنى أثناء العمل الميدانى أن معظم المراجع والمصادر التى تنصب عليها المباحث والمواضيع الواردة فى هذه الرسالة هى من مؤلفات الغربيين المشربين بالروح الاستعمارية التى تحكمت فى بلدان أفريقيا وسخرت شعوبها واستغلت قوى سواعدها وموارد رزقها لمصالحها الذاتية ولثراء شركاتها الاحتكارية • ولقد اتسمت بحوث الغربيين ومؤلفاتهم بخلتين بارزتين إحداهما الغرض الاستعمارى الذى مال بهم كل الميل وجعل بلدان أفريقيا فى أنظارهم بلادا متخلفة تعيش فى ظل الجمود والركود بحيث تمر من حولها مواكب الحضارة والمدنية ، وهى ذاهلة عنها لاتفقه شيئا مما يجرى حولها • والخلة الثانية هى تزيين العمل الاستعمارى وتزويقه وإحاطة أعمال التبشير بهالة من التقديس وترويج ادعاءات كثيرة فى شأن الاستعمار والتبشير ، ويراد من وراء ذلك كله تسميم أفكار

الطبقة المثقفة من شعوب هذه البلاد بوجه خاص ، وليحملوا الناس من خلال ذلك على الاعتقاد بأن أفريقيا لم تكن شيئا مذكورا قبل دخول الغزو الاستعماري الذى أدخل إليها الحياة النابضة بالحركة الموارة،ونشر فيها المدنية والحضارة .

إن هناك بعض أبناء هذه البلاد من المثقفين المسيحيين الذين درسوا على الأوربيين المستعمرين والمبشرين،قد بحثوا مشكلات هذه البلاد وكتبوا عن أعمال التبشير وأيام حكم الاستعمار فيها ، وقارنوا بين وضع البلاد الحالى من نواح مختلفة وبين ماكان عليه فى الماضى . ولكننا رأينا أن هؤلاء الناس قد ألقيت على أبصارهم غشاوة سميكة حتى لا يروا الحقيقة الماثلة أمامهم،بل راحوا ينظرون إلى الأمور بمنظار أساتذتهم الغربيين، فجاءت بحوثهم ودراساتهم لتحقق أهدافا وغايات مهد لها الاستعمار كل التمهيد ، كما أنها فى نفس الوقت تسير على الخطوات التى سارت عليها مؤلفات الغربيين وتقرر الترهات والأضاليل التى وردت فى كتابات الغربيين وبحوثهم فلا العليل تشفى ولا الغليل تروى . ولقد عانيت صعوبات كثيرة فى انتقاء الأخبار وتمحيص الروايات المتضاربة فى الوقائع والأحداث التاريخية ومعرفة الحقائق الكامنة وراءها . ولم أجد أحدا من بين هؤلاء الكتاب الأوربيين والأفارقة يمكن أن نقول إنه اتخذ فى دراسته موقفا متزنا غير متحيز. ولم يكن لى بد من الاطلاع على كتابات هؤلاء الناس ومؤلفاتهم والتزود بالمعلومات الواردة فيها ، إذ لا توجد مراجع أخرى فى الموضوع غيرها . ولقد وجدت نفسى فى صحراء واسعة لاصوى فيها ولامعالم واستعنت بالله العلى القدير أن يلهمنى الصواب ويعيننى على أمرى ويهيىء لى منه رشدا .

وهكذا بدأت أستقرىء الخطوط العريضة وأطرق كل باب يمكن أن ينفذ إلى الغاية المنشودة ، كما أخذت أتلمس قرائن الأحوال وأدرس الأوضاع المحيطة بالأحداث والنتائج المترتبة على الوقائع لاستخرج من ذلك كله مقدمات أثير من حولها تعليقات لأبنى عليها النتائج التى يمكن أن أتوصل إليها من خلال هذه الدراسة . وأرجو

أن أكون قد وفقت فى هذا الجهد المتواضع .

قد استطعت بفضل الله تعالى أن أضمن هذا البحث حقائق كثيرة كانت مخفية عن معظم المسلمين فى بلادنا . وأرجو أن أكون قد وفيت الموضوع حقه واستوعبت جميع جوانبه لإظهار حقيقة قائمة يجب أن يتنبه لها المسلمون وألا تغيب عن أذهانهم لحظة واحدة ، وهى أن الاستعمار الغربى فى زحفه العسكرى وغزوه الفكرى وحملاته التبشيرية يصدر عن أحقاد دينية وأطماع دنيوية غاياتها استعباد شعوب البلدان المستعمرة واستغلال خيراتها ومحو عقائدها وقيمها ومثلها وحضارتها وإفساد أخلاقها وسوقها ذليلة وراء مطامعها أزمانا طويلة لاتنقطع ولا تنتهى . وأن على المسلمين أن يكونوا فى غاية اليقظة والحذر من أخطار التيارات المتدفقة من الدول الغربية إلى بلادهم ، وأن يكونوا على بصيرة من أمرهم ، وينظروا بعين فاحصة إلى واقعهم ليعرفوا مدى مطابقة واقع حياتهم لمبادئ دينهم الحنيف وتعاليمه القيمة،أو يعرفوا من الجانب المقابل مدى انحرافهم عن الخط المستقيم وبعدهم عن حقيقة دينهم ، ليسارعوا إلى العودة إلى حقيقة الدين،ويطبقوا جميع تعاليمه ومبادئه على شئون حياتهم ويقيموا أساس/بناء مجتمعهم على دعائم ثابتة لاتزعزعها العواصف العاتية ولا تهدمها التيارات الجارفة ، ويقوموا بتصفية جميع رواسب الاستعمار وآثار غزوه الفكري التى انتشرت فى أنحاء البلاد وسيطرت على واقع حياتهم حتى يكونوا كما وصفهم الله تعالى فى كتابه العزيز " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .... (١) الآية " وليتحقق فيهم وعد الله لعباده المؤمنين " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ... الآية " (٢) .

---

(١) سورة آل عمران (١١٠)
(٢) سورة النور (٥٥)

وإن من حق العلم عليّ أن أرفع آيات الشكر وكلمات الثناء والتقدير إلى سعادة الأستاذ محمد قطب الذى تفضل بالإشراف على هذه الرسالة . ولقد أعطانى من أوقاته الغالية وزودنى بأفكاره النيّرة وتوجيهاته وإرشاداته القيمة ما أنا عاجز عن شكره له كما ينبغى . ولا يمكن أن أنسى بعض الفترات الصعبة التى مررت بها أثناء كتابة هذا البحث فتفضل سعادته بتقديم توجيهات قيمة كانت بمثابة فتح كبير مكننى بفضل الله وتوفيقه من التغلب على ما واجهنى من مشكلات ومشقات فالله وحده هو القادر على أن يجزيه عنى كل الخير ، وأسأله جل وعلا أن يمد فى عمره ويهبه الصحة والعافية ويحقق من الخير على يديه فيما يأتى من الأيام أكثر مما حقق على يديه فيما مضى من عمره حتى يلقى الله وهو عنه راض .

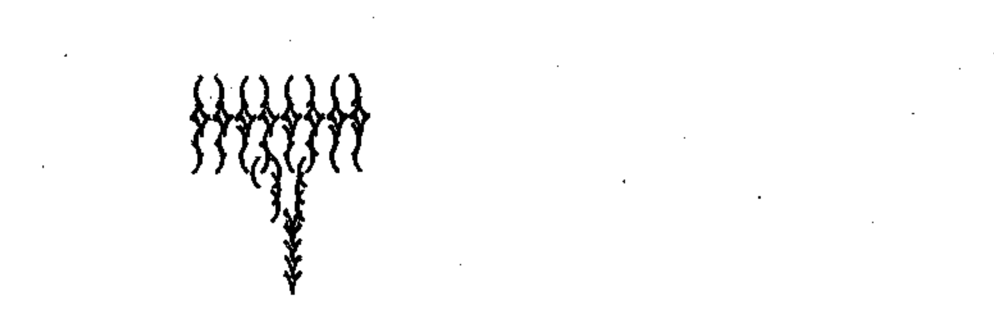
ولا يفوتنى أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى فضيلة الشيخ محمد على الحركان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى الذى تفضل مشكورا بإعطائى المنحة الدراسية طيلة فترة دراستى بجامعة الملك عبد العزيز شطر مكة المكرمة ، جعل الله مساعى الرابطة مشكورة وكلل جميع أعمالها بمزيد من النجاح والتوفيق .

كما أننى أشكر جامعة الملك عبد العزيز شطر مكة المكرمة على ما أتاحته لى من فرصة ثمينة للدراسة فيها وما وفرته لى من وسائل وإمكانات حتى تمكنت من أن أنهل من مناهل العلم والمعرفة التى توفرها لأبناء المسلمين الوافدين عليها من شتى بقاع العالم . فجزى الله القائمين بأعمالها خير الجزاء .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به عباده المؤمنين ويأخذ بأيدى المسلمين إلى مافيه تمكين دينهم الذى ارتضى لهم وإلى مافيه قوام حياتهم وصلاح دنياهم وآخرتهم . إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

خضر مصطفى النيجيرى
مكة المكرمة



لمحة تاريخية عن ماضي الاسلام في بلاد السودان الغربي ودوافع الغزو الأوربي للعالم الاسلامي

التمهيد الاول : عرض وجيز لتاريخ الاسلام في غرب إفريقيا .

التمهيد الثاني : دوافع الغزو الأوربي للعالم الاسلامي .

التمهيد الأول

عرض وجيز لتاريخ الاسلام في غرب أفريقيا

إن لنيجيريا أياما مشرقة على جبين التاريخ في مضمار الحضارة والمدنية العريقة بلغت أوج العظمة والمجد وامتدت إلى أكثر من ألفي عام ، وكان للاسلام فيها تاريخ مجيد عبر القرون الغابرة والأجيال المتعاقبة إلا أن هذه البلاد لم تنصهر في بوتقة هذا الاسم الذي يعرف به اليوم ، ولم تتحد القبائل المتناثرة التي تشكل دولة نيجيريا اليوم تحت حكومة واحدة قبل الاحتلال الأوربي الغاشم ، وإنما عرفت في جملة النواحي التي يسميها العرب بالسودان الغربي أو بلاد التكرور — وهي التي نطلق عليها اليوم غرب أفريقيا .

فالحديث عن ماضي الاسلام في نيجيريا يفضي بنا بطبيعة الحال إلى استعراض تاريخ الاسلام في غرب أفريقيا كله .

يرجع تاريخ دخول الاسلام إلى السودان الغربي إلى أواخر القرن الأول الهجري الذي تم فيه فتح شمال أفريقيا ، وجزء كبير من غربها على يد القائد العظيم — فاتح أفريقيا — عقبة بن نافع الفهري .

يقول الشيخ عبد الله بن فودي : "إن دخول الاسلام إلى الغرب — غرب أفريقيا — كان بالقرن الأول الهجري على يد عقبة بن نافع الصحابي الجليل ، إذ إنه وصل إلى قبيلة من قبائل الروم فدعاهم إلى الاسلام فأسلم ملكهم من غير قتال وتزوج عقبة بنت ذلك الملك واسمها بج منغ فولدت له أولادا نشأوا في بلاد أمهم وتكلموا بلغة أبيهم"(١) .

ويذكر أن دخول الاسلام للمرة الأولى إلى غرب أفريقيا كان عن طريق دول البرابرة الأفارقة في شمال أفريقيا وقبائل الملثمين في مناطق البحر الأبيض المتوسط الذين اعتنقوا الاسلام منذ القرنين الأول والثاني الهجريين السابع والثامن الميلاديين والذين هاجروا إلى وسط دولة موريتانيا وسيطروا على مراكز السلطة في مدينة أداغوست في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي وكذلك عن طريق التجار المسلمين من شمال أفريقيا .

---

(١) من كتاب الاسلام في نيجيريا — للأستاذ آدم عبد الله الإلوري ص ١٧ (عن كتاب تزيين الورقات للشيخ عبد الله بن فودي) .

ولو تصفحنا بطون كتب التاريخ التي كتبت عن الفتوحات الاسلامية الجبارة في أفريقيا واستنطقنا السطور المشرقة التي سجلت تاريخ امتداد الاسلام فيها لرأينا الشيء الكثير من الانتصارات الباهرة التي حققها ذلك الصحابي الجليل القائد العظيم ــ عقبة بن نافع الفهري والي عبد العزيز بن مروان على شمال أفريقيا .

كان عقبة يواصل فتوحاته التي بدأت منذ خلافة عمر بن الخطاب نحو الغرب حتى وصل بلاد السوس ، وأخذ يقطع الأراضي الفيحاء غازيا ومجاهدا في سبيل الله إلى أن انتهى الى البحر المحيط ، وقال قولته الشهيرة الخالدة رمز الشجاعة وعنوان العزة : " اللهم يارب لو أني أعلم أن وراء هذا البحر برا لمضيت مجاهدا في سبيلك " ثم سار نحو الجنوب في بلاد السودان ودخل بلاد غانة وتكرور ، وأسلم على يديه عدد من أهلها .

ويؤيد الاستاذ آدم عبد الله الالوري ماقاله الشيخ عبد الله بن فودي عن عقبة بن نافع فيقول : " ليس هناك ما يمنع عقبة من السير صوب الجنوب في بلاد السودان كما منعه البحر عن السير صوب الغرب . ولذلك يحتمل أن يجتمع بقبيلة من بقايا الروم ، وأن يسلموا على يديه وأن يتزوج منهم بنتهم وأن يخلف فيهم أولادا تنشأ منهم القبيلة الفلانية التي إشتهرت بالعلم والدين وحماية الإسلام واقامة دولتهم على أعقاب الأجيال المتعاقبة في غرب إفريقيا . (١)

ومهما يكن الامر فقد ثبت وجود الاسلام في غرب أفريقيا في أواخر القرن الأول الهجري سواء كان ذلك عبر فتوحات عقبة بن نافع الممتدة على طول شمال افريقيا الى البحر المحيط ــ كما تقول رواية الشيخ عبد الله بن فودي ــ أو عن طريق قبائل الملثمين في مناطق البحر الابيض المتوسط الذين اشتهروا بالهجرة والتنقل أو كان عن طريق برابرة شمال افريقيا والتجار منهم بوجه خاص ــ الذين كانوا يزاولون أعمالهم التجارية مع أهالي السودان الغربي منذ القرون الطويلة .

(١) كتاب الاسلام في نيجيريا للاستاذ آدم عبد الله الالوري ص١٨ .

ومن تلك النقطة من تاريخ الاسلام الطويل في هذه البلاد بدأ امتداد الاسلام في بلاد السودان الغربي، وكان محدودا في بداية الامر، ثم أخذ في الاتساع والانتشار حتى استطاع اهل بلاد السودان الغربي أن يقيموا حكومات اسلامية على أنقاض الممالك الوثنية .

وقد سجل التاريخ للتجار المسلمين والعلماء العاملين مواقف مشرفة وأعمالا جليلة في سبيل الدعوة الاسلامية لا تزال ذكرياتها باقية الى يومنا هذا .

قامت ممالك اسلامية عديدة في غرب افريقيا وكان لها تقاليدها العريقة وثقافتها المتوارثة وأمجادها التليدة الا أن معلوماتنا عن تاريخها قبل دخول الاسلام اليها قليلة جدا فيما عدا مملكة غانة التي يمتد تاريخها المعروف قرونا قبل بزوغ فجر الاسلام .

مملكة غانة أقدم ممالك غرب افريقيا

نشأت مملكة غانة منذ القرن الثاني الميلادي ، وكانت قبائلها التي تقيم على حافة الصحراء تشتغل بالتجارة والرعي ، وقد وضعت لنفسها أسسا اجتماعية وسياسية وعسكرية تناسب زمانها على ضوء ديانتها الوثنية . ثم تأثرت بالزحف الاسلامي الذي اجتاح شمال افريقيا منذ القرن الاول الهجري ، ودخلها الاسلام منذ ذلك الوقت فأخذت الاوضاع الاجتماعية والسياسية والعمرانية تتحسن شيئا فشيئا بفضل انتشار الاسلام والحضارة الاسلامية لكن ذلك كان في نطاق ضيق ومحدود .

بلغت هذه المملكة أوج مجدها وقوتها في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وازدهرت فيها الحياة وتدفقت موارد البلاد وكانت تجارة الذهب تلعب دورا هاما في مجالاتها الاقتصادية وكانت القوافل التجارية تقوم متجهة صوب شمال افريقيا محملة بالذهب والجلود والعاج والطنبول [1] والمطاط والعسل والقطن .

---

(١) نوع من الفاكهة لا يوجد الا في هذه المنطقة .

وانتشرت المراكز التجارية فى أنحاء البلاد ووفد اليها التجار المسلمون من شمال افريقيا واستقروا بها يزاولون شئونهم التجارية .

وصف الرحالة العربى المشهور البكرى عاصمة مملكة غانة بوصف دقيق فى القرن الرابع الهجرى وفى ذلك يقول البكرى : " ومدينة غانة مدينتان سهليتان ، احداهما المدينة التى يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا ، احدهما يجمعون فيه (اى يقيمون فيه صلاة الجمعة) ولها الائمة والمؤذنون ،وفيها فقهاء ، وحملة علم ، وحواليها آبار عذبة ،ومنها يشربون وعليها يعتملون الخضروات. . . ومدينة الملك على ستة اميال من هذه وتسمى بالغابة ، والمساكن بينهما مفصلة ، ومبانيهم من الحجارة وخشب السنط ، وللملك قصر وقباب ، وقد احاط بذلك كله حائط كالسور. فى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين ، على مقربة من مجلس حكم الملك " (١)

كانت الاسرة الملكية الحاكمة ومعظم اهالى مملكة غانة يدينون بالوثنية وعبادة الاصنام قبل قيام جهاد المرابطين فى اواخر القرن الخامس الهجرى. وقد انكسرت شوكة مملكة غانة الوثنية سنة ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) حين هاجمتها جيوش البرابرة المرابطين بقيادة الامير القائد ابى بكر بن عمر وكان اختفاؤها نهائيا عن وجه التاريخ عندما احتلها " سند هاتاكيتا "(SUNDIATA KEITA) ملك مملكة مالى وذلك فى القرن السابع الهجرى " الثالث عشر الميلادى " .

دولة المرابطين الاسلامية

قامت دولة المرابطين الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى وتولى تأسيسها قائدان عظيمان هما : عبد الله ياسين وابو بكر بن عمر اللمتونى . وكان القائد عبد الله بن ياسين هذا من تلاميذ شيخ علماء السوس ابى محمد اللمطى ، استقدمه الملك يحيى احد ملوك الطوارق من مدينة القيروان فى طريق عودته من الحج وعهد اليه بمهمة الدعوة الى الاسلام ، وقد اسلم على يديه عدد قليل من القبائل البرابرة ، ولم تمض فترة طويلة حتى شعر الوثنيون بقوة الاسلام الهائلة التى تهدد كيان ديانتهم الوثنية البالية ، وقد تضايقوا كثيرا من سرعة

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب لابى عبيد الله بن عبد العزيز البكرى ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

انتشار الاسلام وأخذوا يضعون العراقيل والعوائق في طريق نجاح دعوة ابن ياسين ، حتى وصل بهم الامر الى احراق داره ثم اخراجه أخيرا من بلدهم . وبسبب هذه الظروف القاسية التي تعرضت لها دعوته استعصى عليه احراز أي نجاح في صفوف هذه القبائل الزنجية الوثنية فانحاز الى بحيرة في جنوب الصحراء وتبعه عدد قليل من تلاميذه وبنى في حوض السنغال رباطا ومسجدا ومعسكرا لتدريب الجيوش ، ثم كون من تلاميذه جماعة سماهم المرابطين كانت مهمتهم الاولى اخراج الوثنيين من ظلمات الكفر الى نور الاسلام.

وبما أن مملكة غانة كانت دولة وثنية فقد انطلقت جيوش المرابطين لفتحها ، وكانت تحول دون تقدم جيوش المرابطين صوب الجنوب ، فاضطروا الى التقدم نحو الشمال وفتحوا المغرب .

وقد قتل عبدالله بن ياسين اثناء المعركة وأخذ القائد يوسف بن تاشفين يواصل خطوط الجهاد الذى بدأه عبدالله بن ياسين فانتصر على مسيحى بلاد أسبانيا وأقام دعائم دولته في بلاد المغرب . وتقدم القائد أبو بكر صوب الجنوب الغربي من بلاد السودان الغربي وزحف على مملكة غانة وسيطر عليها وعلى القبائل الصحراوية الفوضوية ، وبذلك هيأ الله له فرصة تأسيس دولته العظيمة التي تصدت في تلك العصور الغابرة للقضاء على ممالك الزنوج الوثنية ورفعت لواء الاسلام خفاقة في سماء تلك البلاد ، واعتنقت قبائل سوننكى Soninke) الغانية الاسلام، وقدمت خدمات جليله في سبيل نشره ، وقد أدى سقوط مملكة غانة الى انتصار سياسى كبير للاسلام في بلاد السودان حيث أصبح الاسلام دولة قوية على أنقاض المملكة الوثنية وعاش الناس في ظلها آمنين مستقرين وانتشر الاسلام انتشارا كبيرا شمل جميع الجهات المحصورة في شمال غانة ، وشمال السنغال وشمال نيجيريا وشمال داهومى . وقد سقطت دولة المرابطين في بلاد السودان على اثر وفاة الامير ابى بكر بن عمر سنه ٤٨٠هـ ١٠٨٧م وبقيت في المغرب والاندلس فترة طويلة من الزمن .

مملكة مالــي الإسلاميـة

قامت مملكة مالي الإسلامية في أعقاب فترة تدهور وانحطاط مملكة غانة وذلك في عهـــد الملك عثمان غورو في أوائل القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، وتعد هـــذه المملكة أعظم ممالك السودان الاسلاميه . وقد مارست نشاطات واسعة النطاق في شتى ميادين الحياة في الاقتصاد والسياسة والصناعة والعمران . وأقام ملوكها المجاهدون وعلماؤهـــا العاملون وتجار المسلمين صرح مجد الاسلام في بلاد السودان الغربي .

وقد بلغت مملكة مالي ذروة قوتها وثرائها في عهد منسى موسى ٧٠٧هـ — ٧٣٢هـ (١٣٠٧م — ١٣٣٢م) الذي استطاعت جيوشه ان توسع رقعة مملكته حتى امتدت من بلاد التكرور غربـــا إلى مدن قبائل دندى شرقا ومن مدينة ولاته (Walata) في الصحراء إلى المرتفعات فوتاجالـون (Futa Jallon) جنوبـــا . (١)

وقد رفع منسى موسى رأية الاسلام في بلاد السودان حيث جعله دينا رسميا للدولة وطبـــق جميع تعاليمه في شئون الحياة وأمر ببناء المساجد والمدارس وعين القضاة وأوجب اجراء الاحكـــام وفق الشريعة الاسلامية وجعل عيد الفطر عيدا رسميا للدولة ثم بعث الدعاة الى الآفاق لنشـــر الاسلام بين القبائل الوثنيـــة .

(ومنذ ذلك الحين أصبح على الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ان تأخذ الطابع الاسلامـــي الكامل في بناء دولتها والسير على نهج الدول الاسلامية في شرق أفريقيا)(٢) .

كان ملوك مالي يحجون بيت الله الحرام كل عام ولكن زيارة منسى موسى للأراضي المقدســة كان لها دوي كبير في مصر وجميع بلاد العرب ، (فقد كانت حاشيته تضم نحو ستين ألف شخص ، وفي القافله اكثر من ثمانين جملا محملة بالذهب وكان يتقدم فرس منسى موسى خمسمائة عبـــد كل واحد منهم يحمل قضيبا من الذهب)(٢) وقد استقدم في طريق عودته من الحج مهندســـا معماريا هو ابو اسحاق الساحلي أو الساهلي من أهل غرناطة ببلاد الأندلس واليه يرجع الفضـــل

(1) E.O. Babalola,
The Advent and Growth of Islam in West Africa, Ibadan, 1976; Pg. 9
(2) S.J.Hogben,
An Introduction to the History of the Islamic States of Northern Nigeria, London, 1967; P.27

في ادخال فن البناء بالسقف المستوي والآجرة المحمية إلى السودان الغربي ، وقد أقام منسى موسى علاقات دبلوماسية قوية مع حكام شمال افريقيا ، وكان يفد الى مملكته عدد كبير من مشاهير علماء بلاد العرب والتجار المسلمين ، وكان منسى موسى يبعث الطلاب الى مراكش لتلقي العلوم الاسلامية .

وقد اشتهرت مملكة مالي بالقوة والثروة الضخمة لم يكن فقط في العالم الاسلامي وإنما كذلك ذاع صيتها في أوربا ، وقد نشرت خريطة عالمية في اوروبا سنه ٧٧٧هـ ١٣٧٥م وكانت تحتوي صورة ملك جالس على عرش عظيم لابسا التاج ، كتبت تحتها هذه الكلمات :" هذا الملك الزنجي يسمى موسى مالي ملك الزنوج في غينيا، وفي بلاده ذهب كثير ولقد كان أغنى وأشجع ملك في العالم على الاطلاق "(١)

وقد زار ابن بطوطة مملكة مالي في عهد منسى سليمان سنه ٧٥٣هـ ١٣٥٢م ووجدها دولة اسلامية كاملة ومن جملة ما أثار اعجابه وتقديره ما لاحظه من الاذعان والخضوع لتعاليم الاسلام والاحترام الكامل للنظام حتى أصبحت السرقة شيئا لا وجود له على الاطلاق ، ثم ذكر بالرضا والارتياح ان الاولاد في مالي يضربون اذا تركوا الصلاة ويوضعون في القيود اذا تهاونوا في حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب.

وكان من الآثار الملموسة التي نتجت عن الدعوة الاسلامية التي حمل لواءها ملوك وعلماء مملكة مالي ان إنتشر الاسلام في بلاد السودان الغربي انتشارا لا مثيل له في القرون الغابرة فقبيلة يوربا في غرب نيجيريا مثلا لم تعرف الاسلام الا عن طريق تجار مالي المسلمين ،ولا يزالون يسمون الاسلام الى اليوم بدين مالي . وقد غابت مملكة مالي عن مسرح التاريخ في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي .

مملكة صنغي الاسلامية

قامت مملكة صنغي الاسلامية بناحية بلاد الداهومي وشملت فولتا العليا وبعض بلاد شمال نيجيريا . وقد استطاعت مملكة مالي ان تدرجها تحت سيطرتها ردحا من الزمن الى ان ظهر على مسرح التاريخ بطل صنغي العظيم سني علي الذي فصلها عن مملكة مالي وجعلها دولة

---

(1) S.J. Hogben, op. cit., P. 27

مستقلة ذات سيادة سياسية واقتصادية وذلك في منتصف القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ويعتبر القرن العاشر الهجري عصرا ذهبيا للاسلام في بلاد السودان الغربي وكان ابتداء ذلك العصر الذهبي عند تسلم اسكيا محمد بن ابي بكر التوري سلطة البلاد من أسرة بديها (ﺩ،ﺃ) الحاكمة سنة ٩١٩هـ ١٥١٣م وبدأ جهاده الكبير لتوطيد دعائم الحكومة الاسلامية الرشيدة في البلاد وقد أحدث أسكيا محمد في عهده الزاهر إحياء دينيا شاملا في بلاد السودان وكان يشدد على رعاياه في التمسك بتعاليم الاسلام في جميع شئون حياتهم.

«وقد حمل قومه على تطبيق شريعة الاسلام في حجاب المرأة ولبس النساء المباءة خارج بيوتهن»(1)

وكان يشجع تقدم التعليم الاسلامي ونشر اللغة العربية والثقافة الاسلامية في أنحاء البلاد وكان العلماء يشكلون العناصر الأساسية في الإدارات الحكومية المختلفة وقد أعطتهم قدرتهم على القراءة والكتابة وخبراتهم الواسعة في القوانين والأنظمة مركزا ممتازا في المجتمع. وقد امتدت خطوط الجهاد الكبير الذي قام به أسكيا محمد إلى جميع أقاليم غانة القديمة وبعض بلاد مالي وشمال نيجيريا. وعندما حج أسكيا محمد بيت الله الحرام سنة ٩٠٣هـ ١٤٩٧م أخذ معه ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب وزع جزءا كبيرا منها صدقة في الاراضي المقدسة ، واشترى فندقا كبيرا في القاهرة وفدان أرض في المدينة المنورة لاستعمال حجاج بلاد السودان الغربي .

ولا يفوتني ان اذكر دور أسكيا داود الكبير في خدمة الاسلام ، وتشجيع العلوم الاسلامية واللغة العربية وهو بصفته عالما كان يشجع تقدم وازدهار المكتبات الاسلامية في البلاد وقد استخدم النساخ لنقل المخطوطات المهمة في العلوم الاسلامية واللغة العربية . وقد استمرت سلطة مملكة صنغي الاسلامية قائمة حتى أوائل القرن الحادي عشر الهجري (تسعينات القرن السادس عشر الميلادي) في عهد أسكيا اسحاق الثاني الذي سقطت فيه تحت هجوم

---

(1) E.O. Babalola, op. cit., P. 10

سلطان مراكش مولاى أحمد المنصور الذهبى .

مملكة برنو وكانـــم

كانت مملكة برنو وكانم منذ القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى حول بحيرة تشاد عندما استقر فيها بعض القبائل البرابرة وسيطروا على أهاليها الاصليين ، وقد عرف ملوكها الاســلام للمرة الاولى فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ويعتبر الملك أومى أوهومـــى (Umme / Hume) وهو الثانى عشر من ملوكها أول من أسلم من ملوك مملكة برنو .

وكانت هذه المملكة ترتبط ارتباطا وثيقا مع مصر والمغرب وغيرهما من الدول الاسلامية وكانت مدن مملكة برنو وكانم الواقعة فى شمال نيجيريا أول بقعة دخل فيها الاسلام من جملة المناطق الواسعة التى تسمى اليوم بنيجيريا .

وقد أخذ الاسلام فى التوغل داخل مناطق دولة كانم منذ القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، واكتسح المناطق القريبة والنائية اكتساحا كبيرا . وفى عهد الملك سليمـــان أصبح الاسلام دينا رسميا للدولة ، واعتمدت الحكومة التعاليم الفقهية للامام مالك كأسس متبعة فى القضاء .

وقد كانت مجموعة يسيرة من المسلمين تتمتع بنصيب وافر من التعليم الاسلامى والثقافـــة الاسلامية واللغة العربيـــة ، وقد أدى ذلك الى فكرة إنشاء الشئون الإدارية فى أجهزة الدولـــة وتتقدم المعاملات التجارية والعلاقات الدبلوماسية مع شمال افريقيـــا .

وقد نزع الملك السلطة من أيدى الاقطاعيين وأبعد الحكام المحليين عن مزاولة الحكـــم وعين القضاة ليحكموا طبق الشريعة الاسلامية [1]

وقد اشتهر استعمال لقب الخليفة (للملك) فى عهد على عاجى ٧٥٠هـ — ٧٨٧هجـــرى (١٣٤٩ — ١٣٨٥م) وبلغت مملكة برنو وكانم ذروة قوتها فى القرن الحادى عشر الهجـــرى السادس عشر الميلادى .

---

(1) E.O. Babalola, op, cit, P. 20-21

وفي عهد الملك ادريس ألوما في ذلك القرن بوجه خاص وقد قام الملك ادريس ألوما ٩٧٩هـ — ١٠١٢هـ (١٥٧١ — ١٦٠٣م) بجهاد اسلامي كبير في بلاد السودان وأحرز انتصارات باهرة ، اتسعت بسببها رقعة مملكته اتساعا كبيرا ، وكان أول ملك سوداني يستورد الأسلحة النارية من شمال افريقيا . وقد استقدم جيوش الأتراك إلى مملكته لتدريب جيوشه على استعمال تلك الأسلحة . وأنشأ أسطولا بحريا لنقل جيوشه عبر البحار والمحيطات وقد جند كل طاقاته لنشر الاسلام في بلاده ، وبذل في هذا السبيل كل غال ورخيص حتى استطاع ان يجدد قوة الاسلام في بلاد السودان الغربي
ومن جملة ما كان يوصي به جيوشه المحافظة على الصلوات في أوقاتها حتى في أحرج المواقف في ساحة المعركة مع الاعداء .

وقد بقيت هذه المملكة جبلا شامخا فترة من الوقت غير قصيرة ثم اخذ يصيبها الانحلال التدريجي حتى قامت الحركة الاصلاحية التي حمل لواءها الشيخ عثمان بن فودي حيث هاجمتها جيوش ابن فودي سنه ١٢٢٣هـ ١٨٠٨م . وفي هذا الوقت ظهر الشيخ محمد الامين الكانمي على مسرح التاريخ فجأة واسترد مدن برنو المحتلة ، واستطاع ان يوقف غارات جيوش ابن فودي فترة من الزمن ، ثم أعاد بناء حكومته إلا أنها سقطت ثانية في عهد ولده الشيخ عمر تحت هجوم جيوش سليمان بن الزبير باشا — حاكم بحر الغزال من قبل مصر سنة ١٣١٠هـ ١٨٩٢م . وقد تصدت فرنسا لجيوش الباشا وألحقت بها هزيمة نكراء ، هذا وقد دخلت برنو تحت حماية الانكليز سنة ١٣١٨ هجرية ١٩٠٠ ميلادية .

الاسلام فى أفريقيا الغربية فى القرنين
الثانى عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين

كان القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى عصرا ذهبيا للاسلام فى بلاد السودان الغربى كما ذكرت سابقا ، ومنذ سقوط مملكة صنغى فى تسعينات هذا العصر الذهبى انحطت سلطة الاسلام السياسية ، وضعف نفوذه القيادى وتحولت السلطة القيادية فى البلاد إلى أيدى الحكام الوثنيين والحكام المتسميين باسم الاسلام كما هو الحال فى دول بلاد هوسا فى شمال نيجيريا .

وقبل سقوط مملكة صنغى كان المسلمون يكونون طبقة المثقفين الممتازين فى المجتمع وكانت الدولة فى حاجة ماسة الى خدماتهم الجليلة وخبراتهم الفائقة فى الشئون الادارية والتجارية ومجال الاتصالات الدبلوماسية وشئون القضاء، وكان الاسلام بطبيعة الحال دينا رسميا للدولة . وما إن سقطت مملكة صنغى حتى تغير هذا الوضع رأسا على عقب وسار الأمر إلى أيدى الحكام الوثنيين الذين كانوا منذ قرون طويلة يرتقبون الفرصة للاطاحة بالحكم الاسلامى فى البلاد .

وقد قطعت ألسنة العلماء المسلمين عن الخوض فى شئون الدولة والمجتمع وأى تدخل من جانبهم فى شئون الدولة كان يعتبر حركة ثورية يجب قمعها ومقاومتها . وقد اتاحت المظالم السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية المتراكمة خلال القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى الظروف المناسبة والفرص المواتية لظهور حركات التجديد والاحياء الاسلامى التى قامت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين فى أماكن مختلفة من بلاد السودان الغربى . ولعبت القبائل الفلانية المسلمة أدوارا هامة فى الاحياء الاسلامى الذى قام للقضاء على سلطة الوثنيين فى بلاد السودان ، وتأسيس حكومات ذات طابع دينى تحكم بالشريعة الاسلامية فيها .

بدأت حركة الاحياء الاسلامي الأولى في فوتا جالون من المجاهدين الفولانيين عند ما قام الشيخ إبراهيم موسى بجهاده الكبير ضد أهالي الدول المجاورة الوثنيين سنة ١١٣٨ هـ ١٧٢٥م . وكان الشيخ إبراهيم هذا من أسرة مسلمة كرست حياتها لنصرة الاسلام ونشر العلوم الاسلامية في فوتا جالون ، فأنشأوا مدارس قرآنية وأسسوا جماعة للدعوة إلى الاسلام في مناطقهم . وقد أعلن الشيخ إبراهيم الجهاد ضد الوثنيين وقاد جماعته الى انتصارات باهرة مكنته من إقامة دولته الاسلامية في مناطق فوتا جالون وامتدت هذه الحركة الى فوتا تورو على أيدي هؤلاء القبائل الفولانية المسلمة حيث سار الشيخ سليمان بال على نهج جهاد الشيخ ابراهيم موسى وقام بجهاده الكبير لتجديد قوة الاسلام في بلاد السودان الغربي .

وقد استطاع ان يؤسس دولة إسلامية في البلاد قبل وفاته سنة ١١٩٠هـ ٧٧٦ م.ثم تسلم زمام السلطة بعده الشيخ عبد القادر الذي سيطر علي القبائل الوثنية في مناطق مختلفة من البلاد ، وإن كانت دولته ظلت تعاني من المشاكل الداخلية حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجري ونهاية القرن الثامن عشر الميلادي .

إن حركة الاحياء الاسلامي التي قامت في هذه الفترة قد غيرت مجرى التاريخ المتكدر الذى ابتدأ منذ مستهل القرن السابع عشر الميلادى ، وأعادت للاسلام مجده وقوته وتعتبر هذه الحركة بالذات مقدمة لسلسة الحركات الاصلاحية التي قامت في القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى في شمال نيجيريا " ودولة سيفو وفي مملكة التكرور في فوتا تورو وفي مملكة برنو .

كانت دويلات بلاد هوسا متفككة الأجزاء ومتنازعة متناحرة قبل جهاد الشيخ عثمان بن فودى وكان معظم أهاليها ممعنين في الكفر وكان حكامها متهاونين في أمور الدين غير مستعدين لتطبيق التعاليم الاسلامية في جميع شئونهم السياسية وحياتهم الاجتماعية ، وكانوا ما يزالون يحتفظون ببعض معتقداتهم الوثنية القديمة وعاداتهم الجاهلية البالية والبدع الشنيعة المنكرة وفي هذه الفترة قام جهاد ذلك المجدد الكبير في بلاد السودان الغربي والبطل الاسلامي الشهير الشيخ عثمان بن فودى . وقد أشرقت شمس دولته الاسلامية في سماء نيجيريا

سنة ١٢١٩ هـ ١٨٠٤ م ،ووصل ضوءها إلى جميع مناطقها الشمالية والجنوبية. بدأ الشيخ عثمان بن فودى بالوعظ والارشاد سنة ١٢٠١هـ ، ١٧٨٦م والتف حوله عدد كبير من المسلمين ثم امتدت خطوط دعوته إلى القرى المجاورة وتوافد عليه المسلمون من كل الأمصار وأصبحت قوته ونفوذه ترعب حكام البلاد وتهدد كيان الديانة الوثنية المنتشرة فيها . وبدأ الحكام من جانبهم محاولة وقف نشاط الجماعة والقضاء على هذه الحركة قبل أن يستفحل أمرها ، وقد ضيقوا على جماعة الشيخ واضطهدوهم وساموهم سوء العذاب ، وأليم العقاب حتى اضطر الشيخ إلى الهجرة إلى مدينة غودو (Gudu) سنة ١٢١٩هـ ١٨٠٤م ، وعند ذلك أعلن الجهاد ضد كفار بلاد هوسا لنشر الاسلام وإصلاح الحالة السياسية والاجتماعية المتدهورة ، ورفع المظالم المتراكمة على كواهل الشعب .

وعندما استقر الشيخ عثمان فى مهجره استطاع أن يكون من أتباعه جيشا كبيرا وعزم على القيام بجهاد كبير اكتسح ما حول النيجر شمالا وجنوبا ثم عقد الألوية لأربعة عشر قائدا من قواده وبعثهم إلى مختلف مقاطعات الشمال والجنوب ، وقد أحرزوا انتصارات باهرة على أعداء الله فاندحرت قوة الباطل أمام جنود الحق وظهر أمر الله " قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا "(١) وقد استطاع الشيخ عثمان أن يجدد قوة الاسلام ويقيم حكومة اسلامية قوية على أنقاض دويلات بلاد هوسا المتناحرة ومملكة أويو الوثنية فى بلاد يوربا .

وقد وصف الأستاذ آدم عبدالله الإلورى فتوحات ابن فودى حيث يقول : " إذا قارن القارىء بين المغازى الأولى فى صدر الاسلام وبين جهاد ابن فودى والوقائع التى دارت بينهم وبين كفار غوبر وجدها مثلا بمثل ، كأنما يعيد التاريخ الاسلامى نفسه فى نيجيريا . لقد بدأ ابن فودى بالوعظ والإرشاد كما بدأت الدعوة الاسلامية وعارضه كفار غوبر كما عارض النبى صلى الله عليه وسلم كفار قريش ، والجاؤه إلى الهجرة إلى أطراف الصحراء كما ألجأت قريش المسلمين الأولين إلى الهجرة للمدينة ، وجعلوا يقطعون الطريق على من يهاجر كما فعلت قريش

---

(١) سورة الاسراء [٨١]

للمهاجرين الأولين . فلما رأى الكفار تمكن المسلمين في مهجرهم استمدوا لاستئصالهم كما استمدت قريش لذلك فالتقى الجيشان في أول واقعة في كاوتر كما التقت الفئتان في أول غزوة في بدر فانتصر المسلمون هنا كما انتصروا هناك واستمد الكفار للانتقام في واقعة (ثنثو) كما فعلت قريش في غزوة أحد ، وأصيب المسلمون فيها كما أصيبوا في الصدر الأول ثم تم النصر الباهر في الغزوات التالية كما تم للأولين وفتحوا حصن (قالاو) كما فتحوا مكة المكرمة فما أشبه الليلة بالبارحة " . (١)

لقد غير جهاد ابن فودى مجرى الأمور في البلاد حيث استطاع بتوفيق الله له أن ينشر الإسلام في ربوع بلاد نيجيريا ، ويبني دعائم حكومته على أسس إسلامية قويمة . كانت الحضارة الإسلامية والثقافة الاسلامية منتشرة في جميع مدن المملكة كما انتشرت فيها المدارس الاسلامية في جميع العلوم الاسلامية والعربية ، وقدمت للمجتمع جهابذة العلماء الذين كرسوا حياتهم للدعوة الاسلامية ونفع الله بهم عباده ، وقد غرسوا شجرة العلم والعرفان في مختلف مدن المملكة دانية قطوفها أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها بأذن ربها ، وإن ذكريات أيامهم المشرقة لا تزال لامعة في سطور التاريخ مدونة بمداد الذهب في سجل المجاهدين الأبرار .

وقد تشجع بعض المجاهدين بنجاح جهاد ابن فودى على الكفار وإقامته الدولة الاسلامية في بلاده وساروا على نهجه القويم وأوقدوا نار الحرب في مناطقهم ضد الوثنيين ومنهم الشيخ أحمد ....(٢) الذى استطاع بجهاده الكبير أن يؤسس حكومة إسلامية على أنقاض دولة (ماسينا Masina) الوثنية في فوتاجالون سنة ١٢٢٥هـ ١٨١٠م .

وكذلك الحاج عمر بن سعيد تال الذى تأثر بجهاد ابن فودى فقاد جيوشه المظفرة إلى نصر مبين على قبائل التكلور الوثنية في فوتاتورو ثم أقام حكومته الاسلامية سنة ١٢٧١هـ ١٨٥٤م

---

(١) من كتاب الاسلام في نيجيريا ص ١١٢ — ١١٤ تأليف الاستاذ آدم عبد الله .

(٢) لم نعثر على إسم والد الشيخ أحمد في جميع كتب التاريخ التي راجعناها .

التى استطاعت أن تتصدى لهجوم جيوش فرنسا وخيبت آمالها وأطماعها التوسعية فى سبيل احتلال البلاد . وقد قبل الحاج عمر أن يتعامل مع الفرنسيين كتجار فى بلاده شريطة أن يدفعوا الجزية ، وأبى أن يسمح لهم باستعمار أرض بلاده أو إنشاء المعسكرات على طول شواطئ نهر السنغال . وظل يقاوم جيوش الاحتلال الفرنسى حتى استطاعت فرنسا بمساعدة القبائل الوثنية الحاقدة على سيادة حكومة الحاج عمر الاسلامية فى المنطقة وأن تلحق بجيوشه هزيمة نكراء وتم لها ما أرادت ، ودخلت البلاد تحت نير الاحتلال الذى لم تنقشع سحابته عن سماء البلاد حتى اليوم .

هذه نبذة عن تاريخ أمم السودان فى عهد الممالك فى تلك العصور الغابرة وذلك تاريخ ماضى الاسلام منذ طالع فجر الاسلام فى غرب افريقيا حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى (أواخر القرن التاسع عشر الميلادى) .

وقد مثل الاسلام فيها قوة عظيمة ، ورفع المجاهدون المخلصون فيها راية الحق وأقاموا فيها فى مختلف العصور حكومات إسلامية دستورها القرآن والسنة المطهرة ولغتها الرسمية هى لغة القرآن . وعبر تلك القرون الطويلة كانت الحرب تدور بين الوثنية والاسلام وكان النصر دائما حليف المسلمين ولم تدخل المسيحية حلبة الصراع إلا حين بدأت الحركة الصليبية الحديثة التى راحت تستكشف الطريق حول أفريقيا وآسيا حين عجزت عن التوغل من ناحية الشرق لوجود الدولة العثمانية بقوتها المرهوبة ، ووجود دولة المماليك ، فضت تغزو العالم الاسلامى من ناحية الغرب مبتدئة بأفريقيا .

لم تكن الدول الاستعمارية فى غفلة عن نبأ تلك الممالك الاسلامية التى قامت فى غرب أفريقيا ، ولقد عرفت ما للاسلام هناك من تاريخ مجيد ووعت أخبار تلك الثروة الضخمة التى أودعها الله فى هذه الأرض الخضراء ، وهاج هائجها ، وامتلأت حقدا على الاسلام ، وطمعا فى استغلال خيرات البلاد .

وسنبين ذلك بالتفصيل فى التمهيد الثانى إن شاء الله تعالى ،،

التمهيد الثاني

دوافع الغزو الأوربي للعالم الإسلامي

بدأت حركة التوسع الإسلامي منذ وقت مبكر من القرن الأول الهجري وأخذ نفوذ الإسلام يمتد بذلك إلى خارج شبه الجزيرة العربية عندما قام المسلمون بغزو المناطق المحيطة بالجزيرة واستولوا على بلاد الشام ومصر، ولم يمض سبعون عاما من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا وقد فتح المسلمون شمال أفريقيا إلى البحر المحيط غربا وحاولوا فتح مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في أوربا الشرقية.

وقبل انتهاء القرن الأول الهجري وصلت جيوش الفتح الإسلامي إلى حصون مدن أوربا الغربية وبدأ الاحتكاك بين الإسلام والمسيحية في حروب حامية الوطيس فتقدمت الجيوش الإسلامية فاحتلت أسبانيا سنة ٩٣هـ ٧١١م في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ثم واصلت هذه الجيوش زحفها فاستولت على سردينيا ، وقد اهتز العالم الأوربي المسيحي شرقا وغربا لهذا الحادث الجليل ، فأسبانيا وسردينيا كانتا تحتلان مكانة ظاهرة في العالم الغربي ، وكان فتح المسلمين لهما واستقرارهم فيهما على حساب الشعوب المسيحية أمرا لا يمكن أن ترضى عنه الكنيسة الغربية وجميع شعوب أوربا المسيحية بأي حال من الأحوال. وهنا نقطة البداية : بداية الحروب الطويلة على مدى التاريخ. كانت بلاد الشام ومصر مستعمرات للدولة الرومانية ففتحها المسلمون واستقروا بها وكانت بلاد شمال أفريقيا لمدة سبعمائة عام ترزح تحت نير استعمار الكنيسة المسيحية الغربية ، فاستخلصها المسلمون واستقروا بها وأقاموا فيها الحضارة الإسلامية والثقافية العربية.

ولم يكن الفتح الإسلامي ليقف عند هذا الحد بل امتدت خطوطه ليهدد العالم المسيحي الغربي باحتلال أسبانيا وسردينيا ، وإقامة حكومة إسلامية بقيت فيها قرونا طويلة حتى سقطت بعد موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ ١٢١٢م التي وقعت بين "الخلفاء المسيحيين وجيش الموحدين .

لقد ظلت القوة المسيحية فى غرب أوربا تعمل منذ وقت مبكر على استرداد كل الأجزاء المحتلة من العالم المسيحى ؛ فمنذ ظهور المسلمين على مسرح حوض البحر المتوسط كقوة سياسية وحربية كبرى غزت العالم المسيحى وقوضت بعض أركانه كان أهالى أوربا المسيحيون لا يألون جهدا فى صد المسلمين ومحاربتهم واتخذوا فى سبيل ذلك جميع الوسائل على مدى التاريخ . إن تحديد مدى الحروب الصليبية بالفترة الواقعة بين سنتى ٤٨٩هـ - ٦٩٠هـ (١٠٩٦م - ١٢٩١م) يبدو أنه مجرد تحديد زمنى لا يشمل فى الواقع إلاّ المرحلة الحاسمة النشيطة فى تاريخ الحروب الصليبية فبإمكاننا تتبع جذور الحركة الصليبية وروحها قبل القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى كما يمكن اقتفاء أثر ذيولها وروحها بعد نهاية القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى بكثير أيضا .

إن طبيعة الحروب الصليبية التى قام بها الحلفاء المسيحيون منذ القرن الخامس الهجرى القرن الحادى عشر الميلادى والبواعث الكامنة وراءها هى وليدة الحماسة الدينية التى سادت جو العصور الوسطى كما أنها مظهر من مظاهر التوسع الاقتصادى والاستعمارى الذى خيم على تلك العصور. وبعبارة أخرى كانت بواعث الحملات الصليبية متجسمة فى الحقد الصليبى على الإسلام وطمع أمراء أوربا فى تأسيس إمارات لهم فى الشرق وأطماع القوى الايطالية التجارية فى تحقيق مكاسبها الاقتصادية عبر الطرق البحرية والبرية من بلاد الشرق إلى الدول الأوربية الأخرى ومحاولة أوربا وقف هذه العملية الاحتكارية من جانب الدولة الايطالية .

ولنستعرض جزءاً من التاريخ لنلقى الأضواء الكاشفة على بعض الحقائق التى تكمن وراء الأحداث التاريخية . قامت الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٨٩هـ ١٠٩٦م لغزو العالم الإسلامى وإقامة مملكة صليبية فى بيت المقدس وقد اتجهت هذه الحملة نحو الشرق عبر

الطريق البرى فى آسيا الصغرى وأخذت تحتل المدن الواقعة فى طريقها وتحرز انتصارات كبيرة
على جيوش السلاجقة حتى انتهت إلى بيت المقدس فاحتلتها سنة ٤٩٢هـ ١٠٩٩ م
وقد ساعد جيوش الصليبيين كثيرا انحلال أحوال الدولة الفاطمية والعداء المذهبى
الشديد بين الفاطميين والسلاجقة مما حال دون توحيد الصفوف وتكوين جبهة إسلامية
متحدة ضد الخطر الصليبى آنذاك. وهكذا نجحت هذه الحملة واستطاع الصليبيون أن
يؤسسوا ثلاث إمارات صليبية فى بلاد الشام زيادة على مملكة بيت المقدس، ولم يستقر أمر
جيوش الصليبيين فى الأراضى المقدسة حتى قامت الجبهة الإسلامية المتحدة فى أواخر
القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى فاستولت على إمارة صليبية فى الرها سنة
٥٣٩هـ ١١٤٤م. وقد أدى ذلك إلى قيام الحملة الصليبية الثانية التى سلك رجالها الطريق
البرى عبر آسيا الصغرى فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة، ولكن الفشل الذريع حالف هذه
الحملة الثانية. وفى هذا الوقت برزت شخصية صلاح الدين الأيوبى على مسرح التاريخ، وأخذ
على عاتقه مهمة اتمام رسالة توحيد القوى الإسلامية المتشتتة، ثم دخل فى حرب جدية مع
الصليبيين حتى استطاع أن ينزل بهم هزيمة نكراء فى موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ ١١٧٨ م
واسترد مدينة بيت المقدس وما حولها من البلاد والموانى الساحلية .

وقد سبب سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين قيام الحملة الثالثة التى قسمت
رجالها بين من يسلك الطريق البرى المشئوم عبر آسيا الصغرى ومن سلك الطريق البحرى
عبر البحر المتوسط إلاّ أنها حيلت بينها وبين أمنيتها ورجعت إلى بلادها وهى تجر
أذيال الهزيمة كما حصل لأشياعها من قبل. ولم تزل القوى الأوربية ترسل حملة بعد أخرى
منذ هزيمة الحملة الثالثة، وكانت توجه بعضها إلى الأراضى المقدسة والبعض الآخر إلى مصر
التى تعتبر مركز قوة المسلمين فى ذلك الجزء من العالم إلاّ أن جهود هذه الحملات كلها

باءت بالفشل . وإذا كان بعض المؤرخين يذكرون أن زمن تحالف القوى الأوربية المتناسى من أجل الغرض الديني قد انتهى بانتهاء الحملة الصليبية الثالثة بسبب الخلافات القوية التي دبت في صفوف دول أوربا وحكامها وتغلب المصالح الدنيوية على الأغراض الدينية، ويعتقدون أن ذلك قد أضعف من شأن الحروب الصليبية ،فالحقيقة أن تيار الحرب لم يكن ليضعف بهذا ولا ذاك لأن الحقد الصليبي متأصل في قلوب الأوربيين وإن اختلفت اتجاهاتهم السياسية وتضاربت معتقداتهم الدينية وتحكمت فيهم المصالح الدنيوية فسرعان ماتذوب تلك الخلافات وتجتمع تلك القوى الأوربية لتستخدم هذه المصالح الدنيوية ذاتها لمواجهة خطر قوة الإسلام . والحملات التي قامت بعد الثالثة أكبر دليل على أن تيار الحروب الصليبية لم يعتره الفتور والوهن كما أن الحملة الرابعة التي حولت لغزو القسطنطينية وإخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية كانت في سبيل توحيد القوى المسيحية في وجه الجبهة الإسلامية المتحدة التي أنزلت الهزيمة بالحملة الثالثة .

ولو نظرنا إلى الحملات الصليبية الثمانية التي قامت في الفترة مابين سنتي ٤٩٠ –٦٦٨هـ ١٠٩٧ – ١٢٤٩ م لعلمنا أن جذور العداوة كانت عميقة في القلوب كما أن جراحها لا يمكن أن تضمد لذلك رأينا الصليبيين يستهينون بأمر الهزيمة ويرسلون الجيوش تلو الجيوش لتتلقى هزائم أخرى أكبر وأنكر (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)[(١)] "ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا"[(٢)] .

وعند منتصف القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وعقب هزيمة الحملة الصليبية السابعة قامت دولة المماليك في مصر والشام وقد استطاعت قبل نهاية ذلك القرن أن تسترد ماتبقى في أيدي الصليبيين من بلاد المسلمين ويعتبر استيلاؤها على مدينة عكا التي كانت آخر المعاقل الصليبية بالشام سنة ٦٩٠هـ ١٢٩١م نهاية الحروب الصليبية بمعناها المحدود الضيق .

---

(١) سورة البقرة [١٢٠]
(٢) سورة البقرة [٢١٧]

كان القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) نقطة تحول خطير فى تاريخ أوربا. وكانت الخسائر المتتالية التى منيت بها الدول الأوربية فى الحروب الصليبية قد لقنتها ألوانا من الدروس فتحت أمامها آفاقا جديدة للتفكير فى اختيار نوع الأسلحة وتحديد مواقع الهجوم فى طبيعة حروبها ضد المسلمين فى المستقبل .

وقد شهد هذا القرن أيضا حوادث النزاع الشديد بين البابوية والأمبراطورية، كما شهد عواصف المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أخذ يزداد خطرها يوما بعد يوم والتى كادت تجترف أوربا إلى الهاوية . فقد عاشت أوربا قرونا طويلة تحت سلطة الكنيسة وكل شئ فى نظر الكنيسة ساكن لا يقبل الحركة بل لا داعى إلى التفكير فى محاولة تحريكه لأن الكتاب المقدس هو المرجع الوحيد والبابا هو الرب والمسؤول الأول. وهكذا عاشت أوربا فى عصورها المظلمة وكل شئ فى سكون وجمود. وأثناء الحروب الصليبية بل منذ فتح المسلمين لأسبانيا وقيام الحضارة الإسلامية فيها حصل احتكاك الأفكار : احتكاك فكرة السكون والجمود التى سادت أجواء الدول الأوربية بفكرة الحركة والنمو الدائم التى كانت سائدة فى العالم الإسلامى. وقد أدى ذلك كما قلت إلى أمواج من الحركة الموارة فى الدولة الأوربية إبان القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى الذى يعتبر بداية عصر النهضة فى أوربا كلها ، صاحبت المشاكل الحادة التى برزت فى تلك الفترة والتى كانت تتفجر كالمرجل تبحث عن حلول ، ومن ناحية أخرى كانت أوربا تربطها فى أول أمرها عند قيام الحروب الصليبية فكرة واحدة ـ هى فكرة الامبراطورية العالمية والكنيسة العالمية ، ثم أصابها التفكك السياسى منذ القرون السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى نتيجة ظهور الملكيات القومية المتنافسة ، لأن روح التنافس الحادة التى ظهرت بين مختلف الشعوب الأوربية وزيادة حدة الانقسام بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى قد أدت إلى تصدع عناصر الجبهة المسيحية المتحدة التى كانت تعمل ضد

المسلمين ، ولكن ذلك لم يكن ليطفئ نار الحرب كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلـــة وإنما وزع الأعداء في بقاع الأرض ليقوم كل بدوره في محاربة الإسلام من ناحيته في تنافـــس حاد على استعمار البلاد الإسلامية وانتهاب خيراتها والتضخم وتكوين الامبراطوريات مـــن هذا السبيل.

لقد أثارت الحروب الصليبية النشاط التجارى بين الشرق والغرب وقد احتكرت المــدن الايطالية تجارة الشرق زمنا غير يسير على طول البحر الأبيض المتوسط ، وبسبب عوامــــل الضغط الاقتصادى بدأت أطماع أوربا تتزايد في الحصول على خيرات بلاد الشرق ، وقــد أدت في نهاية الأمر إلى تنافس شديد بين الدول الأوربية له أبعاده في مصير الأمور عبـر أدوار تاريخ الشعوب الأوربية .

لقد رأينا كيف كان تطور الأوضاع في أوربا في القرن السابع الهجرى الثالث عشـــــر الميلادى . وماذا كان يجرى في العالم الإسلامي ؟ وما مدى ارتباطه بنتيجة تطور الأوضـــاع في أوربـــا ؟

لقد ذكرت ما كان من قيام دولة المماليك في مصر والشام منذ منتصف القرن السابـــــع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، وكيف تصدت جيوشها لخطر الصليبيين حتى انتزعت جميـع ما تبقى من مدن المسلمين المحتلة .

لقد اتسعت دائرة قوتها حتى سيطرت على المدن المطلة على الشواطئ الجنوبيــــة للبحر الأبيض المتوسط وطريق البحر الأحمر ، الأمر الذى كان يشكل خطرا بالغا في وجـه التوغل الأوربى إلى العالم الإسلامي من هذه الناحية . وقيام الدولة العثمانية في هــــذه الأثناء بقوتها المرهوبة وانتصاراتها الباهرة على الدول الأوربية واتساع نفوذها وسيطرتهـــا

على أعالى الفرات فى آسيا الصغرى والقسطنطينية وجميع مدن الدولة البيزنطية فى شرق أوربا كل ذلك كان يشكل خطرا آخر أبلغ وأحكم فى وجه التوغل الأوربى إلى العالم الإسلامى من هذه الناحية أيضا . وبسبب وجود هاتين القوتين : " قوة دولة المماليك وقوة الدولة العثمانية فى ناحية الشرق أخذت الحروب الصليبية الحديثة اتجاها آخر حيث راحت تستكشف طريقا بحريا حول أفريقيا لغزو العالم الإسلامى من ناحية الغرب . وبذلك بدأت حركة الكشوف الجغرافية فى أوربا مبتدئة باستكشاف الطريق البحرى المباشر حول أفريقيا الذى يربط أوربا بالهند فى أقصى الشرق، وقد حازت البرتغال فى ذلك قصب السبق .

بدأت الحروب الصليبية الحديثة التى تمثلت فى حركة الكشوف الجغرافية أثناء هجوم قوة العثمانيين على الدولة البيزنطية فى أوربا الشرقية وذلك عندما بدأت البرتغال فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى بمحاولة استكشاف سواحل غرب أفريقيا فى طريقها حول أفريقيا إلى أقصى الشرق . وقبل زوال الدولة البيزنطية بسقوط القسطنطينية الذى اهتزت له أوربا المسيحية كلها سنة ٨٥٧هـ ١٤٥٣م برزت على مسرح الأحداث الشخصية ذات الشهرة الذائعة وهى الأمير هنرى الملاح (Henry The Navigator) ٧٩٧-٨٦٥هـ ١٣٩٤ - ١٤٦٠م ، كان هذا الأمير مؤمنا بإمكان الطواف حول أفريقيا وإمكان الوصول إلى الشرق عبر هذا الطريق . ولم يكن الدافع الأساسى لهنرى الملاح فى جهوده الاستكشافية اقتصاديا بحتا كما دأب المؤرخون فى تحليلهم لتلك الحركة الاستكشافية وإنما ثبت أن الحقد الصليبى هو أول ما دفع الأوربيين إلى هذا العمل حتى يتمكنوا من تحطيم الدول الإسلامية التى سيطرت على الطرق التجارية فى الشرق واستردت الأراضى المقدسة من أيدى الصليبيين .

وقد كان هنرى الملاح رئيسا لهيئة اليسوعيين ولذلك ازداد اهتمامه بكسب أراضى جديدة للمسيحية .

يقول بعض الكتاب المسيحيين عن اهتمام هنرى الملاح بالعلوم الجغرافية : "لقد أبدى الأمير هنرى الاهتمام البالغ بالعالم الخارجى إلا أن وراء هذا الاهتمام تكمن التخيلات الخاطئة والرغبة الشخصية فى العلوم الجغرافية والحقد الدينى العميق . بل كان اهتمامه انعكاسا للأغراض الشخصية والحقد الصليبى" ...."كان هناك أمل قوى فى إمكان تدمير قوة الإسلام إذا استطاعت البرتغال الانضمام إلى مملكة برستارجون (Kingdom of Prester Jo) وهى فى أساطير أوربا مملكة مسيحية قوية توجد فى أفريقيا . وكما أن استكشاف هذه المملكة سيؤدى إلى الحلف المسيحى العالمى الذى سيهجم على شمال أفريقيا من ناحية الشمال ومن ناحية الجنوب فى آن واحد ، وبضربة واحدة من هذه القوة المسيحية المتكتلة ستتحطم قوة الإسلام فى شمال أفريقيا وتعود المناطق الإسلامية وما فيها من الموارد التجارية إلى المسيطرين المسيحيين". (١)

وإننى لا أنكر وجود بواعث أخرى حفزت أوربا على تلك المغامرة الخطيرة إلا أنها وجدت أثناء البحث عن الضالة المنشودة :

أثناء البحث عن الطريق البحرى الموصل إلى الشرق لتحطيم الدول الإسلامية هناك . . فالدافع الاقتصادى له أهميته الكبرى فى/أجواء التنافس الشديد فى صفوف الدول الأوربية بيد أن ذلك لم يكن دافع أوربا الأوحد، وكما أن الدافع الاستعمارى له أبعاده الكبيرة فى

---

(١) G.T. Stride & C. Ifeka,
Peoples and Empires of West Africa, London, 1973, P. 174 - 176

دفع عجلة المغامرة نحو الأطماع التوسعية خارج أوربا ولكنه وجد أثناء الطريق ولم يكن مقصودا بالاصالة .

وقد كانت جهود هنرى الملاح رائد الحركة الاستكشافية تهدف إلى تقدم المسيحية ونشرها على طول طريق رحلاته . "وكان المطلوب من الهيئة التبشرية التى صاحبته تحويل أهالى بلاد السودان الغربى إلى المذهب الكاثوليكى سواء بالدعوة أو بالقوة أو حتى بالاسترقاق إذا لزم الأمر" [1] ، لأنه "كان يعرف أن أهالى هذه البلاد كانوا تحت سلطة الحكام المسلمين فى شمال أفريقيا أو فى حلف عسكرى معهم." [2] وهذه حقيقة من جملة الحقائق التى حاولت أوربا إخفائها حتى تمضى فى حربها الصليبية دون أن يتنبه المسلمون إلى الروح الصليبية الكامنة وراءها .

لقد بدأت البرتغال رحلاتها الاستكشافية منذ سنة ٨٢٢هـ — ١٤١٩م وبذل الأمير هنرى الملاح جهودا كبيرة فى هذا السبيل وسار على نهجه الحكام البرتغاليون الذين جاءوا بعده حتى استطاعوا أن يستكشفوا مناجم الذهب فى بلاد السودان ويقيموا مراكز تجارية على طول سواحلها فى البحر الأطلسى ثم تقدموا نحو الجنوب واستكشفوا رأس الرجاء الصالح ثم شق الرحالة فاسكو دجاما (Vasco Da Gama) طريقه إلى الهند بمساعدة الرحالة العربى ابن ماجد وقد وصل إليها سنة ٩٠٣هـ — ١٤٩٨م . ولم تكن الدول الأوربية الأخرى لتترك البرتغال تقوم بهذه المهمة وحدها بل أخذت روح التنافس تتزايد نتيجة قيام الدعوة القومية فى أوربا من جهة ووقوف الأوربيين على ثروات أفريقيا الضخمة وطمعهم فى

---

(1) G.T. Stride & C.Ifeka, Op.cit., P.176

(2) Ibid

استغلال خيرات أفريقيا الخضراء لمصالحهم الذاتية من جهة أخرى وبذلك أخذت أفكار أوربا تتجه نحو استعمار الأراضي المكتشفة من سواحل غرب أفريقيا إلى أقصى الجنوب وطول الشواطئ الشرقية في المحيط الهندي، وهكذا انتشرت في العالم الإسلامي جيوش الاستعمار ودعاة التبشير المسيحي .

يقول الشيخ محمد الغزالي : "الاستعمار أحقاد دينية وأطماع دنيوية وكل إهاب يغطي هذه السوءات فهو من جملة أصباغ ودهون يجيدها ممثلوا الروايات في أدوارهم الضاحكة أو الباكية" (1) .

لقد اتضح خلال العرض التاريخي السابق أن الاستعمار الأوربي حقا أحقاد دينية " يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم " فتصدوا لمحاربة الإسلام والمسلمين طوال تلك القرون الكثيرة الماضية فاندحرت القوى المسيحية في المعارك الفاصلة بين الحق والباطل، وانكسرت شوكة الكفر وظهر أمر الله . ومن هنا أدرك الاستعمار أن الثمن الذي كان يدفعه في تلك المعارك باهظ جدا لا يعادل الفوائد التافهة التي حصل عليها فاضطر إلى البحث عن وسائل أخرى في مكافحة هذا الدين وتلك الأمة الإسلامية ، لابد من البحث عن سر العظمة ومنابع العزة في الأمة الإسلامية وعن القوة الدافعة التي أخرجت العرب من جزيرتهم الجرداء القاحلة ثم جعلتهم سادة الأمم وقادة الشعوب حتى انقادت لهم الدنيا وكونوا من شعوب العالم كتلة إسلامية قوية عجزت القوى الأوربية "العظمى" عن السيطرة عليها، ثم أدرك الأوربيون أن السر الأعظم وراء هذه القوى الهائلة هو الإسلام، ولن يكون تحطيم هذه القوة إلا بهدم ذلك الإسلام بإبعاد المسلمين عنه بكل الوسائل الممكنة ونشر المسيحية في المناطق الإسلامية.

---

(1) كتاب الاستعمار أحقاد وأطماع للشيخ محمد الغزالي ص ٢٤ .

وعند ذلك يضعف خطر المسلمين وتتفرق كلمتهم ويعود العرب إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية أمما وقبائل ضعيفة متناحرة،وتتمكن الدول الاستعمارية من السيطرة على العالم واستغلال خيراته ماشاء لها الهوى والطمع .

" ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا " .... الآية (١) . " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم " .... الآية (٢) .

وعلى هذا الأساس الواضح نستطيع أن نفهم حركة الغزو الصليبى الحديثة فى العالم الإسلامى عامة ، وفى أفريقيا بصفة خاصة . ومن هذه النقطة نبدأ حديثنا المفصل عن الاستعمار والتبشير فى نيجيريا .

---

(١) سورة البقرة (١٢٠)

(٢) سورة البقرة (٢١٧)

البـــــــاب الأول

الاستعمار في نيجيريا والرحلات التجارية والاستكشافية والاحتلال البريطاني وآثـــــــــــاره

الفصل الأول : دخول الاستعمار والرحلات التجارية والاستكشافية .

المبحث الأول : الرحـــلات التجاريـــة .

المبحث الثاني : الرحلات الاستكشافيـــه .

الفصل الأول

دخول الاستعمار إلى نيجيريا

كانت أفريقيا بلادا مجهولة تماما بالنسبة للأوربيين قبل قيام الحملات الصليبية الحديثة التى قادها البرتغاليون فى رحلاتهم المشهورة حول أفريقيا عبر الطريق البحرى إلى الهند فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى . فمنذ هذه الفترة بدأ الأوربيون يتعرفون على المدن الواقعة على شواطئ المحيط الأطلسى ويقيمون معها علاقات تجارية . ولكن الأجزاء الداخلية من أفريقيا لم يكن لديهم عنها سوى معلومات قليلة لا قيمة لها فى ميزان الحقيقة والواقع .

وعندما وقف الأوربيون على خيرات أفريقيا وثرواتها الطبيعية الضخمة اشتد اهتمامهم بأمر هذه البلاد فقصدوا استغلالها واستعمار أهاليها لمصالحهم الذاتية .

ولو أننا تتبعنا الوقائع التاريخية للبحث عن الحقائق الكامنة وراء الغزو الأوروبى لوجدنا أن العوامل التى دفعت الأوربيين إلى ذلك الاهتمام الكبير بالعالم الخارجى والعالم الإسلامى بصفة خاصة فى القرون مابين القرن التاسع [illegible] والثالث عشر الهجريين (القرن الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين) هى الحقد الصليبى المتأصل وروح الاستعمار وحب الاستغلال . وقد ألقينا بعض الأضواء على هذه الحقيقة فى التمهيد الثانى بالنسبة لدوافع الغزو الأوربى للعالم الإسلامى وهنا نحن أولاء نقرر نفس الحقيقة بالنسبة لدوافع هذا الغزو لدولة نيجيريا .

يذكر المؤرخون الأوربيون أن محاولة إقامة خطوط تجارية بين أوربا وبين بلاد أفريقيا كانت أكبر دافع أوربا إلى التوغل داخل أفريقيا، وأن أوربا قد نظمت سلسلة من الرحلات الاستكشافية للتعرف على مجاهل هذه البلاد عندما تعرضت أفراد بعثاتها التجارية

للصعوبات والعقبات الكأداء التى حالت بينها وبين مطامعها كما أنها قد بعث الإرساليات التبشيرية لاصلاح الحياة الروحية بنشر المسيحية بين مختلف شعوب أفريقيا ومعاونة الشركات التجارية الأوربية فى تحقيق أهدافها . ويذكر هولاء المؤرخون أيضا النزاع العنيف الذى قام بين الشركات التجارية الأوربية حول تقسيم أفريقيا حتى أبرمت الاتفاقيات واتخذت القرارات فى مؤتمر برلين حيث تقررت فكرة الاحتلال والاستعمار بصفة رسمية . وإذا كنا ذكرنا وجهة نظرهم فليس معنى ذلك أننا نؤمن بصحتها بل نحاول هنا أن نتلمس الحقائق الكامنة وراء الأحداث التاريخية . فكم من حقيقة أهملتها كتب التاريخ أو أبرزتها فى غير صورتها الحقيقة إلاّ أن هولاء الكتاب الذين يصبغون الحقائق بالأباطيل عاجزون تماما عن إخفاء نتيجة مخططاتهم عندما تظهر للناس .

وإذا كان الكثير من الباحثين يقولون إن دخول الاستعمار الأوربى إلى نيجيريا كان عن طريق سعى أوربا وراء المطامع التجارية وحب التعرف على مجاهلها بأستكشاف الطرق البرية والبحرية داخل البلاد ومحاولة القضاء على تجارة الرقيق وعلى بعض العادات السيئة التى سادت المجتمعات الأفريقية فى ذلك الزمان وتسوية الأزمات السياسية القائمة فى مختلف مناطق البلاد .

فلابد لنا إذاً أن نقف قليلا عند هذا الكلام لنعرض تاريخ العلاقات التجارية بين أوربا وبين نيجيريا والرحلات الاستكشافية التى قامت بها أوربا إلى هذه البلاد لنكشف النقاب عن البواعث الحقيقية التى كانت وراء تلك الوسائل التى تذرعت بها أوربا إلى غزو ذلك الجزء الأكبر من [illegible] أفريقيا

المبحث الاول :

الرحلات التجارية الأوربية فـــــى وادى النيجـــر

لقد عرف الأوربيون قبل القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى أن العرب المسلمين في شمال أفريقيا كانوا يقيمون علاقات تجارية مع الزنوج في جنوب الصحراء وأنهم قد استكشفوا الطرق البرية عبر الصحراء من بلاد المغرب إلى أقصى بلاد السودان الغربى وأنهم كانوا يشترون الذهب من هذه البلاد ويبيعونه في أسواق أوربا. وفي أثناء رحلات الأوربيين المشهورة حول أفريقيا اعتزموا التعرف على أسواق الذهب في بلاد السودان الغربى وإقامة علاقات تجارية معها حتى يتمكنوا من القضاء على التجارة التى يقوم بها العرب المسلمون منذ قرون طويلة عبر الصحراء وتحويل هذه التجارة عبر الطرق البحرية إلى أوربا مباشرة .

وقد انتهى البرتغاليون من استكشاف جميع المدن المطلة على شواطئ المحيط الأطلسي في غرب أفريقيا سنة ٨٨٥هـ ــ ١٤٨٠م وعقدوا مع أهاليها علاقات تجارية وكانوا يشترون الذهب من مدينة المينا (El-Mina) والفلفل من مدينة بينن (Benin) وقد كان تجار البرتغال أول من دخل إلى نيجيريا من الأوربيين في محاولة إقامة علاقات تجارية معها في القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى حيث رست أول باخرة تجارية برتغالية في لاجوس سنة ٨٨٧هـ ــ ١٤٨٢م وبعد ذلك قاموا برحلة ودية لزيارة مدينة بينن سنة ٨٩٠هـ ١٤٨٥م برياسة البحار البرتغالى افونسو دافيرو (Alfonsod'Aveiro) .

وكانت تجارة البرتغاليين في هذه البلاد حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى مقصورة على الذهب والعاج والفلفل وريش الطيور والجلود في مقابل أدوات حربية [illegible] مثل البنادق والخناجر والبارود والمحاريث والثياب .

وفي أوائل القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى ظهرت النخاسة على مسرح التجارة العالمية ، وأول من بدأ هذه التجارة هم البرتغاليون. وكان سبب ظهور النخاسة أن الأوربيين

أكتشفوا أميركا في أواخر القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى وقضوا على الهنود الحمر سكانها الأصليين وأصبحت المستعمرات الأسبانية في أميركا – وهي الأرض الطيبة الخصبة – خالية من السكان ، فلما أراد الأوربيون أن يستغلوا خيراتها قصدوا أفريقيا لشراء العبيد أو استرقاقهم ثم نقلوهم إلى تلك المستعمرات في أميركا ليقوموا بأعمال شاقة في مزارع قصب السكر وفي المناجم . وكان الأوربيون يشترون هؤلاء العبيد بأرخص الأثمان أو يسترقونهم بأبشع الطرق ويعاملونهم معاملة حيوانية حتى كانوا ينقشون على جباههم أو يعلّمونهم بحديدة محماة بالنار لمنع اختلاط بعضهم ببعض.

وقد بدأ التنافس الشديد بين الدول الأوربية على تجارة الرقيق في شواطئ غرب أفريقيا حيث دخل الهولنديون والفرنسيون والبريطانيون في حلبة الصراع مع البرتغاليين منذ القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى إلّا أن البرتغال كانت تسيطر تماما على هذه التجارة حتى نهاية ذلك القرن . وقد استطاع الهولنديون أن يتغلبوا على البرتغاليين ويحتفظوا بسيطرتهم الكاملة على تجارة الرقيق طوال القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى .

ولم تدخل بريطانيا في تجارة الرقيق مع بلاد السودان الغربي حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى حين رست (أول) باخرة تجارية لها في مدينة بينن (Benin) بقيادة كابتين ونيدهام رتشارد سنة ٩٦٠هـ ١٥٥٣م ولكن الحملة فشلت في مهمتها . وفي سنة ٩٦٥هـ ١٥٥٨م قامت بعثة تجارية بريطانية أخرى استطاعت أن تعقد معاهدات تجارية مع الملوك والزعماء على طول شواطئ المحيط الأطلسي .

وفي القرن الثاني عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى أصبحت تجارة الرقيق مصدر التنافس الشديد بين الدول الأوربية وأساس الحروب الكبيرة القائمة بينها على طول المحيط الأطلسي

وكانت القوات البحرية البريطانية فى معارك متواصلة مع القوة العسكرية الفرنسية من أجل تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسى . وقبل نهاية النصف الأول من هذا القرن استطاعت بريطانيا أن تتغلب على أطماع فرنسا وتحتل مركز الزعامة على جميع الدول الأوربية فى تجارة الرقيق .

إن النشاط التجارى الأوربى فى غرب أفريقيا منذ القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى حتى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى كان محصورا فى المناطق المطلة على الشواطئ فقط ولم تتمكن أوربا من التوغل داخل البلاد بسبب ما وراء ذلك من أخطار جسيمة وأضرار بالغة حيث إن المناخ الأفريقى لا يلائم مزاج الأوربيين الذين ألفوا السكنى فى المناطق الباردة فوقعوا ضحايا الأمراض المهلكة كما أن الحكام والوكلاء المحليين كانوا يرون مصلحتهم فى منع الأوربيين من التوغل داخل البلاد فأقاموا حواجز وعراقيل لمنع وصولهم إلى الأسواق داخل البلاد ، لذلك راح كثير من المساعى والجهود المبذولة من قبل الدول الأوربية فى هذا السبيل أدراج الرياح ولم يستطيعوا الدخول إلى البلاد إلا بعد استكشاف الأجزاء الداخلية من أفريقيا قبل نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى وهى الفترة التى تعتبر بداية المرحلة الثانية فى العلاقات التجارية الأوربية مع غرب أفريقيا .

وقد كانت بعض مدن نيجيريا الواقعة على شاطئ المحيط الأطلسى مثل مدينة لاجيسوس وبداغرى وبنين أهم أسواق النخاسة فى غرب أفريقيا حتى اشتهرت بساحل العبيد .

إن تجارة الرقيق التى استمرت فى شواطئ غرب أفريقيا لمدة تزيد على ثلاثمائة سنة قد أدت فى النهاية بهذه البلاد إلى تأخر وانحطاط وتعاسة . ويذكر المؤرخون أن مجموع عدد العبيد الذين نقلوا إلى المستعمرات الأسبانية فى أمريكا خلال تلك الفترة يقدر بنحو أربعين مليونا .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن هذه التجارة كانت موضع رضا الكنائس المسيحية كلها حيث إنها لم تمنع الناس منها وإنما كانت فوق ذلك تبررها بنصوص كثيرة من العهد القديم واعتبرتها وسيلة من وسائل الدعاية المسيحية لتنصير الوثنيين في أفريقيا .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي قامت أفكار جديدة في الأوساط الأوربية تمخضت عنها الثورة الفرنسية وحركة دعاة الإنسانية (Humanitarians) والثورة الصناعية .

وقد قطعت الثورة الصناعية في بريطانيا أشواطا بعيدة خلال هذه الفترة وأصبحت بريطانيا تتطلع إلى العالم الخارجي بحثا عن المواد الأولية مثل زيت النخيل والقطن والعاج وغيرها كما كانت تبحث عن الأسواق الجديدة لبيع منتوجات مصانعها الجديدة في شتى ربوع العالم .

ثم قامت حركة دعاة الإنسانية تطالب الحكومة البريطانية بإلغاء تجارة الرقيق وكان وليام ولبرفرس (William Wilberforce) ممثل هذه الجمعية في البرلمان البريطاني. وقد استمرت جهوده في الدفاع عن هذه القضية في البرلمان نحو عشرين سنة قبل أن تنتصر القضية بكسب أصوات الأكثرية الساحقة من أعضاء البرلمان. وكان يزعم دعاة الإنسانية أنهم يهدفون إلى انقاذ أفريقيا من العبودية وإلى القضاء على بعض العادات السيئة مثل قتل مجموعة كبيرة من العبيد والخدم عند موت سيدهم ليرافقوه في رحلته إلى عالم الأرواح وأنهم يهدفون أيضا إلى نشر المسيحية والحضارة الغربية بين أهالي أفريقيا .

ونتيجة لهاتين الثورتين : الثورة الصناعية وثورة دعاة الإنسانية وافقت الحكومة البريطانية على إلغاء تجارة الرقيق وأصدرت قرارا بهذا الشأن سنة ١٢٢٢هـ ١٨٠٧م. ولقد كانت حركة إلغاء تجارة الرقيق التي قامت في بريطانيا في هذه الفترة مصحوبة بالرغبة الشديدة في استغلال الثروات الطبيعية في أفريقيا وإيجاد الأسواق الجديدة داخل القارة الأفريقية لبيع منتوجات المصانع البريطانية وبذلك بدأت المرحلة الثانية في علاقة أوربا التجارية مع الدول الأفريقية .

ومنذ أواخر القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي قامت حركة محاولة استكشاف داخل أفريقيا كمرحلة تمهيدية للاحتلال الأوربي الذي جاء بعد الانتهاء منها مباشرة في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي . وقد كانت فكرة إلغاء تجارة الرقيق من بنات أفكار سيرتوماس فوويل بوكستن (Sir Thomas Fowell Buxton) الذي قال في كتابه (تجارة الرقيق الأفريقية وعلاجها) : "إن الطريق الوحيد لانقاذ أفريقيا من سوءات تجارة الرقيق هو إظهار الثروات الطبيعية الموجودة فيها وانقاذ أرواح هؤلاء العبيد الذين سيتحررون بسبب هذه المحاولة من رقة العبودية ." (١)

لقد اتضحت في هذه المرحلة الأخيرة رغبة بريطانيا الكبيرة في احتلال هذه البلاد واستغلال خيراتها فقد أرسلت قواتها البحرية إلى غرب أفريقيا وتمركزت في مدينة فريتون (Freetown) ثم أسست بعد ذلك معسكرا كبيرا لجيوشها في مدينة فيرند وبو (FernadoPo) سنة ١٢٤٤هـ ١٨٢٨م وكانت هذه الجيوش ترابط في الأماكن الاستراتيجية على المحيط الأطلسي لمنع وصول سفن تجار الرقيق الاسبانيين إلى أسواق غرب أفريقيا . وقد فرضت بريطانيا ضغطا دبلوماسيا على الدول الأوربية لحملها على إلغاء تجارة الرقيق وذلك لأسباب سياسية ، لأن استمرار هذه التجارة بعد ضياع المستعمرات الأميركية من يدها سيمكن أميركا من الحصول على مصالح اقتصادية كبيرة كما أن ذلك أيضا سيحول دون نجاح التجارة "الشرعية" التي تعتزم بريطانيا أن تقوم بها تمهيدا لاستغلال البلاد واحتلالها .

وهكذا بدأت بريطانيا التجارة "الشرعية" في نيجيريا . وقد كانت هذه التجارة

---

(١) Sir. T.F. Buxton
The African Slave Trade and Its Remedy, London, 1839
Also M.Crowder, The Story of Nigeria, London, 1973, P.140

فى أول الأمر فى أيدى شركاتها الوطنية ثم بعد الانتهاء من استكشاف مصب نهر النيجر فى المحيط الأطلسى تولت الحكومة البريطانية الإشراف على أعمال هذه الشركات. وقد قاوم الحكام والوكلاء المحليون التجار البريطانيين فترة من الزمن إلا أن هؤلاء التجار قد استطاعوا أن يتغلبوا عليهم بسبب جهود المستكشفين والمبشرين وجيوش الاحتلال البريطانى .

ومنذ سنة ١٢٦٦هـ ١٨٤٩م كانت أطماع بريطانيا التجارية متجهة إلى منطقتين فى جنوب نيجيريا : أولا هما مدينة لاجوس التى تعتبر المدخل الرئيسى إلى بلاد يوربا الغنية بالثروات الطبيعية، وثانيتهما موانئ دلتا التى هى مدخل التجارة إلى شرق نيجيريا .

وقد أخذت الحكومة البريطانية منذ هذه الفترة ترسل مندوبيها إلى هذه البلاد لتدعيم نشاطها التجارى وتمهيد الجو لتقبل نفوذها السياسى فيها حيث عينت سنة ١٢٦٦هـ ١٨٤٩م جون بيقرفت (John Beecroft) أول قنصل على منطقتى بيافرا وبرايتس بينن (Biafra, Brights of Benin) وقد استطاع هذا القنصل أن يضع الحجر الاساسى للسياسة التى سارت عليها بريطانيا لاحتلال البلاد ، وكان يتمتع بنفوذ سياسى كبير منذ فترة تولية القنصلية، وامتد نفوذه من مناطق دلتا النيجر على طول الشواطئ حتى مدينة لاجوس وضواحيها . وكان يرى ضرورة تدخل بريطانيا فى شئون الحكومات المحلية لتوطيد دعائم الأطماع الأوربية فى هذه البلاد .

يقول ميكيل كرودار (Micheal Crowder) : " إن الانفتاح التدريجى لأبواب مناطق نيجيريا للعلاقات التجارية المباشرة القائمة بين المنتجين الافارقة والوكلاء الاوربيين ونتيجة انتهاء الاحتكار التجارى الذى كان الوكلاء المحليون وتجار ليفربول يمارسونه على طول شواطئ البحر الاطلسى كان من شأنه ان يؤدى الى قيام ازمات سياسية فى مناطق دلتا، وفى هذه الاثناء

كان تفكير اكثر مندوبى الحكومة البريطانية فى شواطئ غرب افريقيا يتجه إلى أن التجارة مع أفريقيا لو أريد لها أن تأتى بالفوائد الجليلة المنشودة فبلا يمكن أبدا أن تكون السلطة العليا على هذه البلاد فى أيدى الحكام المحليين بأى حال من الأحوال بل يلزم أن تكون فى يد الحكومة البريطانية". (١)

وقد أدى هذا التفكير بالقنصل بيقرفت (Beecroft) إلى استعمال القوة لإسقاط سلطة الملك كوسوكو فى مدينة لاجوس سنة ١٢٦٨هـ ١٨٥١م نتيجة ظهور حاجة بريطانيا إلى تأسيس مركز تجارى فى المدينة لتنظيم شئونها التجارية داخل بلاد يوربا وكذلك الضغط الشديد الذى كان يمارسه الملك على المبشرين فى مدينة أبيوكوتا (Abeokuta) المجاورة.

ومنذ سنة ١٢٦٧هـ ١٨٥٠م على وجه التحديد كانت علاقة بريطانيا التجارية قد قطعت أشواطا بعيدة فى التقدم والازدهار كما أن ملامح رغبة بريطانيا فى احتلال جنوب نيجيريا أخذت تظهر بشكل واضح جداً. فمنذ هذه الفترة أصبح عدد الشركات التجارية التى تعمل فى منطقة دلتا وعلى طول شواطئ نهر النيجر يقارب المائتين، كما أن الحكومة البريطانية قد حددت دائرة أعمال القنصل بيقرفت (Beecroft) فى منطقتى بونى وبرايت بيافرا (Bonny, Brights of Biafra) ثم عيّنت بنجمن كمبيل (Benjamin Campbell) قنصلا دائما على مدينة لاجوس سنة ١٢٧٠هـ ١٨٥٣م وقد وضع هذا القنصل قوة بحرية كبيرة على مقربة من المدينة كان يزعم أنها لحامية المدينة من هجوم الأعداء. وظل الأمر هكذا حتى تم احتلال المدينة سنة ١٢٧٨هـ ١٨٦١م وإعلان الحماية البريطانية على المناطق الواقعة على طول شواطئ نهر النيجر سنة ١٣٠٣هـ ١٨٨٥م على ما سنفصله عند الحديث عن

---

(1) M.Crowder, op. cit., P. 150-151

احتلال بريطانيا لدولة نيجيريا .

ولم يصل النشاط التجاري الأوربي إلى القسم الشمال من نيجيريا إلا عندما قامت شركة النيجر الملكية التي كانت تعمل على طول شواطئ نهر النيجر بعقد معاهدات تجارية مع مختلف مدن شمال نيجيريا منذ سنة ١٣٠١هـ ١٨٨٣م حتى سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٦م .

وقد فتحت هذه الشركة مراكز تجارية في تلك المدن ووضعت قوات عسكرية فيها كانت تزعم أنها لحماية مراكز الشركة والمحافظة على الأمن في الطرق التجارية البرية والبحرية .

يقول س.ج هوجبن (S.J.Hogben) : "وفي سنة ١٣٠٤هـ ١٨٨٦م منحت الحكومة البريطانية مدير شركة النيجر الملكية سيرجورج جولدي (George Goldie) الإجازة التجارية للقيام بجميع الشئون التجارية في نيجيريا وأعطتها حق وضع رسوم جمركية واستخدام القوات البريطانية المسلحة لحمل الناس على اتباع أوامرها"(1).

ويتضح لنا بهذا أن نطاق أعمال هذه الشركة لم تقتصر على حدود النشاط التجاري الضيقة وإنما امتدت آفاق المسؤولية إلى مدى بعيد حتى أصبحت الشركة حكومة تشرف على الحكم والتنظيم في البلاد .

وقد لخص س.ج هوجبن (S.J. Hogben) أهداف هذه الشركة في العبارة الآتية : "إن الهدف الأول لهذه الشركة هو خلق الأجواء المناسبة تمهيدا لإقامة الحكم البريطاني في المنطقة ثم حمايتها من أخطار الدول الأوربية الأخرى التي تحاول السيطرة عليها . والهدف الثاني هو حماية المراكز التجارية من هجوم الملوك المحليين والمحافظة على الأمن على طول الطرق التجارية في البلاد"(2). وهكذا يروجون الادعاءات الكاذبة لتبرير حملاتهم العسكرية التي شنوها لاحتلال أراضي الآخرين ظلما وعدوانا .

---

(1) S.J. Hogben, An Introduction to the History of the Islamic States of Northern Nigeria, London, 1967, P.148

(2) Ibid, P. 148

المبحث الثاني :

الرحلات الاستكشافية إلى وادي النيجر

كان الزحف الأوربي لاستغلال أفريقيا يسير بصورة بطيئة جدا منذ القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي لأن معلومات الأوربيين عن أفريقيا كانت قليلة حتى ذلك الوقت لذلك اكتفوا بممارسة أعمالهم التجارية على طول شواطئ المحيط الأطلسي ولم يورطوا أنفسهم في محاولة التوغل داخل البلاد مخافة ما يترتب على ذلك من أضرار كبيرة وأخطار بالغة.

وتعتبر فترة استكشاف داخل أفريقيا التي تقدر بنحو أربعين سنة منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي حتى سنة ١٢٤٦هـ ١٨٣٠م الحد الفاصل بين المرحلتين الأولى والثانية في علاقة أوروبا التجارية مع نيجيريا .

كان للحركة الشديدة التي هاج هائجها لإلغاء تجارة الرقيق صدى عميق في الأوساط الأوربية إبان منتصف القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي حيث تمخضت عنها حركة حماسية أخرى تجسم مدى النتائج الكبيرة المترتبة على معرفة جغرافية أفريقيا لتوسيع نطاق الأعمال التجارية واستغلال خيرات هذه البلاد لمصالح الدول الأوربية .

لقد أجتمعت مجموعة من دهاة بريطانيا سنة ١٢٠٣هـ ١٧٨٨م لتأسيس الجمعية الأفريقية لتشجيع مشروع استكشاف المجاهل الموجودة داخل أفريقيا . وقد تشكل أعضاؤها من مختلف طبقات المجتمع من بينها طبقة السياسيين والعلماء وقادة الثورة الصناعية ودعاة الإنسانية ، وكانت كل طبقة تريد استغلال الجمعية للوصول إلى مطامعها . لذلك أبرزت الجمعية هدفها بذلك العنوان الهادئ " مشروع دراسة جغرافية أفريقيا " لأنها تؤمن بأن نجاح أعمالها في أفريقيا يتوقف على معرفة مجاهل البلاد .

وتعتبر هذه الجمعية ظاهرة من الظواهر التي تكشف النقاب عن مكامن ونوايـــا أوربا السيئة تجاه الدول الأفريقية ، وهي بداية الطريق لتطبيق تلك النظرية الخاطئــة التي جعلت أفريقيا في أنظار المفكرين الأوربيين سمكة سمينة على وشك الوقوع في شبكـــة أطماع أوروبا المتضادة .

كان اهتمام الجمعية متعلقا بالأجزاء الداخلية في أفريقيا وعلى الأخص نهر النيجـــر الكبير الذي يعتبر خط الاتصال بين غرب بلاد السودان الغربي وشرقها ، وإن طـــول هذا النهر من منبعه من سلسلة جبال دولة غينيا الحديثة إلى مصبه في المحيط الأطلسي عند مدينة براس (Brass) في دولة نيجيريا " يقدر بألفي وستمائة ميل ".(1)

وقد بعثت الجمعية عددا كبيرا من الرحالة المغامرين في فترات متتابعة لمهمـــة تحديد منبع ذلك النهر الكبير ومجراه الطويل حتى مصبه في المحيط الأطلسي .

وكان ميجور هوغطن (Major Houghton) أول من أسهم في هذه المهمة سنة ١٢٠٦هـ ١٧٩١م إلا أنه ضاع في ظروف غريبة في غابات البلاد الكثيفة ولم يعثر له على أثـــر .

ثم جاء بعده دور الجراح الاسكتلندي الشاب مانجو بارك (Mungo Park) الذي نـال بسبب رحلتيه العظيمتين إلى غرب أفريقيا شهرة مستفيضة ومركزا مرموقا في تاريخ الاستكشافات الأوربية في أفريقيا بعد البطل لفنستون (Living Stone). وقد كلفت الجمعية منجو بارك فـي رحلته الأولى بمهمة تحديد مجرى ومصب نهر النيجر وجمع المعلومات عن الشعـــوب المختلفة التي تسكن شواطئ هذا النهر. وقد تعرض منجو بارك لأنواع من المشاكل العويصـــة والعقبات الكأداء في رحلته الأولى. ١٢١٠هـ ١٧٩٥م حتى وصل إلى ذلك النهر الذي صرح عند وصوله إليه " أنه نهر عظيم يضاحك شمس الصباح ويضارع نهر التيمس (River Thames) في السعة والعمق وهو الهدف الأسمى للجمعية الأفريقيـــة ".(2)

(1) The Niger Journal of Richard & John Lander, ed. Robin Hallett, London, 1965, P. 1

(2) Travels of Mungo Park, ed.Ronald Miller, London, 1954, P. 149

ثم قدم تقريرا عن رحلته إلى الجمعية ذكر فيه أن نهر النيجر يجرى فى بطء نحو الاتجاه الشرقى . وقد قوبل هذا النجاح بتقدير كبير من قبل الجمعية حيث أعلنت عن فتح باب التجارة داخل أفريقيا لجميع الدول الصناعية .

وبعد عشر سنوات قام منجوبارك برحلته الثانية لاستكشاف منفذ ذلك النهر إلى المحيط الأطلسى وقد نودى به عبقرية فذة فى عالم الاستكشافات الأوربية ، ومنذ هذه الفترة تولت الحكومة البريطانية الانفاق على هذا المشروع فوضعت أموالا طائلة تحت تصرف الجمعية الأفريقية لتنفقها فى إنجاز هذا المشروع الكبير . ثم خرج بارك فى الرحلة الثانية على رأس بعثة تضم خمسة وأربعين أوربيا . وقبل أن يلتقى مع النيجر فى مدينة بمكو (Bamako) مات أكثر مرافقيه ضحية الحمى (الملاريا) ثم أخذ يتابع سيره عن طريق غمبيا نازلا مع المجرى فى اتجاه الشرق حتى وصل إلى جنادل بوسا حيث قتل سنة ١٢٢٠هـ ١٨٠٥م.وقد تمكن خادمه الأفريقى إساكو (Issaco) من العودة إلى الشاطئ حيث بعث بتقرير الرحلة الذى كتبه سيده إلى الحكومة البريطانية عن طريق بعض بحارى السفن التجارية البريطانية .

وهناك ثلاث حملات أخرى وجهت إلى نهر النيجر بعد رحلة بارك الثانية كان بعضها من ناحية الشمال عن طريق الصحراء الكبرى والبعض الآخر من ناحية الجنوب عبر المحيط الأطلسى ومع نهر كنغو أو من ناحية الغرب بواسطة الطريق البرى من غمبيا ، ثم مع مجرى النيجر.ولكن جميع هذه الحملات فشلت حيث إنها لم تتمكن من الوصول إلى نهر النيجر .

وفى سنة ١٢٣٨هـ ١٨٢٢م قامت حملة أخرى إلى نهر النيجر وكان على رأس هذه الحملة الدكتور والتر أودنى (Dr. Walter Cudney) يرافقه دكسون دنهام (Major Denham) قائد عسكرى فى الجيش البريطانى ، والقائد البحرى كلابرتون (Captain Clapperton) فى القوات البحرية البريطانية .

وقد تقدمت الحملة من مدينة طرابلس إلى اتجاه الصحراء الكبرى حتى وصل القائدان - كلابرتون ودنهام - بعد موت رئيس الحملة إلى تشاد، فاستكشفوا بحيرة تشاد (Lake Chad) التي تعتبر أكبر البحيرات وأعمقها في أفريقيا. ثم تقدم كل منهما إلى ناحية الجنوب حتى وصل دنهام (Denham) إلى مملكة بونو كما وصل كلابرتون (Clapperton) إلى مدينة سوكوتو (عاصمة الامبراطورية الفولانية) إلا أن موقف بريطانيا تجاه تجارة الرقيق في تلك الفترة قد جعل سلطان بلاد النوبة ومدينة يأوري (Yauri) يمنع القائد كلابرتون (Clapperton) من التقدم نحو المجرى السفلى للنيجر بحثا عن مصبه . . وبعد سنتين من عودة القائد كلابرتون (Clapperton) إلى لندن قام برحلة أخرى، وقد نزل في مدينة بداغرى (Badagry) الواقعة على شاطئ المحيط الأطلسي، ثم تقدم إلى شمال نيجيريا عبر الطريق البرى في غابات بلاد يوربا الكثيفة، إلا أنه مات في مدينة سوكوتو (Sokoto) سنة ١٢٤٣هـ ١٨٢٧م، وقد تمكن خادمه ريتشارد لندار (Richard Lander) من العودة إلى لندن بعد تكبد عدة مصاعب ومشاق، وسلم تقرير الرحلة إلى سكرتير مكتب المستعمرات .

ثم بعد ذلك جاء دور ريتشارد لندار (Richard Lander) وهو خادم القائد كلابرتون (Clapperton)، وتعتبر جهود ريتشارد لندار ختاما لجهود الأوربيين في استكشاف نهر النيجر بحيث أسفرت عنها نتائج سياسية واقتصادية بعيدة المدى، كانت أوربا تبذل في سبيل تحقيقها مجهودات كبيرة منذ زمن بعيد . وقد استطاع ريتشارد لندار (Richard Lander) وأخوه جون (John) أن يكملا تحديد مجرى نهر النيجر السفلى حتى مصبه في المحيط الأطلسي بعد رحلة دامت سبعة عشر شهرا منذ سنة ١٢٤٥هـ ١٨٢٩م. وقبيل انتهائها من هذه المهمة الكبيرة وقعا أسيرين في أيدى بعض أهالي بلاد أيبو (Ibo)

ولكن لحسن حظهما لم يقتلا وقد تم تسليمهما إلى كابتين توماس ليك (Thomas Lake) في مدينة براس (Brass) الواقعة على منفذ نهر النيجر إلى المحيط.

وقد أثبت الأخوان لندار (Lander Brothers) أن نهر النيجر طريق بحري واسع يربط أقصى غرب بلاد السودان الغربي بشرقها، كما أثبتا أيضا إمكان استخدام هذا الطريق للسفن التجارية الضخمة لنقل التجارة إلى المناطق الداخلية في غرب أفريقيا. وهكذا انتهت مشكلة النيجر بعد أربعين سنة كانت الحكومة البريطانية قد بذلت خلالها مجهودات كبيرة وتكبدت خسائر فادحة في الأموال والأرواح في سبيل حل تلك المشكلة العويصة.

وتجدر الإشارة إلى أن الجمعية الأفريقية لاستكشاف القارة قد غيرت اسمها على أثر الانتهاء من استكشاف نهر النيجر سنة ١٢٤٧هـ ١٨٣١م وأصبحت تعرف منذ تلك الفترة بالجمعية الملكية للعلوم الجغرافية.

ولم تمض فترة طويلة بعد الانتهاء من استكشاف نهر النيجر حتى اعترفت الدول الأوربية الصناعية بهذا الطريق البحري الجديد داخل غرب أفريقيا وقررت استعماله في الشئون التجارية، فكثرت بذلك الشركات التجارية على طول شواطئه وغطت البضائع الأوربية جميع الأسواق على نحو ما شرحناه في المرحلة الثانية لعلاقة بريطانيا التجارية في نيجيريا.

كانت هذه الرحلات الاستكشافية إلى أفريقيا الداخلية ذات أهمية كبرى بالنسبة لمستقبل أوربا في أفريقيا لأن أطماع الأوربيين التوسعية والاستغلالية كانت معلقة إلى حد كبير على نجاح هذه الرحلات. وقد سبق أن قلت إن أوربا ظلت تمارس نشاطها التجاري على طول شواطئ المحيط الأطلسي لمدة ثلاثمائة وخمسين سنة ولم تتمكن من التوغل داخل البلاد إلا بعد نجاح هذه الحركات الاستكشافية التي تعتبر كبرى الوسائل التمهيدية لاحتلال أوربا للبلاد.

وسنبين ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني عن احتلال بريطانيا لدولة نيجيريا إن شاء الله تعالى.

الفصل الثانــي :
احتلال بريطانيا لنيجيريا وآثار غزوها الاستعماري وويلات نظام حكمهـــا ٠

المبحث الأول : احتلال بريطانيا لنيجيريا ٠

المبحث الثاني : آثار الغزو الأوربى ٠

المبحث الثالث : ويلات نظام الحكم الاستعماري في هذه البلاد ٠

الفصل الثاني :

المبحث الاول : احتلال بريطانيا لنيجيريا

قدمت في الفصل السابق حديثا مستفيضا عن أطوار اتصالات الأوربيين ببلاد السودان الغربي حيث حدثت بداية المرحلة الأولى منها بالقرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي وقد امتدت هذه المرحلة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي . وقد ازدهرت العلاقة التجارية الأوربية في شواطئ بلاد السودان خلال هذه الفترة التي تقدر بنحو ثلاثمائة وخمسين سنة كانت النخاسة هي المادة الأساسية التي قام عليها نشاط الأوربيين الكبير طيلة هذه الفترة الطويلة ، وكان النشاط التجاري الأوربي في هذه المرحلة مقصورا على سواحل المحيط الأطلسي حيث أخذت مختلف الدول الأوربية تتقاتل في تنافس شديد من أجل الحصول على أعداد هائلة من العبيد في أسواق بلاد السودان لأن تجارة الرقيق كانت تعتبر عاملا أساسيا لتنمية الحياة الاقتصادية لجميع الدول الأوربية في ذلك الزمن .

وبحلول منتصف القرن الثامن عشر الميلادي واندلعت نيران الثورات العنيفة في أنحاء أوربا وأدت لسبب أو لآخر إلى محاولة القضاء على تجارة النخاسة وقيام مشروع دراسة جغرافية مجاهل أفريقيا تمهيدا لغزو هذه البلاد واحتلالها واستغلال خيراتها وفرض سيطرة الأوربيين عليها . وقد قررت سابقا أن فترة الكشوف الجغرافية لمجاهل أفريقيا والتي تقدر بأربعين سنة تعتبر الحد الفاصل بين الطورين الأول والثاني في علاقات الأوربيين مع هذه البلاد كما تعتبر إلى حد كبير فترة تمهيدية لها أهميتها الكبرى بالنسبة لمستقبل الأوربيين فيها . فإن الأوربيين الذين ظلوا طيلة ثلاثمائة وخمسين سنة يكتفون بممارسة علاقاتهم التجارية وجميع شئونهم مع بلاد السودان الغربي على طول شواطئ المحيط الأطلسي غير ممكنين من التوغل داخل هذه البلاد قد استطاعوا بعد الانتهاء من استكشاف نهر النيجر مباشرة أن يتوغلوا داخلها بشكل يدعو إلى الخوف والقلق . وما إن دخلوها حتى احتلوها واستغلوا خيراتها وفرضوا سيطرتهم على أهاليها ردحا غير يسير من الزمن .

ويأتي الطور الثاني في اتصال الأوربيين بهذه البلاد على النحو الذي شرحته سابقا بعد الانتهاء من عملية استكشاف نهر النيجر سنة ١٢٤٦هـ ١٨٣٠م وقد أبدت الدول الأوربية

اهتماما كبيرا بالشئون التجارية ونشر المسيحية ومحاولة الإطاحة بالحكومات المحلية القائمة وبسبب طموح كل دولة من الدول الأوربية المستعمرة في استغلال خيرات هذه البلاد خالصة من دون بقية أخواتها قامت روح التنافس الشديد في صفوف هذه الدول وأدت في نهاية الأمر إلى نزاع كبير حول تقسيم بلدان أفريقيا بينها حتى اضطروا إلى عقد مؤتمرين دوليين كان الأول في برلين والثاني في بروكسل لمحاولة ايجاد حل فاصل لذلك النزاع الخطير. وفي أثناء هذه المرحلة الثانية من تاريخ الأوربيين في بلاد السودان الغربي تم احتلالهم لجميع مناطق هذه البلاد .

ولو ألقينا نظرة خاطفة على أساليب الدول الأوربية المستعمرة وخططها في احتلال مختلف بلدان أفريقيا لرأينا أن بعضها لا يختلف كثيرا عن البعض الآخر لأن أساسها قائم على ركيزة المكر والخداع والبطش ، فالحقيقة أن الاختلاف فيها كان فقط في حسن اختيار الخطة المناسبة لكل بلد ، الكفيلة باخضاعه لسلطة المحتلين المتسلطين . وقد تنتهج إحدى الدول الاستعمارية خططا وأساليب متنوعة في احتلال مناطق مختلفة في البلد الواحد طبقا لما تمليه الظروف القائمة فيها كما هو الحال في احتلال بريطانيا لنيجيريا .

ومنذ بداية المرحلة الثانية النشطة في تاريخ الأوربيين في هذه البلاد ومع انفتاح ابواب مناطق بلاد السودان أمام أطماع أوربا التجارية والتوسعية وحقدها الصليبي العريق، أخذ الأوربيون يخلقون الأجواء الملائمة في شتى المجتمعات الأفريقية ويترقبون الظروف المناسبة التي يمكن استغلالها لاحتلال هذه البلاد .

إن تقلبات الأمور والأحوال التي ظهرت في مختلف مناطق هذه البلاد في شتى ميادين الحياة منذ أن وطئت أقدام الأوربيين أرض البلاد كانت تسير وفق المصالح الأوربية المختلفة بحيث صارت أفريقيا في أيدي الأوربيين كالريش في الهواء لا إرادة لها ولا حرية ولا اختيار . إنهم هم الذين أحدثوا تجارة الرقيق في شواطئ أفريقيا ومارسوها قرونا

طويلة وجروا على الناس الأحرار ويلات وويلات ثم عادوا ينادون بالغاء النخاسة بعد أن سبب لهم العبيد المتاعب الجسيمة والمشاكل العويصة وأخذ الانحطاط الاقتصادى يدب فى عروق الدول الأوربية إلى أن قامت الثورة الصناعية باختراع الآلات وأصبحت حاجة أوربا إلى غلات أفريقيا وحاصلاتها أكبر من مصلحتها فى شراء العبيد وبيعهم ، فظهر ما أسموه بالتجارة الشرعية الحرة،هذا بالإضافة إلى أن وجود هؤلاء العبيد فى بلادهم الأصلية ومنع خروجهم منها فى صورة رقيق أصبح أكثر ربحا لأولئك الأوربيين الذين احتلوا البلاد لأنهم يقومون باستغلالهم فى زراعة الأرض ونقل البضائع فى داخل البلاد بأرخص الأثمان ويستولون على حصيلة جهودهم فكأنهم أبقوهم ليسترقوهم فى الداخل بدلا من بيعهم رقيقا فى الخارج متظاهرين فى الوقت ذاته بأنهم ضد النخاسة ، وأنهم ينطلقون من مشاعر إنسانية رقيقة .

إن منافسة بعض الدول الأوربية للبعض الآخر فى وضع اليد على مناطق أفريقيا استعمارا واستغلالا قد أدت إلى قيام كل دولة بفرض حمايتها على منطقة نفوذها لدفع أخطار الدول الأخرى المنافسة لها ، إنهم هم الذين صنعوا المشاكل والأخطار ثم راحوا بعد ذلك يدعون مسئولية حماية الناس منها،ليتهم لم يصنعوها حتى لا يحوجهم صنعها إلى تحمل المسؤولية ولا اتخاذ الوقايات!

كان الأوربيون يتحينون الفرص المناسبة ويترقبون الأزمات الداخلية القائمة ليجوسوا خلال الديار ويفعلوا ما يشاؤون ويضربوا الحابل بالنابل حتى تتضخم الأزمة ويتفاقم خطرها وتضطرب وسائل الأمن والاستقرار ثم يخرجوا من مخبئهم ومكمنهم ليستغلوا تلك الظروف ويكملوا ما بقى من حلقات الخطط المدبرة للحصول على مطامعهم فى هذه البلاد .

وقد أخذت عملية غزو بريطانيا لدولة نيجيريا صورة تدريجية كانت مدينة لاجوس أول بقعة

من أرض البلاد تقع تحت نيّر الاستعمار البريطانى ثم جاءت بعدها مناطق جنوب البلاد — شرقيها وغربيها — وكان آخر ما وقع فى هذا المأزق مناطق شمال البلاد الفسيحة الأرجاء.

لقد تمكنت بريطانيا فى مدن نيجيريا الواقعة على شواطئ المحيط مثل مدينة لاجوس وبداغرى وغيرها منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادى وبدأت نشاطها التجارى فيها على نطاق واسع وكانت جهودها تجاه إلغاء تجارة الرقيق آخذة فى الازدياد يوما بعد يوم فى صورة تدخل عسكرى يدعو إلى القلق والخوف فقد أنشأت المعسكرات الحربية فى أماكن كثيرة على طول الشواطئ وكانت تبعث الفرق العسكرية الجوالة لحمل الحكام المحليين على تنفيذ قانون منع النخاسة وعقد العلاقات التجارية معها.

ثم أخذت ترسل البعثات التجارية والارساليات التبشيرية إلى هذه البلاد منذ هذا التاريخ وبدأ تجارها ومبشروها فى التوغل داخل المناطق المطلة على نهر النيجر فكثرت شركاتها التجارية والارساليات التبشيرية من جميع الفرق المسيحية حتى اضطرت كما زعمت إلى تعيين مندوب لها كسفير مفاوض لإصلاح ذات بين التجار البريطانيين والحكام المحليين حول الشئون التجارية. وعيّنت جون بيقروفت (Beecroft) سنة ١٢٦٦هـ ١٨٤٩م كأول مندوب لها فى هذه المنطقة.

وبسبب أن مدينة لاجوس كانت تتمتع بأهمية كبيرة باعتبارها المنفذ الوحيد إلى داخل مناطق بلاد يوربا الغنية بالثروات الطبيعية وعدم خضوع ملكها الملك كوسوكو لمطامع البريطانيين وممارسته الضغط الشديد على نشاط المبشرين فى هذه المنطقة فقد انتهز المندوب البريطانى فرصة وقوع النزاع داخل الأسرة المالكة ليستغلها فى صالحه للإطاحة بذلك الملك. وقد دأبت بريطانيا على إخفاء الحقيقة وتزوير الأباطيل لضمان نجاح خططها المدبرة ومؤامرتها المبيتة فى وسط الظلام الحالك.

إن الملك كوسوكو (King Kosoko) المناوئ لبريطانيا لم يكن يقبل الخضوع المذل لمصالح الأوربيين على حساب بلاده المستغلة وقد لاحظ خطر أعمال المبشرين في مدينة أبيوكوتا (Abeokuta) المجاورة فضغط عليهم ضغطا شديدا حتى باءت جهودهم بالفشل واضطروا إلى رفع الشكوى إلى المكتب البريطاني للشئون الخارجية. فأصدر المكتب أوامره إلى المندوب البريطاني باتخاذ موقف حاسم نحو مشكلة هذا الملك .

وقد وجد المندوب البريطاني والمبشرون ما أرادوه في شخصية الملك أكيتوي (Akitoye) المنازع للملك كوسوكو فوقفوا إلى جانبه فادعوا أنه محب للسلام ومعاد للاسترقاق ووضعوا القوة البحرية البريطانية في خدمته فاستطاع أن يتغلب على عدوه واعتلى عرش المدينة سنة ١٢٦٨هـ ١٨٥١م.

إن كل ما أرادته بريطانيا من وراء هذه العطية هو التخلص من خطر الملك كوسوكو بأي وسيلة لأنه وقف ضد مصالحها في هذه البلاد .

وماذا يا ترى يكون موقف هذا الملك الجديد من الحكومة البريطانية وقد رأينا أنه لم يتمكن من تحقيق النصر على عدوه إلا بسبب جهود القوة البحرية البريطانية ولم يعيّن ملكا على المدينة بعد المعركة إلا على يد المندوب البريطاني ؟ فهل تكون للملك الجديد إرادة مستقلة وسلطة فعّالة؟ لقد رأينا الملك يوقع على معاهدة مع بريطانيا على أثر توليه منصب الحكم تقضي بمنح بريطانيا حق إقامة علاقة تجارية مع بلاده وضمان المحافظة على مصالحها فيها وحماية المبشرين ومناصرتهم ووقف التجارة في الرقيق وقبول تعيين نائب القنصل في المدينة لضمان تنفيذ فقرات المعاهدة ثم بعد هذا وضع القنصل البريطاني قوة بحرية في المدينة كان مهمتها حفظ الامن ودفع أخطار الملك المخلوع . " ولما تزايدت أطماع بريطانيا في خيرات هذه البلاد اقترح القنصل برند (Brand) على وزارة الخارجية البريطانية ضرورة فرض

حمايتها على المدينة" وادعت الوزارة" أنها لم تكن لتوافق على هذا الاقتراح لولا خوفها من خطر غزو فرنسا التي تحاول أن تسبقها إلى احتلال المدينة بإرسالها الوفد إلى الملك دوسومو (King Docemo) ".(١)

هذا ما قالته الوزارة البريطانية ولكننا عرفنا ملامح استعداد بريطانيا لاحتلال المدينة منذ أمد بعيد.

وقد ازداد ذلك وضوحا عندما وصلت الفرقة العسكرية البريطانية إلى مدينة لاجوس. فقد ذكرت أنها جاءت لتدريب أهالي منطقة أيبا (Egba) على الفنون العسكرية الحديثة للدفاع المدني، ولكن تحويل مهمة هذه القوة العسكرية إلى حراسة القنصل البريطاني في لاجوس دليل على أن بريطانيا كانت تتأهب لاعلان سيطرتها على المدينة فاعتمدت على هذه القوات لتحقيق هذا الهدف. ولم تمر فترة طويلة حتى أصدرت وزارة الخارجية البريطانية أوامرها إلى القنصل باحتلال المدينة تحت هذه الادعاءات الكاذبة التي تقول بأن "احتلال مدينة لاجوس كان لحماية سكانها الأحرار من أخطار تجار النخاسة والمختطفين الذين كانوا يضغطون عليهم منذ زمن بعيد، وتنمية النشاط التجاري الذي بدأ يزدهر في بلادهم واستخدام السلطة على القبائل المجاورة مما سيكون ذا فائدة كبيرة كما يتوقع للجنس الأفريقي في المستقبل ".(٢)

وفي سنة ١٢٧٨هـ ١٨٦١م أرغمت السلطة البريطانية الملك دوسومو (King Docemo) على تسليم سلطة المدينة إلى القائم بأعمال القنصلية البريطانية مكوسكر (Mckoskry) مقابل راتب تقاعدي قدره ألف وثلاثون جنيها يتقاضاه كل سنة.

---

(1) Michael Crowder, <u>The Story of Nigeria</u>, London, 1973, P.168

(2) Cited in Michael Crowder, op.cit., P.169

وقد أطلق على هذه المنطقة منذ هذا التاريخ مستعمرة لاجوس البريطانية وعيّن هنري ستنهوب فريمن (Henry S.Freeman) حاكما على المدينة .

وبذلك بدأ عهد جديد في تاريخ علاقة بريطانيا بهذا الجزء من سواحل المحيط الأطلسي وهكذا نرى كيف استطاعت بريطانيا أن تستغل حركة " دعاة الإنسانية "(١) التي قامت على إلغاء النخاسة وفتح أبواب التجارة " الشرعية الحرة " لتحقيق أطماعها التوسعية معتمدة على ما تتذرع به من ضرورة تقدم النشاط التجاري وتنميته في المدينة وضمان وصوله إلى المناطق الداخلية لتحقيق وسائل الأمن والرخاء الاقتصادي في ربوع البلاد .

أما بالنسبة لمناطق نيجيريا الشرقية فقد أخذت تزدهر فيها العلاقة التجارية البريطانية حيث انتشرت فيها الشركات وكان التجار البريطانيون يتمتعون بنفوذ كبير حتى استطاعوا بفضل مساعدة التجار المحليين أن ينشئوا محاكم العدل البريطانية في المدن الهامة في هذه المنطقة سنة ١٢٧١هـ ١٨٥٤م التي كانت مهمتها النظر في الشئون التجارية ووضع القوانين والأنظمة المتبعة فيها وحمل الناس على اتباعها .

وكان الضعف التدريجي الذي أخذ يسري في نفوذ الحكومة المركزية القائمة في منطقة بوني (Bonny) الشرقية في عهد الملك وليام بيبول الخامس (King William Pepple V) الذي كان وثنيا وتنصر على أيدي المبشرين ، هو الذي شجع هؤلاء التجار البريطانيين على إنشاء مثل هذه المحاكم . وهناك دلائل كثيرة تشير إلى أن بريطانيا كانت راغبة في استعمال القوة لدعم نشاطها التجاري وضمان تقدمه كما فعلت في مستعمرة لاجوس بسبب ما كان يعانيه التجار البريطانيون من الضغط الشديد من جانب الملك بيبول الخامس (King Pepple) الذي كان يأبى الخضوع لمطامع بريطانيا في استغلال خيرات بلاده .

---

(١) أشرنا فيما سبق إلى ما تخفيه هذه الحركة من أطماع تتستر وراءها بدعوى الإنسانية .

ولما استفحل خطر هذا الملك على هؤلاء التجار البريطانيين استنجدوا بالمندوب بيقرفت (Beecroft) الذى كان يتولى رياسة محاكم العدل البريطانية، وقد قام المندوب باستعمال القوة لنفى هذا الملك من البلاد ثم عقد معاهدة مع الأمراء على عدم تدخلهم فى الشئون التجارية اعتبارا بالأزمة التى أدت إلى سقوط ملكهم الأول . ولم تمض فترة طويلة حتى اضطر المندوب إلى إعادة هذا الملك من منفاه ليتولى زمام الأمر مرة أخرى وذلك بسبب اضطراب وسائل الأمن وعدم الاستقرار فى المنطقة . ومع هذا فقد ظهرت سيادة حكم محكمة العدل البريطانية وأصبحت المنطقة فى نظر بريطانيا مستعمرة منذ هذا التاريخ ولكن القائم بأعمال القنصلية البريطانية لنسلاغار (Lynslager) كان يخادع أهالى المنطقة ويقول لهم فى أثناء قيام هذه الأزمة السياسية : إن الأوربى لا يملك أى حق مشروع فى التدخل فى شئون هذه البلاد لأنه رجل أجنبى فى هذه المنطقة . وكذلك فعلت بريطانيا عندما دمرت جيوشها مدينة كلابار القديمة (Old Calabar) سنة ١٢٧٢هـ ١٨٥٦م ولفقت ضدها كذبا وبهتانا تهمة الإصرار على ارتكاب جرائم قتل الجنس البشرى لتقديم ضحايا بشرية فى المناسبات والأعياد التقليدية ولكن مبشرى الكنيسة الاسكتلندية الذين كانوا يعملون فى هذه المدينة احتجوا على هذا العمل الشنيع وقالوا إن الهدف من تدمير هذه المدينة لم يكن سوى إظهار القوة الكبيرة التى تتمتع بها القنصلية البريطانية مع أنه لا يوجد لها فيها مركز تجارى حتى ترهب المدن الأخرى التى ترغب فى اخضاعها لنفوذها التجارى . وقد صرح قائد الحملة الإنكليزية بعد تدمير مدينة أونتشا (Onitsha) بهدف حكومته من هذه العملية حيث قال : " سيكون لنجاح حملتنا فى تدمير مدينة أونتشا الأثر البالغ فى اخضاع المناطق المطلة على شواطئ نهر النيجر فى المستقبل القريب" ، وقد وفد عليها المبشرون والتجار جميعا لتقديم شكرهم الكبير لما حققته هذه الحملة من نجاح كبير له أبعاده الكبيرة فى المستقبل[1] وإذا رأينا ما كان من تدخل القنصلية البريطانية فى شئون الحكم فى مدينة لاغوس ومنطقة بونى (Bonny) وكلابار القديمة (Calabar) وفى جميع مناطق نيجيريا على ما سنشرحه فيما بعد

(1) Cited in JC.Anene, Southern Nigeria in Transition Cambridge, 1966,P.41

فلا يخدعنا ما كان يقوله القنصل البريطاني في تحديد مناهج سياسته في البلاد بأن مهمة القنصل في هذه البلاد هي أن يتولى شئون رعايا الحكومة البريطانية في هذه البلاد من التجار والمبشرين وإقامة الحكم بينهم وتسوية ما قد يحدث من نزاع بينهم وبين شعوب البلاد التي يقطنونها والعمل على تقدم شئونهم التجارية وأعمالهم التبشيرية والمحافظة على ممتلكات التجار وليس له حق التدخل في شئون البلاد الخاصة بأي حال من الأحوال لأنه رجل أجنبي في هذه المنطقة.

وقد كانت جهود الشركات التجارية كبيرة في مختلف مناطق جنوب نيجيريا وكان لها مركز تجاري في كل مدينة في منطقة أنهار الزيت (Oil Rivers) وكانت منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حتى سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩٠م تعقد المعاهدات مع ملوك هذه المناطق لحمايتهم من خطر الغزو الأجنبي وقد اشتهرت هذه المعاهدات عند المؤرخين بمعاهدات الحماية على الأوراق " Paper Protectorate " لعدم فاعليتها وقلة أهميتها في الأوساط المحلية. ولما طلب الملك جاجا ملك منطقة أبوبو في جنوب نيجيريا (King Jaja of Opobo) من المندوب البريطاني هيوت (Hewett) شرح كلمة الحماية التي فرضت على بلاده قال المندوب: (إن ملكة بريطانيا لم تكن راغبة إطلاقا في احتلال بلادك ولا احتلال ما فيها من الأسواق ولكنها في نفس الوقت تكون قلقة البال أن ترى دولة أخرى تحتلها لذلك تحملت مسؤولية بسط يد رعايتها وحمايتها على بلادك لتضمن بقائها تحت سلطتك إلى الأبد)(٢) ولكن تفسير نائب القنصل جنستون (H.H.Johnson) كان صريحا واضحا جدا حيث قال: (إن نظام الحماية البريطانية كان مبدئيا لهدف إبعاد فرنسا وألمانيا عن حلبة النزاع من أجل التوسع الإقليمي في هذه البلاد حتى تستطيع بريطانيا التوغل داخل البلاد متى ما سنحت لها الفرصة)(٣).

كانت مصالح بريطانيا التوسعية والتجارية والصليبية فوق كل الاعتبارات في تلك المعاهدات ولهذا فإن أي ملك يعمل ضد هذه المصالح أو يحول بين بريطانيا وبين نيل مطامعها سيكون

---

(1) J.C.Aneme, op.cit., P.33

(2) Ibid.,P. 66

(3) Ibid., P.82

عرضة لضياع الحكم من يده واحتلال بريطانيا لبلاده حتى ولو كان يحكم بلاده بالعدل واستتب الأمن والاستقرار في عهده وازدهرت فيه/مرافق الحياة .

وقد كان نفي الملك جاجا ملك منطقة ابوبو والملك نانا ملك منطقة نهر بنين من بلادهما قائما على هذا الأساس . لهذا قال أنيني (Anene) في كتابه " جنوب نيجيريا في مرحلة الانتقال " : " وإذا كانت هناك حالة تدهور خطيرة في استقرار الأمن الداخلي في كثير من الحكومات المحلية على طول شواطئ نيجيريا فإن القنصل البريطاني والتجار البريطانيين قد ساهموا كثيرا في تلك الأزمة القائمة،ولم يكن نفي الملك جاجا والملك نانا من بلادهما بسبب عدم قدرتهما على إقرار الأمن وإقامة الحكم العادل على رعاياهما في بلادهما وإنما كان بسبب عدم خضوعهما لمصالح بريطانيا في هذه البلاد " (1) ويقول أحد الوكلاء البريطانيين في رسالة تحت عنوان " مسؤولياتنا تجاه الشعوب الأفريقية ": وقد ظلم التجار البريطانيون هذه الشعوب ودمر القواد البريطانيون معظم بلادهم ولم تجد هذه الشعوب من الحكم البريطاني إلا فائدة قليلة جدا " (٢) .

وقد ظلت شئون منطقة شرق نيجيريا تتقلب في أيدى التجار البريطانيين واستفاض فيها نفوذهم السياسي حتى اضطرت الحكومة البريطانية إلى منحهم الإجازة الملكية لتولى شئون الحكم فيها سنة ١٣٠٤هـ ١٨٨٦م بعد مؤتمر برلين .

ولما تضايق أهالي البلاد من معاملات رؤساء الشركات وظلمهم للناس باستعمال العنف لتحقيق مصالحهم الذاتية،بعث الملوك وفودا إلى مكتب المستعمرات بلندن لتقديم الاحتجاج ضد هؤلاء التجار . وقد أرسل المكتب لجنة التحقيق وكانت النتيجة اقتراح اللجنة على الحكومة تولى زمام الحكم في هذه البلاد (تحقيقا للعدالة ودفعا للجور والظلم عن هذه الشعوب) ووافقت الحكومة البريطانية على هذا الاقتراح وأنشأت حكومة منظمة في هذه المناطق عام ١٣٠٩هـ ١٨٩١م وأطلقت عليها محمية أنهار الزيت البريطانية (British Oil Rivers Protectorate)

---

(1) J.C.Anene, op.cit., P.108

(2) F,O.84/1882, Memo on the British Protectorate of the Oil Rivers 24 July, 1888, cited in J.C.Anene op.cit., P.113

وعينت رئيس تلك اللجنة ميجور كلود ماكد ونالد (Major C.Macdonald) القنصل البريطاني الأعلى على هذه المناطق . وقد صرح القنصل اثر وصوله البلاد أنه سينتهج نظام الحكم غير المباشر وهو حكم الإدارة الاستعمارية على بلد ما بواسطة القوانين المحلية الموجودة وهكذا تم احتلال بريطانيا لجنوب نيجيريا .

كان للمؤتمرين الدوليين المعقودين في برلين وبروكسل أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ احتلال الأوربيين لبلدان غرب أفريقيا في القرن التاسع عشر الميلادي حيث يعتبر مؤتمر برلين سنة ١٣٠٢-١٣٠٣هـ ١٨٨٤م- ١٨٨٥م بداية مرحلة الأعمال الجديدة ونقطة تحول خطيرة في علاقة الأوربيين مع هذه البلاد ، كما أن مؤتمر بروكسل سنة ١٣٠٧هـ ١٣٠٨هجرية ١٨٨٩م- ١٨٩٠م هو الذي اعتمد استعمال القوة العسكرية للإطاحة بجميع الحكومات المحلية القائمة في غرب أفريقيا .

وقد أدى التنافس الشديد بين الدول الاستعمارية حول اقتسام أفريقيا الغربية واحتكار بعض شركات هذه الدول للتجارة المحلية على طول مناطق جنوب نيجيريا بمنع حرية الملاحة على نهر النيجر ، إلى معاداة بعض هذه الدول للبعض الآخر . وظلت هذه المعاوة تهدد الأمن الأوربي فترة من الزمن . وإن أسباب قيام هذين المؤتمرين والظروف المحيطة بهما ، والحقيقة الكامنة وراء هذه الأسباب وتلك الظروف ، وما أدى إليه هذان المؤتمران من نتائج وما حققاه من أهداف ، كانت كافية لإبطال ما تدعية الدول الأوربية من أن أعمالها في هذه البلاد كانت بدوافع روح الانسانية ونشر الحضارة الغربية والديانة المسيحية ورفع المستوى الاقتصادي لمصلحة الشعوب الأفريقية .

وإن الظروف القاسية التي واجهت بريطانيا قبل مؤتمر برلين بسبب منافسة فرنسا وألمانيا لها في شواطئ غرب أفريقيا وعلى طول مناطق نهر النيجر ، هي التي أدت بتجار بريطانيا إلى اتخاذ قرار عقد المعاهدات مع الحكام المحليين لإثبات صحة دعواها في شرعية قيام نفوذها السياسي والتجاري في هذه المناطق على الصعيد الدولي .

وقد إتفقت الدول الأوربية المستعمرة في هذا المؤتمر على حرية التنقل لجميع رعاياها

داخل أفريقيا وحرية الملاحة على نهر النيجر وفتح أبواب افريقيا لدخول " الحضارة الأوربية " التي هي في حقيقتها الاستعمار والتبشير المسيحي الفاسد العقيدة ، وبذلك يمكن القضاء على أخطار النخاسة فيها على حد زعمهم.وقد تحددت قواعد الاستعمار الجديد بقرار المؤتمر الذي ينص على أن من حق أية دولة أوربية مستقرة على شاطئ أي بلد من غرب أفريقيا أن تطالب بالأراضي الممتدة داخل ذلك البلد . وأن أي احتلال أوربي لبلدان غرب أفريقيا لا يصير نافذا إلّا بإبلاغ الدول الأعضاء الموقعة على الاتفاقية . وبهذا توطدت نظرية منطقة النفوذ .

وتجدر الاشارة إلى أنه لا يمكن الاعتماد على كل ما ذكره الكتاب البريطانيون والببغاوات الأفارقة عن أسباب وأهداف ونتائج هذين المؤتمرين لأن رواياتهم كانت بعيدة عن الحقيقة ومخالفة لما هو واقع الأمر لأنهم كانوا يتكلمون بألسنة خاصة اصطلحوا عليها لها معان باطنية مضمرة وأخرى ظاهرة مع أن كلا المعاني الظاهرة والمضمرة لا ترمز إلى الحقائق إلّا من زوايا بعيدة وبواسطة تلمس القرائن وبناء النتائج على المقدمات .

ولست أرغب في مناقشة كل ما قيل عن هذين المؤتمرين . ولكن عندما نرى الكتاب يذكرون أن الهدف من مؤتمر بروكسل هو تقرير واجبات الدول الأوربية نحو الشعوب الأفريقية . فهل هم صادقون في هذا ؟ إنهم صادقون إن كان مرادهم بتلك الواجبات هو ما شهدته السنوات التي تلت هذا المؤتمر من استعمال القوة العسكرية لاحتلال جميع مناطق هذه البلاد .

ومنذ سقوط مدينة لاجوس تحت الاحتلال البريطاني حتى ثمانينات القرن التاسع عشر الميلادي لم تستطيع بريطانيا التوغل داخل بلاد يوربا ـ غرب نيجيريا ـ بسبب الحروب الأهلية القائمة منذ بداية ذلك القرن نتيجة سقوط مملكة أويو" الوثنية " (Oyo Empire) تحت زحف الجهاد الاسلامي الذي قام في شمال نيجيريا . وقد أدى سقوط هذه المملكة إلى تفكك عناصر القوة فيها وتنازع زعمائها وضعف سلطة الملك في حفظ الأمن والاستقرار في أنحاء المملكة .

كانت هذه الحروب عقبة كأداء في وجه أطماع بريطانيا في هذه البلاد . وإن محاولات بريطانيا الأولية من أجل تسوية الخلافات القائمة بين زعماء بلاد يوربا قد باءت بالفشل الذريع " وقد اقتنع مندوبو بريطانيا بناء على تجاربهم وخبراتهم في السنوات ما بين سنة ١٢٦٧هـ وبين ١٢٨٢هـ (١٨٥٠م - ١٨٦٥م) في محاولة حل الأزمة القائمة في بلاد يوربا أن الضرورة القصوى توحي باحتلال بريطاني لهذه البلاد من أجل فتح أبوابها للتجارة الحرة، وإن أي بديل لهذا الحل النهائي فهو خليق بالفشل ". (١)

يقول صاحب كتاب مملكة أويو الحديثة : " إن قيام النفوذ البريطاني واتساعه في بلاد يوربا كان بسبب جهود الجمعيات التبشيرية، فهي التي ربطت عجلة ملوك بلاد يوربا بقاطرة الحكومة البريطانية الاستعمارية ". (٢)

وقد بدأ مجموعة من المبشرين بتنظيم حركة تحت زعامة القسيس أبراهام فاشينا فوستار (Rev.A.F.Foster) تطالب الملك ألافن (King Alafin) ملك بلاد يوربا بالمبادرة إلى طلب مساعدة الحكومة البريطانية في مستعمرة لاجوس لإنهاء الحالة المتدهورة بسبب الحروب الأهلية القائمة في البلاد . وقد لعب هؤلاء المبشرون أدوارا هامة في تثبيت أغلال الاحتلال البريطاني في أيدي ملوك هذه البلاد .

وتجدر الإشارة إلى أن غزو القوى الأوربية لمناطق بلاد غرب أفريقيا كان يسير عادة على احدى هذه الطرق الثلاثة :

<u>الطريقة الاولى</u> :- هي أن تستقر شركة تجارية لبعض الدول الأوربية في مكان ما لمزاولة أعمالها التجارية ثم بعد فترة وجيزة تستغل الأوضاع والظروف القائمة لتعلن سيادة حكم دولتها على تلك المنطقة .

<u>الثانية</u> :- أن تنشئ إحدى الدول الأوربية قنصلية لها في بعض المناطق الأفريقية لعقد المعاهدات مع الملوك لوقف تجارة الرقيق وإنشاء التجارة الحرة . وقد احتلت الدول

(1) M.Crowder., op. cit., P. 171-172
(2) J.A.Atanda., <u>The New OyoEmpire</u>, London, 1973, P.45

الأوربية مناطق واسعة فى أفريقيا معتمدة على هذه المعاهدات التى لا أهمية لكثير منهـــا فى الحقيقة وواقع الأمـــر.

الثالثـــــة :ـ أن تستعمل هذه الدول القوة العسكرية للإطاحة ببعض الحكومـــات القائمة.وقد تمكنت من إحراز انتصارات كبيرة بسبب خبراتها العسكرية الفائقةوما تملكه مـــن الأسلحة النارية الحديثـــة.

ويلاحظ أن بريطانيا لم تستعمل واحدة من هذه الطرق الثلاثة المشهورة وإنمـــا اعتمدت فى سيطرتها على مناطق بلاد يوربا على تلك المعاهدات المعقودة بينها وبـــين ملك بلاد يوربا فى السنوات ما بين ١٣٠٤هـ وسنة ١٣١١هـ(١٨٨٦م وسنـــة ١٨٩٣م)لمحاولة إنهاء الحروب الأهلية القائمة فى أنحاء هذه البلاد ولكن الحاكـــم البريطانى على مستعمرة لاجوس" كان يصرح فى هذه الأثناء بعدم رغبة حكومته فى نـــزع الحاكمية العليا من يد الملك ألافن (King/Alafin) ملك بلاد يوربا وعدم رغبتها كذلـــك فى احتلال أى جزء من هذه البلاد الواسعـــة"[1].

ونورد فيما يلى أهم فقرات معاهدة سنة ١٣٠٦هـ ١٨٨٨م

الفقرة الأولـــى :ـ أتعهد أنا الملك ألافن ملك بلاد يوربا بإعطاء الرعايا البريطانيين الحرية الكاملة فى إقامة علاقات تجارية مع جميع البلاد الناطقة بلغة يوربا تشمل جميع البضائع الـــتى يرغبون فى بيعها وشرائها فيها،كما أتعهد بعدم إعطاء مثل هذه الفرصة أو منح هـــذا المجال للتجار الآخرين غير البريطانيين.

الفقرة الثانيـــة :ـ سأتولى حسب استطاعتى إنشاء أسواق جديدة لتقدم النشاط التجـــارى كما أتعهد بتأمين جميع طرق المواصلات فى ربوع المملكة حتى نهر النيجر شرقا وشمـــالا وإلى اتجاه شواطئ المحيط الأطلسى جنوبـــا.

الفقرة الثالثـــة :ـ وقد وافقت على عدم التخلى عن أية منطقة من بلادى أو عقد أية معاهـــدة مع إحدى الدول الأوربية الصناعية بعد التى تمت مع بريطانيا بدون إخطار الحاكم البريطانـــى على مستعمرة لاجوس بذلك وأخذ موافقته ورضاه مدة وجود الحماية البريطانية على تلك المستعمرة.

---

(1) J.A.Atanda, op.cit.,P.48

الفقرة الرابعة :ــ وفى حالة التزامي بكل الفقرات الواردة فى هذه المعاهدة باخلاص فإن الحكومة البريطانية فى لاجوس ستقدم لى هدية سنوية قدرها مائتا كيس من الودعة[1] كمـــا أنها لا تجد بدا من إلغاء هذه الهدية واسترجاع ما قد استوفيت سابقا فى حالة إخلالـى بأى فقرة من الفقرات أو حسب ما يراه الحاكم مناسبا . (٢)

ولم تكن الحكومة البريطانية لتكتفى بمعاهدة سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٦م الخاصة بإنهـــاء الحروب الأهلية ولا بمعاهدة سنة ١٣٠٦هـ ١٨٨٨م بخصوص قبول ملوك هذه البـــلاد إقامة علاقات تجارية معها بل حدا بها الطمع الشديد إلى التدخل الحقيقى فى شئـــون الحكم. وقد أخذت تتدرج فى تنفيذ مخططاتها الاحتلالية طبق دراسة عميقة الجذور حيـــث انتقلت من دور الوساطة بين الأطراف المتنازعة إلى فرض المعاهدة التجارية على الملـــوك ثم فى النهاية إلى الاحتلال والاستعمار الذى ظهر جليا فى معاهدة سنة ١٣١١هـ ١٨٩٣م التى ننقل منها هذه الفقرات المهمة.

الفقرة الأولى :ــ أنا الموقع أدناه الملك ألافن ملك بلاد يوربا أتعهد بقبول سيادة حكـــم القانون فى هذه البلاد بين الرعايا البريطانيين وبين رعايا بلاد يوربا ، كما أتعهد بقبـــول رفع أى خلاف أو نزاع يقوم بيننا وبين رعايا بريطانيا إلى الحاكم البريطانى على مستعمـــرة لاجوس الذى يكون حكمه حاسما لا يمكن معارضته بأى حال من الأحوال .

الفقرة الثانية :ــ وإن للرعايا البريطانيين الإذن الكامل لدخول جميع بلاد يوربا كما يكون لهم الحق فى بناء الدور وحيازة الممتلكات طبقا للقوانين المتبعة فى هذه البلاد كما ستكون لهم الحرية التامة فى الصناعة والقيام بشئونهم التجارية على الأسس التى سيقررها الحاكم البريطانى فى لاجـــوس.

الفقرة الثالثـــة :ــ وأتعهد بكفالة الحماية الكاملة وتقديم المساعدات والتشجيعات اللازمـــة لجميع الإرساليات التبشيرية فى هذه البـــلاد .

---

(١) الودعة : صدفة صفراء أو بيضاء تستخدم كعملة فى بعض بلدان أفريقيا قديمـــا .

(2) Samuel Johnson., The History of the Yorubas, Great Britain, 1973, P.574-575

علو, J.A Atanda, op.cit., P.302

الفقرة الرابعة : وقد وافقت على تعيين حكمين من الطرفين الموقعين على هذه المعاهدة عند حدوث أي نزاع بينهما يكون أحدهما من قبل الحاكم البريطاني على مستعمرة لاجوس والآخر من قبل الملك ألافن ملك بلاد يوربا لإجراء التحقيق وإصدار الحكم العادل للفصل في ذلك النزاع . وفي حالة اختلاف وجهة نظر الحكمين وعدم اتفاقهما على حكم، يرد الأمر إلى الحاكم البريطاني على لاجوس وسيكون حكمه في المسألة حاسما لا يمكن الاعتراض عليه البتة"(1) وقد أصبحت بلاد يوربا مستعمرة بريطانية بموجب هذه المعاهدة الأخيرة لذلك عينت الحكومة البريطانية كابتين بووير (Capt. R.Bower) مندوبا ووزيرا متجولا في هذه البلاد سنة ١٣١١هـ ١٨٩٣م وأنشأت معسكرا لقواتها المسلحة في مدينة إبادن، الأمر الذي كان يشكل خطرا بالغا يهدد كيان السلطة في المملكة بأسرها .

وقد كان الملك ألافن ملك بلاد يوربا يعتبر الحكام البريطانيين حتى سنة ١٣١٢هـ ١٨٩٤م وسطاء بين الزعماء المتنازعين، وفي الوقت نفسه مساعدين له في إقرار الأمن في بلاده. وكان يعتمد في ذلك كله على تأكيداتهم له بأن حكومتهم ليست راغبة إطلاقا في التدخل في شئون البلاد الخاصة ولا هي راغبة كذلك في التوسع الإقليمي في بلدان غرب أفريقيا .

ولما قامت أزمة سياسية خطيرة في مدينتي أوكيهو (Okeiho) وإسين (Iseyin) تقدم المندوب البريطاني بووير (Bower) لمساعدة الملك ألافن في حل الأزمة وإعادة الأمور إلى مجاريها الطبيعية، ولكن الحقيقة أنه كان يريد أن ينتهز الفرصة لتأسيس النفوذ البريطاني في هذه المنطقة مما أدى إلى قيام نزاع عنيف بينه وبين الملك الذي رفض الاستسلام لإرادة المندوب التي تهدف إلى تقرير سيادة حكمه وسيطرة حكومته على هذه البلاد . وقد رأى المندوب أنه لا يمكن أن يقر للحكومة البريطانية قرار في بلاد يوربا إلا بعد الإطاحة بحكم ذلك الملك الذي كان يتمتع بنفوذ سياسي كبير رغم ما أحدثته الحروب الأهلية

---

(1) Rev. S.Johnson, op.cit., P.652-654
J.A.Atanda, op.cit., P.304-305

من الوهن والضعف في سلطته الفعلية على بعض مناطق المملكة ، إذ كان قد أخذ يستعيد هذه السلطة بعد الحروب بحيث لو ترك وشأنه لفترة يسيرة لاستحال على بريطانيا التغلب عليه سياسيا وعسكريا . وعندما رفض الملك أن يكون لبريطانيا حق التدخل في شئون بلاده الخاصة وامتنع عن الاستسلام للارادة البريطانية التي تقضي بتجريده عن السلطة العليا في البلاد قرر المندوب البريطاني تدمير عاصمة المملكة . وقد أوعز بذلك إلى المبشرين القاطنين في العاصمة وحذرهم عن الخروج من مراكزهم حيث يكون لهم الأمن والأمان .

وقد تم تدمير العاصمة سنة ١٣١٣هـ ١٨٩٥م حيث جعلت مدافع جيوش الاحتلال البريطاني عاليها سافلها ولم تُبق شيئا قائما على وجه أرض المدينة غير الأطلال التي أكلها لهيب الطلقات النارية العنيفة . وقد أضطر الملك إلى الاستسلام والخضوع للسلطة البريطانية وقلّده المندوب بوور (Bower) زمام أمور البلاد وأعطاه شارة الحكم ثم عيّن على المدينة مندوبا بريطانيا. وقد استفاض الحكم البريطاني في بلاد يوربا بعد سقوط عاصمة المملكة وباتت هذه البلاد جنات دانية القطوف لأطماع المستعمرين ومرتعا خصبا للإرساليات التبشيرية تكالبت جيوشها عليها وأحاطت بها تقاتل دونها كأنها تدافع عن حق موروث كابرا عن كابر .

أما في شمال نيجيريا فقد كانت تقوم حكومة إسلامية قوية منذ فترة قيام الجهاد الاسلامي الكبير الذى قاده الشيخ عثمان بن فوديو. وقد تكونت هذه الدولة الإسلامية الفتية من عدة إمارات كان على رأسها " أمير المؤمنين" ومقره مدينة سوكوتو عاصمة الدولة . وكانت تربط هذه الإمارات بعضها مع بعض روابط روحية ومصالح مشتركة بحيث تعتبر كل إمارة جزءا من الأمة الإسلامية الواحدة . ولقد كانت أبواب شمال نيجيريا مغلقة تماما أمام أطماع الأوربيين بحيث لم يستطع تجار الدول الأوربية التوغل داخل مناطق هذه البلاد حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى عندما بدأوا محاولاتهم الأولية في عقد المعاهدات التجارية مع مختلف إمارات هذه المنطقة ، ودامت هذه العلاقة التجارية فترة يسيرة من الزمن.وكانت شركة النيجر الملكية منذ أن حصلت على الإجازة الملكية البريطانية هي التي تتولى الشئون التجارية في هذه البلاد وأصبحت نائبة عن الحكومة البريطانية تتمتع بامتيازات كبيرة جعلتها حكومة ذات سلطة

ونفوذ في بعض مدن إمارة الجزء الجنوبي من شمال نيجيريا . ولعل عدم نجاح هذه الشركة في جميع محاولاتها الأولية طيلة خمس عشرة سنة على رغم فتحها المراكز التجارية في أنحاء المناطق الجنوبية هو ما جعلها تفكر في احتلال هذه البلاد التي استعصت على أطماعها وخيبت جميع آمالها ومقاصدها الاستغلالية.

ولم تكن معسكرات القوات البريطانية على طول الطريق البحرى على نهر النيجر ورافده نهر البينوى حتى المحيط الأطلسي لتشكل خطرا مباشرا على هذه الامارات الإسلامية القائمة في شمال نيجيريا ، وذلك لكونها خارج مناطقها ، ولأن البريطانيين كانوا منذ فترة طويلة يتظاهرون للحكام والأمراء بالحب والمودة بحيث لا يتوقع أى خطر من جانبهم . ولكننا مع هذا لم نقل بعدم شعور هذه الامارات بملامح الخطر المحدق بها وتلك الألغام المزروعة حولها ، فإن ملامح خطر الاحتلال البريطاني لهذه البلاد كانت واضحة كل الوضوح . ومن ذا الذي لا يلمس الخطر ولا يتوقع السوء في سياسة بريطانيا في إنشاء القوات العسكرية في مراكزها التجارية في المدن الهامة وتعيينها الضباط البريطانيين مندوبين لها على هذه المراكز ، ثم إنشاء كتائب عسكرية خاصة لمهمة المحافظة على حدودها ومناطق نفوذها في غرب أفريقيا ، واستعمالها القوة لإخضاع مدينتي بيدا (Bida) والورن (Ilorin) عندما رفضتا إقامة علاقة تجارية معها ، وهما من مدن إمارة المنطقة الجنوبية من شمال نيجيريا ؟

ومع أن شركة النيجر الملكية لم تتمكن من تحقيق مطامع بريطانيا التوسعية خلال هذه الفترة فقد كان منتشرا في الأوساط الأوربية أنها تملك السيطرة الكاملة على دولة شمال نيجيريا الإسلامية . ويدل على ذلك تعيين الحكومة البريطانية لورد لوغارد (Lord Lugard) حاكما بريطانيا أعلى على هذه المناطق سنة ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م بعد إعلان إلغاء الإجازة المعطاة لتلك الشركة ونقل مسؤولية إدارة شئون هذه المناطق إلى الحكومة البريطانية مباشرة . ومنذ هذه الفترة قررت الحكومة البريطانية استعمال القوة العسكرية لاحتلال شمال نيجيريا لأن أمير المؤمنين ومعه أمراء جميع المناطق الشمالية قد رفضوا التعامل

محصا إلا على الأسر التي تكفل لهم سلطتهم العليا ، وتجعل بريطانيا الطرف الأدنـــى الذى لا يملك من الأمر شيئا سوى ما تمليه القيادة المحليـــة .

لقد بدأ الحاكم لورد لوغارد (Lord Lugard) بمشروع وسائل الاتصال التلغرافيـــة بين المدن الهامة داخل مستعمرات بريطانيا الجديدة حتى يتمكن من طلب الامـــدادات العسكرية أثناء الحرب مع الإمارات الشمالية ، ثم بعد ذلك إنشاء قوة عسكرية كبيرة للمحافظـة على مناطق نفوذ بريطانيا وحدودها في غرب أفريقيـــا .

وبعد هذه الأعمال التمهيدية أعلن الحاكم البريطاني الأعلى سيرفرد ريك لوغـــارد (Sir Fred. Lugard) عام ١٣١٨هـ ١٩٠٠م فرض الحماية البريطانية على شمـــال نيجيريا ثم قال : " إن الحكومة البريطانية قد جعلت هذه البلاد تحت حماية شركـــة النيجر الملكية منذ زمن بعيد، ولكن حرصا منها في دفع أخطار الدول الأجنبية عن هـــذه البلاد وخاصة دولة فرنسا، فقد قررت بريطانيا تغيير أسلوب توكيل الشركة بهذه المهمـــة إلى أسلوب آخر أكثر فعالية وذلك بجعل هذه البلاد تحت حماية مكتب المستعمـــرات"[1].

وقد تضمن التصريح الذى أدلى به هذا الحاكم عن تغيير جهاز الحكم في البلاد نقطـــة مهمة تجدر الإشارة إليها وهي ما ذكر من "أن شركة النيجر الملكية قد حكمت إمـــارات مناطق الشمال الجنوبي وأن هذا التغيير كان بسبب استعمال القوة والعنف لفرض سيطرتها على الحكومات الأفريقية"[2].

ويرد صاحب كتاب " السلطة والدبلوماسية في شمال نيجيريا" (Power & Dipl. in Northern Nigeria) على هذا الإفتراء المتعمد بقوله "والحقيقة أن هذه الشركة لم تحكم أى جزء من أجزاء الدولـة الإسلامية الواسعة في شمال البلاد حتى وقت صدور إعلان الحاكم البريطاني لوغـــارد حتى يمكن أن يقال إنها استعملت القوة والعنف في إخضاع ذلك الجزء مما يكون سببـــا في انتزاع مسؤولية الحكم من يدها وردها إلى الحكومة البريطانية التي عينت الحاكم لوغـــارد

---

(1) S.J. Hogbenop.cit.,P.66

(2) R.A.Adeleye, Power and Diplomacy in Northern Nigeria, London, 1971, P.221

فليس لكلا الداعية والمدعى عليها أى حق ثابت فى اعتبار أمير المؤمنين ولا فى اعتبار جميع أمراء المناطق حتى يمكن أن يتناقل هذا الحق من إحداهما إلى الأخرى[(١)]

وقد اتبعت حكومة لوغارد خطة الاحتلال التدريجي فى غزو الدولة الإسلامية فى شمال نيجيريا وكان هدفها الأكبر هو السيطرة على مدينة سوكوتو مركز قوة الدولة ولكن ذلك كان يبدو شيئا مستحيلا إذا لم يتم فصل إمارات هذه الدولة بعضها عن البعض الآخر ومحاولة القضاء على كل إمارة على حدة .

ولقد بدأت جيوش الاحتلال البريطانى بإمارات الشمال الجنوبى المتاخمة لمستعمرات جنوب نيجيريا وكانت بواعث غزوها لهذه المناطق مرتكزة على بعض اتهامات ملفقة ضد أمراء هذه البلاد بأنهم كانوا يستعملون الضغط الشديد على رعاياهم ويقومون بالغارات على القرى المجاورة لجمع العبيد . وتجدر الإشارة إلى أن الحاكم البريطانى كان يتظاهر بالحب وروح التعاون لأمير المؤمنين أثناء احتلاله لإمارات الشمال الجنوبى وكان يبعث إليه الرسائل يشرح فيها افتراءا وكذبا ما حمله على غزو هذه المناطق من جور الحكام وظلمهم لرعاياهم ويطلب منه تعيين أمراء آخرين فى هذه المدن المحتلة .

وبعد سقوط إمارات الشمال الجنوبى تحت وطأة جيوش الاحتلال البريطانى واصلت هذه الجيوش زحفها وداهمت حصون إمارات الشمال الشرقى القوية وقد استولت عليها بعد معارك دامية استخدمت فيها جميع الوسائل الحربية الحديثة ، وكانت كلما سيطرت على إمارة أو مقاطعة تركت فيها فصيلة من جيوشها لمنع وصول الامدادات المتوقعة من بقية الامارات إليها ومنع محاولة انضمام جيوش المدن المحتلة إلى جيوش الإمارات الأخرى التى لم تسقط بعد تحت سيطرة الحكومة البريطانية ولم يبق أمام بريطانيا بعد هذا إلاّ أن تتقدم خطوات يسيرة نحو قلب المناطق الشمالية مدينة زاريا (Zaria) التى تعتبر موقعا استراتيجيا خطيرا ونقطة الانطلاق إلى إمارات الشمال الأقصى التى فيها العاصمة مقر القيادة الروحية والسياسية لحكومة شمال نيجيريا الإسلامية . وهكذا شنت جيوش بريطانيا هجوما مريرا على هذه الإمارة ودارت بين الفئتين معارك عنيفة وقد ضربت جيوش المسلمين أروع أمثلة فى

(1) R.A.Adeleye, op.cit.,P.221

الصمود والتضحية والنضال رغم تفوق جيوش بريطانيا عليها عدة وخبرة في الفنون العسكرية الحديثة. ولكن الأسلحة النارية الحديثة التي تمتلكها جيوش بريطانيا قد جعلت موقف جيوش المسلمين في هذه الحرب كموقف من ألقى بنفسه في خطوط النار وسط المعمعة وليس معه سلاح.

ثم بعد سقوط مدينة سوكوتو عاصمة دولة شمال نيجيريا الإسلامية ألقى الحاكم البريطاني كلمة في هذه المناسبة على كبار المسئولين ووجهاء المدينة حدد فيها مسئولية السلطان الجديد ودائرة أعماله في المدينة ثم دعا السلطان وجميع العاملين معه وكافة رعاياه إلى تعلم أساليب الحياة البريطانية كما أعلن أن البريطانيين سيتعلمون أساليب حياتهم وقوانينهم المحلية.

وقد أشار الحاكم لوغارد إلى زوال الدولة الإسلامية في هذه البلاد عندما قال في خطابه الثاني في مدينة سوكوتو في عام ١٣٢١هـ ١٩٠٣م

" لقد سيطر الفلانيون بقيادة عثمان بن فودي على هذه البلاد منذ زمن بعيد فاستولوا بذلك على زمام الأمور في حكم هذه البلاد ووضع الضرائب وتعيين الأمراء وخلع الآخرين.

وقد ضاعت هذه السلطة من أيديهم اليوم بسبب هزيمتهم النكراء أمام جيوش بريطانيا فانتقلت السلطة العليا بذلك إلى يد الحكومة البريطانية وكل ما ذكرت أن الفلانيين كانوا يقومون به بسبب استيلائهم على هذه البلاد قد أصبح اليوم من حق الحكومة البريطانية ". (١)

وهكذا تم احتلال بريطانيا لجميع مناطق نيجيريا من شواطئ المحيط إلى المناطق الداخلية في جنوب البلاد وحتى أقصى الشمال الذي يعتبر مربض الإسلام وموطن العلماء المجاهدين الذين رفعوا راية الاسلام خفاقة في سماء البلاد ورفعوا فيها مشاعل النور لهداية الناس إلى صراط الله المستقيم فأبى الأوربيون الحاقدون إلا أن يحاولوا إطفاء نور الله بأفواههم ومخططاتهم الخبيثة ومكروا ومكر الله فقد تكفل الله بحفظ دينه واتمام نوره ولو كره الكافرون.

---

(١) R.A.Adeleye, op.cit.,P.289

نقلا من التقرير السنوي الذي بعث به الحاكم لوغرد إلى مكتب المستعمرات بلندن ص ١٦٣ — ١٦٤

المبحث الثاني آثار الغزو الأوربي في نيجيريا

لقد ظهرت آثار الغزو الأوربي من ناحيتين أساسيتين أولاهما تتعلق بأطماع أوربا الدنيوية من حيث الاستعمار والاستغلال وثانيهما تتعلق بأحقادها الدينية من حيث محاربة الاسلام ومحاولة محوه من الوجود أو تجريد أهله منه عن طريق نشر المسيحية المنحرفة والثقافة الغربية . فقد ظهرت آثار هذين الدافعين دافع الأطماع الدنيوية ودافع الأحقاد الدينية منذ قيام الحكم البريطاني في هذه البلاد في شتى مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والثقافية . وسنؤجل الحديث عن آثار هذا الغزو الأجنبي من الناحية الدينية إلى المبحث الخاص بالحركات التبشيرية ونشاط المبشرين في هذه البلاد .

في ناحية الاستعمار والاستغلال

كان هؤلاء المستعمرون مقتنعين اقتناعا بالغا بأن أسلوب حياتهم ودياناتهم أعلى وأسمى من جميع أساليب الحياة وجميع الأديان الموجودة في العالم كله لذلك رأينا الاستعمار منذ سقوط مدينة لاجوس تحت وطأة أقدامه سنة ١٢٧٨هـ ١٨٦١م لا يدخر وسعا في محاولة فرض أساليبه الخاصة في السياسة والحكم والاقتصاد والحياة الاجتماعية على هذه البلاد وإحلالها محل جميع القيم والمثل القائمة ونشر المسيحية المنحرفة في ربوع هذه البلاد على أنقاض الاسلام والأديان التقليدية الموجودة.وتعتبر السنوات ما بين سنة ١٣٢٤هـ وسنة ١٣٣١هـ ١٩٠٦م وسنة ١٩١٢م التي سبقت فترة قيام الحاكم البريطاني لوغارد بصهر المحمية الجنوبية والمحمية الشمالية في بوتقة الوحدة الوطنية .. تعتبر فترة عصيبة في تاريخ نيجيريا حيث شهدت هذه الفترة بداية السلطة الفعلية للغزاة كما شهدت بداية محاولة محو القيم والتقاليد القائمة منذ أقدم العصور والتي لم تتعرض قط لعبث الغزاة المتسلطين .

لقد كان حكم الاستعمار على هذه البلاد قائما على مذهب السلطان المطلق الذى كان يتمتع فى ظله مكتب المستعمرات البريطانى بالسلطة العليا فى تعيين الحكام البريطانيين لتولى زمام أمور البلاد وأصبح الملوك المحليون عملاء يحكمون رعاياهم تحت رقابة السلطة البريطانية ووفق إرادتها لا يملكون من الأمر شيئا . وأنّى للطير المقصوص الجناحين أن يطير؟ وهذا النوع من الحكم هو ما أسماه الحاكم البريطانى لوغارد بالحكم غير المباشر. ولا ينطبق هذه التسمية على مدلولها إلّا من حيث المظاهر الخارجية والهيئة الشكلية وأما من حيث المعنى والحقيقة فهو الحكم المباشر بعينه .

ولهذا فإن ما ذكرته الحكومة البريطانية من أسباب انتهاجها طريقة الحكم غير المباشر فى هذه البلاد يعود إلى هذه الحيثية المعينة التى هى المظاهر الخارجية والهيئة الشكلية . وكان هدفها فى ذلك تفادى حصول الصدام بين السلطة الاستعمارية وبين السلطة المحلية القائمة فى تلك الفترة المبكرة من أيام حكمها فى هذه البلاد .

قال المندوب البريطانى مكغرغور (Macgregor) : " وليس من المعقول أن تحل سلطة ما محل سلطة هؤلاء الملوك ، فأى محاولة لإحداث مثل هذا التغيير الجذرى ستقلب الأمور علينا رأسا على عقب وتعكر صفو الأمن الداخلى الذى يسود البلاد وستغيظ الطبقة المحلية الحاكمة مما يؤدى حتما إلى مشاكل متعددة . وإذا أردنا أن تكون لنا حكومة مستقرة فى هذه البلاد تعتمد تكاليف شئونها الإدارية على الموارد المحلية فيلزمنا استخدام سلطة الملوك المحليين فى الشئون الداخلية ". [(١)]

إن أول خطوة اتخذتها الحكومة البريطانية نحو تطبيق سياسة الحكم غير المباشر هى تشكيل عدة مجالس محلية للملوك فى المدن الرئيسية برياسة مندوبيها وحكامها على المقاطعات. وتعتبر هذه المجالس المحلية رابطة تربط عجلة مختلف المجتمعات المحلية

---

(1) J.A.Atanda, The New Oyo Empire, London, 1973,P.94

مع قاطرة الحكام البريطانيين على المناطق والمقاطعات بحيث أصبحت تلك المجالس أداة طيعة تستخدمها بريطانيا فى هدم السياسة المحلية وتغيير الحالة الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى البلاد .

وقد كانت سياسة الاستعمار فى مبدأ الأمر مبنية على منح السلطة الفعلية تدريجيا لهذه المجالس فى مجال السياسة والقضاء وغير ذلك من القضايا المهمة فى شئون الحكم، ونتيجة لذلك قام النظام الاستبدادى البريطانى حيث وضعت الحكومة البريطانية أيديها على القضايا الكبرى وتركت المسائل الصغرى فى أيدى الملوك والأمراء مع أنها لم تلق الحبل على غاربه حتى فى تلك المسائل الصغرى وإنما جعلت الحكم فيها تحت مراقبة نواب حاكمها الأعلى فى كل مقاطعة أو مديرية . ولم يكن مجلس الملوك والأمراء ينظر إلا فى الأحوال الشخصية وبعض المعاملات وخلافات البيوع والعقارات وجمع الضرائب المفروضة على الأهالى . وللحاكم البريطانى الأعلى مجلس إدارى برياسته يتكون أعضاؤه من الأوربيين فى أول الأمر حتى فترة قيام الحركة الوطنية التى نادت بتأسيس هيئة تشريعية واشراك الأفارقة فيها وفى المجلس الإدارى الأعلى حيث وافق الحاكم الأعلى على تعيين نسبة قليلة جدا من الأفارقة فى هذا المجلس،وكان هذا المجلس ينظر فى سياسة الدولة والشئون القضائية والأعمال الإدارية وشئون الصحة والمواصلات والمعارف والجيش ، وليس لهذا المجلس حق النظر فى الشئون التشريعية وصرف الأموال وإنما يجوز له إبداء الرأى فقط وللحاكم سلطة مطلقة لرفض رأى المجلس أو قبوله .

لقد استخدمت بريطانيا نظام تأسيس المجالس المحلية والمجلس الإدارى الأعلى لتحطيم السلطة الفعلية للحكومة المحلية كما وضعت المحاكم المحلية النظامية لتحديد دائرة اختصاصات المحاكم الشرعية فى شمال البلاد وتحطيم سلطة الملوك المحليين القضائية

في جنوب البلاد . وقد رأينا كيف تدرجت بريطانيا في مخططاتها حتى تم لها انتزاع السلطان من أيدي السلطات المحلية وجعله لنفسها خالصا من دون أهلها الشرعيين .

قال الحاكم البريطاني الأعلى سير لوغارد (Sir.F.Lugard) في تقريره الذي نشر سنة ١٣٣٩هـ ١٩٢٠م عن توحيد الإقليمين الشمالي والجنوبي تحت وحدة وطنية في ظل الحكم البريطاني : " كانت طريقة الإدارة المحلية في حكومة شمال نيجيريا مبنية على سلطة الأمراء المحليين، وإن سياسة الحكومة البريطانية في ذلك هي أن يتولى هؤلاء الأمراء زمام الحكم على رعاياهم ولكن لا على طريقة الحكام المستقلين وإنما على طريقة العملاء والأجراء المعتمدين على سلطة الحكومة البريطانية (اعتماد المملوك الذي هو كَلٌّ على مولاه) والحكومة البريطانية لا تجعل هؤلاء الأمراء وسطاء في نقل أوامرها إلى الشعب ولكن ستصدر هذه الأوامر مباشرة من قبل هؤلاء الأمراء وإن كانت في حقيقة الأمر خلاصة ما يتلقونه من الإرشادات والتوجيهات من جانب المندوب البريطاني ."

" وبينما يكون توجيه هؤلاء الحكام المحليين في شئون السياسة والأمور الهامة عن طريق الحكومة يكون ضبط شئون الشعب بواسطة الأمراء على نهج سياسة الحكومة الاستعمارية . إن الموظف السياسي يعتبر إصدار الأوامر منه مباشرة إلى كل فرد من أفراد الشعب أو حتى إلى رئيس قرية أمرا غير مناسب . كما أن القائد العسكري العام الذي يشرف على فرقة من الجيش سيجد من غير الملائم أن تصدر الأوامر منه مباشرة الى الجندي الفرد إلا عن طريق رؤساء الشعب وقواد الوحدات."

" وتستعمل القوانين المحلية في جميع المحاكم ولكن نظام هذه المحاكم في العقوبات لا تطابق القوانين الجنائية المعروفة . ولكن مع ذلك يجب ألا تكون القوانين المحلية مضادة لأوامر الحكومة التي يجب تنفيذها حرفيا في كل مكان في هذه البلاد . كما يجب أن تكون

المحاكم تحت رقابة دقيقة من جانب حكام المقاطعات البريطانيين. والقوانين والتعليمات المتبعة في تلك المحاكم ليست مبنية على أسس القوانين البريطانية ولكن مع ذلك إذا ظهرت في صياغتها عيوب ونقائص فستكون عرضة للتعديل والتنقيح وإعادة التنسيق .

" ويحبس سجناؤهم في سجنهم الخاص الذي يكون تحت رقابة ضابط بريطاني وتجمع الضرائب من السكان باسم الحاكم المحلي وبواسطة وكلائه ولكنه يسلم مقدارا معينا إلى الحكومة ويخضع حق إنفاق القسم المخصص للادارة المحلية الذي تصرف منه رواتب الموظفين المحليين لتوجيه المندوب البريطاني والسلطة المطلقة من قبل الحكومة الاستعمارية . فإن دور المندوب البريطاني في هذا الشأن كدور المستشار اليقظ لا كدور الحاكم المتطفل ولكنه سيغار على حقوق الفلاحين ويدفع عنهم الظلم والجور ".(١)

لا أريد أن أناقش كل ما ورد في هذا التقرير الطويل وإنما أريد فقط أن أقيم الأدلة القاطعة على ما قررت سابقا من أن حكم الاستعمار في هذه البلاد كان قائما على أسس المذهب الاستبدادي الذي يمنح رجال الاستعمار سلطة مطلقة في شئون الحكم، وأن مفهوم نظام الحكم غير المباشر من حيث الحقيقة والواقع لا يختلف عن الحكم المباشر، وقد انفتحت أبواب الحياة الاقتصادية الجديدة على مصرعيها وأخذت المسيحية تنتشر في ربوع المناطق الجنوبية وبين القبائل الوثنية في بعض القرى النائية في شمال البلاد . كما قامت في المجتمع أساليب جديدة في نظام الحكم وشئون القضاء واخذت الثقافة الغربية تشق طريقها بفضل انتشار الارساليات التبشيرية في كل مكان . ولقد كان الاستعمار أيام حكمه على البلاد يخطط لإبقاء الشعوب الأفريقية تحت حكمه الاستبدادي أزمانا لا تنقطع ولا تنتهي . وأخذ يروج ادعاءات

---

(١) Nigeria: Report by Sir. F.D.Lugard on the Amalgamation of Northern and Southern Nigeria and Administration, 1912-1919, CMD 468, London, 1920, P.14-15

كاذبة لتبرير الوسائل التي اتخذها في هذا السبيل . لقد عمل الاستعماريون على إبقاء الشعب في معزل عن الحكم حتى عاش قرابة مائة سنة تحت سيطرتهم ذليلا مستضعفا مغلوبا على أمره،ولا يستطيع المستعمرون أن ينكروا الكارثة التي ورطوا شعوب أفريقيا فيها،فإنهم قد عمدوا إلى الابقاء على هذه الشعوب في حالة من التخلف والتبعية ولم يتركوا لهم المجال ليقرروا مصيرهم الأمثل وذلك ليتمكنوا من استخدام الأيدى العاملة في هذه البلاد لمصالحهم الاستعمارية واستغلال خيرات بلادهم . وظل الأمر هكذا حتى قامت الحركات الوطنية،وهي نتيجة تأثر شباب هذه البلاد المثقفين بمجموعة من العوامل الخارجية دفعتهم إلى تنظيم هذه الحركة لإنهاض روح الوطنية الجديدة في صفوف الشعب في سبيل القضاء على حكم الأجانب في بلادهم .

وقد كان لكل من الجمعية الوطنية للمستعمرات البريطانية في غرب أفريقيا واتحاد طلاب غرب أفريقيا بلندن وجمعية الشباب النيجيرية جهود كبيرة في مطالبة الحكومة البريطانية بمنح حق الحكم الذاتي لكل مستعمرة من المستعمرات البريطانية الأربع في غرب أفريقيا .

وقد ازدادت الأمة الأفريقية وعيا وانتباها على أعقاب الحرب العالمية الثانية،فدوت في الآفاق أصوات زعماء نيجيريا بمطلب الاستقلال فتجاوبت لها الأصداء من كل مكان،فقامت مظاهرات جماهيرية ضخمة في المدن الكبرى في شتى أنحاء البلاد،فسارع مكتب المستعمرات إلى إصدار دستور رتشارد عام ١٣٦٦هـ ١٩٤٦م،ولم يكن ذلك الدستور في صالح الأمة الأفريقية وإنما روعيت فيه مصالح المستعمرين المحضة وإن كانت مخفية تحت ستار ادعاءات مضللة تتمثل في ثلاث نقاط .

١ ـ النهوض نحو الحكم الذاتي .. ويهدف بهذه النقطة إلى إعاقة تحقيق الاستقلال

٢ ـ حماية الثقافات والتقاليد الوطنية .. وهي خطوة استعمارية أخرى للابقاء على التخلف الثقافي والفكري .

٣ ـ التنمية السياسية نحو الوحدة المتجانسة .. وهي لمحاولة بذر بذور الفرقة والشقاق في صفوف الشعوب الأفريقية وتضخيم النعرات القومية والقبلية بينهم

وقد قوبل دستور رتشارد بمعارضة شديدة من جانب الشعب وقام قومة رجل واحد لتغييره لأنه يثبت الأغلال والقيود في أيدي الشعوب وذلك لما يمكنه للحاكم البريطاني من سلطات مطلقة تمنع أي معارضة من قبل المجالس الإقليمية والمجلس المركزي في العاصمة . وقد اضطر مكتب المستعمرات إلى إجراء بعض التعديلات في هذا الدستور بحيث أصبح نظام الحكم فدراليا وهو شبه الاستقلال بالنسبة للأقاليم حيث حددت اختصاصات المجلس التشريعي المركزي وأطلقت اختصاصات المجالس الإقليمية . وقد كان الوطنيون يعتقدون أنهم يحرزون انتصارات كبيرة في هذه المعارك ولكنهم لم يعرفوا أنهم ضحايا المؤامرات والمخططات وأنهم سائرون على الدرب الذي يريد الاستعمار أن يسيروا عليه حتى يتم سوقهم إلى الدرك الاسفل الذي أعده الاستعمار لإنزالهم فيه .

وعندما اضطر الاستعمار إلى ترك هذه البلاد بطلب الشعب الاستقلال وفك قيود الاستعباد عن أيديهم أوحى إلى المثقفين الوطنيين في ذلك الوقت فكرة تأليف الأحزاب السياسية ووضع لهم نظام الحكم الديمقراطي المؤسس على النزعات القومية أو القبلية أو المصالح الذاتية وتتألف هذه الحكومة الديمقراطية من الوزراء الذين يختارون من النواب المنتخبين من السواد الأعظم عن طريق الأحزاب السياسية . فهل المذهب الديمقراطي الذي جعله الاستعمار بديلا عن نظام حكمة الاستبداد يـأقل منه وبالا وثبورا ؟ حاشا وكلا . لقد شاهدنا النتائج

السيئة التي ترتبت على ذلك المذهب المختار عند التطبيق العملي بعد الاستقلال فقد أوقع البلاد في الهاوية وسلبها وسائل الأمن والاستقرار وبات الشعب يعيش في ظلام حالك تسود مجتمعهم القلاقل والفوضى والفتن وتراكم عليهم ركام الأزمات بشتى أشكالها وألوانها . وقد أشرقت أرض هذه البلاد بنور الاسلام قرونا طويلة وعاش الناس في ظل عدل الاسلام آمنين مطمئنين وساد المجتمع الأمن والاستقرار إلى أن داست أقدام الاستعمار أرض البلاد فغيروا مجرى تاريخ هذه الأمة الأسلامية فيها "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون."(١)

لقد خرج الاستعمار من الباب وهو مطرود من رحمة الشعب ولكنه كان قد مهد لنفسه جميع الوسائل والسبل ليدخل بها ثانية من خلال السطوح والشبابيك بل حتى من مجاري الأقذار ولم يقدم الاستعمار على منح الاستقلال إلا بعد الاطمئنان إلى إتمام مسرحيته على حساب الشعوب الأفريقية. لقد أصبح كل شئ في المجتمع يسير على قناة المخططات الاستعمارية . وقد وجد المستعمرون من المبشرين والمثقفين الوطنيين أبناء البلاد خير خلف لهم في هذه البلاد ، وإذا ما انسحبوا هم من ميدان السياسة فهناك من يخلفهم في ميدان الحكم باسم الساسة الوطنيين بل قد أوجدوا من يخلفهم في جميع الميادين وعلى الأخص في مجال التعليم والاقتصاد والحياة الاجتماعية .

ويحسن في هذا المقام أن نلخص وسائل الاستعمار في إبقاء الشعوب الأفريقية تحت سيطرته حتى بعد نيل الاستقلال المزيف ونستطيع أن نجمل هذه الوسائل في ثلاث نقاط :

١ــ إضعاف الشعب : وقد اتخذ الاستعمار وسائل عديدة في إضعاف الشعوب المستعمرة حيث عمد الى افتعال الفوارق المصطنعة بين الشعب الواحد بتقسيم البلاد إلى مناطق وأقاليم بناء على النزعات القومية والقبلية وزرع بذور الشقاق والخلاف فيما بينهم بنفخ روح تأليف الأحزاب السياسية في مصاف المثقفين وإبقاء بعض الشعب على الجهل والتخلف الثقافي والفكري ليكون عالة على غيرة غثاء كغثاء السيل وذلك لضمان وجود الصراع

---

(١) سورة النمل [٣٤]

الداخلي المستمر الذي يعوق الرقي والتقدم.

٢ـ إذابة شخصية الشعب وطمس معالمه ومحو حضارته وعقائده الموروثة وبالتالي يتم جذبه الى اعتناق الحضارة الغربية عن طريق الانبهار بآثارها الواقعية في المجتمع الذي صنعته أيدي الاستعمار ليكون نموذجا حيا يبرهن على رقي حضارته وعلو ثقافته . وقد يقوم الاستعمار بالدعوة إلى احياء بعض الحضارات المحلية البائدة إذا أحس بانبعاث الروح الدينية في صفوف الشعب وميلهم إلى العودة إلى الحضارة الاسلامية وهو الأمر الذي يجر عليه الويل والثبور ويهدم بنيانه من أساسه.

وليست دعوة الاستعمار إلى إحياء تلك الحضارات على أساس استبداله تلك الحضارات بحضارته وإنما لمجرد إحياء ذكراها ليشغل بها أفكار المثقفين ويوحي إليهم من بعيد أن حضارة الاسلام أجنبية عن بلادهم فالعودة إليها عودة إلى الاستعمار الذي يحاولون فك أغلاله من أعناقهم وأيديهم وأرجلهم.

ويعلم الاستعماريون أن الرجوع إلى اعتناق مثل هذه الحضارات المحلية البالية في عصر العلم والثقافة يعد وبطبيعة الحال أمرا لا يقبله العقل السليم الذي شهد آثار الحضارة الأوربية الجديدة وأكثر من ذلك أن الأفريقي المتحضر إذا تأمل في الثقافة الأفريقية في عصورها المظلمة التي يحاول الاستعمار إحياءها والتغني بأمجادها فقد ينتهي به الأمر إلى لمس الفارق الكبير والبون الشاسع بين الحضارتين من حيث الرقي وما يعود على الجنس البشري منهما من آثار ومنافع جمة ، وقد يزيده اهتداؤه إلى مثل هذا الفارق انبهارا بالحضارة الأوربية وإصرارا على التعلق بها ، وبذلك يصبح إحياء هذه الحضارات البالية في صالح الاستعمار من هذه الجهة.

٣ـ ربط الشعوب المستعمرة بعجلة الاستعمار المستغلة المستبدة.

لقد حاول الاستعمار أن يجعل هذه البلاد قطعة من أرض بريطانيا بتغيير معالمها وانشاء مجتمعها على نحو آخر يسير على نمط الحياة الأوربية حتى لا يوجد شئ في ذلك المجتمع إلاّ وعليه الطابع الأوربي .

وقد فرضوا نظمهم ومبادئهم على هذه البلاد ونشروا فيها ثقافتهم وحضارتهم وإن كل هذا إلاّ لربط هذه البلاد بعجلة الاستعمار حتى يتمكن من استغلال وامتصاص خيراتها كالبقرة الحلوب.

المبحث الثالث:

ويلات نظام الحكم الاستعماري في البـــلاد

١ ـ تقرير نظام الحكم الديموقراطي القائم على نظام الانتخابات الحرة عن طريق الأحزاب السياسيـــة .

عندما آذن الاستعمار على الرحيل عن البلاد، وفي فترة انبعاث الوعي في صفوف الطبقـة المثقفة نفخ الاستعمار روح الوطنية والقومية في أدمغة هولاء المثقفين وأفكارهم وهو يعلـــم ماتحمله هذه الفكرة من أخطار ولكنها أهون عليه من قيام النزعة الدينية بينهم وخاصة الوعـــي الاسلامي الذي يعتبره معولا هداما لكل مابناه طيلة أيام حكمه على هذه البلاد .

يقول الاستعمار إن الضرورة القصوى تقتضي بتقسيم هذه البلاد الفسيحة الأرجاء إلـــى أقاليم متعددة ويقوم أساس هذا التقسيم على دعائم القومية القائمة على فكرة رابطة الارض والمصالح المشتركة كما تقضي بتأليف الأحزاب السياسية على أسس النعرات القومية والنزعات الإقليميـــة والقبلية لتدخل غمار حرب الانتخابات الحرة التي يخرج منها الحزب الفائز ليتولى زمام الحكـم في الحكومة المركزية . ويعتمد الاستعمار في هذا كله على أن دولة نيجيريا تضم عددا كبـــيرا من الشعوب والقبائل المختلفة اللغات والمتباينة العادات والتقاليد والأديان ولا يمكن تحقيق الوحدة المتجانسة بين هذه الشعوب والقبائل المتعددة لتتمكن من إقامة الحكم الديموقراطـي الذي هو حكم الشعب بالشعب إلّا بإذابتها في أصولها الثلاثة : هوسا ، يوربا ، إيبو ثم بناء تقسيم حدود جغرافية الأقاليم على هذا الأساس وقيام الأحزاب السياسية على هذه النزعـــات الشعوبية والقبلية ووضع نظام الانتخابات على نفس هذه النعرة الإقليمية .

إنني أعتبر هذا النظام أكبر لغم من مجموعة الألغام التي زرعها الاستعمار لهدم بنيـــان وحدة هذا الشعب لأن الاستعماريين هم الذين أوجدوا هذه الضرورة وأقاموا حولها الأسباب والمبررات ثم راحوا بعد ذلك يبحثون لها عن الحلول . ولما دخل الاستعمار إلى هـــــذه البلاد وجدها مقسمة إلى ثلاثة أقسام فهناك الدولة الاسلامية القوية في شمال البلاد وقـــد

وقد قطعت أشواطا بعيدة في الزحف على المناطق الجنوبية، وهناك مملكة أويو الوثنية في غرب البلاد ومجموعة القبائل المتناثرة التي تدين بالأديان التقليدية في شرقي البلاد. وقد يبدو أن الاستعمار كان يميل إلى تقرير هذا التقسيم عندما قسم البلاد إلى ثلاثة أقاليم، ولكن الذي فات الاستعمار هو أن هذا التقسيم الطبيعي الموجود في ذلك الوقت لم يكن مبنيا على أساس القومية والقبلية وإنما كان نتيجة اختلاف الأديان والمعتقدات. ولا أعتقد أن الاستعمار لم يعرف هذه الحقيقة بل كان يريد إحلال القومية والقبلية محل الأديان.

وعلى رغم كل ما كان يتعلق به الاستعمار من الادعاءات وما كان يتمسك به من الأسباب ليبرر به ضرورة توحيد هذه الشعوب والقبائل المختلفة تحت راية حكومة مركزية ديمقراطية فقد ثبت بالتجربة أن الطريقة التي قررها الاستعمار لتحقيق ما يدعيه كانت أقرب إلى التفريق والهدم منها الى التوحيد والبناء . لقد قضى الاستعمار على سلطة الملوك والأمراء وأبعدهم عن ميدان الحكم ووضعه في أيدي أبنائه المثقفين الذين وضعوا لبان الغرب وتكدرت أفكارهم واختارهم ليكونوا خير خلف له وليسيروا على الطريقة التي كان يرسمها لهم لا يحيدون عنها قيد شبر ثم أغراهم بكلمة "الوحدة" وهي هدف نبيل ولكنها كلمة حق يراد بها الباطل والتضليل . فهل تقوم الوحدة على أساس الصراع الداخلي المستمر - صراع بين القوميات والقبليات والاقليميات وصراع أصحاب المصالح الذاتية المختلفة وصراع الأحزاب السياسية المتناحرة وصراع الطبقات المتباينة في المجتمع التي أحدثها التفاضل بين مختلف القبائل في مجال الثقافة الغربية ، هل يمكن تحقيق الوحدة وهذا الصراع قائم في المجتمع ؟ وما يكون حال المجتمع إذا كان الناس فيه متصارعين متقاتلين؟ فهل يمكن أن يرضى أحد المتقاتلين عن الآخر أو يفرح أحد المتنافسين بتفوق منافسه عليه؟ ولا أكون مبالغا إذا قلت إن الاستعمار لم يضع هذا النظام إلا للهدم والتحطيم

وضمان استمرارية الصراع العنيف إبتداء من داخل الأسرة الواحدة إلى مختلف أحياء المدنية الواحدة وضواحيها ثم إلى مختلف المدن والقرى والمناطق والمقاطعات في الإقليم الواحد ثم يمتد ذلك الصراع إلى القبائل والقوميات والأقاليم المختلفة ثم ينتهي الصراع ليشكل حكومة مركزية بين هؤلاء القوميين المتنازعين المتناحرين .

لقد مزق الاستعمار وحدة الشعب وفرق كلمته وخلق أجواء المنازعات والمشاكل والفساد في صفوفه ، ومحا النزعات الدينية من قلوبهم وأقام سلم الحكم على أساس القومية فأضعف بذلك قوى الشعب وجعله فريسة القلاقل والأزمات الداخلية المتعاقبة التي لا يزال دخانها مخيما على سماء البلاد حتى اليوم .

٢— جعل اللغة الإنكليزية لغة رسمية للدولة ولغة مشتركة بين مختلف الشعوب والقبائل في البلاد .

هذه خطوة أخرى لإذابة شخصية الشعب ومحو تراثه الحضاري والعلمي ومقاومة تقاليده وعقائده . لقد جعل الاستعمار اللغة الإنكليزية أساس كل شئ في المجتمع فأصبحت لغة الحكم والحكومة ولغة الساسة والمثقفين وعامة الناس ومعيار التفاضل بين أفراد الشعب في المجتمع ووسيلة العيش الرغد الرفيع حتى صار كل فرد من أفراد المجتمع يعلق عليها الآمال وينوط بها الأمنيات في مستقبل حياته الزاهر . لقد قضى الاستعمار على اللغة العربية التي كانت لغة رسمية للحكومة الاسلامية التي قامت في شمال البلاد منذ قرون طويلة ، ووقف تيارها الجارف الذي أخذ يشق طريقه إلى جنوب البلاد وأبعدها عن ميدان الحكم والحياة الاجتماعية ومجال التعليم كما أبعد الشريعة الاسلامية عن هذه الميادين . ولم يضع الاستعمار هذا المخطط إلّا لربط الشعوب الأفريقية بعجلته المستغلة حتى تظل هذه البلاد كالبقرة الحلوب يستغل خيراتها ويمتص دماءها ويبقى الشعب أبدا كالحافلة التي تجرها القاطرة فيجري وراء صفير الاستعمار لا حول له ولا قوة ولا اختيار .

٣- تقرير مبدأ حرية العبادة

دخل الاسلام إلى شمال البلاد منذ قرون طويلة ويكاد يرجع امتداد تاريخ ظهور الاسلام فيه إلى أصل تاريخ الجنس الشمالي نفسه.

ولم يكن الاسلام في شمال البلاد محدودا في أسوار المساجد ولا مقصورا على الشعائر التعبدية بل كان قوة وسلطة ودولة قائمة على دعائم قوية فهو لشئون الدين والدولة معا.

وقد عرفت بلاد يوربا الاسلام منذ عهد مملكة مالي الاسلامية ثم أخذ ينتشر في أرجاء هذه البلاد مع اتساع رقعة دولة ابن فودي الاسلامية إلى ناحية الجنوب. وقد وجدت الوثنية والأديان التقليدية بين مختلف القبائل البدائية في بلاد يوربا وبلاد إيبو في الجنوب منذ زمن بعيد. وأما المسيحية التي يدين بها الاستعماريون أو يتعلقون بها لنيل أطماعهم الدنيوية فلم يعرفها سكان هذه البلاد إلاّ بعد دخول الأوربيين إلى بلادهم فالمسيحية دين جديد في أمس الحاجة إلى التعريف والدعم والتشجيع، ولا بد أن تلقى مقاومة عنيفة من قبل الأديان التي سبقتها وخاصة من جانب الاسلام لأنها دخلت لتشن عليه حربا كانت امتدادا للحروب الصليبية الأولى إلاّ أن حربها في هذه المرة لم تكن علنية ولكنها مخفية تحت مبدأ حرية التدين. فالاستعمار هو الذي أطلق العنان للمبشرين ليمارسوا أعمال الاقتناص في تنصير أهالي البلاد وعقد المعاهدة مع الملوك والزعماء بحماية المبشرين وتمكينهم من مزاولة أعمالهم التبشيرية في طول البلاد وعرضها ثم ألقى أعباء التعليم العام على أكتاف المبشرين ففتحوا المدارس التبشيرية وتوغل المبشرون داخل القرى والأرياف وانتشرت المراكز التبشيرية في جميع أنحاء البلاد ثم بعد ذلك قرر الاستعمار حرية التدين وكان يدعى أنه لم يلجأ إلى هذا إلاّ ليقضي على تعصبات أهل الأديان المختلفة ليتمكن كل إنسان أن يعبد ما يشاء في حرية تامة ولا نكير عليه من أهل الأديان المخالفة لدينه وبذلك يعيش الناس متسامحين

لا يحقد أحدهم على الآخرين . وقد دأب الاستعمار على إخفاء الحقائق وراء الكلام المعسول ليضلل به عقول الناس . فقد علمنا أن المسيحية دخلت هذه البلاد لتزحف على الأديان التي سبقتها ولا بد أن تقع ضحية المقاومة العنيفة فاحتضنها الاستعمار فقرر مبدأ حرية التدين ليثبت به قدم هذا الدين الجديد على أرض البلاد ويقتل به نار الغيرة الدينية من قلوب أهل الأديان الأخرى وليلغي به الجهاد الاسلامي الذي يقوم به المسلمون لادخال الكفار في الاسلام . فحرية التدين تمنع إمام المسلمين من تنفيذ حكم الله فيمن يرتد عن دينه وتنصر أو دخل في الوثنية .

وعندما يرى الأب المسلم أبناءه الذين تتلمذوا على المبشرين يتنصرون فلا يملك من الأمر شيئا لأن الحكومة قد تكفلت لكل فرد من أفراد المجتمع بحرية تامة في التدين .

٤ـ نشر التعليم الغربي والثقافة الغربية

هذه زاوية أخرى كمن فيها الاستعمار لتمهيد الطرق الكفيلة لتوجيه الشعب نحو الاتجاهات المنحرفة وخلق الأجواء الملائمة لتقبل النظم والمبادئ والأفكار الهدامة مثل القومية والعلمانية والرأسمالية والالحاد والإباحية . وإن لهذا المخطط من الأخطار الجسام والآثار البالغة مالا يقدر قدره . ولا أريد هنا أن أناقش كل ما وضعه الاستعمار من معاول الهدم والتحطيم وإنما اريد أن أقيم الأدلة على أن الاستعمار لم يخلف في هذه البلاد إلاّ ألغاما مزروعة هنا وهناك ثم ترك مهمة تفجيرها في أيدي أبنائه المثقفين الوطنيين فكانوا خير خلف وأخلص عميل . ولو أخذنا نقطة واحدة من معاول الهدم التي وضعها الاستعمار لتحطيم وحدة الشعب النيجيري لنرى مدى أبعادها في الإفساد والهدم والتحطيم ثم نترك الحكم لواقع البلاد والأوضاع الراهنة فيها ، فإن الأحزاب السياسية والحدود الجغرافية حواجز مصطنعة وفوارق موضوعة للحيلولة دون وحدة الشعب وليس وراء هذا التقسيم القائم على أسس القومية

من هدف سوى تفكيك أجزاء هذه البلاد وتضخيم النعرة القومية وإضعاف قوة الشعب ليكونوا أمما وقبائل متفرقين متناحرين لا تجمعهم كلمة حق ولا تضمهم راية دين.

وإنما تربطهم الحمية الجاهلية ـ القومية والوطنية. وإن دور الأحزاب السياسية أمعن في الإفساد من التقسيم الجغرافي وذلك لما ينتج عنها من التنافس الشديد على مقاليد الحكم وما تثيره المعارك الانتخابية من التعصب والحقد والحسد والخداع وشراء الضمائر والأصوات وقطع الأرحام وارتكاب جرائم القتل والاختطاف ولا تزال البلاد تعاني الويل والثبور من آثار هذه الألغام المزروعة على رغم ما تدعيه الحكومة المحلية من بذل مجهودات كبيرة في سبيل محوها في المجتمع.

لقد هان على الاستعمار أن يخرج من هذه البلاد راغم الأنف ويمنح الاستقلال المزيف لأهلها بعد الاطمئنان إلى وضع هذه المتفجرات وإيجاد العملاء والجواسيس من أبناء هذا الشعب الذين طبعهم بطابعه الغربي بتكدير أفكارهم وتحريف اتجاهاتهم وإفساد أساليب حياتهم فكانوا له خير خدم في تفجير تلك الألغام وإثارة الفتن والقلاقل نتيجة سريان سموم المبادئ والأفكار الغربية في أدمغتهم، وتنفيذهم لخطط الاستعمار بحرفيتها وتقديسهم للحضارة الغربية. وإذا كان الاستعمار لم يترك وراءه إلا هذه المأساة فلماذا كان يروج من قبل ادعاءات مغرية بأساليب براقة خلابة؟ فقد كان يدعي رفع مستوى البلاد الاقتصادي فها هو ذا اليوم قد استغل خيرات البلاد حتى أوقعها في حالة تخلف وتأخر وانحطاط. وكان يدعي تحمل أعباء تدريب وتهيئة الطبقة المثقفة لتسيير موكب الحكم في البلاد، فقد أبعدهم عنه زمنا طويلا بنظام حكمه الاستبدادي. كان يدعي حماية البلاد من أخطار القوى الخارجية الطاغية فقد سامها هو نفسه سوء العذاب وأليم العقاب. وكان يدعي أنه يسعى وراء تحقيق الوحدة بين مختلف الشعوب والقبائل بوضع

نظام الحكم الديموقراطي ونظام الانتخابات وتقسيم الأقاليم ليتوسل به إلى إقامة حكومة مركزية ، فقد تبين بعد الاستقلال أن هذه الأنظمة الموضوعة لا تحقق الوحدة المنشودة لهذه الأمة فقد تفرقت كلمة الشعب وتمزق شمله وقامت في البلاد عدة أزمات سياسية نتيجة الحركات القومية والإقليمية المتصارعة وعدم صلاحية الأنظمة الوضعية لتحقيق العدالة والأمن والاستقرار. وما تلك الادعاءات إلا غرور وخداع ومكر فالاستعمار ثعلب رواغ .

والأوربيون لما أرادوا سوق العالم وراءهم استخدموا وسائل متعددة سواء أكانت هذه الوسائل سليمة أو حربية ، إنسانية أو وحشية . فالغاية عندهم تبرر كل ما يستخدم من الوسائل، ولم تعلم البشرية أناسا أعطوا المكر والخداع والكيد مثل ما أعطى رجال الاستعمار فإنهم يبطشون بالأمم ويتوددون إليهم . إنهم يقتلونهم ثم يبكون عليهم، ويفزعون تعازيهم إلى أسر ضحايا مؤامراتهم ومكايدهم .

لقد اعتمد الاستعمار على الإنجيل والمدافع ومبدأ " فرق تسد " حتى استطاع أن يهدم ويسعى في الأرض فسادا ويصفد أيدي الشعب بأغلال الاستعباد وقيود الاستعمار زمنا طويلا.

البـــــاب الثانـــــى

التبشير المسيحي في مختلف مناطق نيجيريا ووسائل دعايته المختلفة وظهـــــور الحركة القومية في الكنيســـة المسيحيـــــــــة .

الفصـــل الاول : حركة الغزو الصليبي في مختلف مناطق نيجيريا .

المبحث الأول : التبشير في جنوب نيجيريـــــا .

المبحث الثاني : معركة الصليب مع الهلال في المناطق الشمالية المسلمة .

• الفصل الاول : حركة الغزو الصليبي في مختلف مناطق نيجيريا .

المبحث الاول : حركة الغزو الصليبي في نيجيريا الجنوبية

إن تاريخ التبشير المسيحي يرجع إلى صدر النصرانية ومبتدأ تأسيسها، وإن الصراع القائم بين المسيحية وبين الإسلام قد امتدت جذوره إلى فترة انبثاق فجر الإسلام على العالم. ثم جاءت بعد ذلك الحروب الصليبية لتوسع فجوة العداوة بين القوتين المتصارعين ولم تكن الهزيمة النكراء التي منيت بها جيوش الصليبيين لتخمد نار الحقد والضغينة الكامنة في أفئدتهم وقلوبهم . ولقد انسحبوا من الحروب الصليبية في الجبهة الشرقية ليكرّوا على العالم الإسلامي عن طريق الجبهة الغربية . ولقد عرف الصليبيون أن قوة الإسلام جبل أشم وليس في ميسورهم أن يبارزوه في ميدان القتال فلجأوا إلى حرب المراوغة والمكر بحركة الدوران حول أفريقيا لتطويق العالم الإسلامي للقضاء على الإسلام وأهله .

ولما دخل الأوربيون إلى بلاد السودان الغربي منذ القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي وقد علموا بدور الإسلام التاريخي فيها وما شيدته تلك الأمة الأفريقية من الأمجاد في مضمار الحياة تحت لواء الإسلام في عهود الممالك الإسلامية الزاهرة غاظهم كثيرا أن يلتقوا بالإسلام في هذه البلاد ، ولم يكن دينا متمكنا في نفوس أتباعه فحسب وإنما وجدوه سلطة حاكمة ودولة قوية بسطت نفوذها على مناطق شاسعة من هذه البلاد الفسيحة الأرجاء .

وقد تمركز الأوربيون في المناطق الساحلية الوثنية في غرب أفريقيا منذ فترة دخولهم ونشروا فيها المسيحية والحضارة الغربية وأقاموا حاجزا منيعا في وجه الزحف الإسلامي المتدفق إليها من المناطق الإسلامية ثم أخذوا يتوغلون ببطء في داخل البلاد بحجة التعرف على مجاهل البلاد تارة أو حجة التجارة ونشر الحضارة الغربية تارة أخرى، ولكن الحقيقة أنهم كانوا يريدون أن يكشفوا عن نقط الضعف التي يمكن عن طريقها الوصول إلى تحقيق الأهداف الصليبية .

إن تجارب الأوربيين مع المسلمين منذ الأحقاب التاريخية البعيدة قد علمتهم أن الإسلام هو العقبة الكأداء الوحيدة في وجه أطماعهم السياسية والتجارية وأحقادهم الدينية وأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقر لهم قرار في أي بقعة كان الإسلام فيها قائما على قدم وساق ، وأنه لابد من القضاء على هذا الإسلام ومحوه من الوجود وإلّا كان مآل أطماعهم فشلا ذريعا وعاقبة أحقادهم خسرا . قال المستر بلس : " إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في

طريق تقدم التبشير بالنصرانية فى أفريقية والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا لأن انتشار الأنجيل لا يجد معارضا لا من جهل السكان ولا من وثنيتهم ولا من مناضلة الأمم المسيحية وغير المسيحية"(١)

وقال لورنس براون : لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف • لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى والخطر الأصفر (باليابان وتزعمها على الصين) وبالخطر البلشفى إلاّ أن هذا التخويف كله لم نجد له واقعا كما تخيلناه • إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد. ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا. أما الشعوب الصفر فإن هناك دولا ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتها ••• ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام وفى قدرته على التوسع والاخضاع وفى حيويته • إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى • (٢)

ليس من هدفنا فى هذه الرسالة أن نسرد التاريخ العام لحركة التبشير المسيحى فى العالم قديمها وحديثها كما أن التاريخ التفصيلى لهذه الحركة فى كافة أنحاء مناطق نيجيريا خارج عن نطاق بحثنا • ولكن الذى يهمنى أكثر هو موجة الغزو الصليبى فى المناطق الإسلامية من نيجيريا ولا أعرج على المناطق الجنوبية الوثنية إلاّ بقدر ما لتلك الحركة فيها من ارتباط بمحاولة السيطرة على الإسلام والوقوف فى وجه زحفه المتدفق عليها من المناطق الإسلامية وما لها من علاقة بتمهيد الطريق أمام الأوربيين لتحقيق أطماعهم الاستعمارية وأهدافهم الصليبية •

ولقد مرت حركة الغزو الصليبى فى نيجيريا بمرحلتين هامتين من تاريخها • ابتدأت المرحلة الأولى منذ القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى وذلك أثناء اكتشافات البرتغال الجغرافية واستمرت قرابة أربعة قرون حتى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى • وتحدد المرحلة الثانية بقيام حركة التبشير الحديثة عندما قررت الحكومة البريطانية إرسال البعثات والإرساليات التبشيرية المنظمة إلى نيجيريا لنشر المسيحية والحضارة الغربية فيها ابتداء من تاريخ البعثة التبشيرية البريطانية الأولى سنة ١٢٥٧ هـ ١٨٤١ م وقد امتدت هذه المرحلة قرابة قرن ونصف قرن حتى الآن •

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى تأليف ا• ل شاتليه لخصها ونقلها الى العربية مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب ص ٣٥ ـ ٣٦

(٢) كتاب التبشير والاستعمار فى البلاد العربية تأليف الدكتور مصطفى خالدى ود• عمر فروخ ص ١٨٤ نقلا عن كتاب
Laurence E. Browne, The Prospects of Islam
London, 1944, P.9-10

لقد قامت حركة التبشير القديمة فى المناطق الساحلية من غرب أفريقيا — وكانت وثنية بصفة عامة على أيدى البرتغاليين المغامرين فى مرحلة الاتصال الأول التى سبق أن تحدثت عنها فى الفصول السابقة عند الكلام عن علاقات أوربا التجارية مع بلاد السودان الغربى إلاّ أن الكلام هناك كان مقصورا على جانب نشاطهم التجارى فى تلك الأثناء ، وذلك جانب هام من جوانب أطماعهم الدنيوية فى استعمار شعوب أفريقيا • ولكننى فى هذا الفصل أحاول دراسة جانب نشاطهم التبشيرى وهو الجانب الصليبى من الاستعمار ، ويجب أن أؤكد أن ذلك ليس محاولة لفصل أحدهما عن الآخر لأن ذلك غير ممكن بأى حال من الأحوال، وإنما هى مجرد محاولة للترتيب والتنسيق • وقد قال صاحب كتاب " المسيحية فى غرب أفريقيا : " إن الهدف الأسمى وراء جهود البرتغاليين فيما وراء البحار هو نشر المسيحية وبجانب ذلك أبدوا اهتماما بالغا بالتجارة من أجل الدعم المادى الذى يأتى من ورائها لتقدم الأعمال التبشيرية."[1]

كانت منطقتا وارى وبنين (Warri & Benin) من الإقليم الشرقى من نيجيريا أول بقعة دخلتها المسيحية من بين جميع مناطق نيجيريا • وكان جميع سكان هاتين المنطقتين وثنيين إلاّ أن جميع محاولات البرتغاليين والأسبانيين من بعدهم فى سبيل نشر المسيحية فيها قد باءت بالفشل ، وقد أدى هذا الفشل لفترة طويلة إلى جعل الاتصال الأوربى بهذه المناطق محصورا فى التعامل التجارى •

وإذا كان نشاط الدعاية التبشيرية طوال أربعة قرون مقصورا على المناطق الساحلية الوثنية من غرب أفريقيا ، وكانت محاولات المبشرين فى نيجيريا محصورة فى حدود منطقتى بنين ووارى (Warri & Benin) المطلتين على شواطىء المحيط الأطلسى ، حتى مع ذلك الفشل الذريع فى نشر المسيحية بين أهالى هذه المناطق فلا يعنى ذلك أن مهمتهم كانت مقصورة على تنصير الوثنيين وأنهم لا يريدون التبشير فى المناطق الإسلامية بل الحقيقة أنهم تجافوا عن المناطق الإسلامية داخل البلاد لقيام موانع وحواجز حالت بينهم وبين الوصول إليها للتبشير فيها • وقد رأينا كيف اندفعوا نحو غايتهم بحماسة وتناثروا فى أنحاء البلاد كالجراد المنتشر عندما استطاعوا أن يزيلوا العقبات القائمة فى وجه توغلهم بعد أن أقاموا

(1) E.O. Babalola, Christianity in West Africa, Ibadan, 1976, P.6

جميع الوسائل الممكنة لهم من التغلغل للعمل داخل البلاد • وتجدر الإشارة إلى أن البرتغال كانت أول دولة أوربية [illegible] ابتدأت بفكرة إرسال المبشرين إلى مناطق غرب أفريقيا منذ تلك العصور الغابرة. وكان مبشروها ينشرون المبادئ الكاثوليكية التى كانوا يدينون بها • وكان الهدف من وراء جهودهم هو تحويل المجتمعات الأفريقية الى مجتمعات مسيحية لتكون نسخة كربونية للمجتمعات البرتغالية المسيحية، والاستعانة بها للانقضاض على العالم الإسلامى والقضاء على الاسلام والمسلمين • ولا تهمنا تلك المجهودات المتواصلة التى قام بها المبشرون البرتغاليون والاسبانيون والإرساليات الكثيرة التى وردت هذه المناطق فى تلك الفترة فإن ذلك مجرد تاريخ علم خارج عن نطاق هذا البحث كما أسلفنا • إن طريقة التبشير فى تلك الفترة لا تعدو بناء المدارس وإقامة الكنائس ونشر التعاليم المسيحية بين الأهالى وزيارات دورية لبعض القرى والأرياف المجاورة وإرسال المبشرين للقيام بهذه المهمة • وقد كان المبشرون يعتقدون أن التأثير على الحكام المحليين دينيا وسياسيا واقتصاديا هو الوسيلة الوحيدة لإدخال رعاياهم تحت حظيرة المسيحية ، ومن أجل ذلك رأوا ضرورة تنصير الحكام لكسب موافقتهم ومناصرتهم ، إلّا أن التجارب قد أثبتت أن اعتقادهم هذا كان أمرا مبالغا فيه إلى حد كبير ، لأن أكثر الحكام الذين اعتنقوا المسيحية أو تظاهروا بها كانوا يسعون إلى تحقيق مصالح مادية سياسية واقتصادية " لقد دأب الحكام المحليون على الترحيب بالمبشرين للعمل فى بلادهم والتظاهر بالمسيحية لدفع أخطار التهديدات الخارجية عن بلادهم والتغلب على الأزمات الداخلية وتحقيق التوسعات الإقليمية فى المناطق المجاورة لهم بدون أن يكونوا على بينة من أمر المسيحية أو يفهموا شيئا من تعاليمها ومبادئها ." (١) وهذا يدل على أن فتح الحكام المحليين مصاريع أبواب بلادهم لدخول المبشرين لم يكن عن إيمان بالديانة المسيحية وإنما كان طمعا فى المصالح المادية التى تأتى من ورائهم وإذا ما أحجموا عن تقديم تلك المصالح فلا أهلا بأعمالهم ولا سهلا •

ولقد فشل المبشرون البرتغاليون فى جميع محاولاتهم لنشر المسيحية فى هذه البلاد

---

(١) E.O. Babalola, op.cit., P.13-14

فى تلك الفترة وباستثناء بعض المستوطنات البرتغالية فى غرب أفريقيا لم تستقر المسيحية فى أى مدينة من المدن التى ظل المبشرون يكرزون فيها بالمسيحية قرابة أربعة قرون ، وحتى فى القصور الملكية وفى مصاف الأمراء والزعماء فإن الأمر كان كما قال قسيس مدينة ساوتوم (Sao Tome) سنة ١٠٣٠ هـ ـ ١٦٢٠م " إن الملك والأمراء هم الذين اعتنقوا المسيحية حقيقة وأما حاشيتهم فإنهم كانوا يتظاهرون بالمسيحية إرضاء للملوك فقط " ، (١)

إن هناك بعض المشاكل قد أسهمت فى فشل أعمال المبشرين فى هذه الفترة ، وإن الأوربيين الذين ألفوا السكنى فى أجواء أوربا الباردة لم يكونوا لينسجموا مع المناخ الأفريقـــى لارتفاع درجة الحرارة فى المناطق الاستوائية ، لذلك وقع كثير منهم ضحايا الأمراض المهلكـــة ، وقد أدت هذه الظروف القاسية المحيطة بأعمال التبشير فى هذه الفترة إلى قلة عدد المبشرين بحيث تبقى أحيانا مناصب القساوسة والأساقفة شاغرة مدة طويلة ولا يجرؤ أحد من المبشريـــن أن يتقدم لملأ الفراغ ، ولقد وافتنا كتب التاريخ باحصائيات تدل على ضخامة عدد ضحايـــا الأمراض الفتاكة من المغامرين للأوربيين ، وقد أحدثت مشكلة اللغـــة عوائق عاتية فى سبيل المبشرين عند محاولتهم لعرض المسيحية وتقديمها للشعوب الأفريقية وخاصة عندما أرادوا ترجمـــة الكتب الدينية إلى اللغات المحلية المختلفة وتعريف الناس بالمبادئ والتعليمات المسيحيـــة ولذلك أبدوا اهتماما كبيرا منذ تلك الفترة بتعليم اللغات المحلية ، قال أحد المبشـــريـــن " يجب أن نبدأ أعمالنا باستخدام اللغات المحلية فى دعوة الناس إلى المسيحية وعلينا أن نستمر على ذلك لكى يفهم المستمعون وأتباع المسيح ما يلقيه المبشرون من التعليمات الدينيـــة فهما صحيحا " ، (٢) ويذكر المؤرخون أن قلة عدد المبشرين فى ميدان العمل التبشيرى فـــى مناطق غرب أفريقيا فى هذه الفترة كانت نتيجة المشاكل المتعددة التى يواجهها المبشـــرون من ناحية اللغة ومن الناحية الصحية بالنسبة للأوربيين لعدم ملائمة المناخ الأفريقى مزاجهـــم بالإضافة إلى مشكلة المواصلات حيث مُنع الأوربيون من التوغل داخل البلاد لمزاولة أعمالهـــم التبشرية والتجارية وقد اعتبروا كل ذلك سببا مباشرا لفشل أعمالهم ووجه حاجتهم الماسة إلـــى

---

(١) J.F.A. Ajayi, <u>Christian Missions in Nigeria</u>, London, 1973 P.3

(٢) E.O. Babalola, op.cit., P.20

استخدام الأفريقيين . وقد عرف الأوربيون منذ هذه الفترة أن لا أمل لهم في نجاح أعمالهم وجهودهم إلّا باستخدام الأفارقة . ولم تكن هذه الفكرة مقصورة على أعمال التبشير بل إن التجار الأوربيين ورجال الاستعمار من بعدهم قد أدركوا ذلك أيضا فاستخدموا الطاقة البشرية الأفريقية كما استغلوا موارد أفريقيا الطبيعية لتحقيق أهدافهم وغاياتهم المختلفة .

وقد قررت البرتغال مشروع إعداد رجال الدين من الأفريقيين ليتولوا مناصب القساوسة والأساقفة والمبشرين وتدريب جماعة كهنوتية من صفوف النساء الافريقيات ليتولين مناصب المبشرات وذلك لتخفيف أعباء المسؤولية عن عواتق المبشرين الأجانب الذين أوهنت قواهم حمى الملاريا ، ولاعتقادهم أن الإنسان الأفريقي الذى نشأ على مناخ أفريقيا وكان بين أهله وذويه ويعرف لغة قومه وعاداتهم وتقاليدهم يكون بطبيعة الحال أقدر على العمل في هذا المجتمع من أولئك المبشرين الأجانب . ومنذ القرن العاشر الهجرى ـ السادس عشر الميلادى كان البرتغاليون يبتعثون الشبان الأفارقة الممتازين لتلقى التعاليم المسيحية في البرتغال وماعتمت أن سارت جميع الدول الأوربية الأخرى ـ هولندا والدانمرك وأسبانيا وبريطانيا وفرنسا ـ على درب البرتغال عندما بدأت نشاطها التجارى والتبشيرى في غرب أفريقيا في القرن العاشر الهجرى ـ السادس عشر الميلادى ، فابتعثت إليها المبشرين ثم عُنيت بإعداد الشبان الأفارقة لمهمة التبشير وللإشراف على المدارس التبشيرية التى أقامها المبشرون في مراكزهم في المدن الساحلية لتعليم الأطفال في المراحل الأولية التعليمية . " ولقد اعترفت الحكومة البرتغالية والحكومة البريطانية ووافقتهما [illegible] في ذلك مبشرو هاتين الدولتين العاملين في مراكزها في غرب أفريقيا بأهمية مشروع إعداد مجموعة من الأفارقة الصابئين لمهمة الدعاية التبشيرية على أن يكون اختيارهم من بين أسر الحكام والملوك " (1) وعلى تلك المجموعة علقت كلتا الدولتين آمالها الكبيرة في تحقيق أهدافها في هذه المنطقة . وإذا كان بعض هؤلاء الشبان المنحلين الذين ابتعثوا في تلك الفترة إلى أوربا للتعليم قد انحرفوا عن جادة الطريق ، والبعض الآخر الذين أكملوا تعليمهم فيها وقلدوا مناصب الأساقفة والمبشرين قد امتنعوا عن العودة إلى أفريقيا ، فإن النجاح المحدود الذى تم تحقيقه في حقل التبشير المسيحى خارج مستوطنات الأوربيين في

---

(1) E.O. Babalola, op.cit., P.16

مناطق غرب أفريقيا خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين ـ السابع عشر والثامن عشر الميلاديين كان على أيدى العدد القليل من هؤلاء الذين رجعوا بعد تخرجهم للعمل فى بلادهم، كما كان كذلك على أيدى النواة الأولى للمعاهد التبشرية التى أسست فى المدن الساحلية الهامة فى هذه البلاد • وكان من بين هؤلاء المبشرين الأفريقيين الأوائل الذين كانوا أحجار الزاوية فى ميدان التبشير فى غرب أفريقيا :

يعقوب اليساجون كابتان (Jacob Elisa John Capitein)

توماس تمبسون (Thomas Thompson)

فيليبس قواقو (Phillip Quaque)

القديس بيتار كلافا (St.Peter Claver)

سغنور جوزيف (Signor Joseph)

لقد كانت الهيئات التبشيرية فى هذه الفترة تعانى الشيء الكثير من المشاكل المالية لأن الأموال المخصصة لها كانت فى أكثر الأوقات تقل عن احتياجاتها لتغطية وتنفيذ برامجها ومشاريعها • " وقد حدا هذا الأمر بالمبشرين إلى التورط فى تجارة الرقيق واعتبارها وسيلة لتمويل النشاط التبشيرى وتدعيم مواردها المالية المحدودة " كما قال صاحب كتاب المسيحية فى غرب أفريقيا •(١)

ولو اختبرنا مدى نجاح أعمال التبشير فى المرحلة الأولى لم نجد سوى محاولات يائسة ومجهودات بذلت لتذهب أدراج الرياح ، وليس ذلك مجرد رمى للكلام على عواهنه ولكنه حقيقة شهد بها الشاهدون من الغربيين والمستغربين والمسيحيين الأفارقة • قال صاحب كتاب آثار المبشرين على دولة نيجيريا الحديثة : " وقد أثبتت التقارير أنه فى خلال المرحلة الأولى من اتصال الأوربيين بمناطق غرب أفريقيا والتى دامت أربعة قرون متوالية لم يكن للحضارة الأوربية أى تأثير على شئون حياة المجتمعات الأفريقية سوى الرطانة الإنكليزية التى كانت تستخدم فى الأغراض التجارية فى موانيء هذه البلاد . " (٢)

---

(١) E.O. Babalola, op. cit., Pp.17-18

(٢) E.A. Ayandele, Missionary Impacts on Modern Nigeria, London 1971, P.3

وقال الأستاذ أجايي : " لم تنتهج حكومات المناطق الساحلية التى وصل إليها الأوربيون منذ أمد بعيد طريقة زبائنهم ومعلميهم الأوربيين فى الديانة وفى أسلوب الحكم وفى نظام الضرائب وشئون القضاء . ولقد كان قادة الحركة التبشيرية الحديثة فى القرن الثالث عشر الهجرى - التاسع عشر الميلادى قلقين جدا لفشل التجارة الأوربية والديانة المسيحية فى إحداث تأثير حضارى ملموس فى شئون حياة شعوب المناطق الساحلية فى نيجيريا . وقد رأوا بطبيعة الحال أن ذلك لم يكن حالة استثنائية وإنما كان جزءا من فشلهم العام فى القارة الأفريقية ".(١) وقال أيضا " ومع بداية القرن التاسع عشر للميلاد لم يبق من أثر جهود المبشرين المبذولة فى مرحلة حركة التبشير القديمة إلاّ شىء قليل جدا ".(٢)

كانت هناك حوادث هامة سبقت قيام الحركة التبشرية الحديثة فى نيجيريا وكان لها ارتباط وثيق بهذه الحركة من حيث النجاح والفشل، ولا يتم الحديث عنها إلاّ بذكر شىء منها . إن الحركة الدينية الإصلاحية التى قامت فى أوربا إبان منتصف القرن الثامن عشر الميلادى هى التى أدخلت على الجماعات المسيحية فى أوربا تنظيمات جديدة فى شئون التبشير وجاءت بفكرة تكوين الجمعيات التبشيرية المنظمة للعمل فى أوربا والعالم الخارجى وزودت الجماعات المسيحية بروح الحماسة الصليبية الدافعة للعمل التبشيرى .
وكذلك كانت حركة تهجير الأفارقة المحررين من أوربا إلى أفريقيا منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى والحركة الثانية لتهجير الأفارقة من سيراليون إلى بلاد يوربا فى نيجيريا حادثا ذا أهمية كبيرة باعتباره أهم الوسائل التمهيدية التى أقامها قادة حركة التبشير الحديثة لنشر المسيحية فى غرب أفريقيا . ومع انقراض العصور المظلمة فى تاريخ أوربا حدث تغير خطير فى تفكير الناس وأصبح للجمال قيمة معتبرة وصار للعقل تأثير كبير على كل شىء فى شئون الحياة، وقامت على أثر ذلك الثورة الصناعية ثم تلتها حركة دعاة الإنسانية ولم يكن الانقلاب الصناعى ليقف عند حدوده الذاتية بل تخطاها إلى الناحية الدينية فقامت حركة الميثودية(٣) فى منتصف القرن الثامن

---

(١) J.F.A. Ajayi, op.cit.,P.7

(٢) Ibid P.4

(٣) الميثودية أى المنهجية وهى الحركة الدينية الاصلاحية التى قادها فى اكسفورد عام ١٧٢٩م تشارلز وجون ويزلى محاولين فيها إحياء كنيسة انكلترا .

عشر الميلادى بقيادة جون ويزلى (John Wesley) حيث انفصل عن كنيسة إنكلترا وتبعه جمع غفير من الفرقة البروتستانتية وأقاموا كنيسة منهجية جديدة وأسسوا جمعية كبيرة للمسيحيين المنهجيين داخل الكنائس الإنكليزية المعتمدة لدى الحكومة البريطانية ٠ ولم يكن أثر هذه الحركة الإصلاحية مقصورا على هؤلاء الذين تبنوا أفكار الميثودية من البروتستانتيين فى أوربا وفى أمريكا الشمالية بل امتدت أبعادها إلى الشرق المسيحية عامة فقام عدد كبير من المؤسسات التبشيرية منذ العقد الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى فى أوربا ٠ وما عتمت أن تأسست جمعيات على شاكلتها فى اسكوتلنده وأمريكا وألمانيا والدانمرك وهولنده والسويد والنرويج وسويسرا وغيرها. وقد تعذر على الافرنسيين أن يقوموا بشىء من هذا القبيل لانشغالهم بالثورة التى آلت الى الانقلاب المشهور ٠

إن المعمدانى الإنكليزى وليام كارى (William Carey) هو الذى فاق أسلافه فى مهمة التبشير فدرس لغة اللاتين واليونان والفرنسيين والهولنديين والعبرانيين كما تعلم كثيرا من العلوم وقد قوبلت كتبه فى التحريض على التبشير بالاستحسان ٠ وهو أول من قام بتأسيس الجمعية المعمدانية (١) للتبشير سنة ١٢٠٧ هـ ـ ١٧٩٢م ثم تأسست بعد ذلك جمعية لندن التبشيرية سنة ١٢١٠ هـ ـ ١٧٩٥م وهى التى تقوم بتشجيع مبشرى الكنيسة الإنكليزية والميثوديين والمشيخيين الاسكتلنديين وتشرف على شئون ابتعاثهم إلى الخارج لمهمة التبشير ٠ ثم قام مبشرو الكنيسة الإنكليزية فى أوربا سنة ١٢١٤ هـ ـ ١٧٩٩م فأنشأوا جمعية الإرساليات التبشيرية فى أفريقيا والشرق وقد عرفت فيما بعد باسم جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية ٠
وتعتبر جمعية الإنجيل لبريطانيا والعالم الخارجى التى تأسست سنة ١٢١٩ هـ ـ ١٨٠٤م عونا كبيرا بالنسبة للهيئات والجمعيات الأخرى حيث إنها كانت تقوم بتمويل مشروع ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات المختلفة وتشرف على طبعه ونشر كمية كبيرة منه فى شتى أنحاء العالم ٠ ولقد كان الدكتور كوك (Dr. Cook) أحد قادة الحركة الاصلاحية أول من وضع الخطط لتأسيس الهيئات التبشيرية للعمل فى العالم الوثنى ولكن الكنيسة المنهجية لم تنفذ تلك الخطط بصفة رسمية حتى سنة ١٢٢٨هـ ـ ١٨١٣م عندما أسسوا الجمعية المنهجية والويزلية للتبشير ٠ وقد

---

(١) المعمدانية : هى إحدى الكنائس البروتستانتية وهى تذهب إلى أن المعمودية يجب أن لا تتم إلا بعد أن يبلغ المرء سنا تمكنه من فهم معناها ٠

جاءت بعد ذلك جمعية الإرساليات الأفريقية وجمعية الآباء البيض من الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية لنفس المهمة • ولأن قادة الحركة الاصلاحية في أوربا قد اعتبروا القارة الأفريقية جزءا من العالم الغربي الذي عاش قرونا طويلة تحت المظالم السياسية والاجتماعية المتراكمة وطغيان الكنيسة ورجال الدين • فوجهوا اهتمامهم البالغ إلى محاولة نشر المسيحية والحضارة الغربية في أفريقيا • وقد استغل قادة الحركة الإنسانية محاولة بريطانيا للقضاء على تجارة الرقيق واقترحوا تهجير الأرقاء المعتقين إلى أفريقيا وبناء مدينة خاصة لهم في سيراليون.ولم تمض فترة طويلة حتى انتشرت في مناطق غرب أفريقيا فروع الهيئات التبشيرية التي قامت في أوربا بعد الحركة الاصلاحية • كانت حركة تهجير العبيد المحررين من أوربا وأميركا إلى مدينة فريتون Freetown في سيراليون التي بدأت منذ سنة ١٢٠٧ هـ — ١٧٩٢م حلقة مهمة من سلسلة الخطط الركيزة التي وضعها قادة الحركة التبشيرية الحديثة لتوطيد قوائم المسيحية في غرب أفريقيا في هذه المرة • لقد قام المبشرون بنشر المسيحية وتعليم اللغة الإنكليزية بين العبيد كما دربوهم على علم الحراثة والصناعة اليدوية والتجارة أثناء وجودهم تحت أغلال العبودية في المزارع والمناجم في أوربا وأميركا،وكان هؤلاء الأفارقة ينتمون إلى قبائل متعددة في غرب أفريقيا " وقد أثيرت فيهم العصبية الدينية وروح الحنين إلى الوطن،ووضعت برامج خاصة لجمع كل من يرغب في العمل التبشيري منهم سواء من المبشرين والمدرسين والفلاحين وعمال المصانع والحرفيين.وحث قادة حركة التبشير الحديثة الكنائس في أوربا وأميركا على تعيينهم مبشرين " (١) وإرسالهم لمهمة التبشير في مناطق غرب أفريقيا وخاصة في سيراليون وليبيريا • وهكذا أخذ يزداد عدد المهاجرين على مر الأيام حتى شكلوا الأغلبية الساحقة من بين سكان مستعمرة سيراليون وبدأوا يلعبون أدوارا هامة في شئون الزراعة والصناعة والتجارة وفي حقل التعليم الغربي ومجال التبشير• وقد وضعت الحكومة البريطانية إدارة شئون هذه المستعمرة في يد شركة سيراليون البريطانية للتجارة ثم نقلت السلطة بعد استقرار الأمر إلى يد الهيئة الاستعمارية البريطانية سنة ١٢٢٣هـ ١٨٠٨م.وقد اتخذت الهيئات التبشيرية العليا في أوربا مستعمرة سيراليون مركزا لأعمالها في غرب أفريقيا فنظمت سلسلة من البعثات للعمل فيها منذ سنة ١٢١٠ هـ — ١٧٩٥م• وقد ذكرت كتب التاريخ تفاصيل جهود إرساليات جميع الفرق المسيحية التي عملت في هذه المنطقة•

(1) J.F.A. Ajayi op.cit., P.44

وقد كان شيئا طبيعيا جدا أن تنجح أعمال التبشير في هذه الفترة لأن الظروف القاسية المحيطة بهؤلاء العبيد منذ فترة وقوعهم تحت أغلال العبودية حتى وقت تحريرهم كانت من جملة الأسباب والوسائل التي تمهد الطريق لنجاح أعمال التبشير في هذه الفترة • وأول مدرسة أسسها المبشرون لمهمة إعداد رجال الدين والمبشرين والمدرسين من الأفارقة المحررين كانت سنة ١٢٥٨ هـ ـ ١٨٤١ م• وقد عرفت تلك المدرسة فيما بعد باسم كلية فورابى FouraBay College وقد ظلت هذه الكلية المؤسسة الوحيدة للتعليم الجامعي في غرب أفريقيا حتى أربعينات القرن العشرين الميلادي•ولم تمض فترة طويلة بعد تأسيس كلية فورابى حتى أصبحت مستعمرة سيراليون مركزا هاما للتعليم الغربي وقاعدة الانطلاق لأعمال التبشير،وكان يقصدها رجال الدين المسيحيون والعلمانيون الأفارقة الأوائل لتلقى تعليمهم العالي فيها • ومنها انطلق الفوج الأول من المهاجرين المثقفين إلى شتى أنحاء مناطق غرب أفريقيا • وكان من بينهم المبشرون والأساتذة والمحامون والقضاة والموظفون• ويظهر أن هذا هو السبب الذي من أجله أطلق على مستعمرة سيراليون أنها أم غرب أفريقيا •

ولو اختبرنا كل ما ذكرناه حول حركة تهجير الأفارقة المحررين واستيطانهم فيسيراليون وقيام المبشرين والمدرسين الأوربيين بنشر المسيحية والثقافة الغربية بينهم وانتشار أوكار مراكز الإرساليات ومدارسها في مستعمرة سيراليون لعلمنا أن هذه المستعمرة لم تكن مقصودة لحد ذاتها ولكنها قصدت لأجل أن تكون قاعدة الانطلاق إلى بقية أنحاء مناطق غرب أفريقيا • وخاصة إذا عرفنا أن هؤلاء الأفارقة المحررين كانوا ينتمون إلى جنسيات مختلفة وقبائل متعددة ويتكلمون لغات مختلفة • وقد جمعهم الأوربيون في منطقة بعيدة عن بلادهم الأصلية • ولابد أن يأتي يوم تنبعث في أعماق الغرباء روح الحنين إلى العودة إلى بلادهم الأصلية سواء أكان ذلك الحنين طبيعيا أو حصل بفعل المؤثرات الخارجية في أرض الغربة ••• فهكذا قامت الحركة الثانية لتهجير الأفارقة المحررين ولكنها لم تكن من أوربا في هذه المرة وإنما كانت من سيراليون إلى بلاد يوربا في المناطق الجنوبية في نيجيريا • ويظهر أن حركة التهجير الثانية كانت أساسا ـ كما كانت الحركة الأولى ـ حلقة من أفاعيل أيدي قادة حركة التبشير الحديثة ورجال الاستعمار أو كان دورهم فيها على الأقل دور المشجع والمستغل وقد عرفوا بخلق الأجواء

والظروف الممهدة لوقوع الحوادث والوقائع ثم استغلال تلك الحوادث والتعلق بأذيال تلك الوقائع لنيل مآربهم الشخصية ومصالحهم الذاتية .

يقول بكستون (Buxton) فى مناقشته لجهود الحكومة البريطانية للقضاء على تجارة الرقيق عن طريق الملاقات الدبلوماسية فى أوربا وعن طريق قواتها البحرية الجوالة على طول شواطىء المحيط الأطلسى بأن هذه الجهود لم تكن لتقلل من عدد العبيد الذين ينقلون إلى أوربا من أفريقيا ولكن محاربة تجارة الرقيق من الناحية الاقتصادية هو العلاج الناجع: "يجب أن نربى عقول شعوب أفريقيا ونعمل على إخراج محصولات أراضيها ... ابعثوا المبشرين والمدرسين والمحراث والمسحاة جميعا إلى أفريقيا وستزدهر فيها الشئون الزراعية وتنفتح الطرق لدخول التجارة المشرعية ويسود الأمن جميع المجتمعات حيث تتقدم الحضارة الأوربية بطبيعة الحال وتنتشر المسيحية كنتيجة مباشرة لهذا الانقلاب السريع." (١)

وقد ذهب بكستون بعيدا فى تفكيره واقترح استعمال الوكلاء الأفارقة وسيلة لإحداث هذا الانقلاب السريع . وقد ذكر الأستاذ أجايى خلاصة لكلامه فى هذا الصدد جاء فيها : إن مثل هؤلاء الوكلاء-الذين سيحظون بحماية الحكومة البريطانية وبتوجيه وإرشاد المبشرين ويعملون برؤوس أموال التجار الأوربيين - لا يمكن أن يوصد الباب دون وجوههم كما كان يحصل للأوربيين حيث كانوا يمنعون من التوغل داخل بلدان أفريقيا ... وسيجتمع هؤلاء الوكلاء فى مستعمرة صغيرة ليعيشوا فى وحدات حضارية حيث ينطلق النور إلى المناطق المجاورة وسيقوم المبشرون والمدرسون بنشر المسيحية فيهم وتعليمهم العلوم الحديثة .. إلى أن قال : ويقومون بتحطيم المجتمع القديم بكل الوسائل الممكنة ويحلون محله مجتمعا مسيحيا جديدا." (٢)

وأثناء الفترة التى قدم بكستون اقتراحاته إلى الحكومة البريطانية وكانت الحكومة تعقد الجلسات حول دراسة إمكان إخراجها إلى حيز الوجود قامت حركة تهجير الأفارقة من سيراليون إلى بلاد يوربا فى نيجيريا . ويظهر أن تاريخ هذه الحركة يرجع إلى ما قبل هذه الفترة بسنوات

---

(١) T.F. Buxton, The African Slave Trade and Its Remedy, London, 1839, Pp.282, 511

(٢) J.F.A. Ajayi, op.cit.,P.11

إلا أنها لم تتميز كظاهرة اجتماعية تسترعى الاهتمام والانتباه إلا فى هذه الفترة. وقد وصل مجموعة كبيرة من المهاجرين إلى مدينتى بداغرى (Badagry) وأبيوكوتا (Abeokuta) فى المناطق الجنوبية فى نيجيريا من سيراليون والبرازيل وكوبا (CUBA) واستمرت موجة الهجرة حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى ـ التاسع عشر الميلادى • ولكن الحكومة البريطانية والهيئات التبشيرية فى بادىء الأمر لم تبد اهتمامها بهذه الهجرة لكونها هجرة العوام ولأنها تخالف ما اقترحه بكستون من هجرة منظمة وبعثة كبيرة مكونة من ذوى الكفاءات المختلفة من المبشرين والمدرسين والخبراء والسياسيين والعسكريين والمهندسين وغيرهم • ويقول الأستاذ أجايى " وهناك فرق كبير بين هجرة هؤلاء العوام وبين الحركة المنظمة للمبشرين المثقفين التى اقترحها بكستون." (١)
ومهما كانت الروح الدافعة لهذه الهجرة وكيفما كانت طبيعتها فقد استغلتها الهيئات التبشيرية فى سيراليون وأرسلت المبشرين وراء هؤلاء المهاجرين فى مدينة بداغرى ومدينة أبيوكوتا بعد حملة نهر النيجر المشهورة التى قادها بكستون سنة ١٢٥٧ هـ ـ ١٨٤١م والتى كان المؤرخون يعتبرونها بداية الفترة التمهيدية لحركة التبشير الحديثة ، وكانت ذات أهمية كبيرة فى تاريخ التبشير فى هذه البلاد ، وذلك بالنسبة للانتشار الكبير الذى جاء بعدها فى أيام الحكم البريطانى فيها • وتظهر أهميته الهجرتين الأولى والثانية وخاصة بعد أن فشلت حملة نهر النيجر فى مهمتها من أن الأوربيين قد استطاعوا أن يجعلوا مستعمرة سيراليون مركزا هاما للتعليم الغربى والثقافة الغربية كما استطاعوا أن يتخذوها قاعدة الانطلاق لرسل التبشير إلى كافة أنحاء غرب أفريقيا على النحو الذى فصلناه سابقا • ولم يختلف شأن الهجرة الثانية كثيرا عما قررناه فى الأولى ، فقد كان لهؤلاء المهاجرين أهمية كبيرة لا تتناسب مع عددهم وباعتبارهم متناثرين فى أماكن كثيرة فى المناطق الجنوبية " لقد جمعت الحركة التبشيرية هؤلاء المهاجرين فى مراكز هامة وأفسحت أمامهم مجالات العمل وشجعتهم على العمل من أجل نشر المسيحية والثقافة الغربية فخدم المهاجرون السيراليونيون فى الشئون التجارية وشغلوا مناصب المبشرين والمعلمين الدينيين والمدرسين ، بينما خدم المهاجرون البرازيليون فى تعمير المبانى الحديثة وتعبيد الطرق وغيرها • وبالجملة فإن هؤلاء المهاجرين هم الذين أدخلوا

---

(١) J.F.A Ajayi, op.cit.,P.28

المبشرين إلى هذه البلاد . ومن أجل ذلك يعتبرون عنصرا أساسيا فى الحركة التبشيرية التى زحفت على البلاد . "[١] ولكى نعرف مدى أهمية تلك الهجرة ودور المهاجرين فى حركة التبشير الحديثة يجب أن نتتبع طبيعة هذه الحركة وطريقة توغلها وانتشارها ونتائجها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فى مناطق مختلفة من هذه البلاد ، وكذلك العوامل المحلية التى مكنتها من تحقيق أهدافها الصليبية وأطماعها الاستعمارية .

لقد دخلت الهيئات التبشيرية ومن ورائها رجال الاستعمار إلى نيجيريا بحجج أوهى من خيوط العنكبوت منذ سنة ١٢٥٨ هـ ـ ١٨٤٢ م وكانت البلاد فى تلك الفترة عبارة عن قسمين؛ نيجيريا الجنوبية ونيجيريا الشمالية.وقد كانت فى المناطق الشمالية ممالك إسلامية ذات تاريخ إسلامى مجيد فصعب بذلك على الأوربيين أن يجدوا منفذا إلى النيل منها ولم يستطيعوا أن يدخلوها لبسط نفوذهم فيها إلّا فى أوائل هذا القرن عندما زحفوا عليها تحت ظلال الأسلحة النارية الحديثة على ما سنبينه فى الفصل التالى إن شاء الله تعالى .

وأما نيجيريا الجنوبية التى كانت مناطق وثنية فقد وصل إليها الجهاد الإسلامى المتدفق من المناطق الشمالية الإسلامية منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ـ التاسع عشر الميلادى . ثم قام كل ما ذكرت سابقا من أمر الهجرة ودور المهاجرين فى بلاد يوربا فاقتفى المبشرون آثار المهاجرين إليها وتمركزت الهيئات التبشيرية فيها منذ تلك الفترة،ويعتبر قيام حركة التبشير الحديثة فى المدن الساحلية من المناطق الجنوبية الوثنية فى هذه البلاد منذ هذه الفترة بداية نقطة تحول هام فى مجرى الأحداث الدينية والسياسية والاجتماعية فيها . وقد قلت مرارا وتكرارا أن جهود المبشرين فى سبيل نشر المسيحية هى التى مكنت الأوربيين من إقامة سلطة سياسية وإحداث تأثير جذرى فى شئون الحياة الدينية والاجتماعية فى شتى أنحاء هذه البلاد .

ولقد حظيت جهودهم الأولية بالدعم والتأييد من قبل مكتب شئون المستعمرات البريطانية والهيئات التبشيرية العليا فى أوربا . وقد انتشرت الجمعيات التبشيرية فى بلاد يوربا وكانت لجمعية يوربا التبشيرية التابعة لهيئة إرساليات الكنيسة الإنكليزية ، وجمعية المبشرين الميثوديين الويزليين ، وجمعية الإرسالية المعمدانية جهود كبيرة فى هذه المنطقة حيث جندت كل طاقاتها ،

---

(١) J.F.A. Ajayi, op.cit.,P.51

وعلت بمؤازرة المبشرين الأفارقة ومجموعة الصابئين من المهاجرين كما استخدمت كل الوسائل الممكنة لتحويل مجتمعات بلاد يوربا إلى المسيحية • وقد كان المبشرون فى أمس الحاجة إلى حماية الحكومة البريطانية فى بادئ الأمر ، ولذلك قال المبشر صمويل كراوذر (S.Crowther

" يجب أن تتبع بريطانيا المبشرين والمثقفين الأفارقة بعين رعايتها وكفالتها حيثما كانوا فى حلهم وترحالهم ." (١)

" وقد أصدرت الحكومة البريطانية أوامرها إلى قواتها البحرية الجوالة على طول شواطئ المحيط الأطلسى بمنح المبشرين كل الرعاية المطلوبة والحماية اللازمة ." (٢) وكذلك عندما هددت جيوش دولة داهومى بشن هجوم عسكرى كاسح على منطقة أيبا Egbaland فى بلاد يوربا والتى تمركز فيها المبشرون منذ أول دخولهم إلى هذه البلاد وازدهرت فيها أعمالهم التبشرية وشئونهم التجارية ورفع المبشرون الاحتجاج إلى الحكومة البريطانية " أرسلت الحكومة قرارات إنذار صرحت فيها بأن أى اعتداء من جانب سلطة دولة داهومى على هذه المنطقة يعتبر اعتداء مباشرا على الحكومة البريطانية وإعلانا لقيام حالة حرب بين الطرفين البريطانى والداهومى ." (٣) ولقد اتجهت جمعية النيجر التبشيرية التابعة لهيئة إرساليات الكنيسة الإنكليزية صوب المناطق المطلة على ضفاف نهر النيجر ، وكذلك استقرت جمعية الكنيسة المشيخية الاسكتلندية فى المدن الواقعة على شواطئ المحيط فى الأقليم الشرقى من هذه البلاد ، وقد استطاعت بعد سنوات قليلة أن تحقق بعض أهدافها فى ميدان التبشير وحقل التعليم والشئون الاجتماعية • ولقد حاول المبشرون تهجير مجموعة من العبيد المحررين إلى بعض المدن الساحلية فى المناطق الشرقية كما فعلوا فى بلاد يوربا ولكنهم فشلوا فى ذلك حيث لم يكن من العبيد المهجّرين إليها من ينتمى إلى قبائل إيبو الأصلية إلاّ نفر يسير جدا بخلاف الأمر فى الهجرة إلى بلاد يوربا، فإنها عودة إلى البلاد الأصلية واجتماع بالأسر والأقارب بعد طول الفراق والغياب الطويل فى متاهات الضياع والهلاك • وقد كانت هناك بعض عادات جاهلية سادت مجتمعات المناطق الشرقية فى تلك

---

(١) من مذكرة تقارير الجمعية المشيخية عام ١٨٤٣م وردت فى كتاب : E.A. Ayandele op.cit., P.8

(٢) من مذكرات المبشر هوب واديل Hope Wadell ص ١٨

(3) E.A. Ayandele, op.cit., P.12

الفترة مثل قتل الأيتام والتوائم وتقديم الجنس البشرى أضحية فى بعض المناسبات وتكليف الحالف بشرب السم ودفن العبيد أحياء عند موت سيدهم وغير ذلك. وهذه مشكلة اجتماعية تتعارض مع أبسط قواعد الإنسانية وساعدت الجمعيات التبشيرية فى القضاء عليها • وقد يكون ذلك عن دوافع روح إنسانية أو يكون وراءه مطامع أخرى دنيوية •

ولقد وقف المبشرون فى بداية الأمر موقفا حياديا من شئون السياسة المحلية فى المناطق الجنوبية وأبدوا احتراما بالغا لسلطة الحكام المحليين طمعا فى تحويلهم إلى المسيحية ليقودوا رعاياهم وراءهم إلى اعتناق المسيحية • ولكن رغم فشلهم فى ذلك فقد حققوا بعض التقدم واستطاعوا أن يحصلوا على مساندة الملوك وأن يستغلوا نفوذهم لحماية مصالحهم والدفاع عن قضايا المهاجرين والصابئين ودفع عجلة نشاطهم التبشيرى إلى الأمام حتى انتشرت مراكزهم فى المدن والقرى الكثيرة • وعندما أحس المبشرون بمنزلتهم المرموقة عند الحكام المحليين بسبب الأدوار الهامة التى كانوا يلعبونها فى كثير من شئون الحياة فى المجتمع حاولوا التأثير على مجارى السياسة الخارجية وبذلوا فى سبيل ذلك كل غال ورخيص، حيث بدأوا يقاومون الحركات التى تنبه الشعب إلى أخطارهم وتحاول أن تجعل له سبيلا إلى الحياة المستقلة • ولكنهم فشلوا فى ذلك فشلا ذريعا. وقد أدى ذلك إلى إجلاء المبشرين الأوربيين من مدينة أبيوكوتا فأووا إلى مستعمرة لاجوس البريطانية • وكأن السلطة المحلية قطعت أغصان الشجرة وأبقت جذعها من غير أن تقلعه فلما أتى عليه المطر أورق فعادت الشجرة كما كانت •

إن احتلال مدينة لاجوس وخيانة المبشرين الأوربيين بتدخلهم السياسى فى شئون الحكومات المحلية قد أدى بالحكام المحليين إلى تغيير موقفهم تجاه المثقفين الأفارقة • لقد نظر الحكام إلى كونهم أبناء جلدتهم الذين تستبعد منهم الخيانة لبلادهم فوثقوا فيهم واعتمدوا على مشاوراتهم وإرشاداتهم ولكنهم أخطأوا فى اعتقادهم أن أخطار الأوربيين الاستعمارية فى هذه البلاد قد قضى عليها بسبب إجلائهم لمبشريهم منها • ولو أن السلطات المحلية عرفت أن المبشرين الأفارقة والمجموعة المسيحية من المهاجرين والصابئين عملاء الامبريالية لقضوا عليهم منذ تلك الفترة ليذهب خطرهم دون ما رجعة ولا عودة • ولكنهم لم يشعروا بذلك إلّا بعد فوات الأوان • ويجب أن نؤكد هنا أنه لو لم تكن هناك مساندة فعالة وجهود كبيرة من قبل المبشرين المحليين أمثال

صمويل كراوذار Samuel Crowther وجى • س تايلور J.C.Taylor

وغيرهما. ولم تكن هناك أيضا موافقة ومناصرة من جانب بعض الملوك المحليين المستغفلين ولم يخلق المبشرون فى المجتمع قضية المهاجرين التى استُغلت لمصالحهم الذاتية حيث وجدت أعمالهم تجاوبا كبيرا فى صفوف المهاجرين فكوّنوا منهم عناصر أساسية لإحداث الثورة الدينية والاجتماعية فى هذه المنطقة. ولو لم يكن هناك شىء من هذا كله لضاعت أعمال المبشرين الأوربيين بين الغابات الوعرة وسفوح الجبال ولذهبت الرياح بمطامعهم حيث لا يشتهون • قال الملك بيبول ملك منطقة بونى فى الإقليم الشرقى وكان يحذر المبشر تشامبنيس Champness من اتخاذ موقف شديد ضد بعض الأديان التقليدية فيها : " ليس هناك أحد فى منطقة بونى يوافقك على هدم معابد الآلهة التقليدية وإذا أخبرنى بذلك أحد فسأعتبر ذلك منه خداعا وكذبا، ولكن هؤلاء الناشئين الذين يردون مدرستك لتلقى التعليم الغربى سيتبعون طريقتك وباستطاعتك أن تأمرهم بكل ما تريد كما عليهم أن يمتثلوا أوامرك إذا اقتنعوا بما تدعوهم إليه "(١) إننى لا أريد هنا أن أسرد الوقائع التاريخية المجردة فى شأن الهيئات التبشيرية المتعددة التى دخلت غمار الغزو الصليبى فى المناطق الجنوبية منذ قيام حركة التبشير الحديثة فيها كما لا أريد أن استطرد فى ذكر تفاصيل المجهودات المبذولة والوسائل المستخدمة للتبشير فى الأفراد والأسر والمجتمعات المختلفة فيها وأخبار البعثات والمراكز والكنائس والمدارس التبشيرية التى أقيمت فى مختلف المدن والقرى لأن مجال ذلك كله كتب التاريخ • ولكننى سأتناول دراسة وسائل المبشرين العامة بشىء من التفصيل فى فصل خاص إن شاء الله تعالى •

والذى يجب أن نوضحه هنا هو أن تمركز أعمال التبشير فى المناطق الجنوبية الوثنية وخاصة بلاد يوربا قد أسفر عن نتائج ملموسة فى نواح كثيرة سياسية ودينية واجتماعية واقتصادية • فقد استطاع الغزو الصليبى أن يوقف الزحف الإسلامى المتدفق من المناطق الشمالية على المناطق الجنوبية ومهدت الحركة التبشيرية الطريق أمام القوى الاستعمارية لتحقيق أطماعها الاستعمارية وسيطرتها الاقتصادية عن طريق إحداث ثورة عنيفة فى تلك النواحى المختلفة على أيدى الوكلاء المحليين من التجار ومجموعة المهاجرين الصابئين وطبقة المثقفين الأفارقة والمبشرين • قال سير جونستون Sir H.H. Johnston " إن الطريقة السهلة التى تم بها تثبيت أقدام الأوربيين فى

(١) J.F.A. Ajayi, op.cit., P.94

أفريقية بوجهتهم ...

أفريقيا بوصفهم الحكام والمستكشفين والمدرسين ، يرجع الفضل فيها إلى جهود المبشرين والهيئات التبشيرية أكثر من استخدام الأسلحة النارية ، ولكن لو ترك الأمر بعد ذلك في أيدى الهيئات التبشيرية لما تمكنت من إقامة المحميات والمستعمرات الحديثة إلا قليلا،ولم يكن في استطاعتها أن تقوم بأعباء مسؤولياتها على الوجه المطلوب "[١].

ويقول الأستاذ أيانديلي Ayandele : " وعلينا أن نتساءل كيف تم احتلال بريطانيا لبلاد يوربا في جو آمن وبأسلوب تدريجي مركز على خلاف ما كان عليه الأمر في بقية مناطق هذه البلاد ، والجواب الصريح لهذا التساؤل هو أن الدعاية التبشيرية قد مهدت الطريق لدخول الحكام والمستكشفين والمدرسين،وتلك حالة وظروف مواتية لم يتسن مثلها في بقية مناطق هذه البلاد "[٢] وبذلك خرجت هذه المنطقة عما كان معروفا في طبيعة الغزو الأوربي في أفريقيا كما جاء في كتاب آثار المبشرين في نيجيريا الحديثة : " أن الحرب دائما هي الوسيلة لفتح الباب لدخول التبشير إلى بلد ما ، وأن سيف الحديد يتقدم على سيف الروح ". [٣]

إن السياسات المحلية المعقدة في بلاد يوربا وسلسلة الحروب الأهلية التي قامت فيها في فترات متعاقبة خلال القرن التاسع عشر الميلادى تقع خارج نطاق هذا البحث ، ولكننا نقول بايجاز إن منطقة ايبا Egbaland قبل فترة توغل المبشرين فيها بسنوات قليلة كانت تقود حروبا مريرة مع جاراتها تستهدف استئصال شأفتها ومحوها من الوجود،وأخذت تقلب وجهها ذات اليمين وذات الشمال علها تجد قوة خارجية تسعفها وإذا بالمبشرين البيض على عتبات بابها فطمعت في الأسلحة الأوربية وفتح حاكم مدينة أبيوكوتا أبواب بلاده لأطماع المبشرين وأكرم وفادتهم وجعل بلاده في أيديهم ووضع رعاياه تحت خدمتهم ورعايتهم،ولم يكن يدرى لأى شيء جاء أولئك المبشرون بل أوى إلى ركنهم لتحقيق مصالح بلاده السياسية والعسكرية.

لقد كان انتصار جيوش الفولانيين المسلمين على مدينة الورن وإقامة دولة إسلامية فيها في أوائل القرن التاسع عشر الميلادى نقطة تحول خطير في مجرى الأحداث السياسية والدينية في المناطق الجنوبية من نيجيريا ، وقد أدت كنتيجة طبيعية إلى تدمير مملكة أويو القديمة

---

(1) H.H. Johnston, Are our Foreign Missions a Sucess? cited by E.A.Ayandele, op.cit.,P.28

(2) Ibid P.29

(3) Ibid, P.67

وماتلا ذلك من الحروب الأهلية التي قامت بين مختلف الإمارات نتيجة ضعف مركز القيادة فيها . إن جيوش الفولانيين المرابطين في قواعد مدينة إلوزن الحربية قد دمرت مدنا كثيرة في شمال بلاد يوربا في السنوات ما بين سنة ١٢٤١ هـ ــ ١٨٢٥م وسنة ١٢٥٦ هـ ــ ١٨٤٠م التي هزموا فيها في معركة أوشوبو . وقد فرّ جمع غفير من اللاجئين إلى اتجاه أدنى الجنوب وازداد بذلك سكان منطقة الجنوب الأدنى في مملكة أويو القديمة . وقد تحالف هؤلاء المهزومون مع أهالي ايفي Ife وإجيبو Ijebu فدمروا مدن قبائل أيبا Egbaland واستولوا على أراضيهم ثم طردهم إلى أدنى الجنوب .

وبعبارة أخرى لقد كان رد فعل شعوب بلاد يوربا لهجوم جيوش الفولانيين المسلمين على مملكة أويو القديمة هو الانسحاب إلى ناحية أدنى الجنوب نتيجة الهزيمة النكراء التي ألحقتها بهم جيوش المسلمين ، وقد قام نزاع كبير بين مناطق هذه المملكة بسبب ضعف مركز القيادة فيها وتفكك أجزائها وتنازع دويلاتها فاندلعت نار الحروب الأهلية بينها في فترة متعاقبة واضطربت وسائل الأمن والاستقرار في أنحاء المنطقة كلها ولم تقو جيوش الفولانيين المسلمين على سحق هذه الدويلات والقضاء عليها . وفي هذه الأثناء قامت حركة التهجير إلى بلاد يوربا وقامت معها حركة التبشير الحديثة وطمعت تلك الدويلات في الحصول على الأسلحة الأوربية للتغلب على المشاكل السياسية القائمة، ولكن لم يكن الهدف إعادة بناء مملكة أويو المتصدعة لتعود إليها قوتها القيادية وإنما كانت كل دويلة تسعى نحو تحقيق استقلال ذاتي لنفسها، فقامت نتيجة ذلك سلسلة الحروب الأهلية وكانت قوات الدويلات المتحاربة متكافئة فاستمرت حالة التوتر فترة طويلة، ولم تكن هناك قوة خارجية ذات اعتبار وتقدير لدى الجهات المتنازعة تستطيع أن تؤثر فيها لوقف إطلاق النار، ومن هنا برز دور المبشرين الأفارقة والتجار المحليين الذين استغلتهم الدولة الاستعمارية وشكلت منهم الطبقة الوسطى في المجتمع، فشغلوا دور الوسطاء بين رجال الاستعمار والتبشير وبين الحكومات المحلية فربطوا عجلة تلك الحكومات بقاطرة الاستعمار والتبشير فلا الأزمات سوّوا ولا المشاكل حلّوا ، قال الأستاذ أجايي : " إن الأسلحة النارية التي زودت بها الدول الاستعمارية حكومات هذه البلاد من الناحية الجنوبية عن طريق شواطىء البحر المحيط لم تكن لتحل المشاكل السياسية القائمة آنذاك في بلاد يوربا ".[1]

(١) J.F.A Ajayi, op. cit, P.19

وقال صاحب كتاب آثار أعمال المبشرين في نيجيريا الحديثة . " كانت الأوضاع السياسية في بلاد يوربا عامة في فترة دخول الفوج الأول من المبشرين إليها في حالة اضطراب تماما حيث إن الحكام المحليين في المناطق الداخلية كانوا في حالة انقسام وتفكك وضعف وتناحر. وقد أخذ كل حاكم يعمل لتشجيع أعمال المبشرين في بلاده لأجل المصالح السياسية والعسكرية التي تأتي من ورائهم .. ولم يكونوا ليرحبوا بالمبشرين ويستقبلوهم بكل تلك الحفاوة والتكريم ويجعلوهم في مقدمة مستشاريهم الخاصين ويكفلوا لهم الحرية التامة لو لم يكونوا يرجون من وراء المبشرين مصالح عسكرية وسياسية تمكنهم من التغلب على بعض المشاكل والأزمات القائمة في بلادهم في تلك الفترة ". [١]

وقد ذهب بعض الكتاب إلى تعليل الأسباب والعوامل التي مكنت الدول الاستعمارية من التوغل لبسط نفوذها السياسي وأعمالها التبشيرية في المناطق الجنوبية في تلك الفترة بما أدى إليه الزحف الإسلامي عليها من حالات التوتر والأزمات السياسية . قال الأستاذ أجايي : " إن التقدم الذي أحرزه الاسلام في الفترة الأخيرة في غرب نيجيريا هو الذي مهد الطريق لتوغل نفوذ دول أوربا المسيحية داخل هذه البلاد بطريق غير مباشر ". [٢] وكأنه يحاول أن يقول إنه لو لم يتقدم الإسلام نحو المناطق الجنوبية ليدمر مملكة أويو القديمة لما قامت الأزمة السياسية المضطربة في البلاد ولما قامت سلسلة الحروب الأهلية ولما كانت لأهالي منطقة أيبا (Egbaland) وجميع المناطق الجنوبية بعد ذلك ـ حاجة إطلاقا إلى الحصول على الأسلحة الأوربية ، وإذا لم يكن هناك شيء من هذا كله فلم يكن الأوربيون يستطيعون التوغل داخل هذه البلاد . إذاً فالعوامل المباشرة لذلك هي سلسلة الحوادث التي ذكرت آنفا بينما يكون الزحف الاسلامي على هذه المناطق عاملا أساسيا غير مباشر . ويظهر أن هذا الرجل يجهل التاريخ أو يتجاهله أو أنه فقط يردد ما كان يقوله الغربيون لتبرير أعمالهم بانتحال أسباب معينة لقيامهم باستعمار شعوب أفريقيا في تلك الأحقاب التاريخية . ولست أنكر وجود عوامل محلية ساعدت إلى حد ما في تثبيت أقدام الاستعمار ونفوذ الأوربيين في هذه البلاد ، وكان الأوربيون

---

(١) E.A. Ayandele, op.cit., Pp.5-6

(٢) J.F.Ade.Ajayi. op,cit.,P.23

يستغلون هذه العوامل ويتعلقون بأذيال حالات التوتر لنيل مآربهم الاستعمارية والتبشيرية ومصالحهم الاقتصادية • ومع ذلك فلا يمكن أن نضرب صفحا عن العوامل الأساسية التى أقامتها الدول الأوربية نفسها تمهيدا لطريق التوغل إلى القارة الأفريقية • إن كل ما ذكرت سابقا من تنظيم الهيئات التبشرية الحديثة فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى فى أوربا وأمريكا عامل من العوامل التمهيدية للتوغل داخل أفريقيا • وإن حركة الكشف الجغرافى للمناطق الداخلية فى أفريقيا التى قامت منذ تلك الفترة حتى سنة ١٢٤٦ هـ ـ ١٨٣٠م عامل آخر من تلك العوامل • وحركة تهجير الأفارقة المحررين إلى سيراليون وما جرى فيها من الحملات التبشيرية لتحويل هؤلاء الأفارقة إلى المسيحية وما تلاها من حركة التهجير الثانية إلى بلاد يوربا فى نيجيريا وإرسال المبشرين وراءهم كانت من جملة العوامل التمهيدية الأساسية • والذى يجب أن نؤكده هو أن الأوربيين الذين دفعتهم الأطماع الاستعمارية والأحقاد الصليبية والرغبة فى السيطرة الاقتصادية إلى استعمار بلدان أفريقيا قد أعدوا للأمر كل ما استطاعوا من قوة ووضعوا له الخطط المحكمة واتخذوا حيال الأمر كل الاحتياطات اللازمة • وقد خرجوا وراء أهدافهم منذ أمد بعيد، وكانت قافلتهم تجد فى السير عبر الطرق الممهدة لها وإن لم تقم هناك ظروف معينة تُتعلق بأذيالها ولم توجد عوامل محلية تستغل فى هذا السبيل ، فالطريق ممهد أمام القافلة وفى مقدورها أن تصل إلى مناها ولو بعد اجتياز سلسلة عقبات وركوب أهداب المخاطر والمزالق •

قال الأستاذ أجايى بعد سرد تلك العوامل المحلية : " وكل هذا قد جعل مدينة بداغرى (Badagry) مدخلا للأوربيين الذين طالما كانوا يرغبون فى التوغل داخل هذه البلاد." (١)

وقد كشف المبشر هندرار النقاب عن وجه حقيقة من حقائق التاريخ تدل على أن دافع الحقد الصليبى هو الذى كان وراء تعزيز بريطانيا لقوة الحكومات المحلية فى المناطق الجنوبية لئلا تنكسر شوكتها أمام جيوش الفولانيين المسلمين فيُقضى على المسيحية والهيئات التبشيرية فيها • قال المبشر المعمدانى هندرار (Hinderer) فى رسالة بعث بها إلى هنرى فين (Henry Venn) سكرتير هيئة الإرساليات التبشيرية العليا بلندن سنة ١٢٧٧ هـ ـ ١٨٦٠م :

---

(١) J.F.A.Ajayi,op.cit.,P.23

"طالما بقيت مدينة إلورن قوة محمدية فى هذه البلاد فيجب أن نعلم أن ذلك سيضعف من قوة مدينة إبادن الحربية فى جميع الأحوال أو أن المسلمين سيسحقون كافة بلاد يوربا. وسيكون ذلك نهاية أعمال الهيئات التبشيرية فيها ." (١)

---

(١) cited in
J.F.Ade.Ajayi, op.cit.,P.171

المبحث الثاني :

معركة الصليب مع الهلال في المناطق الشمالية المسلمة

تعتبر بلاد شمال نيجيريا جزءًا هاما من الأراضي الواسعة المطلة على الصحراء الكبرى تقع بين خط عرض ٩ وخط ١٢ شمال خط الاستواء ، وتقدر مساحتها بثلاثمائة ألف ميل مربع وهو ثلث مساحة بلاد الهند .

لقد سبق الاسلام المسيحية إلى نيجيريا بقرون كثيرة وانتشر منذ فترة دخوله إليها انتشارا سلميا كبيرا ، ثم قام في بداية القرن التاسع عشر الميلادي الجهاد الاسلامي الذي قاده العالم الشيخ عثمان بن فوديو في السنوات ما بين سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م وسنة ١٢٤٧ هـ/ ١٨٣١ م ، واستطاع أن يقيم إمبراطورية إسلامية بسطت سلطانها على المناطق المعروفة اليوم بشمال نيجيريا[١] . ثم امتدت خطوط هذا الجهاد إلى جنوب نيجيريا حيث ضم المجاهدون المسلمون المنطقة الشمالية لبلاد يوربا إلى هذه الإمبراطورية الإسلامية ، وكذلك انتشر الإسلام في معظم المدن الكبرى في بلاد يوربا مثل مدينة أوشوبو Oshogbo وإوو Iwo وإسيين Iseyin وكيتو Ketu وبداغري Badagry ولاغوس Lagos وغيرها .

يقول المندوب البريطاني سير تشارلز وليام أور (Sir Charles William Or):

" لقد تحولت كافة إمارات بلاد هوسا "بسبب جهاد الشيخ عثمان بن فوديو" إلى حكومات إسلامية وخضعت المناطق الوثنية في أدنى الشمال لسلطة الحكام المسلمين وبالجملة لقد صار للإسلام قوة دافعة هائلة وانتشرت تعاليمه في ربوع المناطق المعروفة اليوم بالمحمية الشمالية"[٢] إن القوة الوحيدة التي كانت الهيئات التبشيرية تخافها وتبغضها في نيجيريا عندما قامت حركة الغزو الصليبي الحديثة في نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر

---

(١) وقد فصلنا الكلام في تاريخ الإسلام في شمال نيجيريا في معرض حديثنا عن الممالك الاسلامية في بلاد السودان الغربي في التمهيد الأول .

(2) Sir Charles William Orr, The Making of Northern Nigeria London, 1965, P.258

الميلادى هى الإسلام . فهو العقبة الكأداء التى وقفت فى طريق توغل المبشرين إلى الإمارات الإسلامية فى شمال نيجيريا ، والتى وقفت فى وجه تقدم أعمال التبشير فى المناطق الجنوبية الوثنية . قال المبشر القسيس تغويل (Bishop Tugwell) : " وتشير الدلائل الموثوق بها إلى أن التقدم الملموس الذى أحرزه الإسلام فى بلاد يوربا كان موضع قلق كبير للمبشرين بين الفينة والفينة "(١) .

وهناك حقيقة يجب أن نوضحها فى هذا الصدد هى أن الأوربيين المبشرين منهم والمستكشفين والتجار والمستعمرين . لم يتمكن أحد منهم من دخول المناطق الشمالية خلال الفترة الأولى من اتصال الأوربيين بهذه البلاد والتى دامت أربعة قرون متتالية . وعندما أعادت الهيئات التبشيرية الكرة فى حركة غزوها الصليبى الحديثة تمركزت فى المناطق الجنوبية الوثنية فترة طويلة من الزمن لا تقل عن ستين سنة ،وحاولت بريطانيا خلال تلك المدة السيطرة على كافة المناطق الواقعة على شواطىء المحيط الأطلسى والمناطق المطلة على طول ضفاف نهر النيجر ورافده نهر البينوى حيث يمكن وصول المعدات العسكرية إلى قواتها،ثم أعدت كل ما استطاعت من قوة لدخول معارك ضارية مع الحكومة الإسلامية القائمة فى شمال نيجيريا . وقد كانت المناطق الشمالية ذات أهمية كبيرة باعتبارها جزءا هاما من الأماكن الأساسية التى كانت محور السياسة العالمية الكامنة وراء الزحف الاستعمارى ، وكذلك باعتبارها المنطقة الوحيدة المتبقية للتقسيم بين القوى الاستعمارية خلال تسعينيات القرن التاسع عشر الميلادى ، وأوسع المناطق التى لم يدخل إليها التبشير فى العالم فى تلك الفترة . وقد وردت فى تقارير كثير من المستكشفين وخاصة بارث (Barth) " أن شعوب هذه البلاد كانت ذات حضارة رفيعة وخبرة كبيرة فى الصناعة وأنها كانت تعيش حياة مليئة بالسعادة والهناء.وأنها شعوب مثقفة فاقت فى جميع النواحى شعوب المناطق الساحلية "(٢) . وقال الأستاذ أينديلى Ayandele " لقد أصبحت المناطق الشمالية من نيجيريا موضع اهتمام الهيئات التبشيرية بصورة خاصة منذ

---

(1) CMS G3/A2/014 Tugwell to Baylis , 21 Feb., 1910, cited by E.A. Ayandele, op,cit., P.117

(2) E.A.Ayandele. op.cit., P.120

قيام ثورة المهدى فى السودان الشرقى واغتيال المشير جنرال غوردون General Gordon فى الخرطوم • وقد قامت روح حماسية معادية للإسلام فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية عندما بدأت جيوش المهدى وخليفته من بعده تحرز انتصارات باهرة متتالية وكذلك اعتقال خليفة المهدى للقساوسة الكاثوليك الفرنسيين وتقهقر الأمين باشا أمام قواته المظفرة ثم انسحاب الخليفة من أراضى الأمين باشا • وإذا كان احتلال بريطانيا لأوغندا بعد سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩٠م دليلا على عدم استطاعة الخليفة توسيع حدود دولته الإسلامية إلى ناحية الجنوب فقد كان هناك قلق شديد لتوقع زحف حركة المهدى إلى اتجاه الغرب لتطويق المناطق المعروفة بالسودان الأوسط وهى ما عرف اليوم بمناطق شمال نيجيريا تقريبا • وقد كانت الهيئات التبشيرية تترقب وتنتظر بتلهف شديد يوما يقوم فيه المسيحيون البريطانيون بأخذ الثأر عن قتلة المشير غوردون وتدمير الحكومة الإسلامية فى السودان الشرقى "(1) وقد سبق أن فصلنا الكلام عن دوافع الغزو الصليبى للعالم الاسلامى عامة فى التمهيد الثانى من هذه الرسالة وبينا أن جميع محاولات الأوربيين فى أفريقيا إبتداء من حركة الكشوف الجغرافية التى قادتها البرتغال فى العصور الغابرة ثم الحركة الحديثة لاستكشاف أفريقية الداخلية وما تلاها من الحملات التبشيرية وما أعقبها من الزحف الاستعمارى كانت كلها امتدادا للحروب الصليبية بلاشك • ولم يكن قيام ثورة المهدى فى السودان الشرقى ولا اغتيال المشير جنرال غوردون فى الخرطوم ولا كل ما ذكر من شأن خليفة المهدى هو أصل عداوة الأوربيين للمسلمين وبغضهم للإسلام فى السودان الشرقى أو فى شمال نيجيريا • وإنما جذور العداوة والحقد كانت أعمق من ذلك بكثير كما سبق أن أشرنا إليه •

لقد خاف الأوربيون فى الحقيقة من قوة حركة المهدى وعرفوا أنها تشكل خطرا كبيرا من شأنه أن يعرقل الزحف الاستعمارى فى أفريقيا • فأسرعوا إلى تطويقها لمنع امتداد سلطانها لاكتساح الحكومات الإسلامية المجاورة ثم هجموا عليها فحطموها • " ومنذ وقت مبكر سنة ١٣٠٤هـ ١٨٨٦م شكلت لجنة فى مدينة منشستر Manchester لتمويل أى حركة لمحاولة التوغل

---

(1) E.A. Ayandele, op.cit., P.118

داخل بلاد شمال نيجيريا " (١) .

وقد قام المبشر غراهام ويلمات بروك Graham Wilmot Brooke بمغامرات كبيرة في البحث عن الطريق الذى يوصل الى شمال نيجيريا للتبشير فيه ، وقد دامت محاولاته اكثر من خمس سنوات .

وعندما اهتدى في النهاية الى ان الطريق البحرى عبر مصب نهر النيجر في المحيط هو الطريق الوحيد لدخول المناطق الشمالية خرج سنة ١٣٠٧هـ ١٨٨٩م على راس بعثة تبشيرية كبيرة تكونت من اثنى عشر مبشرا كانوا خريجى جامعة كيمبرج وجامعة اكسفورد ، وقد اطلق على هؤلاء المبشرين اسم جماعة السودان التبشيرية . ولم يسبق ان بعث عدد كبير من المبشرين كهذا الى بلد واحد وفي وقت واحد كما حصل لجماعة السودان التبشرية . ولكن رغم ذلك فقد فشلت البعثة في مهمتها ولم تستطع الجماعة ان تحول شخصا واحدا من اهالى الشمال الى المسيحية . وقد شعرت الجماعة بملامح الفشل عند وصولها الى اول مدينة من المناطق الشمالية المسلمة وعرفت ان المهمة شاقة وعويصة وانها لم تمتلك تلك القوة السحرية التى تستطيع ان تحول بها المسلمين الى المسيحية . وقد اعتقدت الجماعة انها تستطيع ان تؤثر في قلوب المسلمين بالمظاهر الخارجية فارتدى المبشرون زى المسلمين ولبسوا العمامة والنعال . قالت جريدة السودان " ولما راى المسلم العادى المبشرين بهذا المظهر اعتبر ذلك خطوة اولية منهم نحو اعتناق الاسلام" (٢) .

وعندما بعثت جمعية الارسالية المعمدانية الاميركية المبشر ديفيد هندرار David Hinderer الى نيجيريا لمهمة دراسة لغة هوسا ومحاولة دخول المناطق الشمالية لاستئناف اعمال التبشير فيها رأى خطورة التقدم الى الشمال مباشرة واقترح ضرورة اقامة سلسلة مراكز تبشيرية في مختلف المدن الكبرى وعواصم الحكومات المحلية في كافة انحاء المناطق الجنوبية بحيث لا يبعد بعضها عن بعض ، وذلك في سبيل تمهيد الطريق لدخول المناطق الشمالية . قال

---

(1) C.M.S G3/A3/05 L.K. Shaw to C.M.S 5 Dec., 1892
(2) Sudan Leaflet No 9

المبشر هندرار " لقد استطعنا أن نقيم مركزين تبشيريين فى مدينتى بداغرى وأبيوكوتا وأنـا واثق جدا أن الإله الرب سيستجيب لدعائنا ويمطينا مدينة إبادن ، وأن النقطة الثالثة هـى مدينة إلورن وستوصلنا الرابعة أو الخامسة إلى دولة تشاد حيث نستطيع بعدها أن نصافـح إخواننا المسيحيين فى شرق أفريقيا"[(١)] (أى بلاد الحبشة المسيحية) وقد صرح المبشر بـــوون Bowen أن عملية تنظيم سلسلة المراكز التبشيرية فى المدن الرئيسية فى هذه البلاد حـتى تمتد إلى مناطق نهر النيجر ومنها إلى مناطق بحيرة تشاد ثم إلى الحبشة ليست مهمة سهلة هينة . " إنها ليست عمل يوم واحد بل ليست عمل جيل واحد ،
ولكن مع ذلك سيقوم جيلنا المعاصر بتمهيد الطريق حتى تتمكن الأجيال القادمة أن تحقــق فى سنة واحدة ما حققناه نحن فى فترة عمرنا كلها . ولقد وددت أن أقطع أشواطا بعيدة فـى سبيل نشر المسيحية فى هذه البلاد ولكن لا سبيل إلى ذلك فى الوقت الحاضر ولذا أرى وجوب إقامة أساس قويم لهذا العمل"[(٢)] وقد عارض المبشر هنرى تونسند Henry Townsend الحماسة الدينية التى دفعت الهيئات التبشيرية إلى محاولة توسيع رقعة أعمالها إلى بلاد هوسـا الشمالية لشن هجمات صليبية على الإمارات الإسلامية فيها ، فى حين كانت هذه الهيئـات التبشيرية فى حاجة ماسة إلى توحيد جهودها وحشد جميع طاقاتها من أجل تحقيق أهدافهـا المشتركة فى جنوب نيجيريا . وما أكثر ما بذله أولئك الأوربيين من الجهود الكبيرة وما وضعـوه من المخططات لإدخال المسيحية إلى الإمارات الإسلامية فى شمال نيجيريا ، سواء ما كان مـن أفراد المبشرين المغامرين والمستكشفين ، وما كان من الهيئات التبشيرية العليا التى كانت ترسل البعثات وتمول الجمعيات . ولكنها جهود ومخططات بذلت لتذهب أدراج الرياح ، لأن هؤلاء المبشرين لم يستطيعوا أن يدخلوها إلاّ فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى . ثم إنهم لـم يستطيعوا أن يدخلوها إلاّ على رؤوسهم المغافير حيث احتموا بجيوش الاحتلال البريطانـى وتسللوا إليها تحت ظلال السيوف ودوى المدافع والعيارات النارية .

وقد بعث الحاكم لورد لوغارد مجموعة من المبشرين إلى مدينة كانو قبل قيام الاحتـلال

---

(1) CMS CA2/049

(2) Bowen to Taylor 7 Sept.,1851, Bower's Letters

البريطاني على المناطق الشمالية ، ولما دخلوا المدينة وضعوا تحت مراقبة شديدة وعندما أدخلوا على أمير المدينة ونهض المبشر تغويل Bishop Tugwell بحماسة شديدة ليكرز بالمسيحية أرغم على القعود بشدة ، وأخبروا المبشرين أنهم ليسوا في حاجة إلى المسيحية وأن كل ما يرغبون فيه في شئون هذه الحياة كان موجودا في القرآن الذي بين أيديهم . وهكذا فشلت البعثة ورد المبشرون على أعقابهم خائبين .

وقد وجدت في تقارير جمعية إرساليات الكنيسة الانكليزية أنها لم تكن تتوقع أن يتغلب الصليب على الهلال في شمال نيجيريا بمجرد مجهودات المبشرين في أعمال التبشير . ومنذ وقت مبكر في سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨١ م حذر القسيس هنري جونسون Henry Johnson تحذيرا شديدا في التقرير الذي كتبه من حتمية فشل التبشير بين المسلمين .

قال القسيس هنري " لم يكن في العالم شعوب متعصبة ومقلدة تقليدا أعمى مثل ما في هذه البلاد . وإن حكام هذه البلاد لا يعرفون ذلك التسامح الديني الذي يسمى حرية التدين . وقد تحجرت عقولهم بسبب تمسكهم الشديد بالمعتقدات والتعليمات التي قررها القرآن بحيث لا يمكن أن تنجح معهم أي محاولة لتنصيرهم "[1] .

وقد كان أمرا طبيعيا أن تؤدي حادثة مدينة كانو إلى قطع العلاقات القائمة بين الحاكم لوغارد وبين أمير المدينة . وكما حصل في منطقة إجيبو في جنوب نيجيريا عندما منعت دخول المبشرين إليها أن أرسل الحاكم البريطاني على مستعمرة لاجوس حملة عسكرية كبيرة لإخضاع أهالي تلك المنطقة وفتح أبواب مدن المنطقة لدخول الهيئات التبشيرية فكذلك كان الحال بالنسبة للمناطق الشمالية . وإذا كان المبشرون وهم طلائع جيوش الاحتلال البريطاني قد ردوا على أعقابهم خائبين " فلابد من العودة مرة أخرى بالأسلحة النارية لدخول المنطقة عنوة "[2] .

---

(1) CMS G3/A3/01 Report on the Upper Niger Mission, 1881, by Henry Johnson

(2) E.A. Ayandele, op.cit.,P.135

إن المشاكل السياسية والاجتماعية التى قامت فى جنوب نيجيريا منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي وتعلق بها المبشرون ليبرهنوا على حاجة شعوب هذه البلاد إلى المسيحية والحضارة الأوربية ، والتى برروا بها ضرورة قيام أعمال التبشير فيها .. إن هذه المشاكل السياسية والاجتماعية لم توجد فى شمال نيجيريا على الإطلاق . وإن حالة الأمن والاستقرار التى سادت أرجاء هذه البلاد رغم مساحتها الواسعة ،وآثار الإسلام فى توحيد شعوبها وقبائلها ، والمستوى الرفيع من التعليم الذي كان يتمتع به معظم أهالى هذه البلاد ، وانعدام العادات الجاهلية فى المجتمع مثل قتل التوائم واستخدام وسائل العنف عند التحقيق مع المتهمين وعند محاكمتهم ، وقتل النفس ، كل ذلك قد جعل الحكومة الاستعمارية لاتجد ما تتذرع به لتستجيب لمطامع الهيئات التبشيرية كما هو الظاهر فى الحملات العسكرية التى نظمتت لإخضاع حكومات المناطق الجنوبية الوثنية .

وقد أبدى المبشرون عداء سافرا للقبائل الفولانية التى قادت حركة الجهاد الإسلامى التى شملت ربوع المناطق الشمالية وقالوا : " إن هذه القبائل كانت أعداء بريطانيا الألداء . وهم قوم نهابون متسلطون جبابرة أقاموا بجهادهم حكومة جائرة تافهة وقرروا على شعوب هذه البلاد حكما فاسدا بغيضا . ولا يمكن أن ينتصر الصليب على الهلال فى هذه البلاد إلا إذا انتزعت الحكومة البريطانية سلطة الحكم من أيدى الأمراء الفولانيين واستبدلت قبائل هوسا المغلوبة على أمرها بالقبائل الفولانية التى فرضت سلطانها على شعوب الشمال بالقوة."(1) وقد كان المبشرون يعتقدون أنهم متى ما استطاعوا أن يفعلوا ذلك يكونون قد استطاعوا أن يمحوا الإسلام من الوجود فى هذه البلاد ، وأن قبائل هوسا ستدخل فى المسيحية زرافات ووحدانا . وقد رأينا كيف بدأ المبشرون منذ أيام الاحتلال باثارة النعرات القبلية بين شعوب الشمال . لقد أرادوا تحطيم قوة ونفوذ القبائل الفولانية ظانين أنهم بذلك يقدرون أن يقضوا على الإسلام . وقد فاتهم أن الجهاد الذى قادته تلك القبائل لم يكن عن دافع روح القبلية ولا القومية وإنما كان لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الحق ، وأنه لا يمكن أن يقهر الإسلام

---

(1) E.A.Ayandele,op.cit., P.136

بمجرد القضاء على سلطة الحكام الفولانيين . قال المبشر هاليغى J.T.F Halligey رئيس جمعية إرساليات الكنيسة المنهجية فى بلاد يوربا " إن إحلال حكومة أوربية متحضرة محل الحكومات الإسلامية والسلطات الوثنية الاستبدادية البغيضة القائمة فى هذه البلاد أمر إلهى وتدخل شرعى كريم من جانبنا ".(١)

وقال مؤلف كتاب آثار التبشير فى نيجيريا الحديثة نقلا عن المبشر تغويل (Tugwell) "إن الحكم البريطانى هو الحل الوحيد للمشاكل السياسية والاجتماعية التى سادت بلاد نيجيريا . وإن مسؤولية حل تلك المشاكل تقع على عواتق كل من المبشرين والحكام المستعمرين " ثم قال " إن هذه فكرته عن المملكة المثالية التى كان يدعو إلى إقامتها فى هذه البلاد "(٢) وقد رأينا كيف كانت جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية تتوق توقا شديدا منذ سنة ١٣١٢ هـ ١٨٩٧ م إلى قيام معارك ضارية لإخضاع عناد السلطة الحاكمة فى شمال نيجيريا وفتح أبواب هذه البلاد لدخول التبشير كما هو الحال بالنسبة لجنوب نيجيريا . وكانت تحرض الحكومة على استعمال كل ما تملك من قوة لكسر شوكة الإسلام ومحو آثاره من هذه المناطق ـ وكما سبق أن قررنا أن سيف الحديد وسيف الروح كانا دائما يسيران جنبا إلى جنب بحيث يمهد أحدهما الطريق للآخر ، وأن المبشرين والمستعمرين كانوا دائما يتكتلون لإحباط محاولات ومقاومات أى شعب يرفع رأسه لمنع السيطرة الأجنبية على بلاده ،وفى كل منطقة منع دخول المبشرين إليها أرسلت الحكومة الاستعمارية جيوشها الجرارة لفتح المنطقة عنوة وفرض سيادة حكمها عليها واطلاق العنان للمبشرين للعمل فيها على رغم أنف الكارهين والمعارضين ، وحيثما أرادت الحكومة الاستعمارية أن تبسط نفوذها السياسى أرسلت مبشريها ليمهدوا لها الطريق ، ويكونوا لها الأنصار ، ويخلقوا لها الأجواء والظروف المناسبة لتتحقق بأهدابها لنيل مآربها السياسية والاقتصادية فيها . إن المستعمرين والمبشرين أناس من ضرب واحد وإن الطيور على أشكالها تقع ، وإن اختلفت أهدافهم فى الظاهر وتباينت وسائلهم فى تحقيقها ، ولكن الغاية التى يسعون اليها واحدة وهى السيطرة السياسية والاقتصادية والدينية . " وقد جمع سير

---

(1) E.A Ayandele, op. cit., P.2

(2) Ibid., P.126

جورج غولدى Sir George Goldie أكثر من مائة عبد تم إنقاذهم بعد حرب بـــــلاد نسوبة سنة ١٣١٥ هـ ١٨٩٧ م وبنى لهم مدينة فى منطقة منحته إياها شركة النيجر التجارية[1] سميت بفكتوريا ثم سمح للمبشرين بالقيام بتحويلهم إلى المسيحية "[2] وقد انتهز المبشرون الفرصة المواتية لمطالبة الحكومة الاستعمارية باستعمال القوة للقضاء على الهلال من أجل الصليب "[3].

وقد سبق أن قررنا عند حديثنا عن احتلال بريطانيا لنيجيريا أن الأوربيين لم يستطيعـوا أن ينفذوا فى المناطق الشمالية رغم المجهودات والخطط والوسائل التى اتخذت فى هـــذا السبيل. ولم تكن لتنفعهم المعاهدات التجارية ولا العلاقات الدبلوماسية ولا محـــاولات المبشرين وقد شرع المستعمرون السيوف فى وجه المسلمين فأثخنوا فيهم القتال ودمروا سلطانهم وبلادهم ولم يرقبوا فيهم إلاً ولا ذمة. ولم تكن فى شمال نيجيريا مدينة ولا قرية إلاّ دخلتهـــا جيوش بريطانيا مدججة بالأسلحة والمعدات الحربية الحديثة وفتحتها بالقوة وطردت منهـــا حكامها وفرضت سيطرتها وسيادة حكمها عليها " إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلـوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ".

ويجب أن نتدبر سياسة الحكام البريطانيين تجاه أعمال التبشير فى شمال نيجيريا لنتبـين موقفهم فى الناحية الدينيـة. حقا أنه يرد فى تصريحات الحاكم لورد لوغارد Lord Lugard والحكام البريطانيين الذين جاءوا من بعده أن الحكومة الاستعمارية قد تعهدت بعدم التدخـل فى شئون المسلمين الدينية ولكن ذلك لا يعنى منع قيام أعمال التبشير فى هذه البلاد وقد صـرح الحاكم لوغارد نفسه أخيرا أنه " لم يسبق أن وعد السلطان والأمراء المسلمين بعدم السمـــاح للإرساليات التبشيرية بدخول البلاد الإسلامية إطلاقا ".[4]

---

(١) هى غير بلاد النوبة الموجودة فى جنوب مصر.

(2) CMS G3/A3/07 The Hausa Association Occasional Paper NOxlll 1898

(3) E.A.Ayandele op.cit., P.139

(4) CMS G3/09/03 Memo of interview with Lord Lugard July 1912

ورغم اعتقاد الحاكم لوغارد بأن المسيحية هى أقوم وسيلة — فى نظره — لرفع مستوى الأفارقة فى شتى المجالات إلاّ أنه حرصا على مصالح حكومته العسكرية والسياسية والاقتصادية حاول ألاّ يثير غضب بعض الحكام المسلمين على الأوربيين بفرض المسيحية عليهم بالقوة • وقد كان بين حين وآخر يحسب حسابا للشعور الإسلامى ولا يودّ أن يجرحه بأعمال التبشير العلنية • وقد كان يؤكد مرارا وتكرارا أنه مهما تكن عيوب الحكومة الإسلامية فى الشمال فإن لها مظاهر ممتازة جدا جعلتها جديرة بتقدير أى حاكم ، وأن كل ما يلزم عمله هو محاولة تحديد سلطة الحكام الفولانيين المسلمين تدريجيا • وقد رأى أن من الحكمة أن يكون واقعيا فى مهمته لا مثاليا مثل المبشرين •

وعلى هذا كان رأيه أنه لا ينبغى أن تسند الحكومة الاستعمارية مصلحة المبشرين فى جميع الأحوال بل لابد من مراعاة مصالح الحكومة واعتبار الأحوال والظروف وحيثما يمكن أن يحدث المبشرون المشاكل للحكومة يجب أن تحدد فيه نشاطهم أو تفرض الحظر على أعمالهم إن لزم الأمر • وقد ظهر من خلال هذه الدراسة أنه لم يكن هناك أحد من الحكام البريطانيين على المناطق الشمالية أكبر من الحاكم لوغارد مراعاة لمصالح المبشرين ، ولا أقدر منه على تحمل بعض التصرفات الطائشة التى كانت تصدر من بعضهم ولم يكن يؤنب مبشرا لخطأ ارتكبه أو على جريمة سياسية أو اجتماعية تورط فيها • وقد ظل طوال أيام حكمه على هذه البلاد يناصر الهيئات التبشيرية ويدافع عنها بكل ما أعطى من قوة • وقد ذكر المبشر تغويل (Bishop Tugwell) أنه قد اجتمع مع الحاكم لوغارد فى لندن سنة ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م وأخبره عن حصول جمعيته على موافقة مدير شركة النيجر التجارية وتشجيعه لها لبدء أعمال التبشير فى المحمية الشمالية ، وأنه عرض عليه طلب الجمعية الموافقة التامة من حكومته لأعمال التبشير ، وأنه أكد له عدم رغبة الجمعية فى احداث مشكلات سياسية فى هذه البلاد • وذكر أن الحاكم لوغارد قد اعترف بالارساليات التبشيرية وأعطاها الإذن التام لبدء أعمالها ، ثم حذر المبشرين من التغلغل داخل المناطق التى لا يكون فى استطاعة الحكومة أن تكفل لهم الحماية التامة فيها • وكان الحاكم لوغارد يريد بذلك أن يسير الاحتلال العسكرى وأعمال التبشير جنبا إلى جنب ، وألاّ يتورط المبشرون فى محاولة

دخول المناطق التى لم يتم فتحها. " لما وراء ذلك من أخطار جسيمة على حياتهم[1] • وقد صرح لوغارد" أن الدعاية التبشيرية كانت ذات أهمية كبيرة للحكومة الاستعمارية" [2] وقال " إن المسيحيين أكثر ولاء وطاعة للحكومة البريطانية من المسلمين ، لأن المسلمين لا يمكن أبدا أن يقلموا من قلوبهم جذور بغضهم للكفار وحنقهم عليهم لذلك كانت هذه الحكومة تنظر دوما إلى انتشار الإسلام بعين البغض والكراهية." [3] وتعتبره خطرا كبيرا على استقرار حكمها وتحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية والدينية فى هذه البلاد • وعندما أراد لوغارد تحديد نشاط التبشير فى المناطق التى سادها الإسلام ومنع قيام المؤسسات والمراكز التبشيرية فيها إذا لم يكن هناك دعوة خاصة من حكام تلك المناطق لطلب دخول المبشرين ، عارض المبشرون هذه السياسة بعنف وأدى الأمر إلى تباعد وجهات النظر بين الحكومة وبين الهيئات التبشيرية ، ونتج عن ذلك إعادة النظر فى علاقة الحكومة مع الهيئات • وعلينا أن نؤكد هنا أن أى شعور مضاد لأعمال التبشير يوجد فى تقارير الحاكم لوغارد الرسمية منذ سنة ١٣١٨ هـ ١٩٠٠ م وكذلك أى محاولة صدرت منه لتحديد نشاط المبشرين كان سببه يرجع إلى حماسة المبشرين الطائشة التى فاقت كل تصور • وعلى أية حال " فان الحاكم لوغارد قد وقع فى حيرة شديدة من أمر التبشير فى هذه البلاد ، وأخذ يتساءل مرة : "لماذا أراد المبشرون أن يحولوا هؤلاء الناس الذين لا يقبلون التحويل؟ لماذا لا يركزون جهودهم على المجموعة الوثنية فى هذه المنطقة؟؟" [4] وقد لاحظ المبشر ملر Miller فشل أى محاولة لتحويل المسلمين • وقد زعم " أن سبب ذلك ضيق عقولهم فى التفكير" ثم وجه اهتمامه الكبير إلى تثقيف وتحضير القبائل الوثنية المتأخرة لإحداث ثورة عارمة " فى مجرى الأحداث السياسية والاجتماعية والدينية " فى مستعمرة نيجيريا؟ [5] وقد ظهرت صعوبة الأمر لا فى تحويل المسلمين فى المناطق الشمالية المسلمة فقط وإنما ظهرت كذلك فى بلاد يوربا من المناطق

---

(1) E.A. Ayandele, op.cit., P.129

(2) CMS G3/A9/10 Miller to Baylis April 1901

(3) Native Archives Kaduna 1270/1906 Lugard to Bailey 15 June 1906

(4) CMS G3/A9/10 Memo of interview with Lugard 23 July 1906

(5) Walter Miller, An Autobiography, P.24

الجنوبية وفى محافظة زاريا التى اعتبرها المبشرون أهم قاعدة لأعمال التبشير فى شمال نيجيريا كان نجاح أعمال التبشير محدودا جدا." وقد أثبتت التقارير أنه رغم كل مجهودات جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية فى تنصير المسلمين التى استمرت خمس عشرة سنة لم يبلغ عدد الصابئين العشرين"[1] وقد عارض المندوب البريطانى بوردون (Resident Burdon) منذ البداية سياسة لوغارد تجاه المبشرين ونسب عوامل النفور القائمة بين الحكومة وبين الأمراء المسلمين إلى شعورهم وانطباعاتهم نحو تدخلها فى الشئون الدينية وتوقع قيامها بتحويل المسلمين إلى المسيحية. وقد ذهب المندوب إلى أبعد من هذا حيث طلب من لوغارد الاعتراف بالذمة للمسيحيين وخضوعهم لسلطة الإسلام كما قرره القرآن . وأن يعلن إذعان الحكومة كذلك فى شئون الدين لسلطة أمير المؤمنين وسلطان سوكوتو عاصمة حكومة شمال نيجيريا الإسلامية . وقال بوردون:"إذا استطاع لوغارد أن يفعل هذا ستتم معالجة الأمور فى شمال نيجيريا فى حالة سلمية حيث يقوم السلطان باستعمال نفوذ قيادته الروحية لدلب جميع الأمراء الآخرين بقبول سيطرة بريطانيا."[2] وقد كتب سكرتير اللجنة العليا لجمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية ف بيليس Baylis إلى الحاكم لوغارد عند استقالته من منصب الحاكم الأعلى على المحمية الشمالية سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م رسالة جاء فيها : " لقد علمت اللجنة عندما وصل إليها نبأ استقالتك أنها قد فقدت صديقا حميما فى هذا الميدان كانت اللجنة تعتمد دائما على عنايته الكبيرة واهتمامه البالغ ومعاملاته الطيبة . وقد طلب منى أعضاء اللجنة أن أعرب لسعادتك عن تقديرهم الكبير لما مددته من يد العون والمساعدة إلى هذه الجمعية وجميع مبشريها عند مسيس حاجتهم إليها وفى أوقاتها المناسبة "[3].

وقد تغيرت سياسة الحكومة الاستعمارية تجاه أعمال التبشير فى هذه البلاد منذ تولى سير بيرسى غروارد (Sir Percy Girouard) منصب الحاكم الأعلى على المحمية الشمالية سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م حيث أصدر أمره بوقف جميع نشاط التبشير فى بلاد المسلمين وفى

---

(1) E.A.Ayandele op.cit., P.133
(2) N.A. Ibadan, C.SO 1/27 vol.2 Burdon to Lugard, April 1902
(3) L.P. Baylis toLugard, 11,October 1906

وفى المناطق الوثنية متى ما أمكن ذلك. وإذا كان الحاكم لوفارد لم يعتبر بما كان يجرى فى البلدان الإسلامية الأخرى التى وقعت تحت الحكم البريطانى فإن الحاكم بيرسى غروارد (Sir Percy Girouard) قد عرف أن لورد كرومر (Lord Cromer) قد امتنع من السماح للإرساليات التبشيرية بالعمل فى الخرطوم بعد تدمير بريطانيا لجيوش المهدى سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٨ م كما أن الشركة التجارية البريطانية التى احتلت الهند الشرقية فى القرن الثامن عشر الميلادى قد منعت قيام أعمال التبشير فيها وكل ذلك حرصا على مصالح الحكومة الاستعمارية فى هذه البلاد، ولئلا يظن الحكام المسلمون أن المبشرين مبعوثون سياسيون متنكرون بقبعات القسس والأساقفة وأنهم طلائع الحكم المسيحى الذى أرادت بريطانيا أن تفرضه عليهم بالقوة .

وقد قال الحاكم سير غروارد (Sir Girouard) " لقد وددت أن أرى الإرساليات التبشيرية تنسحب كليا عن المناطق الشمالية لأن أحسن مبشر فى الوقت الحاضر هو المندوب البريطانى صاحب المشاعر النبيلة الذى يحيا حياة طاهرة شريفة ، ومع شديد الأسف أرى أن الهيئات التبشيرية لا تقدم أي خدمة ولو قليلة فى شئون حكم هذه البلاد ، ومع ذلك فقد كانت مصدرا أساسيا لحدوث القلاقل والمشاكل . وقد قال المبشرون أنفسهم أنه لا علاقة بين ديانتهم وبين الفطرة السليمة "[1] . وقال المندوب البريطانى سى . ل . تمبول (C.L Temple) " إن وكلاء الحضارة الأوروبية من المثقفين الأفارقة والتجار والمبشرين والمندوب نفسه كانوا يشكلون خطرا كبيرا على شئون الحياة فى المجتمعات المحلية ولكن الخطر الأكبر هو المبشر ويجب ألا يترك له مجال للعمل فى هذه البلاد"[2].

وقد صرح سكرتير الشئون الخارجية البريطانية لورد سالزبورى Lord Salisbury فى حديثه الخطير الذى ألقاه فى قاعة اكستار (Exeter Hall) سنة ١٣١٨ هـ ١٩٠٠م ، وكشف فيه النقاب عن وجه الحقيقة بقوله : " إن الهيئات التبشيرية هى المسئولة بطريق مباشر عن كثير من المعارك الضارية التى وقعت فى أماكن كثيرة فى أفريقيا " ثم أولى موضوع محاولة تحويل المسلمين إلى المسيحية عنايته الخاصة ، وقال سالزبورى : " لا تستطيعون أن تحولوهم

---

(1) Girouard to Lugard, 25 January, 1908

(2) C.L. Temple, Native Races and their Rulers, Cape Town 1918 cited by Ayandele op.cit., P.149

(أى المسلمين) إننى لم أقل بأنكم لن تستطيعوا أن تفعلوا ذلك ـ علم الله أننا لانخاف ذلك ـ ولكن نظرا إلى ما توصلنا إليه فى الوقت الحاضر وحسبما دلت عليه خبرتنا وتجاربنا أظن أن الفرص المتاحة أمامكم لتحويلهم كانت قليلة جدا ويجب ألاّ تغيب عن أذهانكم الأخطار التى تكمن وراء خلق المشاكل الكبيرة وإحداث القلاقل الشديدة التى قد تكون دموية • وعليكم أن تعلموا أن تلك الأخطار ستكون عقبة كبيرة فى وجه تقدم المسيحية التى تهدف ونرغب فى نشرها أكثر من نشر أى شىء آخر فى هذه البلاد"(١)

قال الأستاذ أينديلى: "إن السبب الوحيد الذى تعلق به الحكام البريطانيون لتبرير سياستهم المضادة لمصالح المبشرين هو خوفهم الشديد من قيام جماهير المسلمين بثورة عنيفة ضد أعمال التبشير• ودلت التقارير على أن الحكومة الاستعمارية منذ سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧م لم تعد تريد بل قد تأسفت وندمت على تحويل أى مسلم إلى المسيحية وكذلك فى تحويل الوثنيين• ولم تعد المسألة مسألة العهد المزعوم (ما تعهدت به الحكومة من عدم التدخل فى شئون المسلمين الدينية) ولا وسيلة لتدبير المكيدة والحيلة ولا وسيلة لاقرار الأمن فى البلاد ولكنها سياسة مضادة للمبشرين ومعادية للمسيحية نفسها"(٢) • لم يستطع هذا الكاتب المسيحى أن يتخلص من العصبية الدينية العمياء باعتباره سياسة الحكام البريطانيين المسيحيين فى منع قيام أعمال التبشير فى المناطق الشمالية المسلمة خطة معادية للمسيحية نفسها • والغريب من أمر هذا الرجل أنه قد أورد ادلة كثيرة على الأخطار الكامنة وراء أعمال المبشرين فى هذه البلاد بسبب تطرفهم وحماستهم الدينية المفرطة وما أثاروه من المشاكل وما أحدثوه من القلاقل فى شتى المجتمعات الأفريقية الإسلامية منها والوثنية• وهو نفسه قد نقل كلام سكرتير الشئون الخارجية البريطانية لورد سالزبورى (Lord Salisbury) الذى حمل المبشرين مسئولية إحداث المشاكل التى أدت الحكومة البريطانية إلى إرسال الحملات العسكرية إلى أماكن كثيرة فى أفريقيا• وكذلك نقل كلام الحاكم بيرسى غروارد (Percy Girouard) وكلام المندوب البريطانى

---

(1) The Times Weekly Edition, 22 June,1900

(2) E.A.Ayandele op. cit., P.151

تجول Resident Temple اللذين سبقت الإشارة إليهما قبل قليل . إن الخطة السياسية التى وضعها المبشرون أيام حكم الحاكم لوقارد والتى استنبطت من مجموعة الرسائل المتبادلة بين ذلك الحاكم وبين المبشر والتار ملار (Bishop Walter Miller) سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م إنها من حيث الحقيقة أفكار غير قابلة للتنفيذ على الإطلاق . فإن المبشر ملار كان رجلا مثاليا وشابا صغيرا لم يكن لديه خبرة كبيرة فى السياسة وإنما كان فقط مؤيدا متطرفا لفكرته الهادفة إلى إقامة حكومة مسيحية فى شمال نيجيريا على أنقاض الإمارات الإسلامية القائمة فيه . وقد أكدت تلك الخطة ضرورة تولى المسؤولين البريطانيين إدارة شئون حكم هذه البلاد بطريق مباشر . وكذلك أبدت اهتماما كبيرا بقبائل هوسا واعتبرتها العناصر الأساسية ذات الأصالة العريقة من بين شعوب هذه البلاد ، وادعت أن هذه القبائل كانت على أتم الاستعداد للاستسلام الكامل والإذعان التام لسلطة الحكومة البريطانية ثم أكدت الخطة ضرورة استعمال القوة لتدمير سلطة الحكام الفولانيين الروحية والسياسية لأن هذه القبائل — على حد زعم المبشرين — " قد فاقت جميع الشعوب الأخرى فى أعمال العنف والظلم والخيانة وعدم الاعتراف بحقوق الانسان ... ولذا يجب عمل كل ما يلزم للقضاء على حكم الفولانيين المسلمين القائم ، وذلك من أجل مصلحة بريطانيا نفسها ولأن هؤلاء الحكام لم يخلصوا ولاءهم للحكومة ولا يمكن أن يخلصوا ذلك أبدا "[1] .

وقد وردت فى خطة المبشرين السياسية أن جميع التعليم الإسلامى الذى كان منتشرا فى شمال نيجيريا كان عديم الفائدة بل هو تعليم فاسد ولذلك يجب تزويد الشعب الشمالى بالتعليم العقلى أو التربية الروحية (Liberal Education) التى كانت الجمعيات التبشيرية تقوم بنشرها فى أفريقيا . ويجب كذلك عمل كل ما يلزم لرفع وإزالة كراهية الشعب الشمالى للتعليم الغربى باعفاء كل من أدخل أولاده فى المدارس من دفع الضرائب " ولا يمكن إزالة الجهل المفرط الذى كان سببا لغدر هذا الشعب وخيانته للحكومة البريطانية إلا عن طريق عاملين أساسيين هما المسيحية والتعليم الغربى . "[2] وقد ورد فى رسالة المبشر ملار (Bishop Walter Miller) إلى الحاكم

---

(1) CMS G3/A9/01 Miller to Lugard 29 July 1903
(2) CMS G3/A9/01 Miller to Lugard 29 July1903

لوغارد (Lugard) ما يلى : " يسرنى أن أؤكد لسعادتك أن المستقبل الزاهر فى هذه البلاد يعتمد على نشر المسحية فيها ولكن ليست المسيحية المنحرفة الزائفة التى صبغها الأوربيون بصبغة عصرية ولكن المسيحية المقصودة هى التى تكون تغييرا حقيقيا للقلوب ويتبعه تغيير حقيقى فى أسلوب الحياة ومنهج التفكير."(١)

وقد كان المبشرون يريدون انقلابا مسيحيا كاملا . كانوا يريدون تغييرا كليا فى شئون الحكم وفى شئون القضاء وفى شئون العبادة وفى سلوك الأفراد والمجتمعات. وكل ذلك من أجل محو الأديان وتغيير شئون الحكم والشئون الاجتماعية القائمة فى هذه البلاد قبل دخولهم وخاصة فى المجتمعات الإسلامية. وقد أولت الخطة التعليمية التى وضعتها جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م اهتماما بالغا بلغة هوسا باعتبارها اللغة المشتركة فى المناطق الشمالية وإن لم تكن لغة مكتوبة بحروف خاصة . وقد أكدت الخطة أهمية بذل الجهود لكتابتها بالحروف اللاتينية بدل الحروف العربية التى كانت تكتب بها منذ زمن بعيد. وقال المبشرون إن ذلك سيجعل هذه اللغة معروفة لدى الدول المتحضرة الراقية لا محصورة فى حدود العالم الإسلامى فقط. ولقد نوه الحاكم لوغارد الذى اعتمد هذه الخطة بأهمية التعليم التربوى فى الخطة التعليمية الصحيحة وقرر وجوب تدريسه وتسويته بالتعاليم المسيحية." وقد ذكرت جمعية إرساليات الكنيسة الانكليزية أن هذه الخطة ستكون وسيلة للتبشير فى بلاد المسلمين بينما تقوم فى نفس الوقت بتزويد أبناء الأمراء المسلمين بالثقافة الغربية التى يريدها الحاكم لوغارد "(٢).

وهذا كل ما كان المبشرون يريدون أن يقوموا به فى مثل المناطق الشمالية التى كان الإسلام فيها قوة هائلة بسط سلطانه الروحى والسياسى والاجتماعى والثقافى على ربوعها منذ زمن بعيد. إن سياسة الحكام البريطانيين بمنع قيام التبشير فى هذه البلاد لم تكن معادية للمسيحية نفسها كما ذكر ذلك الكاتب المسيحى وإنما كانت فى المقام الأول من أجل تهدئة حماسة المبشرين الجياشة المفرطة ، والحد من تطرفهم الشديد . ثم إنها كانت بعد ذلك مكيدة مدبرة وحيلة محاكة لإخراج التبشير المسيحى فى مظهر آخر خلاب ، وذلك نتيجة خوف رجال الاستعمار

---

(1) CMS G3/A9/01 Miller to Lugard 27 July,1903

(2) E.A. Ayandele op.cit.,P.140

من قيام ثورة عنيفة من جانب جماهير المسلمين ضد أعمال التبشير والمطامع الاستعمارية يمكن أن تحدث من جراء أعمال التبشير العلنية . ولذلك قال الحاكم بيرسى غروارد (Percy Girouard) الذى كان أول حاكم يقرر سياسة مضادة لصالح المبشرين فى شمال نيجيريا : " لقد وددت أن أرى الهيئات التبشيرية تنسحب كليا عن المناطق الشمالية لأن أحسن مبشر فى الوقت الحاضر هو المندوب البريطانى صاحب المشاعر النبيلة الذى يحيا حياة طاهرة شريفة " .(١)

وقد استحسن الحاكم البريطانى بيرسى غروارد سياسة الحكومة البريطانية الاستعمارية مع الهيئات التبشيرية فى مصر والخطة التعليمية التى وضعها لورد كرومر (Lord Cromer) سنة ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م . وقد حاول أن يقنع جميع المندوبين العاملين تحت حكومته بضرورة تقرير مثل هذه السياسة مع شعب شمال نيجيريا " وقد كانت مصر وبلدان شمال أفريقيا تعتبر أنموذجا حيا سارت على منواله الحكومة الاستعمارية فى شمال نيجيريا فى الشئون الاقتصادية وفى شئون التعليم وفى شئون الحكم " .(٢)

ومنذ بداية فترة حكم الحاكم بيرسى غروارد على شمال نيجيريا سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م بدأت الحكومة الاستعمارية تتعامل مع الإسلام كحليف لا كعدو لدود . وتتظاهر للمسلمين بالحب وتتودد إليهم كأصدقاء حميمين وكذلك أخذ المندوبون البريطانيون يحاولون الاقتراب من المسلمين لإزالة عوامل النفور القائمة بين المسلمين وبين الأوربيين بصفة عامة . " وقد كان المندوب البريطانى بوردون (Resident Burdon) يشهد الصلاة مع المسلمين فى أيام الجمعة بصفة مستمرة . وكذلك المندوب تمبول (Resident Temple) الذى كان متضلعا بلغة هوسا واللغة العربية . وبعض المسئولين الآخرين فى الحكومة كانوا يفضلون أن يقضوا إجازاتهم فى طرابلس والمغرب والقاهرة " .(٣) وقد أولى الحاكم بيرسى غروارد (Percy Girouard) موضوع التعليم كل اهتمامه . " وقد عين هانس فيشر (Hanns Fisher) أول وزير للتعليم سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م وطلب منه إعداد مخطط للتعليم العام يكون وفق الطريقة التى اختارها

---

(1) L.P Girourd to Lugard 25th Jan. 1908

(2) E.A Ayandele op.cit., P 147

(3) L.P. Girouard to Lugard 28 Apr. 1909, CMS G3/09/03 Alvarex toManley 1912 G3/A9/02 Miller to Baylis 5 Feb., 1908

لورد كرومر للمصريين ، ومن أجل دراسة الأساليب المتبعة فى الأقطار الأخرى قام ذلك الوزير بزيارة عدة مدارس فى مستعمرة لاجوس وفى ساحل الذهب وفى مصر بالإضافة إلى زيارته السابقة لكلية غوردون فى الخرطوم . (Gordon Memorial College)[1] وقد عرف الحاكم البريطانى أن العلم والدين فى وجهة نظر المسلمين يكادان يكونان شيئا واحدا حيث يخدم أحدهما الآخر . ومن أجل ذلك كان بعيدا جدا أن لا تثير شئون التعليم التى كانت الجمعيات التبشيرية تحاول أن تقوم بها فى هذه المنطقة أيام حكم لوغارد شبهة الامتزاج بالميول الدينية المسيحية ولذلك ألغى هذا الحكم خطة المبشرين التعليمية وعهد إلى وزير التعليم بوضع خطة جديدة تقوم فى الظاهر على أساس احترام التعليم الدينى القائم فى البلاد والاعتراف بالمؤهلات العلمية التى تمنحها المدارس الإسلامية . وقد اشترط الوزير على كل من يرغب فى الالتحاق بالمدارس الحكومية إتمام التعليم الابتدائى فى المدارس المحلية لتعليم القرآن الكريم . وقد كان يسمح للطلاب المسلمين الذين كانوا يتلقون التعليم فى المدارس الحكومية بحضور المدارس الإسلامية للاستماع إلى الدروس التى كان بعض العلماء الكبار يلقونها على طلابهم .

« وقد تقرر إعطاء إجازة لا تقل عن شهر واحد فى كل سنة لطلاب هذه المدارس وقد رأى الوزير أن الوقت المناسب لمثل هذه الإجازة هو شهر رمضان وكان مدتها تنتهى بعد عيد الفطر»[2].

ولقد قام هانس فيشر (Hanns Fisher) بوضع مخطط عام فى القواعد المبسطة لتهجى لغة هوسا بمساعدة بعض الشبان الذين كانوا يتتلمذون على المبشرين والذين كانوا يشتغلون عند بعض المسئولين البريطانيين . ثم وضع مجموعة من الكتب المدرسية والمطالعات بلغة هوسا ، وبعد ذلك وضع مناهج تعليمية دقيقة لجميع المراحل التعليمية ، وقرر استعمالها فى جميع المدارس الموجودة فى المنطقة . وقد أنشأ هذا الوزير أول مدرسة حكومية فى مدينة كانو سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م وكانت المدرسة تضم ثلاثة أقسام . وكان القسم الأول خاص بتعليم أبناء الملوك والأمراء ، والقسم الثانى يقوم بإعداد المدرسين والمعلمين ، والقسم الثالث يقوم بتعليم الصناعة واللغات المحلية .

---

(1) Sir Charles W.Orr, The Making of Northern Nigeria, London 1965,P.267

(2) Ibid., P. 273

وقد كان التعليم فى جميع المراحل والأقسام يعطى بلغة هوسا وكانت تكتب بالحروف اللاتينية . وكان القسم الخاص بأبناء الملوك والأمراء يقوم باعطاء طلابه التعليم العام على مستوى جيد ليؤهلهم لتولى مناصب أساسية فى شئون الحكومة المحلية . وقد فضل الوزير أن تكون تربيتهم وتنشئتهم فى المدارس الداخلية ولكنه كان يحذر دائما من تأثير التعليم الغربى على مظاهرهم الخارجية فلا ينبغى أن يُشجعوا على تقليد الأوربيين فى اللباس وفى كل عمل لا يتناسب مع مجتمعهم أو يخالف تعاليم دينهم مخالفة صريحة .وكان القسم الثانى يقوم بإعداد المدرسين المحليين للعمل فى المدارس التى ستنشأ فى هذه المنطقة وإعداد الكُتاب والوكلاء التجاريين والموظفين للعمل فى الدوائر الحكومية المختلفة . وكان القسم الثالث يقدم التعليم الابتدائى للأطفال على أساس علمانى صرف بالإضافة إلى العلوم الصناعية .

ولم يكن من الخطة أن تقوم مدرسة كانو المركزية بأقسامها الثلاثة مقام المدارس الإقليمية ، ولكن كان المقرر أن تكون لكل إقليم من الأقاليم المتعددة فى هذه المنطقة مدرسة مركزية فى العاصمة وعدد من المدارس لتعليم اللغات المحلية فى مختلف المدن والمقاطعات الهامة . ولكن كان يجب مع ذلك أن يظل تعليم أبناء الملوك والأمراء فى مدرسة كانو المركزية وأن تقوم دار المعلمين فيها بتزويد المدارس الإقليمية بالمدرسين .

وهذه الخطة من شأنها أن تضمن وحدة تعليمية لجميع مدارس المنطقة كما تجعل جميع هذه المدارس خاضعة لنفوذ وزير التعليم والأساتذة الأوربيين . هذا وسيأتى بحث مستفيض عن التعليم الغربى والثقافة الغربية عند الحديث عن وسائل المبشرين لنشر المسيحية فى هذه البلاد .

الفصل الثاني : وسائل المبشرين في نشر الدعاية التبشيرية ٠

المبحث الأول : التعليم الغربى ميدان فسيح للتبشير ونشر العلمانية اللادينية ٠

المبحث الثاني : ميدان التطبيب ٠

المبحث الثالث : دور وسائل الإعلام في نشر الدعاية التبشيرية ٠

المبحث الرابع : وسائل أخرى ذات أهمية في الدعاية التبشيرية ٠

((الفصل الثانـــى))

وسائـل المبشريـن فى نشر الدعاية التبشيرية

إن طرق التبشير بالمسيحية تختلف من جيل إلى جيل ومن قطر إلى قطـر وحتى بين الجمعيات التبشيرية المختلفة وإن كانت هناك قاعدة أساسية متعـارف عليها بينها جميعا ، وإن سبب اختلاف وسائل التبشير وتفضيل وسيلة على أخـرى لا يعود إلى اختلاف الهدف وإنما يعود إلى الأوضاع القائمة فى أى بلد يدخلـه التبشير سياسية كانت أو اجتماعية أو دينية ، وحالة الأفراد والمجتمعات فيـه تقدما وتأخرا ، وقوة وضعفا ، وحبا للمسيحية وإقبالا عليها أو بغضا لها ونفـورا منها ، وإن أمثال هذه الظروف التى تحيط بأعمال التبشير فى أى قطر من أقطـار العالم هى التى تملى على رجال التبشير الأساليب المتبعة والتنوع فيها والظهـور بأقنعة مختلفة ووجوه متباينة ، فقد ظهروا فى المرة الأولى على شواطئ المحيـط الأطلسى فى صورة التجار ، ثم تدرجوا إلى داخل القارة الأفريقية وتنكروا فى صـورة المستكشفين ، ثم بعد ذلك جاءوا فى صورة المبشرين مرتدين مسوح العبـادة ثم دخلوا بعد ذلك من وراء ستر مختلفة ، فهم المدرسون والأطباء والجنود والحكام المستعمرون والعملاء الأفارقة ، بل ظهروا فى الآونة الأخيرة حتى فى صـورة المدربين الرياضيين فى الملاعب وأفنية المدارس !

وتتبع الإرساليات التبشيرية البروتستانية والكاثوليكية طريقتين فى التبشير: الطريقة المباشرة والطريقة غير المباشرة . أما الطريقة المباشرة فهى التى تقـوم على دعوة غير النصارى إلى المسيحية بشرح أمور العقيدة المسيحية والمبادئ والتعاليم المسيحية ، وقد ظهر للمبشرين أنفسهم أن هذه الطريقة قليلة الجدوى لا تغـنى شيئا . وسبب ذلك أن مايحوزة المبشرين من العقيدة المسيحية ومبادئها وتعاليمها مجموعة أضاليل وترهات لا تصمد فى ميدان الجدل أمام الحق . وهذا الذى جعلهـم فى السنين الأخيرة يتركون هذه الطريقة المباشرة فى نشر آرائهم إلى طريقـة

أخرى أكثر التواء وخفاء .

أما الطريقة غير المباشرة فهى التى تتمثل فى الأعمال الخيرية والإحسان المادى وما أشبه ذلك . ولقد استخدم المبشرون جميع الطرق والوسائل فى سبيل نشر المسيحية واستغلوا جميع المناسبات والظروف فى ميدان التبشير . فمجال التطبيب وشئون التعليم ودور النشر والنشاط الاجتماعى والمؤسسات الزراعية ، وإعداد رجال الدين المحليين ، واستغلال مركز النساء والشبان فى المجتمع ، ونقل الكتب من لغة إلى لغة أخرى ، والأعمال الخيرية والإحسان .

كل هذه طرق ووسائل وجهها المبشرون توجيها يجعلها تخدم التبشير فى المقام الأول قبل أى شئ آخر .

ولقد أراد المبشرون أن يكون للأعمال الخيرية والعلاقات ذات الصبغة الإنسانية مقام كبير فى خططهم الموضوعة لأعمال التبشير ، ولكن على أساس أن تكون وسائل فقط لاغاية فى نفسها !! قد كان المبشرون والمبشرات يتقدمون إلى من يريدون تنصيره بأنواع كثيرة من الأعمال ذات المظهر الخلاب . فيتظاهرون بالمحبة والعطف والسهر على تخفيف آلام المرضى ومساعدة المساكين والمحتاجين وإغاثة المنكوبين وما أشبه ذلك من الأعمال الإنسانية . وقد يقال إن هذه أخلاق نبيلة وصفات حميدة فى ذاتها . نعم إنها قد تكون كذلك فى الظاهر ، ولكن تشابه ظواهر الأشياء لايدل على تماثل القيمة والجوهر. إن مايقوم به المبشرون من الأعمال الخيرة وما يتحلون به من الأخلاق الفاضلة إنما هى أعمال نفعية وأخلاق مادية فهى ذات قيم شكلية تستهدف غاية معينة ، ولا تسمى أعمال خير وإن اتخذت الفضيلة مظهرا لها مادامت تبذل فى سبيل تحقيق أهواء ذاتية ، ومطالب نفعية وإلا فماذا نقول ياترى فى حق الصياد الذى يضع طُعْما دسما فى شبكته ليغرى بها الأسماك الجائعة ؟ فهل ذلك منه كرم خلقى ، أم حيلة للوقيعة بفريسته ؟ إن الذى يريده المبشرون هو أن ينفذوا من خلال هذه الوسائل إلى طرق جديدة للتبشير .

وحتى زيارة المسجونين والمعتقلين والمرضى قد اتخذها المبشرون وسيلة للتبشير ، وقد كان نادرا جدا أن يستعمل المبشرون الطريقة المباشرة فى التبشير بين المسلمين . يقول السير ريدر بولارد 'Sir Reader Bullard' " إن المسلمين كثيرا ما يقدرون أعمال الجمعيات التبشيرية فى التعليم والتطبيب ولكنهم يصمون آذانهم عن دعوتها الدينية " (١) . ومرة " رفع طلاب المدارس التبشيرية فى بلاد إيبو فى الإقليم الشرقى من نيجيريا احتجاجا إلى جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية نحواه أنهم قد تلقوا الحد الكافى من التعاليم المسيحية فى الكنيسة ومدارس أيام الأحد ولا يريدون هذا النوع من التعليم فى المدارس على الإطلاق " (٢)

وفى منطقة بونى Bonny الوثنية صرح الحكام المحليون الذين كانوا يموّلون المدارس التى أقامها المبشرون فى هذه المنطقة بأنهم لا يريدون من المبشرين أن يعلموا أبناءهم التعاليم الدينية لأنهم قد تعلموا ذلك فى بيوتهم وأن مسؤولية هذا التعليم واقعة على عواتق آباء هؤلاء الأولاد . وإنما الشئ الذى يريدونه من المبشرين هو أن يعلموهم كل ما يتعلق بالتجارة فى أقرب وقت ممكن " (٣) .

وقد ظهر أن وسائل المبشرين الظاهرة والخفية لم تجد نفعا كبيرا ولم تحقق من أهدافهم الأساسية إلّا يسيرا . وقد حيّر هذا الأمر كثيرا من المسئولين المعنيين بأمر التبشير والهيئات التبشيرية العليا التى تمول الجمعيات وترسل البعثات إلى أفريقيا فقد أصدرت لجنة مكونة من المبشرين كتابا عام ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٢ م . باسم " التفكير الجديد فى أمر الإرساليات " (٤) قرروا فيه ضرورة استمرار أعمال التبشير فى العالم ، ثم اقترحوا وجوب تنويع وتلوين وسائل التبشير لأنّ العالم دائما يتبدل ، فتتحول فيه الأحوال وتتغير فيه الظروف والمناسبات ، ولهذا يجب أن تتبدل خطط التبشير دوما حتى تساير تقلبات الأزمان وتغيرات الأحوال ،

---

(1) Sir R.Bullard, Britain and Middle East, New York, 1951, P63
(2) CMS G3/A3/011, J. Brandreth, Memo on Edcation Committee.
(3) L.J. Lewis, Society, Schools and Progress in Nigeria, Oxford, 1975, P.32
(4) The Committee of Appraisal, (Ernest Hocking Chairman) Re-thinking Missions, New York, London, 1932

وتجارى الظروف والمناسبات المستجدة . وليس فى استطاعتنا أن نستوعب جميع وسائل المبشرين فى شتى أشكالها وأنواعها ، لأن المبشرين أنفسهم لم يحددوها فى نطاق معين وإنما كانوا يستحدثون الوسائل ويتنوعون فيها وينتقلون من وسيلة إلى أخرى كلما استجد بهم الأمر أو عندما تثبت التجارب فشل وسيلة معينة أو بسبب قيام ظروف معينة ووجود أحوال خاصة . وقد تختلف وسائل المبشرين فى التبشير بين أفراد المجتمع الواحد وكذلك بين جيل وآخر وبين قطر وقطر آخر ، فكل ما يراه المبشر صالحا لأن يحقق له غايته فهو وسيلته إلى تلك الغاية بصرف النظر عن كونها شريفة أم غير شريفة ، فالغاية عندهم هى التى تقرر الوسائل وتبررها . وإن من بين وسائل المبشرين الهامة لنشر المسيحية فى هذه البلاد التعليم الغربى عامة والتطبيب ودور النشر والنشاط الاجتماعى وإقامة مؤسسات زراعية وإقامة قرى مسيحية فى طريق تكتيل الجماعات المسيحية للانقضاض على المجتمعات الإسلامية وإعداد رجال الدين المحليين ، وقصر أعمال التبشير على أسر معينة لتقوم هى بدورها فى تنصير المدينة برمتها ، والأعمال الخيرية والإحسان وتشجيع الزواج بالأجنبيات المسيحيات واستغلال مركز الشبان والنساء فى المجتمع ، وما إلى ذلك مما سنتولى تفصيله فى هذا الفصل .

((المبحث الأول))

التعليم الغربي ميدان فسيح للتبشير ونشر العلمانية اللادينية

لقد خبا نور العلم في العالم الغربي في العصور الوسطى التي اشتهرت بالعصور المظلمة بسبب انتشار الجهل وتراكم المظالم السياسية والاجتماعية وقيام حالة التخلف والانحطاط . ثم بدأت غياهب تلك الظلمات تنجاب عن العالم الغربي شيئا فشيئا عندما طلع عليه العلم بنوره من ناحية الشرق . ولم تمض فترة طويلة حتى ازدهرت فيه المدنية وعمته الحضارة . ولقد كانت الروح الدينية المنحرفة على أشدها في أوربا في العصور الوسطى ولم تكن فيها حضارة ذات قيمة ، ولكن لما تزودت بقوة العلم قامت بحماسة شديدة تقضت على طغيان الكنيسة المسيحية وأصبحت بعد ذلك قبلة الحضارة في العصور الحديثة . فالحضارة الأوربية لم تكن وليدة الدين المسيحي وإنما كانت وليدة العلم وحده .

ولقد أدرك المبشرون أن الموجه الحقيقي لكل فرد إنما هو البيئة الأولى التي احتضنته صغيرا وعرفوا أهمية هذه البيئة التي يجب أن تستغل في سبيل جلاء شخصية الفرد وبناء شخصية المجموع ومن أجل تحقيق السعادة والرفاهية للمجتمع ، ولكنهم مع ذلك لم يقيموا أي وزن لهذه الأهداف النبيلة . بل استخدموا العلم والتعليم لإفساد النبل الإنساني ، حيث جعلوا العلم وسيلة إلى استعباد الأفراد والأمم ثم سوقهم بعد ذلك بسيف الاستعمار إلى الخضوع الذل والاستكانة أمام سلطان السياسة المادية . ولقد سخر المبشرون الديانة المسيحية في سبيل ترويج بضائع أممهم ونشر الفساد الاجتماعي في هذا العالم . وبما أن التبشير العلني لم يحقق من الأهداف التبشيرية إلا يسيرا ، فقد رأى المبشرون ضرورة اتخاذ طرق غير مباشرة للتبشير ، واتفقت آراؤهم على أن التعليم هو أفضل هذه الطرق ، وذلك لما له من أثر في نشر المسيحية بين الناشئين . ولقد دلت التجارب على أن تعليم الأولاد الصغار هو أقوى وسيلة تأتي بأحسن الثمار في الدعاية التبشيرية .

ولذلك استغل المشرون العلم للتوصل إلى غايات لم تكن مقصودة في حد ذاتها وإنما هي كذلك وسيلة إلى غايات أخرى . فإنهم في الحقيقة يريدون أن يصلوا عن طريق هذا النشاط البرئ في ظاهره إلى استعباد شعوب هذه البلاد واستغلالها سياسيا واقتصاديا . قال المبشر جسب : " إن المدارس شرط أساسي لنجاح التبشير وهي بعد هذا واسطة لاغاية في نفسها ، ولقد كانت المدارس تسمى بالإضافة إلى التبشير " دق الاسفين " وكانت في الحقيقة كذلك في ادخال الإنجيل إلى مناطق كثيرة لم يكن بالإمكان أن يصل إليها الإنجيل أو المبشرون عن طريق آخر ".(١) قال ملغان : " إن المدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من كل قوة أخرى ، ثم إن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما قادة في أوطانهم ".(٢) قال المبشر جون موط : " يجب أن نؤكد في جميع ميادين التبشير جانب العمل بين الصغار ، وبينما يبدو شغل هذا العمل وكأنه غيرية ترانا مقتنعين لأسباب كثيرة بأن نجعله عمدة عملنا في البلاد الإسلامية . إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكرا جدا ، من أجل ذلك يجب أن يحمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم سن الرشد وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية " (٣) .

ولقد كانت أكبر وسيلة استخدمها المبشرون في إحداث تغيير جذري في المجتمعات الأفريقية هي محاولتهم نشر الثقافة الغربية فيها . وإن المصالح الاقتصادية التي تأتي وراء الثقافة الغربية والمنافع الاجتماعية المتعددة التي ينالها الأفراد الذين يتلقون هذه الثقافة في البلاد التي دخلها الاستعمار هي التي جعلت هذا النوع من الحضارة عنوان التفاضل ومعيار الترقية إلى المنازل العالية

(١) من كتاب التبشير والاستعمار في الدول العربية . تأليف د . مصطفى خالدي و د . عمر فروخ ص ٦٧ نقلا عن كتاب جسب

Henry Harris Jessup, Fifty-Three years in Syria, New York, 1910 P.592

(2) A.A.Milligan, op.cit., P.108 & P.124-5

(3) J.Mott, The Moslem World of Today, London, 1925, P.371-372

فى هذه البلاد . ولقد كانت الدول الاستعمارية التى تمول الهيئات التبشيرية تعتقد أن اللغة هى التى توجه الثقافة ولذلك رأيناها تنفق بسخاء على جميع المدارس التى تعلم اللغة الإنكليزية واللغة الفرنسية .

وكما سبق أن قلنا إن المبشرين عندما وصلوا إلى البلدان الأفريقية دفعتهم روح الحماسة الدينية الشديدة بالإضافة إلى مطامعهم السياسية والاقتصادية إلى اعتبار مهمة تحويل الناس إلى المسيحية أمرا هينا وسهلا فتصدوا لتنصير الكبار والصغار . وأخذوا يكرزون بالمسيحية بين العامة والخاصة وفى المجامع والمحافل وعلى عتبات البيوت وفى المدن والقرى بين المسلمين والوثنيين . ولكنهم رغم رغبتهم الشديدة فى تحويل الكبار وجهوداتهم الكبيرة المبذولة فى هذا السبيل - لم يلبثوا أن أيقنوا بفشل أعمالهم فى صفوف الكبار ، وعند ذلك وجهوا اهتمامهم البالغ إلى اجتذاب الأولاد الصغار عن طريق المدارس . وقد اعترف بذلك كثير من المبشرين ، وأكدوا أهمية المدارس فى التأثير على عقول التلاميذ الصغار الغضة . وإن فراغ عقول الأطفال يجعلهم يتقبلون كل مايقدم لهم من غير تمحيص . وقد جاء فى تقرير الجمعية المعمدانية الأمريكية مايلى : " إن الوسيلة الوحيدة التى بقيت لنا أن نستخدمها فى محاولة تنصير الكبار هى الاستعانة بقوة الروح القدس فى دعوتهم إلى المسيحية ، ويجب أن نؤكد للرجال والنساء بأن الإنجيل قديم ولكن لاينبغى أن يقال ذلك للأطفال أبدا لأن الاله الرب يستطيع أن يحول قلوب الآباء كما يفعل بالأبناء ... ولكن التعليم المدرسى هو الوسيلة الناجحة بالنسبة للأطفال ، ولكن يجب على الزملاء أن يعرفوا أن عمل المبشر داخل أوربا لايوازى عمل زميله فى ميدان التبشير فى خارج أوربا ، وقد كان أكثر المبشرين يأتون إلى أفريقيا وهم يعتقدون أن العمل فى أفريقيا مثله فى أوربا ولكن سرعان ما اقتنعوا بصعوبة الأمر فى تنصير الكبار ولذلك توجهوا نحو تنصير الأطفال "[1] وقال المبشر هردين (M.J.Harden)

(1) Cf.'Official ' Baptist View at Home in America, cited in J.F.A.Ajayi, op.cit., P.134 (from footnote)

" إخوانى أؤكد لكم أيضا أنى قد يئست من نجاح محاولة تنصير الآباء ، ولكن أملى كبير جدا فى إمكان تنصير الأولاد "(١) . قال المبشر ستون R.H.Stone " لقد قاربت حد الإقناع أن تأسيس المدارس للأجيال القادمة هو أساس أعمال المبشرين فى المجتمعات الوثنية فى أفريقيا . ويجب علينا أن ندعو إلى المسيحية باستمرار ونحن على استعداد تام وإيمان راسخ ودعاء كبير وسيتولى هؤلاء الأطفال مهمة قلع جذور الوثنية وتنصير جماهير هذا الشعب فى المستقبل "(٢) . وإذا كان الكبار متمسكين بما وجدوا عليه آباءهم من ديانة وعقيدة وحضارة وكانت قلوبهم قاسية لاتنفذ فيها مواعظ المبشرين ولا تؤثر فيهم جميع خططهم ووسائلهم ، فإن الأطفال الصغار بقلوبهم الغضة الرطبة التى لم تتحصن بعدُ بمقومات دينية وحضارية سيقومون بتمهيد جميع الطرق والوسائل لتمكين هذا الدين الجديد ونشره فى هذه البلاد . وقد أدرك المبشرون بعد تجربة طويلة وخبرة كبيرة فى ميدان التبشير أن محاولة تحويل الكبار إلى المسيحية كانت بمثابة بذر الحبوب فى جانب الطريق أو نثرها فوق الأحجار الصماء .

قد جاء فى تقرير الجمعية المعمدانية الأمريكية مايلى : " دعوا الأطفال يأتوا إلى المدارس لأى غرض كان فسيكون المبشرون مسؤولين عن فشلهم إذا لم ينتهزوا هذه الفرصة السانحة لتنصير هؤلاء الأطفال "(٣) " ولكن المشكلة هى كيف نستطيع أن نحبب التعليم الغربى إلى هؤلاء الأطفال حتى يأتى عدد كبير منهم إلى المدارس؟ كيف يمكن أن نجعل حاجة الناس للعلوم الغربية لاتقتصر على المدن الساحلية فحسب بل يجب أن تكون حاجة عامة تشمل جميع أنحاء البلاد ؟ وكيف نستطيع أن نخلق الأجواء لتقبل التعليم الغربى فى المناطق الداخلية حيث لايقدر غير تعليم صناعة البنادق والرشاشات"(٤) وهكذا رأينا المبشرين يلجأون إلى أسلوب المراوغة

---

(1) M.J.Harden 4.May 1858, to Poindexter The Commission July 1858
(2) R.H.Stone to Culpepper 9, July 1858
(3) Cf.Official Baptist View at Home in America, cited in J.F.A.Ajayi op.cit., P.134
(4) Cf.George Meakin, European Catechist at Oyo, 1858-59 CMS Ca21069

والتحايل عندما أيقنوا بفشل التبشير العلني حيث كان المظهر الديني الصارخ من المبشرين يعرقل أعمال التبشير وينفر الناس من حولهم وخاصة الكبار . ولم تكن المقاومة من جانب المسلمين فقط ، وإن كانت من جانبهم أشد، وأعنف منه في غيرهم ولكن كانت هناك مقاومة من جانب الوثنيين من أجل الحفاظ على معتقداتهم الجاهلية وتقاليدهم البالية والعادات الشنيعة المنتشرة هنا وهناك .

وعندما يئس المبشرون تماما من تحقيق أي نجاح ملموس في صفوف هؤلاء الكبار اكتفوا بعمل كل مايستطيعون لكسب موافقتهم ومساندتهم لأعمال التبشير أو على الأقل ألاّ يتخذوا موقفا عدائيا ضد مصالح المبشرين ، ولكن ذلك أيضا لم يجدهم شيئا فسرعان ما انكشفت نواياهم وتبينت للناس تلك الغايات والأغراض الكامنة وراء أعمالهم .

ولقد عرف المبشرون أهمية تربية الناشئين وتعليمهم في المجتمع والدور الهام الذي سيلعبه الجيل الناشئ في مستقبل ذلك المجتمع ومن أجل ذلك وجهوا اهتمامهم البالغ إلى تعليم الأطفال فأقاموا مدارس كثيرة في المدن والقرى وبنوا إلى جانب كل مدرسة كنيسة وتولى المبشرون مهمة التدريس فيها . وقد كانت تلك المدارس تجبر جميع طلابها على دخول كنيسة المدرسة مرة كل يوم ولايزال هذا العمل جاريا في مدارس الإرساليات إلى يومنا هذا. وكذلك كانت تجبرهم على حضور مادة الديانة المسيحية حيث يقوم المدرس بتدريس " العهد الجديد " للأطفال قراءة وتفسيرا وحفظا . وكذلك كانت تلزم الطلاب بحضور قداس الوعظ يوم الأحد . كما أن هناك بعض اجتماعات دينية يفرض حضورها على بعض الطلاب المتقدمين . ولكن جهودهم في حقل التعليم لم تكن لوجه العلم ولم يقصد من وراءها تحقيق مصلحة أو غاية يعود نفعها على شعب هذه البلاد كما سنبين فيما بعد وإنما كانت جهودهم في ميدان التعليم من أجل استغلال العلم لأهدافهم التبشيرية ليس إلاّ . لقد أراد المبشرون أن ينفذوا إلى نفوس الأطفال الصغار من أهون الطرق لاجتذابهم إلى الديانة المسيحية أو على الأقل لتوجيههم توجيها مسيحيا . ومعروف أن التعليم قوة توجيهية عظيمة ذات آثار بالغة في تقدم أي مجتمع أو تأخره، وأن مستقبل أي شعب يعتمد أساسا

على نوع التعليم الذى يقدم لناشئيه وعمق هذا التعليم وقدرته على أداء واجباتـــه فى رفع مستوى ذلك الشعب وإصلاح أسلوب حياته الدينية والاجتماعية والسياسيـة وتحسين شئون حياته الاقتصادية مما يحقق له السعادة والرفاهية والأمن والاستقـرار • ولهذا كله لايجوز أبدا أن تكون شئون التعليم فى أيد أجنبية حتى لاتلعب بها ، ولا تستغلها لمآربها وأغراضها المختلفة • وأى شعب جعل شئون بلاده التعليميـــة فى أيدى قوة خارجية لاترتبط بينه وبينها رابطة العقيدة ولا المصلحة المشتركـــة فقد أضاع مستقبله من جميع الجوانب ، وجعل بلاده فريسة لأطماع الطامعين وهدفا لمطامع المستغلين ، ولابد أن تتعثر البلاد التى كان هذا شأنها فى حياتها الدينيـة والسياسية والاجتماعية والاقتصادية •

" ومنذ قيام علاقات البرتغال التجارية خارج الدول الأوربية فى القرن التاســـع الهجرى / الخامس عشر الميلادى كان البرتغاليون يعتبرون التعليم وسيلـــة ذات أهمية كبيرة فى نشر المسيحية "(1) • وفى سنة ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م أســـس المبشرون فى جزيرة ساوتوم (Sao Tome) الواقعة خارج شواطئ نيجيريا علـــى المحيط الأطلسى معهدا لاهوتيا لإعداد الشبان الأفارقة لمهمة الكهنوت • وكمـــا سبق أن قلنا أكثر من مرة أن جهود البرتغاليين والأسبانيين من بعدهم فى ميـــدان التبشير ونشر الحضارة الأوربية فى المدن الساحلية والتى دامت قرابة أربعة قـــرون متتالية لم تترك أى تأثير يذكر على شئون هذه البلاد الدينية والاجتماعية • ويجـب أن نؤكد هنا أن التعليم الغربى الذى غزا به المبشرون هذه البلاد منذ قيـــام حركة التبشير الحديثة فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى قد ظلت جميع شئونه فى أيدى الجمعيات التبشيرية لمدة لاتقل عن نصف قرن قبل أن تتمكن بريطانيا من احتلال جميع أجزاء هذه البلاد وفرض سيطرتها السياسية عليها • وإن المجهودات الكبيرة التى بذلتها هذه الجمعيات فى تلك الفترة كانت تعتمد اعتمادا كليا علـــى

(1) L.J. Lewis, op.cit., P.23

دعم الكنائس الأم في أوربا والهيئات التبشيرية العليا فيها والتبرعات التي كانت تأتيهم من قبل الأصدقاء والمعارف وبعض الناس الذين كان لهم رغبة خاصة في نشر المسيحية في أفريقيا .

قالت الجريدة الأفريقية التي صدرت في شهر ابريل عام ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م : " إن مستقبل أفريقيا يعتمد اعتمادا كليا على جهود الهيئات التبشيرية ولم يكن في استطاعة عمليات بريطانيا العسكرية وشؤونها التجارية أن تحقق في حد ذاتها الشئ الكثير ولا يمكن أن تحقق بمفردها شيئا كبيرا وخاصة في مجال إصلاح التربية الأخلاقية والتقدم الاجتماعي " (١) . وقد أثبتت التقارير أن الهيئات التبشيرية كانت ترغب في أن تجعل نيجيريا دولة مسيحية حقيقية . وقد عرفت تلك الهيئات أن سبيلها إلى تحقيق ذلك محفوفة بالمخاطر فلجأت عن سابق عمد وتصميم إلى إحداث ثورة اجتماعية وانبعاث روحي مسيحي عن طريق الكنائس والمدارس . " وفي مستعمرة لاجوس حيث ازدهر التعليم الغربي منذ قيام الحكم البريطاني فيها في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي كان المثقفون الأفارقة ينظرون إلى الثقافة الغربية على أنها الوسيلة الوحيدة لإحداث الثورة الاجتماعية التي يتوقعون قيامها في نيجيريا عندما ينتشر التعليم الغربي ويكثر الموظفون والفنيون والأطباء والمحامون ورجال الدين والتجار والمثقفون " (٢) .

ولقد كانت المصالح الاقتصادية والاجتماعية التي كانت الحضارة الأوربية تقدمها إلى الأمم المتخلفة ذات تأثير عميق جدا في نظر تلك الأمم وإن هذه المنافع المادية البحتة هي التي كانت تستفز مجامع عقول هذه الأمم إلى التعلق بأذيال الثقافة الغربية والجري وراء الأوربيين لا هثين وقد كانت تلك المصالح المادية ذات إغراءات كبيرة أكثر من مجرد التعاليم المسيحية التي كان المبشرون يحاولون أن يستخدموا الثقافة الغربية وسيلة لنشرها . ولذلك رأينا هذه الأمم المتخلفة عندما وقفت على المصالح المادية

---

(1) cited in E.A. Ayandele, op.cit., P.282
(2) Ibid. P.284

التى تأتى وراء الثقافة الغربية لم تعد ترغب فى تقبل برامج المبشرين الدينية والأخلاقية إلاّ بقدر ما يمكنها من الحصول على الثقافة الغربية .

إن الهدف الأساسى من جميع أنواع التعليم ومراحله المختلفة بالنسبة لكافة الجمعيات التبشيرية التى كانت تنفق أموالا باهظة على مدارسها هو نشر التعاليم المسيحية فى هذه البلاد ولم تكن جميع هذه الجمعيات تنظر إلى التعليم إلاّ من خلال وجهة نظر تبشيرية بحتة . إن المؤسسات العلمية التى أقامتها هذه الجمعيات لم تستهدف غاية غير إعداد المدرسين الوطنيين الذين يتدرجون من مهنة التدريس إلى معلمين دينيين ثم إلى شماسة ثم الى قسس وأساقفة ، وإعداد البنات ليكن زوجات للصابئين . وقد كانت فكرة جميع الجمعيات التبشيرية هى أن تستخدم كافة الوسائل الممكنة لتخلق فى الصابئين قوة جياشة تجعلهم ينساقون إلى خدمة المسيحية ويحيون حياة رجال الدين القدامى حياة التقشف والزهد ، لا يقيمون أى وزن لحطام الدنيا وزخارفها . وإلى هذه الغاية تهدف الجمعيات فى تربية الأطفال الصغار على التعاليم الدينية والمبادىء الأخلاقية المسيحية ، وإليها أيضا توجه أنظار الصائبين لحملهم على بذل النفس والنفيس فى سبيل نشر المسيحية بين أهاليهم ومواطنيهم .

وحين تمكن المبشرون من دخول هذه البلاد وجدوا ظاهرة الأمية تعم كافة أرجاء المناطق الجنوبية ، ووجدوا تخلفا علميا فى المناطق الشمالية رغم وجود عدد كبير من المدارس الإسلامية . فقاموا عن سابق عمد وتصميم لإبقاء الجهل سائدا لأنه مادام أهالى هذه البلاد جهلاء فسيظلون ضعفاء مستضعفين ويبقى المبشرون والمستعمرون هم العلماء والأقوياء والمتحكمين . ولكنهم اضطروا لخدمة مصالحهم الاستعمارية وتحقيق أهدافهم التبشيرية أن يفتحوا مجالا واحدا للتعليم وهو التعليم النظرى الكتابى ، وذلك لتخريج قسس وأساقفة يقومون بدعوة الناس إلى المسيحية ، وكذلك لإعداد موظفين فى خدمة الحكومة الاستعمارية لتسيير شئون الإدارات المحلية . ولقد كانت مناهج التعليم ومجالاته محدودة وعاجزة عن الوفاء باحتياجات المجتمع وتطور الحياة الزراعية والصناعية فى هذه البلاد . وكانت هذه المناهج ذات شقين

أساسيين ، فأغلبها يتجه نحو تحويل الناس إلى المسيحية وإعداد رجال الدين المحليين ، والشق الآخر يتجه نحو الأمور النظرية والمكتبية لتخريج الموظفين .

ولقد أبدت الإرساليات التبشيرية اهتماما كبيرا بتأسيس المدارس الابتدائية لتعليم الأطفال الصغار القراءة والكتابة والحساب وكانت تركز كثيرا على تعليمهم الإنجيل والمبادئ والمعتقدات والتعاليم المسيحية وجعلت التعليم فى هذه المرحلة باللغات المحلية ، ولم تعتبر هذه الجمعيات من مسؤولياتها توفير التعليم الثانوى لأن ذلك خارج عن حدود أعمالها التبشيرية ، لأنها كانت تريد فقط أن تعلم المسيحية ، وهذه غاية يمكن تحقيقها عن طريق المدارس الابتدائية من غير ما حاجة إلى التعليم الثانوى. كما يمكن ذلك أيضا باستخدام اللغات المحلية دون ما حاجة إلى التعمق فى اللغة الإنكليزية والعلوم الغربية . وقد اعتبرت الجمعيات التبشيرية التعليم الثانوى من مسؤولية الحكومة الاستعمارية التى كانت تدعم التعليم النظرى الكتابى من أجل الحصول على الموظفين لتسيير الإدارات المحلية . وسنبين بعد قليل الأسباب التى أدت بتلك الجمعيات إلى هذه الفكرة فى تقسيم التعليم والاكتفاء بتوفير التعليم الابتدائى " ولكن التعصب الدينى الذى أظهرته الجمعيات التبشيرية فى مدارسها ومؤسساتها العلمية منذ بداية الأمر هو الذى سبب قلة إسهامها فى شئون التعليم العام ، وقد ظهر أثر ذلك فى مجال التعليم الثانوى حيث كانت تحجم عن توفيره . وإن هذا العمل لمما يؤكد لنا وجهة نظر هذه الجمعيات فى الشعب النيجيرى الحقيقى الذى كانت تريد أن تكوّنه ـ أى المسيحى ـ كما يبين لنا الهدف من وراء أعمالها فى تحويل الوثنيين إلى المسيحية بالقوة ، والقضاء على الإسلام ومحوه من الوجود" . (١)

قال هنرى جسب : " إن التعليم فى مدارس الإرساليات التبشيرية إنما هو واسطة إلى غاية فقط . هذه الغاية هى قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا

(1) E.A.Ayandele, op.cit., P.286

مسيحيين وشعبا مسيحية • ولكن حينما يخلو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وعلماء النبات وخير الجراحين والأطباء في سبيل الزهو العلمي ، فإننا لانتردد حينئذ في أن نقول إن رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيري المسيحي إلى مدى علماني محض ، وإلى مدى علمي دنيوي ، ومثل هذا العمل يمكن أن تقوم به جامعات هايدنبرج وكمبرج واكسفورد لا المدارس التبشيرية التي تسعى إلى أهداف روحية فحسب".(١)

وقد كان كثير من المبشرين يشكون في نجاح المؤسسات العلمية إن لم تحدد غايتها في نطاق خدمة الأهداف التبشيرية • وعندما أقامت جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية مؤسسة مهنية في مدينة لاجوس ، وكانت هذه المؤسسة تقوم بإعطاء دراسة متوسطة لمدة ثلاث سنوات لإعداد المدرسين الذين سيتولون مناصب القسس في المستقبل قال المبشر هنري تاونسند (Townsend) رئيس جمعية يوربا التبشيرية : "لست أثق كثيرا في نجاح المؤسسات المهنية في هذه المرحلة التي كنا فيها نجاهد في إنجاح أعمال التبشير وتقدمها في هذه البلاد • وإن الذي أريده فقط هو إعداد مجموعة من الرجال عن طريق التعليم الابتدائي حتى يتمكنوا من قراءة الكتب الدينية المسيحية باللغات المحلية ليقوموا بعد ذلك بدعوة إخوانهم الوثنيين إلى اعتناق المسيحية • ولست أريد هؤلاء الشبان الذين يركزون على تعلم اللغة الإنكليزية وينكبون على الثقافة الغربية حتى يصبحوا أفرادا من الطبقة الممتازة المتحضرة والذين تحالفهم السعادة حيثما حلوا ويتباهون بمنزلتهم الثقافية العالية في المجتمع المتخلف".(٢) ، وقد سأل المبشر تونسند (Townsend) مؤتمر إقليم ساحل الذهب عما إذا كان من الحكمة تثقيف ذلك العدد الكبير من الأطفال الصغار كما تفعل الإرساليات التبشيرية في الوقت الحاضر مع أنها تعلم علم اليقين أن أكبر عدد من هؤلاء الأولاد لايكونون أفرادا مهملين في المجتمع فحسب بل سيكونون كذلك مؤذين ضارين لرفاهية المجتمع وسعادته

(١) Henry Jessup, op.cit., P.592,597
قد ورد هذا الكلام في كتاب التبشير والاستعمار في البلاد العربية د/مصطفى خالدي وعمر فروخ ص ٦٦ ـ ٦٧ •

(2) CMS CA2/085 Townsend to Wright 20 Dec. 1875

وذلك على حساب مصالحهم الذاتية بنشر الكسل والخمول والتطرف" (١) ولقد بذلت الجمعيات التبشيرية جهودا كبيرة فى إعداد المبشرين والنخبات المثقفة من أبناء هذه البلاد ، وجعلت الكهنوت الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى الفرد التعليمى من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة العالية وكانت تبعث بعض المدرسين والمبشرين إلى كلية فورابى فى سيراليون أو جامعات بريطانيا لإتمام دراساتهم العالية هناك فى اللاهوت وفى العلوم والآداب . " وفى السنوات مابين سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨م وبين سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م بعثت كنيسة لاجوس وجمعية إرساليات الكنيسة الانكليزية عشرين مبشرا من قبائل يوربا إلى كلية فورابى لإتمام دراساتهم العالية فى اللاهوت والعلوم الغربية." (٢) وقد ظلت شئون التعليم فى أيدى الجمعيات التبشيرية لمدة طويلة من الزمن وحتى فى الوقت الحاضر فإن مجموعة كبيرة من الشخصيات البارزة فى هذه البلاد فى شئون السياسة والطب ومهنة المحاماة وفى الخدمات الشعبية وفى شئون التعليم نفسها تنتمى إلى المدارس التبشيرية فى تكوينهم التعليمى من المراحل الابتدائية إلى المراحل العالية حتى احتلوا مراكز هامة فى هذا المجتمع . ولذلك قال المؤلف البريطانى لويس (L.J. Lewis) "ومن المدارس التبشيرية جاء هؤلاء المثقفون الأفارقة الذين كان لهم ارتباط وثيق بالعالم الغربى ، وكانت حاجة هذه البلاد ماسة إلى وجودهم فى تلك الفترة . وهؤلاء الناس هم الموظفون والمدرسون والوكلاء التجاريون والمبشرون الذين بذلوا تلك المجهودات الكبيرة فى تنمية موارد البلاد الاقتصادية ولولا وجودهم وما قاموا به فى توفير الرخاء الاقتصادى لما تمكن المستعمرون والتجار الأوربيون من تحقيق أهدافهم فى هذه البلاد." (٣)

---

(1) Minutes of the 1848 District Meeting Cape Coast, Methodist cited in J.F.Ajayi op.cit., P.143
(2) E.A.Ayandele op.cit., P.295
(3) L.J. Lewis op.cit., P.33

وتعتبر التنمية الاقتصادية التى كانت تسير ببطء منذ دخول الحضارة الأوربية إلى هذه البلاد وقيام الحكم الاستعمارى فيها ، وإنشاء المحاكم المحلية وتشكيل مجالس الحكومات المحلية ، وبناء شبكة البريد والبرق ودخول الدراجات العادية وسيارات النقل والعربات وتعبيد طرق المواصلات من الوسائل الجديدة الهامة للحصول على المكاسب والثروات الضخمة ، قد فتحت مجالات عديدة للعمل وأوجدت آمالا كبيرة فى مستقبل الأفراد والجماعات ، كما أحدثت مزايا جديدة فى المجتمع . الأمر الذى مكن التعليم الغربى من هذا الرواج العظيم وذلك الانتشار الكبير . فإن التعليم الغربى فى نظر جماهير شعب هذه البلاد هو مفتاح السعادة ووسيلة التقدم فى هذا المجتمع الجديد الذى بدأ يتجه إلى الحضارة الأوربية . ولقد كانوا من قبل يحجمون بأبنائهم عن التعليم الغربى بسبب الأضرار البالغة التى تأتى وراءه وخاصة من الناحية الدينية . ولكن لما ظهرت أهمية هذا التعليم فى تقدم المجتمع ورفاهيته لم يجدوا مناصا من إقحام أولادهم فى تلك المدارس لينالوا نصيبهم من الحضارة الغربية من أجل تلك المصالح المادية . وعندما وصلت الإرسالية الكاثوليكية إلى بلاد إيبو فى الإقليم الشرقى من هذه البلاد اشترت مجموعة من العبيد وأقامت لهم قرية مسيحية وعينت فيهم المشرين والقسس وجعلت تلك القرية منفصلة تماما عن سائر المدن والقرى المجاورة " ولكن الأب شنهان (Father Shamahan) قد لاحظ منذ البداية أن هذه الطريقة لا يمكن أن تنجح فى هذه البلاد وإن كانت قد نجحت نجاحا كبيرا فى باراغوى (Paraguay) وفى بعض الأماكن فى العالم . وطوال العشرين سنة التى قضتها هذه الجمعية فى العمل الجاد المتواصل لم تستطع أن تحقق من أهدافها إلا شيئا يسيرا جدا وسبب هذا الإخفاق هو أن الأحرار قد اعتبروا الديانة المسيحية دين العبيد ، ومن أجل ذلك ترفعوا عن اعتناقها .

ولكن عندما ظهرت أهمية التعليم الغربى فى المجتمع وهرعت هذه الجمعية إلى تأسيس المدارس التبشيرية فى هذه الناحية لم يجد أهالى بلاد إيبو بُدًّا من تقديم أولادهم إلى المبشرين ليعلموهم العلوم الغربية والتعاليم المسيحية . وهكذا استطاعت هذه الجمعية

أن تنشر المسيحية في هذه البلاد بواسطة مدارسها؟[1] • وكذلك الحال في المناطق الداخلية في بلاد يوربا حيث اشتدت روح الكراهية من جانب بعض الحكام المحليين لأهل الكتاب ، وكانوا لايرضون أبدا بتسليم أولادهم إلى المهشرين حتى لايفسدوهم وإنما كانوا يقدمون عبيدهم إلى المبشرين ليتعلموا ماينشره هؤلاء المبشرين من العلوم المختلفة • ولكن عندما ظهرت نتائج التعليم الغربي قد نبغ هؤلاء العبيد في العلوم الغربية وأصبحوا بفضل مانالوا من العلم يحتلون منازل عالية في شئون المجتمع وعين بعضهم أعضاء في المجالس المحلية ، وأصبح البعض الآخر رجال الدين في الكنائس والمدرسين والموظفين في الحكومة الاستعمارية أو الشركات التجارية ومؤسسى الأحزاب السياسية الذين قاموا بنضال كبير في سبيل استقلال البلاد • عندئذ أحس هؤلاء الحكام بالأسف والندم على عدم تعليم أبنائهم على أيدي المبشرين وبدأوا يرسلون أبناءهم إلى المدارس التبشيرية فاستطاع المبشرون بهذه الطريقة أن ينفذوا إلى أبناء المسلمين فينصرونهم •

وقد لخص الدكتور توماس جيس جونس (Dr. Thomas Jesse Jones) سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م الانتقاد الموجه ضد أعمال المبشرين في ميدان التعليم في تقرير لجنة فيلبس وستوكى (The Report of the Phellps-Stoke Commissions) حول التعليم في أفريقيا • قال توماس: " يرجع الفضل في تسهيل التعليم الغربي في أفريقيا إلى جهود الجمعيات التبشيرية ، وقد قدمت هذه الجمعيات خدمات كبيرة إلى شعوب هذه القارة وقد عرفت أكثر الجمعيات أهمية التعليم الكبيرة في تطوير الشعوب الأفريقية • ولكن العيوب القائمة في الخطط التعليمية كما هي موجودة الآن يرجع أساسها إلى تصور المبشرين للتعليم • ويعتقد البعض أن التعليم مجرد نقل المعارف أو على الأكثر هو مجرد قوة لإصلاح وتربية العقول بدون أي علاقة بناحية التربية الروحية والأخلاقية

---

(1) P.J.Jodan, <u>Bishop Shamahan of Southern Nigeria,</u> Dublin 1949.P.91-94

وفى نظر هذه المجموعة من الناس لايوجد للتعليم معنى روحى على الإطلاق • ويؤمن البعض الآخر بأهمية التعليم فى المقام الأول من أجل تمكين الأهالى من قراءة الإنجيل وفهم الديانة المسيحية • وقد أيدت هذه المجموعة اهتماما كبيرا بالتعليم النظرى الكتابى • وقام هؤلاء الذين تبنوا هذه الفكرة الأخيرة بتزويد جماهير الشعب بالتعليم العادى فى القراءة والكتابة والحساب • وأما بالنسبة للمعلمين الدينيين والطلاب المتقدمين فى التعليم فقد زودوهم بالدراسات الأدبية مع إعطائها المعانى الدينية بطبيعة الحال • وقد كان المبشرون يسيرون على نهج الخطط القائمة فى أوربا بتحديدهم التعليم فى الكتب وفى الفصول الدراسية •

ولم تعلم الإرساليات أن نجاح أعمالها إنما هو بقدر ماتحقق تلك الأعمال من الخير والسعادة لشعوب هذه البلاد • وقد كانت لاتبالى بالقيمة الاقتصادية التى توجد فى الزراعة كما أنها لاتهتم كثيرا بناحية الصحة والتربية الأخلاقية لأهالى هذه البلاد"(١) ولكن الذى يظهر لى أن عيوب التربية الغربية أكثر مما ذكره هذا الكاتب البريطانى • ويرجع أساسها إلى تصور المبشرين والمستعمرين كليهما للتعليم لا إلى تصور المبشرين فقط •

وتتمثل عيوب التربية الغربية فى أربع نقاط :

<u>الأولى</u> : أن هذه التربية مادية بحتة ، فالإنسان فى نظرها مجرد آلة • وفى نظر الغربيين يجب أن توجه التربية ووسائلها المختلفة ومناهجها التعليمية بحيث تزيد فى قدرة الفرد على الانتاج المادى فقط ، وذلك على حساب كل القيم الخلقية والروحية • وإن المثل الأعلى للتربية الغربية الرأسمالية هو كم راتبك فى الشهر ؟ وكم رصيدك فى البنك ؟ وأما كم عملت من خير مع الناس فليس لذلك وزن تربوى عندهم بل هو مضيعة للجهود وتبذير للأموال •

---

(1) L. J. Lewis (ed) Phelps-Stokes Report on Education in Africa. (edited and abridged, Oxford University Press, London, 1962) P.9 Cited in L. J. Lewis, Op. cit., pp. 30-31.

والنقطة الثانية : أن التربية الغربية علمانية تهمل الجانب الروحي • قد لجأ الغرب إلى فكرة العلمانية في التربية بسبب طغيان الكنيسة المسيحية في الماضي ومحاربتها للعلم والتعليم ونشر الكتب والمدارس ، وتوطدت العلمانية بعد حروب طائفية دامت عشرات السنين تقلص بسببها سلطان الكنيسة في الدول الغربية •

والنقطة الثالثة : أن هذه التربية غير أخلاقية ، وتلك نتيجة حتمية لماديتها البحتة وخلوها من العنصر الروحي • وإذا كان هناك صدق وأمانة ووفاء فإنها أخلاق مادية ولغرض مادى وهو الربح المتزايد وإنها لاتسمى أخلاقا نبيلة لأن تشابه ظواهر الأشياء لايدل على تماثل القيمة والجوهر •

والنقطة الرابعة : هي أن هذه التربية عندما تستخدم لتقرير الجانب الروحي تكون ناقصة ومحدودة في نطاق ضيق • فإن غاية التعليم عند المبشرين إنما هو تمكين الناس من قراءة الإنجيل وفهم الديانة المسيحية • وأكبر وظيفة يتطلع إليها الصابئون في المجتمع هي أن يصبحوا قسسا وأساقفة ، ولا قيمة مطلقا لأى منفعة تأتى وراء التعليم خارج نطاق حقل التبشير • بل إن مثل هذه المنافع كانت محرمة على المسيحيين الحقيقيين ولذلك يجب في نظرهم أن يظل التعليم وسيلة لنشر المسيحية فحسب • وهذا سبب اكتفاء المبشرين بالتعليم الابتدائي والتركيز على استعمال اللغات المحلية في التعليم لأن هذا القدر يكفي لقراءة الإنجيل وفهم المسيحية •

وقد كان التعليم في هذه البلاد يسير جنبا إلى جنب مع التبشير المسيحي قال فكتور موراى (Victor Murray) في كتابه " مدرسة الدغل " " The School in the Bush " : كانت المدرسة بمثابة الكنيسة في المقاصد وفي الأغراض • وإن الاثنتين شئ واحد سواء وجدتا في الأدغال أو في الغابات • وإن المدرس في مدرسة القرية هو نفسه المبشر في تلك القرية • وبأدنى التأمل في شئون التعليم الغربي في أفريقيا سندرك هذه الحقيقة بكل وضوح "[1] ولذلك " عندما

(1) A.V.Murray, The School in the Bush, London, 1929, cited in L.J. Lewis, op.cit., P.29-30

استقلت نيجيريا سنة ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م كان أكثر من سبعين في المائة ٪ ٧٠ من مجموع المدارس الموجودة في الإقليمين الغربي والشرقي ومنطقة لاجوس تحت إدارات شئون التعليم للهيئات التبشيرية (١) * وكما سبق أن أشرنا قبل قليل فإن جميع الجهود المبذولة في ميدان التعليم كانت موجهة في الغالب نحو تحويل الناس إلى المسيحية ليصبحوا مسيحيين • وإذا تحقق هذا الهدف الهام بقيت أمام المدارس مهمة إعدادهم علميا وروحيا ليصبحوا مدرسين في المدارس وقسسا ومبشرين في الكنائس والمراكز التبشيرية وموظفين في الشركات التجارية والدوائر الحكومية •

ولقد أراد المبشرون في بادىء الأمر أن يرغبوا الناس في التعليم فجعلوا التعليم في مدارسهم مجانا وكانوا يقدمون لطلابهم الكتب المدرسية والثياب والألواح الصغيرة للكتابة وأقلام الرصاص وأشياء أخرى دون مقابل • وقد كانت المدارس توزع الجوائز على الطلاب الناجحين في الحفل الذي يقام لمناسبة انتهاء العام الدراسي بعد الاختبار النهائي ، كما أنها كانت تحتفل بعيد الميلاد وتخرج طلابها في استعراضات منظمة في بعض المناسبات لترغيب الأطفال الذين لايشهدون المدارس في التعليم ولتظهر لهم أن ما يضيعونه من الفرص كان ثمينا جدا لا يمكن أن يعوض إلا بالانضمام إلى حظيرة المدارس ليذوقوا لذة الحياة الجديدة وينالوا السعادة والهناء • وقد كان بعض أولياء أمور الأطفال يطالبون الجمعيات التبشيرية بدفع مبلغ معين مقابل الخدمة التي كان أولادهم يقومون بها في المزارع مساعدة لهم إذا أرادت هذه الجمعيات أن يأتي هؤلاء الأولاد إلى مدارسها " وقد طلب المبشر مان (Mann) الذي كان يشرف على المركز التبشيري الذي أقامته جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية في مدينة إجاي (Ijaye) طلب من جمعيته إعانة مالية تنفق في هذا الغرض على أساس أن زميله المبشر المعمداني المنافس له في هذه المدينة كان يدفع مبلغا معينا لطلابه (٢)"

(1) L.J. Lewis, op.cit., P.28

(2) Mann Journal entries for 21 April 1856, 14 Aug. 1959, CMS CA2/056 A.D. Phillips to Taylor 25 Jan.,1859

وقد تناولنا الحديث عن أهمية التعليم الغربى عموما فى نشر الدعاية التبشيرية فى هذه البلاد وتثبيت أقدام المستعمرين لينشروا فيها الثقافة الغربية والحضارة الأوربية وليفرضوا سيطرتهم السياسية والاقتصادية على شعوبها ردحا غير يسير من الزمن . ولما دخل المبشرون إلى هذه البلاد وبدأوا أعمالهم التبشيرية فيها ، أقاموا كنائسهم ومراكزهم التبشيرية فى مختلف المدن والقرى ، وما لبثوا أن شرعوا فى دعوة الناس إلى المسيحية وقد تصدوا لجماهير هذا الشعب دون تفريق بين الكبير والصغير والمسلم والوثنى والرجال والنساء . ولقد طمعوا فى بادئ الأمر فى الملوك والزعماء وأعيان الناس ظانين أنهم لو استطاعوا أن يحولوهم إلى المسيحية فستنساق رعاياهم وراءهم إلى اعتناق هذا الدين زرافات ووحدانا . ولكن سرعان ماتبين لهم أنهم على خطأ كبير . ثم لما اهتدوا إلى تأسيس المدارس وركزوا على الأطفال الصغار كما سبق أن أشرنا قبل قليل . ولكن الذى نريد أن نقرره هنا هو أن جهود الجمعيات التبشيرية فى ميدان التعليم فى الفترة الأولى قبل قيام الحكم الاستعمارى فى هذه البلاد كانت محدودة جدا ، كما أن التعليم الذى كانت هذه الجمعيات تنشره حتى بعد قيام الحكم الاستعمارى كان محدودا أيضا من حيث الهدف والغاية ، ونوع ذلك التعليم وطريقة الأداء ، وقدرته على تلبية احتياجات البلاد المختلفة فى شتى ميادين الحياة . وقد قصر المبشرون التعليم فى بادئ الأمر على الكتاب المقدس ولايتعداه بأى حال من الأحوال . كما جعلوا غاية التعليم الحقيقية هى فقط تحويل الناس إلى المسيحية وإعداد الشبان للتعليم فى مدارسهم أو للعمل فى الكنائس وفى المراكز التبشيرية توسيعا لحركة التبشير فى هذه البلاد . ثم عندما سحقت جيوش الاحتلال البريطانى هذه البلاد ودمرت سلطة الحكومات المحلية وطبعا بعد تمكن المبشرين فى بعض الأماكن الهامة فى هذه البلاد ، فتحت الحكومة الاستعمارية أمام الشعب آفاقا جديدة بإدخال الثقافة الغربية وخلقت قيما اجتماعية جديدة وأذواقا جديدة وقررت منهج حياة جديد وجعلت التعليم الغربى أكبر نعمة يحصل عليها الإنسان فى هذا المجتمع . وكانت تنظر إلى التعليم من خلال وجهة

نظر مادية وتبشيرية على السواء . وكانت دائما تنكر على الجمعيات قصر التعليم على الأهداف التبشيرية فحسب ، لأن الحكومة كانت لها مصالح مادية تسعى إلى تحقيقها بالإضافة إلى الغايات التى تصبو إليها أعمال المبشرين .

وبعد هذا التمهيد يجب أن نلقى نظرة خاطفة على المدارس الأجنبية فى جميع مراحلها وعلى اختلاف أنواعها كما يجب أن نسلط الأضواء على مناهج التعليم فيها سواء ماكان منها فى المدارس التبشيرية أو الحكومية أو حتى تلك التى أسستها السلطات المحلية حتى نستطيع أن نبرهن على كل ما قررناه فيما يتعلق بأهمية هذا التعليم بالنسبة لأعمال المبشرين ونجاحها وتقدمها ، وكذلك بالنسبة لمصالح المستعمرين ولنستطيع أيضا أن نبرهن على ما أثبتناه من الأهداف والغايات الكامنة وراء هذا التعليم بالنسبة لرسل التبشير وجيوش الاستعمار .

وأخيرا وهو الجانب الأهم لنستطيع أن نضع أيدينا على تلك الآثار العميقة التى كانت لتلك الخطط التعليمية فى شئون حياة شعب هذه البلاد .

وسنبدأ برياض الأطفال والمدارس الابتدائية الخارجية منها والداخلية ، ومنها سنعرج على مدارس أيام الأحد للكبار والمدارس المسائية ثم بعدها سننتقل إلى المدارس الثانوية بأنواعها الثلاثة الثانوية العامة ، والمهنية ، والصناعية ، ثم بعد ذلك نذكر ما يتعلق بمدارس البنات والتعليم العالى فى أوربا . وقد اتفق جميع مبشرى الإرساليات التبشيرية على أنه يجب أن تكون هناك مدارس حتى يستطيعوا أن يتصلوا بالناس ويدعوهم إلى مذاهبهم الدينية المختلفة . ولذلك قال بعض المسيحيين إن المبشر الأول هو المدرسة . إن أول شىء قام به المبشرون فى ميدان التعليم فى هذه البلاد هو إنشاء رياض الأطفال والمدارس الابتدائية ، لأنهم عرفوا من قبل ومن بعد أن التعليم الدينى فى هذه المدارس سيجعلها بابا مفتوحا للتبشير وللتأثير على عقول هؤلاء الأطفال الغضة كما سيمكنهم من أن يثبتوا أقدامهم فى القرى والأرياف تحت ستار نشر

التعليم ، الذى كانت حاجة هذه البلاد ماسة إليه فى تلك الفترة ، ولأنهم عرفوا أن للتعليم الابتدائى أثرا كبيرا فى مستقبل الطلاب التعليمى . وإذا تمكن المبشر من أن يبث أفكاره الدينية فى عقولهم فستبقى آثار ذلك ترافقهم طول حياتهم ، لأن العلم فى الصغر كالنقش على الحجر . والمدارس الابتدائية ورياض الأطفال كلاهما تمكن المبشرين من الاتصال المباشر بأولياء أمور الطلاب . وقد ينفذون من خلال ذلك الاتصال إلى التبشير فيهم أو على الأقل إلى جلب محبتهم لهم ومساندتهم لأعمالهم ، عندما يتظاهر لهم المبشرون بالعطف والحنان على أولادهم والسهر على مصالحهم .

كان التعليم فى رياض الأطفال والمدارس الابتدائية باللغة المحلية وقد طبع الإنجيل وكتاب الصلوات وكتاب التراتيل والكتب المدرسية باللغات المحلية الهامة . وقد كانت جهودهم كبيرة جدا فى عملية وضع حروف الهجاء لهذه اللغات وترجمة الكتب الدينية إليها . وقد نبغ كثير من المبشرين فى بعض هذه اللغات لدرجة أنهم ألفوا الكتب فى مفرداتها وقواعدها على ما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

قالت المبشرة أناهندرار (Anna Hinderer) فى وصف منهاج التعليم فى رياض الأطفال والمدارس الابتدائية : " كانت الكنيسة فى بداية الأمر هى مركز التعليم . وقد خصصنا جناحا خاصا للطلاب المبتدئين الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة وكنا نبدأ معهم بإعطائهم قصة قصيرة سهلة من الإنجيل ثم نطلب منهم رواية هذه القصة بعد الاستماع إلى المدرس لنتأكد من أن طلابنا قد وعوها وفهموها . ثم بعد ذلك يقوم المدرس بتدريس فكرة قصيرة من الكتاب المقرر أو مقطعا صغيرا من كتاب التراتيل . وكنا نقضى بقية الوقت فى مطالبة تلاميذنا بترديد كتاب " خلاصة العقيدة المسيحية " وهو مؤلف على طريقة الأسئلة والأجوبة .

وأحيانا يجمع المدرس جميع طلاب المدرسة لمراجعة العقيدة المسيحية والصلاة الربانية " أبانا الذى فى السموات ..... الخ " والوصايا العشر ليتأكد من أن الطلاب

لم ينسوها • وإن هذا المنهاج هو الذى يستعمل فى جميع المدارس التبشيرية مع اختلاف بسيط فى طريقة الأداء • ويستعمل فى المرحلة الابتدائية الكتاب الأول لتعليم مبادىء القراءة وأجزاء مختلفة من الكتاب المقدس مثل وصية القديس لوقا • وسفر المزامير وكتاب الأمثال وسفر التكوين •

وقد كانت كل هذه من بين الكتب الهامة التى يقرؤها الطلاب • وقد تمت ترجمة كتاب العهد الجديد وطبع فى مجلد واحد وسيسر ذلك طلابنا كثيرا " (١)

وتشتمل مناهج الدراسة فى هذه المدارس على أربع مواد أساسية هى الديانة المسيحية والقراءة والكتابة والحساب ويزاد للبنات تعليم الخياطة •

وعندما كان بعض الأولاد يهربون من المدارس ويغيبون أياما كثيرة أو ينقطعون كلية إلى العمل فى المزارع • رأى المبشرون أن العلاج الناجع لحمل هؤلاء الطلاب على المواظبة والانتظام فى الدراسة هو إنشاء المدارس الداخلية • وقد طلبوا من أولياء أمور الأطفال السماح لأولادهم بالإقامة عندهم ليتلقوا التعليم والتربية فى بيوتهم • وليكونوا تحت مراقبتهم وهيمنتهم • وبذلك أصبحت المراكز التبشيرية التى يقيم فيها المبشرون مدارس داخلية • " وقد كان للمبشرين أمل كبير جدا فى هؤلاء الطلاب الداخليين الذين ترعرعوا تحت كفالتهم وكانوا على اتصال وثيق بهم • ومن بينهم سيخرج الطلاب المتقدمون رؤساء الطلبة والمدرسون كما سيخرج منهم رجال الدين قادة المستقبل ورؤساء الكنائس." (٢) وقد فتحت جمعية الدعوة إلى الإيمان بالمسيح صندوقا خاصا لتمكين مبشرى الإرساليات الكاثوليكية من تحرير العبيد وفك الرهائن وإقامة مدارس داخلية لهم فى مراكزها لتعليمهم وتربيتهم على الحياة المسيحية • قال الأب بروغيرو (Father Broghero) " لقد أنقذنا هؤلاء العبيد والرهائن من ظلمة الوثنية وأدخلناهم تحت رعاية وكفالة الإرساليات ليعيشوا حياة آمنة مطمئنة كما يحيا الناس فى البلاد المسيحية ، من أجل أن يقوموا بخدمة الكنيسة ويقدموا العون اللازم فى أعمال التبشير ويرتلوا الأناشيد

---

(1) Anna Hinderer, Seventeen Years in the Yorubaland, Memoirs of A. Hinderer compiled by her friends, London, 1872 , P.296

(2) J.F.Ade.Ajayi, op,cit., P.136

الدينية ويساعدوننا في دعوة الأطفال إلى المسيحية وكذلك في عملية الترجمة ونقل الكتب الدينية إلى اللغات المحلية.(١) »

ولقد كان الآباء لا يرضون بتسليم أولادهم ليتربوا تحت كفالة المبشرين في المدارس الداخلية إلا في حالات خاصة وظروف معينة ، مثل ما إذا دهمت الحروب حصون بلادهم أو نزلت بهم الكوارث والنكبات . وإذا كان الإنسان في حاجة شديدة إلى بعض الأموال ذهب إلى المراكز التبشيرية ليستدين من المبشرين ثم سلم ولده إليهم كرهن لضمان استرجاع الدين ، ولرغبته في تعليم ولده وتثقيفه . وفي مدينة إجايي Ija ye مثلا فشلت جميع خطط المبشرين لترغيب عدد كبير من الأطفال في دخول المدارس طوال ثمان سنوات متتالية . ولكنا رأينا عندما وقعت الحرب الأهلية بين هذه المدينة وبين مدينة إبادن سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م كيف غشيت المراكز التبشيرية مجموعة كبيرة من الأطفال . ولم تكن هناك ظروف دفعت بآبائهم إلى ذلك سوى طلب الأكل والأمان لهؤلاء الأولاد . ولقد أرسلت الحكومة البريطانية التي تحكم مستعمرة لاجوس قوة عسكرية صغيرة إلى هذه المدينة عندما اشتد أوار الحرب لحماية المبشرين وطلابهم ونقلهم جميعا إلى مدينة أبيوكوتا (Abeokuta) المجاورة حتى لا تتعرض لهم الجيوش المتحاربة . " ولقد كان نجاح المبشرين في تنظيم وتقدم المدارس الداخلية يعتمد أساسا على قدراتهم الشخصية في جمع التبرعات المالية إذ لم تخصص الإرساليات التبشيرية العليا صندوقا خاصا لهذا الغرض . ولكن التبرعات كانت تأتي المبشرين من الأقارب والأصدقاء ومن أعضاء كنائسهم الأم في أوربا . ومن بعض أنصار حركة دعاة الإنسانية والإصلاح الاجتماعي ومن جمعيات مدارس أيام الأحد ومن هيئات القسس والأساقفة في مختلف الكنائس في أوربا وفي أقصى كندا وفي القدس . إن هؤلاء هم الذين دعموا جهود المبشرين بأموالهم حتى ازدهرت المدارس الداخلية وتقدمت في هذه البلاد".(٢)

---

(1) Broghero to Planque 21 Dec., 1863 in Annals, 1865 P.81-82 cited in J.F.A Ajayi op.cit., P.137

(2) J.F.A, Ajayi, op.cit., P.137

ولما بدأت الدفعات الأولى تتخرج من المدارس الابتدائية صارت لهم قيمة اجتماعية كبيرة بسبب معرفتهم الكتابة والقراءة وعلم الحساب فى مجتمع سادته الأمية وعمه الجهل، ولأول مرة فى تاريخ المناطق الجنوبية من هذه البلاد انفتح أمام الشعب مجال الأعمال الوظائفية حيث بدأت الجمعيات التبشيرية توظف حاملى الشهادات الابتدائية فى مدارسها ومراكزها التبشيرية كما تعينهم مساعدين للقسس والأساقفة الأوربيين فى الكنائس. وقد رتبت لهم مكافآت شهرية ضئيلة وكانت تعطى جوائز تشجيعية بين حين وآخر لكل من يقف نفسه فى خدمة الكنيسة كما تقوم بترقيتهم من منصب المدرسين العاديين فى مدارسها إلى منصب معلمين دينيين ثم إلى شماسة ثم إلى قسس وأساقفة فى الكنائس. وكانت رواتبهم تزداد تبعا لارتفاع المناصب . ولكن منصب القسيس هو آخر درجة يصل إليها المدرس الوطنى . كما أن دائرة عمله لا تتجاوز حدود أعمال التبشير فى المدارس والمراكز والكنائس .

وقد كان لكل هذا أثر كبير فى نفوس أهالى هذه البلاد فاندفعت الآلاف من الأطفال إلى مدارس الإرساليات التى جعلت موافقة أولياء أمور الأولاد على تعلمهم المبادئ والمعتقدات المسيحية شرطا أساسيا لقبولهم فيها . ولكن يجب أن نتساءل عن مدى نجاح المدارس الابتدائية فى الأهداف التى كانت الجمعيات التبشيرية تسعى إلى تحقيقها ، وهل يكفى التعليم الابتدائى لتحويل هؤلاء الأطفال إلى المسيحية قلبا وقالبا ؟ وهل زود هذا التعليم هؤلاء الطلاب بالمعلومات الضرورية التى ينبغى أن يعلمها أى معتنق لدين جديد عن ذلك الدين حتى يتجلى له النور وتنفتح مداركه فيندفع بحماسة ليعلن إيمانه وهو على بصيرة من أمره ؟ .

لقد أخفقت المدارس الابتدائية فى تحقيق الأهداف الروحية والأخلاقية التى أسست من أجلها . ولكن المسؤول عن ذلك الإخفاق هو الجمعيات التبشيرية التى أرادت فى بادئ الأمر أن تقتصر على التعليم الابتدائى واستعمال اللغات المحلية كما كانت تريد أيضا أن يكون هذا التعليم مقصورا على درس الكتاب المقدس قراءة وكتابة وتفسيرا وحفظا .

وكل ذلك من أجل توسيع رقعة حركة التبشير فى هذه البلاد . ولقد قال المبشر هنرى تونسند Henry Townsend " إن الذى أريده فقط هو إعداد مجموعة من الطلاب عن طريق التعليم الابتدائى حتى يتمكنوا من قراءة الكتب الدينية المسيحية باللغات المحلية ليقوموا بعد ذلك بدعوة إخوانهم الوثنيين إلى اعتناق المسيحية.(١) " .

قال الأستاذ أنيديلى : " لقد خيبت المدارس الابتدائية آمال الجمعيات التبشيرية حيث إنها لم تستطع أن تحقق الأهداف الروحية والأخلاقية التى تصبو إليها وكان سبب ذلك أن تعاليم المسيحية التى تدرسها هذه المدارس لا يمكن أن ترسخ فى أذهان الطلاب بسبب فقدان النمو الفكرى الذى ينبغى أن يسبق رسوخ عقيدة جديدة فى العقول . ولذلك لا يمكن أن يؤمن هؤلاء الأولاد بالإنجيل إيمانا كاملا بهذه الطريقة السهلة التى كانت الجمعيات تريد أن تتم بها العملية." (٢)

ولما أدركت الجمعيات التبشيرية أن التعليم الابتدائى وحده على النحو الذى تقدم شرحه لا يكفى لجعل الطلاب مسيحيين حقيقيين متضلعين فى العلوم المسيحية اعتمدت تأسيس المدارس الثانوية وقررت فيها عددا من العلوم المختلفة التى يحتاج إليها الطلاب المتقدمون . ولكنها كانت تدرسها من ناحية صلتها بالكتاب المقدس ومن أجل خدمة ذلك الكتاب . ولقد بدأت الجمعيات التبشيرية الخمس التى دخلت غمار الحرب العقدية فى هذه البلاد بإنشاء المدارس الثانوية منذ وقت مبكر من بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى . وقد حازت جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية قصب السبق فى هذا المضمار حيث قامت بدعم وتشجيع المثقفين الأفارقة بتأسيس مدرسة ثانوية فى مدينة لاجوس سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩ م . ثم سارت الجمعية المشيخية على منوالها فأسست مدرستها الثانوية فى مدينة لاجوس سنة ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م . وكانت المدرستان تقومان بإعداد الموظفين . وكان من بين المواد التى

(1) CMS CA2/085 Townsend to Wright 20 Dec., 1875
(2) E.A.Ayandele , op.cit., P.291

تدرسها المدرسة الشيخية مادة علم مسك الدفاتر والهندسة ومادة الاختزال وعلم المحاسبة وفن الخط • وسنبين منهاج الدراسة الثانوية فى هذه المدارس بعد قليل •

وقد أسست جمعية الإرساليات الأفريقية كلية القديس غريغورى (St. Gregory's College) وكذلك أنشأت الجمعية المعمدانية الأمريكية وجمعية الإرساليات الكاثوليكية مدارس ثانوية على غرار ما أسسته أخواتها •

ولكن هناك حقيقة يجب ألاّ تغيب عن أذهاننا فى هذا الصدد وهى أن المبشرين لم يقدموا على توفير التعليم الثانوى عن رغبة واختيار وإنما فعلوا ذلك بعد فشلهم فى محاولة اقتصار التعليم على المستوى الابتدائى • وهذا أمر ظاهر جدا فى تاريخ قيام التعليم الثانوى فى مدينة لاجوس وتطوره • " قد قام هذا التعليم رغم أنف المبشرين ويرجع سبب ذلك إلى ضغط متزايد من قبل التجار الأوربيين لحمل المبشرين على تلبية متطلبات الشئون التجارية • وكذلك رغبة المهاجرين السيراليونيين الشديدة فى التعليم النظرى الكتابى وإلحاحهم الكبير على المبشرين " (١) • وعلى هذين العنصرين – التجار والمهاجرين – يعتمد المبشرون كثيرا من الناحية الاقتصادية ومن حيث الحماية والمساندة والقوة العاملة التى كانت تستخدمها فى توسيع حركة التبشير فى هذه البلاد • ولكن الجمعيات ظلت رغم ذلك تؤكد بين حين وآخر أن مسؤولية توفير التعليم الثانوى لاتقع على عاتقها وإنما هى من مسؤليات الحكومة الاستعمارية التى كانت تسعى إلى تحقيق مصالح اقتصادية وسياسية واجتماعية فى هذه البلاد • ولكن على الرغم من هذا فقد ظل التعليم الابتدائى والثانوى فى أيدى الجمعيات التبشيرية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى • ولم تستطع الحكومة الاستعمارية أن تؤسس مدرسة ثانوية إلاّ فى سنة ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م التى أسست فيها كلية الملك فى مدينة لاجوس •

---

(1) J.F.A. Ajayi, The Development of Secondary Education in Nigeria, Journal of Historical Society of Nigeria, Vol iii Nol Dec., 1963

وقد أبدى المبشرون عناية خاصة فى وضع منهاج الدراسة للمدارس الثانوية من أجل إعداد الطلاب للحياة التجارية والحصول على الثقافة الغربية الحديثة • وكانت هذه المدارس تدرس المواد التالية : " اللغة الإنكليزية — قواعدها والقراءة والكتابة وعلم الاملاء ضبط التهجى والحساب والجبر والتاريخ : العلمانى والدينى . والجغرافيا والأدب • وهذا كله فى المنهاج الدراسى العام • وهناك مواد إضافية يجب على كل طالب أن يختار من بينها مادة إضافية • وتنقسم هذه المواد إلى قسمين :

— القسم الأول : اللغة اللاتينية واللغة الإغريقية واللغة الفرنسية وغيرها من اللغات الحية • وعلم الهندسة وعلم المثلثات ومادة مسك الدفاتر والرسم وعلم البلاغة والمنطق والفلسفة الأخلاقية والاقتصاد السياسى •

— والقسم الثانى : التاريخ الرومانى والإغريقى والقصص والأساطير وعلم آثار العصور القديمة والفلسفة الطبيعية بجميع أشكالها وفروعها وعلم الفلك والصيدلة وعلم الطب وعلم طبقات الأرض وعلم النبات "(1) •

ومع مرور الأيام والتعليم الثانوى آخذ فى الانتشار انبهر الطلاب بالثقافة الغربية وأخذوا يستخفون بتعلم اللغات المحلية التى ركزت المدارس التبشيرية على تعليمها من أجل نشر المسيحية • وقد كان الطلاب يكيفون أنفسهم بأداء الشعائر التعبدية الالزامية التى تقام فى كنيسة المدرسة إرضاء للمبشرين • ولكنهم كانوا يريدون التعليم الإنكليزى والثقافة الغربية • وحتى فى خارج المدرسة لم يكونوا يريدون أن يقرأوا الكتب المترجمة إلى اللغات المحلية • ولقد اتضح للمبشرين بعد فترة يسيرة أن الطلاب الأذكياء المتقدمون لم يكونوا يولون المواد الدينية أدنى اهتمام وإنما وجهوا اهتمامهم الكبير نحو المواد غير الدينية على أمل الحصول على وظيفة ممتازة فى الدوائر الحكومية أو عند الشركات

---

(1) Printed Prospectus 1878, Methodist. cited in J.F. Ajayi Christaan Missicns in Nigeria, London, 1975, P.154

التجارية تكون أفضل بكثير مما يحصلون عليه في الكنيسة والمدارس التبشيرية لو أنهم نبغوا في المواد الدينية .

ولم يكن التعليم العالي في نظر الهيئات التبشيرية ليساعد على نشر المسيحية في هذه البلاد وذلك لأن كثيرا من العاملين في المؤسسات التبشيرية في الكنائس كانوا يتهربون من العمل فيها ليشغلوا مناصب أخرى أفضل مع رواتب مغرية في الدوائر الحكومية أو في الشركات التجارية . وكذلك الحال بالنسبة لخريجي المدارس الثانوية . فلا يمكن أبدا أن يرضى أحدهم لسبب أو لآخر أن يعمل تحت الهيئات التبشيرية . وقد ذكر المبشر النيجيري صمويل كراوثر "أن أكثر وكلاء التبشير الحاصلين على الشهادة الثانوية كانوا يتهربون من العمل تحت الهيئات التبشيرية ثم يهرعون إلى العمل عند شركة النيجر الملكية أو يقومون بتأسيس شركة تجارية لحسابهم الخاص".[1] ومنذ ثمانينات القرن التاسع عشر الميلادي لم تعد للمبشرين رغبة في توفير التعليم الثانوي في مدينة لاجوس وفي سائر المدن الداخلية وكانوا يحتجون دائما بأن المدارس الثانوية لم تقدم أي مساعدة في تحقيق أهدافهم التبشيرية لأن الطلاب قد أصبحوا مسيحيين بما تعلموه من المدارس الابتدائية قبل دخولهم المدارس الثانوية. ويذكر أن دار المعلمين التي أسستها جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية في مدينة أسابا Asaba سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٥ قد أغلقت سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م عندما بدأ طلابها يتركون المدرسة طمعا في الحصول على المصالح المادية عند الحكومة والشركات . وإن هذا الموقف الذي اتخذه المبشرون حيال التعليم العالي في تلك الفترة لا يعني أنهم لا يعرفون أهميته في تكوين الطبقات المثقفة وفي تمكينهم من الاتصال الدائم بهم ليؤثروا في أفكارهم واتجاهاتهم المختلفة وكذلك في تمكينهم من توجيه قادة الرأي في البلاد إلى ما فيه منفعة التبشير من انتشار المسيحية في هذه البلاد . ولقد عرف المبشرون أن ذلك التأثير في هذه الطبقات

---

(1) E.A.Ayandele, op.cit., P.288

المثقفة لايمكن أن يتحقق إذا لم يكن ثمة تعليم عال • ولكن المبشرين في تلك الفترة كانوا قد وضعوا نصب أعينهم غاية واحدة اعتقدوا أنها هي المناسبة لوضع البلاد القائم وطبيعة توسيع حركة التبشير فيها ، وهذه الغاية هي تحويل الناس إلى المسيحية وإعدادهم علميا عن طريق التعليم الابتدائي للعمل في مراكزهم وكنائسهم وللتعليم في مدارسهم من أجل نشر المسيحية في كافة أنحاء البلاد •

إنهم كانوا يريدون بذلك الربح العاجل ، يريدون أن يروا الأجيال الصاعدة وهي تأخذ طريقها إلى الدخول في المسيحية أفواجا وتنخرط في الحياة الدينية المسيحية حتى تتم عملية التحويل والتحول في فترة قصيرة • وصريح العبارة إن المبشرين لم يكونوا يريدون نشر العلم والثقافة ، وإنما كانوا يريدون نشر المسيحية • ثم إنهم كانوا يخافون كثيرا من انتشار الحضارة الغربية لئلا ينتشر معها الإلحاد الذي أدى إلى إنكار الأديان السماوية أو الاستخفاف بأمرها منذ نهاية العصور الوسطى في أوربا • ولذلك رأينا الجمعيات التبشيرية منذ بداية القرن العشرين على وجه التحديد تركز تركيزا كبيرا على التعليم الابتدائي واستعمال اللغات المحلية • وقد اعتبرت ذلك أنجح الوسائل التي تستخدمها لتحقيق غايتها • وقد ظهر لي من خلال هذه الدراسة أن المبشرين وإن لم يفصحوا عن نواياهم أرادوا إبقاء شعب هذه البلاد على الجهل ليظل في تخلفه العلمي والحضاري ،

ومن خلال ظلمات هذا الجهل والتخلف يتمكن المبشرون من التحكم في مستقبل هذه البلاد ويستطيعون أن يهدموا العقائد والقيم والمثل العليا ويقوضوا أركانها ليبنوا على أنقاضها عقيدة أخرى وقيما وأفكارا جديدة •

ولقد لاحظنا أن الجمعيات التبشيرية الخمس الموجودة في هذه البلاد لم تؤسس مدارس لتخريج المبشرين حتى تسعينات القرن التاسع عشر الميلادي رغم ما كان يبديه المبشرون من الرغبة الشديدة في تكوين عدد كبير من المدرسين والمعلمين الدينيين (Cathecists) ورجال الدين المحليين • وذلك باستثناء جمعية إرساليات الكنيسة

الإنكليزية التى أسست المدرسة الوحيدة لإعداد المبشرين الموجودة فى تلك الفترة فى مدينة أبيكوتا سنة ١٢٦٧ هـ / ١٨٥٠ م.

" ولم يكن ذلك بسبب عدم توفر الإمكانات المالية ولكن لأن هذه المدرسة الوحيدة نفسها كانت تقدم التعليم النظرى الكتابى وذلك خطر جدا على الطلاب".(١)

ولكن المبشر الألمانى بولار G.F. Buhler الذى كان يشرف على تلك المدرسة قد وصف منهاج الدراسة فيها سنة ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م بقوله : " لقد كنت أركز تركيزا كبيرا على مادة تاريخ الكتاب المقدس لإعطاء طلابى فكرة عامة ومعلومات حقيقية عن الكتاب . وفى التاريخ العام يدرس الطلاب تاريخ الروم إلى سقوط القسطنطينية وفى الجغرافية الطبيعية كانوا يدرسون جغرافية أوربا . وفى جغرافية الكتاب المقدس كنت أدرس لهم الرحلات التبشيرية لبولس الرسول . وأما فى القراءة فقد أعددت لهم ترجمة آيات من الكتاب المقدس وأجزاء من الفصول المختلفة من الكتب الإنكليزية إلى لغة يوربا أو غيرها من اللغات المحلية".(٢)

ولكن من وجهة نظر المبشرين كانت النتائج غير المرضية التى كانت تأتى دائما من وراء المدارس الثانوية فى مدينة لاجوس هى التى جعلت الجمعيات التبشيرية تلجأ إلى إنشاء المدارس الخاصة لإعداد المبشرين ورجال الدين الذين سيقومون بخدمات كبيرة فى سبيل نشر المسيحية فى شتى مجالات التبشير الواسعة .
وقد أسست الجمعية المشيخية "مدرسة" لإعداد المبشرين فى مدينة أسابا سنة ١٣١٢ / ١٨٩٥ م وذلك لتخريج المبشرين المحليين الذين يكرزون بالمسيحية باللغات المحلية . وكان يشرف على تلك المدرسة المبشر المشيخى المعروف هوب واديل Hope Wadell وكما سبق أن أشرنا قبل قليل فقد اضطرت الجمعية إلى إغلاق المدرسة على أساس أن طلابها كانوا يتخذون المدرسة وسيلة لنيل أهداف تخالف الهدف الأساسى الذى أنشئت من أجله .

---

(1) J.F.Ade Ajayi, op.cit., P.147

(2) Rev. Gottlies Fredrick Buhlers Ammual Report July 1861
CMS CA2/024

وفى سنة ١٣١٩هـ/١٩٠١ أسست الجمعية مدرسة أخرى لهذا الغرض فى مدينة إبادن وهذه المدرسة هى التى صارت كلية الجمعية المشيخية فيما بعد • وقد قامت جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦ م بإنشاء مدرسة لتخريج المبشرين فى مدينة أويو Oyo وكانت الجمعية تأخذ تعهدا على كل من يريد الالتحاق بهذه المدرسة قبل قبوله بالموافقة على خدمتها فى أعمال التبشير بعد تخرجه لمدة لاتقل عن خمس سنوات • وقد كانت هذه المدرسة ذات أهمية كبيرة فى تلك الفترة لأنها كانت تقوم بتدريب المبشرين على الدعاية التبشيرية باللغات المحلية أكثر مما تقوم بإعداد المدرسين المحترفين •

وقد ظلت كذلك حتى سنة ١٣١٨/١٩٠٠ م عندما أسست الجمعية مدرسة أخرى فى مدينة أوشوبو Oshogbo تختص بإعداد المبشرين المحليين وكذلك كلية القديس أندرو St. Andrews College التى كانت تخرج سنويا مجموعة كبيرة من المبشرين الذين نذروا أنفسهم لأعمال التبشير وكانوا يتطلعون إلى بلوغ درجة القسس والأساقفة بتشوق وتوق شديدين • ويرون ذلك أرقى درجة وأفضل منصب ينالونه فى هذه الحياة •

هذا ولم تقم جمعية إرساليات الكنيسة الكاثوليكية والجمعية المعمدانية بإنشاء مدارس من هذا القبيل لإعداد المبشرين إلّا بعد نهاية القرن التاسع عشر الميلادى •

وأما جمعية الإرساليات الأفريقية فلم تتمكن من إقامة مدرسة خاصة لتخريج المبشرين حتى سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م عندما أسست كلية فى مدينة إبادن Ibadan لهذا الغرض • ولقد نجحت كلية أوبوماشو المعمدانية التى أسستها الجمعية المعمدانية الأميريكية فى مدينة أوبوماشو Ogbomosho سنة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م لتخريج المبشرين نجاحا كبيرا فى مهمتها • ولاتزال حتى اليوم تخرج مجموعة كبيرة من المبشرين يقومون بالجهد الأكبر فى نشر مبادىء المذهب المعمدانى بين

أهالى هذه البلاد وخاصة فى المناطق الجنوبية .

ولقد لعبت مدارس تخريج المبشرين عامة أدوارا هامة فى ميدان التبشير حيث قامت منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى بتزويد الكنائس المحلية بمجموعة كبيرة من رجال الدين والمبشرين المحليين . كما كانت تقدم المعلمون الدينيين للمدارس الابتدائية والثانوية . وقد كان هؤلاء المبشرون ورجال الدين المحليون والمعلمون الدينيون فى مقدمة تلك النخبات الوطنية المثقفة ثقافة غربية التى قامت بالثورة الاجتماعية التى أدت إلى تغيير الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى هذه البلاد والتى تم على أيديها تغيير شئون هذه البلاد الدينية . ولاتزال تعمل من أجل إحلال المسيحية محل الأديان الوثنية التى سبقتها إلى المناطق الجنوبية بقرون طويلة وكذلك وقف زحف الاسلام وامتداده ومحاولة إضعاف قوته وابعاده عن شئون الحكم والسياسة والهيمنة على شئون المجتمع حتى فى المناطق الشمالية الإسلامية .

وقد نبتت فكرة إقامة مدارس تخريج المبشرين عن أصل خطة المبشرين فى تحويل المجتمعات الأفريقية إلى مجتمعات مسيحية بإقامة قرى مسيحية وإقامة أحياء مسيحية داخل المدن الكبرى وتنظيم جماعات مسيحية . ومن هنا رأى المبشرون ضرورة إقامة كنائس محلية لهذه المجموعات الجديدة وإعداد عدد كبير منهم فى مدارس خاصة ليتولوا مسؤولية إدارة شئون هذه الكنائس ويقومون بالدعاية التبشيرية بين أبناء وطنهم . وقد أكد المبشر منردى برسيلاك Magr de Bressilac مؤسس جماعة الإرساليات الأفريقية الحاجة الماسة إلى إنشاء صندوق الدخل الوطنى لتنمية الكنائس المحلية كذلك أكد ضرورة إعداد الأفارقة لمهمة التبشير لأنه باستطاعتهم أن يؤثروا فى أبناء وطنهم أكثر بكثير مما يؤثر فيهم المبشرون الأجانب .

وقال ذلك المبشر : " لا يمكن أن تستقر جميع الأهداف التى حققناها فى ميدان التبشير فى هذه البلاد . وكذلك لا يمكن أن تقوم ثورة مسيحية جديدة فى المستقبل إذا لم نقم بإعداد الأفارقة لمهمة التبشير ووظيفة الكهنوت . وإننى مؤمن بهذا الأمر إيمانا لا يشوبه أدنى شك ومن الواجب علينا أن نترك كثيرا من الأعمال التى نقوم بها

فى الوقت الحاضر من أجل أن نتفرغ لهذا العمل الكبير ونركز عليه • فهو الذى يضمن لنا السعادة ولأعمالنا التقدم والنجاح فى الأيام القادمة"(١) وذلك العمل هو إعداد الأفريقيين لمهمة التبشير •

قال هنرى فين Henry Venn سكرتير اللجنة العليا لجمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية : "ينبغى أن تقام الكنائس المحلية على أساس مؤسسات وطنية وإذا ما أخذت هذه الكنائس طابعا وطنيا فإن ذلك سيؤدى فى النهاية إلى محو كل الفوارق الطائفية التى قد أحدثتها الإرساليات التبشيرية فى صفوف المواطنين • وينبغى كذلك أن تكون لكل كنيسة وطنية حرية تامة فى تغيير مراسيمها الدينية وتكييف جميع شئونها بالأوضاع والمتطلبات الوطنية"(٢) • ولكن لايعنى ذلك أن المبشرين الأوربيين سيخلدون إلى الراحة ويقعدون عن العمل تاركين كل المسؤلية على عواتق المبشرين المحليين • ولذلك قال القسيس صمويل ايدجرلى جن Rev. S. Edgerley Jun " إن الوكلاء المحليين يحسنون التقليد والمحاكاة ولكنهم كما هو واضح الآن لايقدرون على شىء آخر غير التقليد ومحاكاة أساتذتهم الأوربيين • ولذلك لاينبغى لنا أن نقعد عن العمل اعتمادا على أن هؤلاء الوكلاء المحليين سيقومون بدورنا فى تحمل أعباء الاستكشافات الجديدة فى حقل التبشير فى هذه البلاد"(٣) •

لم يكن للتعليم الصناعى أهمية كبيرة فى برامج المبشرين التعليمية مثل ما كان للتعليم النظرى الكتابى • ولذلك ينتقد على المبشرين والحكام المستعمرين دائما بأن خططهم التعليمية لم تأخذ بعين الاعتبار متطلبات المجتمع من حيث شئون الاقتصاد

---

(1) S.M.A. 100 Years of Missionary Achievements, P.11
J.M. Todd., African Mission; A Historical Study of the African Missions, London, 1961, Chapter 11, cited also in J.F.Ade Ajayi op.cit., P.177

(2) William Knight, Memoirs of Henry Venn, (london) 1880, P.285-286 June 1868

(3) S.H. Adgerley in United Presbyterian Missionary Record, 1880, P.35-36
cited in J.F.A. Ajayi, op.cit., P.179-180

والشئون الاجتماعية وعلى وجه التحديد فى شئون الزراعة وتطوير الصناعات المحلية • وقد كان ينبغى على المدارس فى القرى والأرياف أن تقوم بجانب أعمالها التعليمية بتطوير شئون الزراعة والصناعات المحلية ، وأن تركز على ذلك أكثر مما تركز على التعليم النظرى الكتابى • ولكن الذى لاحظناه هو عكس ذلك تماما • فقد كانت تلك المدارس تخرج سنويا مجموعة كبيرة من الطلاب الذين لا يحبون الأعمال الزراعية ، بل ينظرون إلى عمل الزراعة والفلاحة نظرة ازدراء واحتقار وكانوا يكرهونها كراهة شديدة ويحبون أن يخرجوا من القرى فرارا من الحياة الريفية إلى الحياة المتحضرة فى المدن الكبرى التى استقر فيها الحكم البريطانى وازدهرت فيها الحياة حيث يجدون العمل فى الدوائر الحكومية وفى المصانع والمعامل والمراكز التجارية المنتشرة فيها •

ولقد قام المبشرون بتوفير التعليم الصناعى فى بلاد يوربا ولكن كان ذلك بشكل محدود جدا • وقد أقامت جمعية الإرساليات الأفريقية مؤسسة زراعية فى مدينة توبو Topo لزراعة جوز الهند وكذلك أقام المبشر ركيتس Ricketts مؤسسة أخرى فى مدينة أبووا Agbowa لزراعة جوز الهند والبن الليبيرى إلاّ أن هذا المشروع قد توقف نهائيا فى خلال ست سنوات من قيامه لأسباب مادية •

وقد قام أحد المثقفين الأفارقة ر • ب بليز R.B.Blaize بإنشاء مؤسسة صناعية سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م فى مدينة أبيوكوتا • وكانت المؤسسة تقدم التعليم الابتدائى فى علم مسح الأراضى وفى إنشاء السكك الحديدية وفى الأشغال العامة وفى شئون صناعة السفن وإصلاحها •

وكانت الحكومة الاستعمارية تقدم مساعدة مالية قدرها خمسمائة جنيه سنويا إلى مؤسسة هوسى الخيرية لتعليم الصناعة Hussey Charity Institution حيث يدرب الأولاد على أعمال النجارة والحدادة ولكن أعمال النجارة والحدادة والبناء والصناعات اليدوية لم تكن تعجب كثيرا من الناس • وإنما الذى كان يرقيهم أكثر هو زراعة الحبوب المصدرة إلى الخارج مثل الكاكاو والقطن والمطاط وغير ذلك •

كما هو الحال في بلاد يوربا كذلك كان في الإقليم الشرقي من نيجيريا ، فإن المشريين لم يولوا التعليم الصناعي في هذه البلاد اهتماما كبيرا . وقد فتحت جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية مؤسسة صناعية في مدينة براس Brass سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م وكذلك أسست أخرى في مدينة أونتشا Onitsha سنة ١٣١٦ هـ/ ١٨٩٨ م . وقد أنشأت قبل ذلك الجمعية المشيخية مؤسسة هوب واديل العلمية في مدينة أسابا Asaba سنة ١٣١٣ هـ / ١٨٩٥ م . وكانت المؤسسة تضم ثلاثة أقسام : الأول لتعليم الصناعة والثاني لإعداد المدرسين والثالث للتعليم الثانوي . وكان قسم تعليم الصناعة يقوم بتدريس نفس المواد التي تدرسها المؤسسات الصناعية الأخرى . وكانت تعطي البنات معلومات عن تدبير المنزل وتعلمهن فن الحياكة . لكن حينما كان المشرون يقومون بجهودهم الأولية المحدودة في مجال التعليم الصناعي لم يكن لديهم أي رغبة في تقدم الصناعات المحلية وازدهارها لدرجة تجعلها تنافس المنتجات المستوردة من الخارج من حيث جودة التصميم والقوة والمظهر الخلاب مما يحقق لها سرعة الرواج والانتشار ، وما ذلك إلا من أجل الحفاظ على السيطرة الاقتصادية في شئون التجارة والصناعة .

وقد كان الناس بطبيعة الحال يفضلون البضائع المستوردة على المنتجات المحلية لجودة الأولى وقوتها وقلة ثمنها . وحتى في مدينة لاجوس حيث كان الناس يترقبون لأن يحقق التعليم الصناعي تقدما ملموسا فقد دلت التقارير على أن أصحاب الحرفة اليدوية كانوا يجدون مشقة كبيرة قبل الحصول على الحد الكافي من المعاش . ويرجع السبب في ذلك إلى قلة حاجة المجتمع إلى منتجات هذه الفئة من الناس بسبب انتشار البضائع الأوربية المستوردة التي كانت أرخص بكثير من تلك المنتجات المحلية التقليدية . وكما هو الحال في كل دولة نامية اليوم فإن احترام الناس لعمال المصانع أقل بكثير من احترامهم للموظفين والمحامين والأطباء ورجال الدين . وقد ظل أمر التعليم الصناعي في هذه البلاد خارج نطاق البرامج التعليمية التي حازت اهتمام المشرين الكبير . والتركات الحكومة الاستعمارية تنفق عليها بسخاء طيلة أيام الحكم الاستعماري البريطاني على هذه

البلاد • وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تأخر وانحطاط ملموسين في مجال الصناعة• ولم تستطع الحكومة المحلية التي خلفت الحكم الاستعماري رغم ماكانت تبذله في هذا المجال من المحاولات منذ فترة استقلال البلاد ـ وإن كانت هي الأخرى لم تقدم على الأمر بحزم وجدية ـ لم تستطع أن تحقق في مجال الصناعة إلا شيئا يسيرا رغم توفر المواد الأولية ووجود الأيدي العاملة • ولكنها بدأت في السنين الأخيرة تقطع أشواطا بعيدة إلى الأمام في التقدم الصناعي فانتشرت المدارس الصناعية والمصانع والمعامل في مختلف المدن والقرى • وكما كان للمدارس الابتدائية والثانوية ومدارس تخريج المبشرين أهمية كبيرة في تمكين المبشرين من تحقيق أهدافهم التبشيرية في صفوف الناشئين الصغار كذلك كان الأمر بالنسبة لمدارس أيام الأحد والمدارس المسائية التي أقامها المبشرون في مراكزهم التبشيرية لتعليم الكبار فإنها مكنتهم من التأثير في عقول الكبار وأفكارهم • ومعروف أن أي تأثير في الرجل الكبير يجعل النفوذ إلى أعضاء أسرته في غاية من اليسر والسهولة ولذلك حاول المبشرون في بادىء الأمر تنصير الكبار لينخرط معهم جميع أعضاء أسرتهم في حظيرة المسيحية • وإذا فشلوا في عملية التحويل فإنهم يَقْنَعُونَ بالتودد إليهم والعمل على كسب موافقتهم ومساندتهم لأعمالهم أو على الأقل محاولة تجنب كل ما من شأنه أن يثير حفيظتهم ضد مصالح التبشير في شتى المجالات •

يقول مؤلف كتاب " الإرساليات التبشيرية في نيجيريا " عن مدارس أيام الأحد والمدارس المسائية القائمة في المراكز التبشيرية حيث يتلقى الكبار التعاليم المسيحية،" وقد كان المبشرون يدرسون لهم إنجيل القديس مرقص St. Mark وتاريخ حياة المسيح وكتاب العقيدة المسيحية مع التركيز على شرح أصول المعتقدات المسيحية ومبادئها والتراتيل الدينية الهامة • وقد كان تعليم الكبار محدودا جدا من حيث الهدف والإنجازات (١)

---

(1) J.F.Ade Ajayi.,op.cit., P.132-133

ولقد اهتم المبشرون بمدارس أيام الأحد لتعليم الصابئين الكبار والمتنصرين الجدد الذين لاتمكنهم ظروف أعمالهم من حضور المدارس اليومية . وكان الهدف من وراء تعليمهم هو تمكينهم من قراءة الإنجيل باللغات المحلية وتأدية الصلوات والتراتيل والأناشيد الدينية بها ، وكذلك تمكينهم من القيام بمهام التبشير بين إخوانهم الأفريقيين . ومن أجل مصلحة هؤلاء الصابئين الكبار بوجه خاص وجه المبشرون ذلك الاهتمام الكبير نحو ترجمة الكتاب المقدس ومجموعة كبيرة من الكتب الدينية إلى مختلف اللغات المحلية ولمصلحتهم أيضا عنى المبشرون بتسهيل قواعد التهجى وطريقة أدائه عند وضع الحروف اللاتينية للكتابة والقراءة باللغات المحلية .

وهناك فارق أساسى بين مدارس الصغار وبين مدارس الكبار . وذلك الفارق هو أن خطة المبشرين التعليمية بالنسبة للأطفال كانت تهدف إلى تغيير جذرى وتحويل كلى بحيث لاتبقى شيئا ولاتذر جانبا . قد وضعوا برامجهم لتحقق فى المقام الأول هدفهم الأكبر الذى هو تحويل أولئك الناشئين إلى المسيحية ثم بعد ذلك لتقوم بتكييف شئون حياتهم الخاصة والعامة حسب الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الجديدة التى كانوا يحاولون أن يفرضوها على أهالى هذه البلاد . ولقد كان المبشرون ينظرون إلى الأطفال الصغار على أنهم هم الوارثون الشرعيون لمهام أمور بلادهم فى المستقبل القريب فهم قادة الغد ورواد المستقبل . ومن هنا عرف المبشرون أن أى خطة لتغيير المجتمع ككل يجب أن تضع الناشئين الصغار فى مقدمة برامجها . وأن على تلك الخطة أن تقوم بتغيير حياة أولئك الناشئين تغييرا تاما وصبغهم بصبغة جديدة ليتمكنوا من استغلالهم فى تفجير الثورة الاجتماعية التى كانوا يخططون لها منذ دخولهم أرض هذه البلاد . وأما مايتعلق بتعليم الكبار فقد كان المبشرون ينظرون إليه من جهة معينة وكانوا يعتقدون أهميته لتعريف هؤلاء الكبار بالتعاليم المسيحية وتفهيمهم المعتقدات والمبادئ المسيحية .

ولقد عرفوا أن الكبار اشد مراسا فى إباء التغيير الجذرى فى شئون الحياة الخاصة والعامة لوجود بقايا القيم والعقائد والمثل التى كانوا يتعلقون بها ، ويتعصبون لها ويدافعون عنها بكل ما أعطوا من قوة . ولذلك اكتفى المبشرون فى شأنهم بذلك الحد الأدنى فكثروا بهم سواد المسيحية . قد عرف المبشرون من قبل ومن بعد أن هؤلاء الكبار كانوا على وشك الانقراض وعندما يذهبون ستكون الفرصة سانحة أمام المبشرين ويصفو لهم الجو ليعملوا ما يشاءون بالأجيال المتعاقبة ويتحكموا فى مستقبلهم طبق ما وضعوه من خطط منذ أمد بعيد . لقد كان لتعليم البنات أهمية خاصة فى تكوين الأفراد وبناء المجتمع . وإن البنات باعتبارهن زوجات فى ذلك المجتمع فإنهن يشاركن أزواجهن فى شئون حياتهم داخل البيت وخارجه . وباعتبارهن أمهات الأولاد فى البيوت فهن يربين الأجيال ويكون الشخصيات ، وأثرهن فى التربية يفوق كل أثر قد يكون للرجل فى هذا الشأن . ولذلك شاع فى ألسنة الناس قولهم بأن المرأة هى المدرسة الأولى للأطفال

(الأم مدرسة إذا أعددتها ، أعددت شعبا طيب الأعراق) (حافظ إبراهيم) .

ولم تغب هذه الحقائق عن أذهان المبشرين فقد أولوا تعليم البنات عناية عظيمة لأنهم عرفوا أن مستقبل هذه البلاد ورسوخ قدم المسيحية فيها إنما يكون بتعليم بناتها ونسائها لتأتى الأجيال القادمة مسيحية بالولادة لا بالتحويل ، ولتبدأ تربية أولئك الناشئين على الحياة المسيحية من المنزل قبل دخولهم المدارس . فإن الحياة البيتية المسيحية التى يعيش فيها الأطفال الصغار ثم دخولهم المدارس المسيحية بعد ذلك كل ذلك يمكنهم من أن يعيشوا حياة مسيحية واقعية حيث يستطيعون أن يطبقوا كل ما تعلموه فى المدارس من المبادئ والتعاليم المسيحية .

ولقد أراد المبشرون أن يبعدوا البنات عن نفوذ الحياة البيتية غير المسيحية فأقاموا لهن مدارس داخلية ومن المعروف أن المدارس الداخلية تفضل المدارس الخارجية لأنها تمكن المبشرين والمبشرات من الاتصال الوثيق بالطالبات ليتحببوا إليهن ويتعرفوا على أحوالهن ويقفوا على مشاكلهن . ومن خلال هذا الجو الودى والاتصال الدائم

يستطيعون أن يؤثروا فى عقولهن وأفكارهن . قد دلت التجارب على أن التبشير فى مثل هذه الظروف المواتية والفرص السانحة يكون أتم حبكا وأكمل إحكاما . وقد قال المبشرة ملغان Anna Milligan : " ليس ثمة طريق إلى حصن الاسلام[1] أقصر مسافة من مدارس البنات "[2] . وقال الكاتب البريطانى ل ج لويس L.J. Lewis " إن الهدف الأول من إنشاء مدارس خاصة لتعليم البنات هو إعدادهن ليكن زوجات صالحات للصابئين ومن أجل أن يشاركن أزواجهن فى شئون قيادة شعب هذه البلاد فى المستقبل "[3] . ولذلك كان المبشرون فى بادئ الأمر لا يقبلون فى مدارس البنات إلا من كانت مخطوبة أو زوجة للمدرسين ورجال الدين أو طلاب المدارس، والسبب فى ذلك أن الصابئين كانوا قلة فى تلك الفترة ولم يجدوا من يزوجهم . ثم عندما كثر عدد المتنصرين اشترط المبشرون أن تكون الطالبة مسيحية أو قابلة لاعتناق المسيحية أو على الأقل أن يوافق ولى أمرها على تعليمها المعتقدات والمبادئ المسيحية . وإن لم تعلن دخولها فى المسيحية ولكنها فى هذه الحالة يجب عليها أن تغير اسمها إذا كان من الأسماء الإسلامية، وعليها أن تختار لنفسها اسما مسيحيا ، إلا إذا كان لها اسم آخر أو لقب من الأسماء والألقاب المحلية التى لا ترمز إلى الإسلام من قريب ولا من بعيد ، فإنه لا مانع عندهم من استعمال ذلك الاسم إذا فضلته الطالبة على الأسماء المسيحية . ولكن أى إنسان يتنصر يصبح حتما عليه أن يغير اسمه عند المعمودية إلى اسم مسيحى ولا تكير عليه أن يستعمل إلى جانب ذلك الألقاب المحلية .

إن المدارس التى أقامها الأوربيون فى هذه البلاد لم تسع إلى استغلال النشاط القومى فى تعليم أبناء هذه البلاد كما أنها لم تسع إلى إبراز الخصائص الوطنية وتقرير القيم الروحية الأصيلة حين فتحت أبوابها على مصاريعها ولكنها قد جهدت فى أن تجعل من أبناء هذه البلاد أشباها لأبناء بريطانيا نفسها فى المظهر واللغة وأسلوب التفكير وفى السلوك والتعلق ببريطانيا المستعمرة والخضوع لأطماعها .

(١) والأديان الأخرى من باب أولى .

(2) Anna Milligan, op.cit., P.121

(3) L.J. Lewis., op.cit., P.71

مصنوع
إن لهذه المدارس منهاجا خاصا موحدا تسير عليه . ولكن هذا المنهاج/ في غير البلاد التي أقيمت فيها تلك المدارس . وكما هو واضح في ثنايا هذا الفصل إن هذا المنهاج استعماري الطبع والمظهر والهدف وصليبي الغاية . ومن المعروف أن طلاب هذه المدارس يعرفون جغرافية أوربا وتاريخها بتفصيل أوفى من التفصيل الذي يعرفون به بلادهم . إنهم يعرفون عن هضبات أوربا وروافد أنهارها كما يعرفون مفردات الصادرات والواردات إليها معرفة دقيقة . وكذلك يعرفون عن الكتاب المقدس وتاريخ حياة المسيح وعن المبادئ والمعتقدات والتعاليم المسيحية مالا يعرفه الطالب المسلم الذي يحضر هذه المدارس عن إسلامه ومالا يعرفه الوثني عن وثنيته .

ثم إنهم يقرأون من تاريخ بريطانيا مالا يقرأون مثله من تاريخ بلادهم . ولكن رغم ذلك كله كان الجمعيات التبشيرية تتبع سياسة ابتعاث مجموعة من طلاب مدارسها إلى أوربا وأمريكا لإتمام دراستهم العالية هناك . إن ذهاب الطلاب الأفريقيين إلى أوربا وأمريكا يكسبهم شيئا كثيرا من أساليب الحياة الغربية ومن الاتجاه الغربي في التفكير والعلم والسلوك وما إلى ذلك . وإن لذلك بلا شك منافعه بالنسبة لتلك المجموعة نفسها وللمجتمع الذي يرجعون إليه للعمل فيه بعد اكتمال دراستهم في الخارج وله سيئاته كذلك فإنهم يكتسبون علما وخبرة ولكنهم يفقدون شخصياتهم ويذوبون في تيار الغرب ذوبانا كاملا . ولكن المبشرين كانوا يريدون أن يفيدوا من دراسة الطلاب الأفريقيين في الخارج أمرا آخر أهم . إنهم يريدون أن يجعلوا من هؤلاء الطلاب مسيحيين بالفعل أو عملاء مماثلين عاملين على تقدم المسيحية ونشرها في بلادهم سواء أشعروا بذلك أم لم يشعروا به . ويجب بعد هذا أن نلقي نظرة فاحصة على سياسة الحكومة الاستعمارية في مجال التعليم في هذه البلاد . وكما أشرنا فيما سبق فإن التعليم الغربي قد ظل في أيدي الجمعيات التبشيرية مدة لا تقل عن نصف قرن قبل قيام الحكم البريطاني في/ جميع مناطق هذه البلاد . وحين قام الحكم الاستعماري على مدينة لاجوس والمناطق الجنوبية لم تقم الحكومة الاستعمارية بتوفير التعليم الغربي لشعب هذه البلاد في بادئ الأمر وإنما

تبنت سياسة تقديم الإعانات المالية إلى الجمعيات التبشيرية التى كانت تقوم بأعباء نشر التعليم فى مختلف المدن والقرى وذلك لتتمكن من القيام بمهمتها فى هذا المجال خير قيام.(١) ويذكرون أن ذلك كان بسبب انشغال الحكومة بمهمة شاقة فى توطيد دعائم حكمها فى تلك الفترة . وقد كانت أول مدرسة حكومية تقام فى هذه البلاد هى تلك المدرسة الابتدائية التى أسستها الحكومة سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م فى مدينة لاجوس لأبناء المسلمين عندما رأت أن المسلمين كانوا يمتنعون من ادخال أبنائهم فى المدارس التبشيرية فرارا بدينهم وعقيدتهم . وقد انتهجت الحكومة الاستعمارية سياسة جديدة منذ سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ م فى تقديم الإعانات المالية إلى الجمعيات التبشيرية تشجيعا لها على بذل مزيد من الجهود فى مجال التعليم . وكانت تعبر عن هذه السياسة بسياسة تقديم الإعانات المالية على قدر نتائج الأعمال " Payment by Results " وقد أدى ذلك بالجمعيات إلى زيادة جهودها وتنظيم نشاطها فى هذا الميدان وإصلاح طريقتها فى التدريس وزيادة المواد المقررة على الطلاب طمعا فى الحصول على إعانات مالية ضخمة من الحكومة.

ولقد حصل تغير ملموس فى حقل التعليم منذ سنة ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٢ م عندما أصدرت الحكومة الاستعمارية قرارها الأول فى شئون هذه البلاد التعليمية .

وقد كان لما تضمنه هذا القرار أثر بعيد جدا بالنسبة لنشاط الجمعيات التبشيرية ومستقبل تقدم التعليم الغربى وتطوره فى هذه البلاد . " ولقد سددت الحكومة الاستعمارية ضربة قاضية إلى ما اتخذه المبشرون أساسا قويا للتعليم " منذ قيام حركة التبشير فى هذه البلاد / وحتى فترة صدور هذا القرار، وذلك بإعلانها سياسة حيادية فى شئون الدين والتعليم.(٢) . إن الفقرة المتعلقة بالدين من هذا القرار كانت تعتبر نقطة أساسية فى اختلاف وجهة النظر بين الحكومة الاستعمارية وبين الإرساليات التبشيرية فى مضمون التعليم والهدف من ورائه . ولاتزال هذه المشكلة قائمة فى هذه

---

(1) cf. Reports on CMS Grammar School and Girls' School in CMS G3/A2/012 and G3/A2/013
See also L.J. Lewis op. cit., P.27-28

(2) E.A Ayandele, op.cit., P.299

البلاد حتى اليوم . ولقد كانت نقطة النزاع بين الحكومة وبين الإرساليات التبشيرية وخاصة جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية ترجع إلى الموقف الذى اتخذه كل منهما تجاه الآخر . وكذلك كانت نتيجة تعارض الأهداف والمصالح . فبالنسبة للإرساليات التبشيرية كان الهدف الأساسى الذى أنشئت المدارس من أجله هو نشر الديانة المسيحية وتعريف الأطفال بالمبادئ والمعتقدات المسيحية . وكان التركيز الكبير فى منهاج الدراسة على تعليم اللغات المحلية من أجل استخدامها فى تفهيم الناس التعاليم الدينية المسيحية . وكان حق الانتقال من فصل إلى آخر مبنيا على أساس نجاح الطالب فى المواد الدينية المسيحية لا على أساس حصوله على مقدرة علمية فائقة فى المواد غير الدينية . وهناك قرار فى مدارس جمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية فى بلاد إيبو فى الإقليم الشرقى من نيجيريا ينص على فصل أى طالب يتعمد الغياب عن المواد الدينية ومادة اللغات المحلية . قد كانت المواد الدينية تغطى أكثر من نصف المنهاج الدراسى للمدارس التبشيرية . ونستطيع أن نقول إن المواد المتبقية من المنهاج مثل القراءة والكتابة والإملاء والمحفوظات وغيرها كانت هى الأخرى موضوعة لتخدم تلك المواد الدينية . وكان المبشرون يعتقدون أنهم لو تركوا المجال للطلاب للتعلق بالتعليم العلمانى اللادينى والاهتمام بشأنه فإن ذلك سيؤدى إلى الاستخفاف بالتعليم الدينى وبذلك تكون المدارس قد فشلت فى أداء رسالتها فشلا ذريعا . قد كان الناس بطبيعة الحال يفضلون التعليم العلمانى اللادينى على التعليم الدينى الذى كان المبشرون يعملون جادين من أجله لنشر المسيحية وتخريج القسس والأساقفة الذين سيشرفون على صلوات القداس وجميع الطقوس الدينية فى الكنائس ، وكذلك تخريج المبشرين الذين سيجوبون الأقطار ويتنقلون بين مختلف المدن والقرى ليكرزوا بالدعاية المسيحية بين الأنام .

وأما بالنسبة للحكومة الاستعمارية . فكانت تركز على تعليم اللغة الإنكليزية والثقافة الغربية والعلوم الأخرى غير الدينية . وكانت تؤكد دائما أهمية هذه العلوم

فى رفع المستوى الاجتماعى لكل فرد من أفراد المجتمع . وكانت تقدم ألوانا كثيرة من المغريات فى هذا السبيل من أجل إقصاء اللغات المحلية من ميدان التعليم بالكلية ، أو اعتبارها مادة واحدة من جملة المواد المقررة فى المرحلة الابتدائية وعدم استخدامها لتدريس المواد الأخرى الباقية .

ولقد اعتبرت الحكومة مادة دراسة الديانة المسيحية اختيارية لا إلزامية . وكانت تقدم الإعانات المالية إلى المدارس على أساس دعم نشاط الإرساليات التبشيرية فى حقل التعليم ولكنها جعلت حق الانتقال من فصل إلى آخر على أساس نجاح الطالب فى المواد غير الدينية .

ولقد كانت وجهات النظر المتعارضة بين الحكومة وبين الإرساليات حول وضع المدرسين الروحى وحالتهم الاقتصادية نقطة أخرى ذات أهمية كبيرة فى النزاع القائم بينهما فى تلك الفترة . فبالنسبة للإرساليات التبشيرية لم يكن المدرسون ليحترفوا مهنة التدريس وإنما ينبغى أن يعتبروا أنفسهم مسؤولين دينيين وضعوا نصب أعينهم منصب الكهنوت كأسمى غاية يجب عليهم أن يسعوا إلى بلوغها فى خدمة التبشير .

وقد نظمت الإرساليات رواتب موظفيها على الدرجات . وكان مدرسو الأطفال فى مدارس الإرساليات هم الذين يأخذون أدنى الرواتب ، فى حين كان القساوسة فى الدرجة الممتازة . ولا يترقى مدرس الأطفال فى مدارس الإرساليات إلى درجة المعلم الدينى إلا بعد ست سنوات من الخبرة والعمل الشاق . ولقد كانت الإرساليات تدرب عمالها وموظفيها فى الكنائس وفى المدارس وفى حقل الدعاية التبشيرية على أخذ الرواتب القليلة بصفتهم مسؤولين دينيين وخدام الكلمة ليدخروا لأنفسهم أجرا كبيرا فى الآخرة .

وأما بالنسبة للحكومة فقد شجعت على احتراف مهنة التدريس بقرارها الذى أصدرته فى شئون التعليم سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م برفع أجور المدرسين وإعطاء الطلاب المتقدمين شهادات تشجيعية ذات قيمة معتبرة فى قطاع التعليم . وقد كانت الحكومة تختبر مستويات المدرسين العلمية قد رتهم على العمل . وقد وضعت شهادات علمية ذات ثلاث درجات تمنحها للمدرس بحسب الدرجات التى يحصل عليها فى الاختبار

المعقود لهذا الشأن • وبذلك استطاعت الحكومة أن تجعل وضع المدرسين الاقتصادى فى مستوى أحسن بكثير مما كانت عليه الحال عند الإرساليات التبشيرية • ولقد كان المبشرون يتهمون الحكومة دائما بالاتجاه نحو العلمانية اللادينية فى شئون الدولة بوجه عام وفى شئون التعليم بوجه خاص •

وهذه هى النقطة الأساسية التى كان يدور حولها النزاع القائم بين الحكومة وبين الإرساليات فى شئون التعليم • وإذا كانت الحكومة البريطانية تدعو إلى العلمانية فى بريطانيا للقضاء على طغيان الكنيسة ورجال الدين المتزمتين الذين وقفوا حجر عثرة فى طريق التقدم العلمى والحضارى فلم يكن من صالحها أن تتجه اتجاها علمانيا فى مستعمراتها • ولو أن الإرساليات لزمت حدود الاعتدال والكياسة فى جهودها نحو نشر المسيحية لما اعترضت الحكومة عليها بشيء لأن ذلك هدف مشترك يتكتل كلا الجانبين فى السعى وراء تحقيقه وإن كان نصيب كل منهما فى ذلك يتفاوت بالنسبة للآخر •

ولكن الإرساليات التبشيرية قد جعلت التعليم محدود الهدف والغاية وحرمت كل ما وراء ذلك الهدف وتلك الغاية من مقاصد وأغراض دنيوية • فقد كان التعليم كله فى نظر المبشرين مقصورا على تعريف الناس بالمسيحية وتفهيمهم التعاليم والمعتقدات المسيحية وغاية ذلك كله محدودة فى نطاق العمل فى الكنائس وفى مدارس الإرساليات وفى حقل التبشير • ولذلك رأينا المبشرين عندما لاحظوا أن أكثر الصابئين كانوا يقبلون على التعليم الغربى من أجل تحسين حالتهم المادية ورفع مستواهم الاجتماعى رأيناهم يعارضون ذلك معارضة شديدة حتى إن بعضهم لم يقف عند الحد المعقول وإنما تخطوه إلى معارضة فكرة إقامة المدارس نفسها • وكان على رأس هؤلاء الفئة الأب زابا(Father Zappa) رئيس جمعية الإرساليات الأفريقية • وقد قالوا " إن الهدف الأساسى من وراء التعليم فى وجهة نظر المسيحيين هو أن تقوم المدارس بإصلاح روحى وتهذيب

أخلاقى فى أولئك الصابئين الذين كانوا يردونها صباح مساء . وإن الإرساليات سترتكب جريمة كبيرة إذا لم توجه مدارسها نحو هذا الاتجاه . وكذلك المثقفون الأفريقيـــون الذين يستغلون علومهم ومعارفهم من أجل الحصول على المصالح المادية فى الخدمـات الاجتماعية التى لاتمت إلى أعمال التبشير بأى صلة". (١)

أما الحكومة فلم يكن اتجاهها علمانيا صرفا فى سياستها التعليمية كما اتهمتهـــا الإرساليات التبشيرية وإنما كانت تحاول أن تحد وتهدئ من حماسة المبشرين المفرطـــة ولم يكن للحكومة أن تعمل ضد مصالح المبشرين لأنها عرفت مالهم عليها من فضل فى تثبيت نفوذها السياسى والاقتصادى فى مختلف المناطق فى هذه البلاد . ولكنها كانـــت تحاول أن تلجأ إلى نوع من الاعتدال السياسى فى جميع شئونها فى المستعمرات تجنبـــا لاستثارة بغض الجماهير ، وخوفا من قيام رد فعل عنيف قد يؤدى إلى حدوث قلاقـــل ومشاكل لاتحمد عقباها . ولو أن الإرساليات التبشيرية استجابت لمطالب الحكومة منـــذ البداية وراعت مصالحها السياسية والاقتصادية بجانب الأهداف التبشيرية التى أنشئـــت المدارس من أجلها لما وقع نزاع كبير كهذا بين الجانبين . ولكن رغم هذا كله لم تستطـــع الحكومة أن تضع بمفردها خطة تعليمية فى تلك الفترة دون أن يكون للمبشرين دور بـــارز فى وضعها . وسبب ذلك أن شئون التعليم كانت فى أيدى الإرساليات . وقد قامـــت الحكومة نتيجة ضغط شديد من قبل الإرساليات بمراجعة قرار عام ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ م . فأصدرت قرارا آخر سنة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م يقضى بتقديم إعانات مالية كبيرة إلى مدارس الإرساليات على حسب نسبة مواظبة طلابها على التعليم بصفة عامة . وقد طلبت الحكومـــة مرة تقسيم شئون التعليم بينها وبين الإرساليات بحيث تتحمل الأولى مسؤولية الإشراف علـــى المدارس الثانوية والقيام بتنظيم شئونها وتحمل جميع نفقاتها وتقوم الثانية بإدارة شئـــون المدارس الابتدائية وتمويلها . ولكن الإرساليات رفضت هذا الطلب خوفا من أن تتخـــذ

(1) E.A.Ayandele, op.cit., P.288
see also J.M. Todd, op. cit., P.122

الحكومة هذه المدارس وسيلة لنشر أهدافها الدنيوية وتوجيه الطلاب توجيها علمانيا لا دينيا . وقد أذعنت حكومة جنوب نيجيريا الاستعمارية لرغبة الإرساليات هذه لك استطاع الطرفان أن يتوصلا إلى اتفاقية فى شئون التعليم سنة ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٢ م . وقد قررت الحكومة أن تكون للتعليم الدينى المسيحى مكانة بارزة فى منهاج الدراسة وأن تقوم الإرساليات بتزويدها بالموظفين ، وأن تفتح أبواب مدارسها لقبول الطلاب من كافة أنحاء المنطقة وأن تخفف من شروط القبول لئلا تنفر أصحاب الأديان الأخرى " المتعصبين " وخاصة المسلمين . إن النظم العديدة التى وضعت فى هذه البلاد فى عهد الاستعمار البريطانى إنما كانت وضعت لتنفيذ سياسة مرسومة بوضوح وإتقان .

ونستطيع أن نقول إن غاية هذه السياسة كانت ظهور الديانة المسيحية على الأديان كلها وتأمين سيطرة الثقافة الغربية والنظم الأوربية على النظم والحضارة القائمة فى البلاد سيطرة مطلقة من غير التفات إلى ما تتطلبه أصول التربية السليمة والعلم الصحيح ، فقد كانت تمطى للغة الإنكليزية وللشهادات الإنكليزية امتيازات هامة فى ذلك المجتمع الجديد الذى صنعته أيدى المستعمرين ورسل التبشير . ويجب أن نؤكد هنا أن الحكام البريطانيين لم يبدوا اهتماما كبيرا بشئون التعليم حتى العقد الثانى من القرن العشرين ، أى فترة حكم الحاكم لوغارد الثانية على هذه البلاد . ولم تبدأ الحكومة الاستعمارية بتأسيس المدارس فى المدن والقرى إلا بعد سنة ١٣١٨/ ١٩٠٠ م . وكان أول مدرسة ثانوية أسستها الحكومة هى كلية الملك التى تأسست فى مدينة لاجوس سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩ م " وحتى سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤ كانت نفقة الحكومة على شئون التعليم بالإضافة إلى إعاناتها المالية لمدارس الإرساليات تقدر بنسبة تزيد قليلا عن واحد فى المائة من مجموع ميزانية الدولة" (١) . وقد كانت سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م بداية الفترة التى تم فيها الاتفاق بين حكومة الحاكم

---

(1) E.A.Ayandele, op. cit., P.298

لوغارف الاستعمارية وبين الإرساليات التبشيرية حيث استطاعت الحكومة أن تحصل على موافقة الإرساليات على تحويل مدارسها من مدارس تبشيرية إلى مدارس مسيحية تقوم بتعليم الديانة المسيحية اللاطائفية فى المناطق الوثنية واتباع طريقة إنشاء مدارس حكومية فى المناطق الإسلامية التى لا يستطيع المبشرون أن يجاهروا فيها بأعمال التبشير . وقد وعدت الحكومة على أثر هذا الاتفاق بزيادة إعاناتها المالية للمدارس ومن أجل ذلك شكلت لجنة خاصة للمراقبة والتفتيش . وهذه اللجنة هى التى تقرر مقدار الإعانة المالية التى تعطى لكل مدرسة بعد الاطلاع على سير الأعمال فيها والوقوف على احتياجاتها . ويجب أن نفرق بين المدارس التبشيرية والمدارس المسيحية والمدارس الحكومية لنكون على بينة من أمر هذه المدارس الثلاث . ولقد سبقت المدارس التبشيرية أختيها تاريخيا ، وكان قيامها منذ بداية حركة التبشير الحديثة فى هذه البلاد سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م عندما قامت مختلف الإرساليات التبشيرية بتأسيس المدارس للناشئين الصغار . وكانت غاية كل جمعية تبشيرية تقرير مذهبها الخاص ونشر مبادئها ومعتقداتها بين طلاب مدارسها ، ومحاولة نقل الطلاب الذين كانوا يأتون إليها من المدارس الأخرى لإكمال دراستهم من مذاهب مختلفة إلى مذهبها هى . وأما المدارس المسيحية فقد جاءت لظروف خاصة كانت تقلق قادة حركة التبشير وتشكل عقبة كبيرة فى وجه تقدم أعمال التبشير فى تلك الفترة التى قامت فيها المدارس المسيحية ، وهذه الظروف هى ما كان بين الإرساليات التبشيرية من التنافس الشديد والتعصبات المذهبية والمشاكل الطائفية التى لم تكن مقصورة على المدارس التبشيرية فحسب وإنما كانت كذلك فى الكنائس والمراكز التبشيرية .

وقد كانت المدارس التبشيرية المسيحية تحاول أن تهيئ لطلابها ـ بصرف النظر عن مذاهبهم ـ جوا مسيحيا وتحملهم على ممارسة المبادئ المسيحية والسلوك المسيحى وبذلك يتبين لنا أن لكلا المدرستين التبشيرية والمسيحية رسالة خاصة كانت كل واحدة منهما تسعى جاهدة إلى تحقيقها . ولكن الغاية القصوى من الرسالتين هى

جعل شعوب البلدان المستعمرة كلها تابعة للكنيسة وخاضعة لنفوذ الاستعمار . من أجل ذلك كله كانت الإرساليات ترفض رفضا باتا أن تتقيد بالخطة التعليمية التى وضعتها الحكومة لأنها عرفت أن تقييد مدارسها بالمناهج الحكومية يفقدها صفتها التبشيرية والمسيحية ، ويجعلها فى عداد المدارس الحكومية الوطنية . وبذلك تبطل الغاية الكبرى من وجودها . وأما المدارس الحكومية التى تقام فى البلاد التى تكثر فيها المدارس التبشيرية والمدارس المسيحية فإنها لاتتشدد فى تعليم الدين بل قد تتظاهر بالتساهل فيه حتى لاتنفر أحدا من المواطنين . وحتى لا يحمل بعضهم كرها لبعض ، ولم تكن هناك أى مصلحة تعود على الحكومة فى التحزب الدينى الذى كان ظاهرا فى المدارس التبشيرية المسيحية ، لأن ذلك من شأنه أن ينفر مجموعة كبيرة من الشعب من الإقبال على التعليم وفى ذلك ضرر كبير للحكومة التى كانت تسعى جاهدة لإخضاع الشعب كله لنفوذها الاستعمارى وفيه ضرر أيضا بالنسبة لتقدم أعمال التبشير بين المسلمين المتعصبين كما يسمون المسلمين الواعين اليقظين .

ولكن رغم كل ماذكرناه من أمر المدارس الحكومية فقد رأى المبشرون فيها ثغرة أخرى يستطيعون أن ينفذوا من خلالها إلى غرس العقيدة المسيحية فى قلوب طلابها . ومن المعروف أن التعليم الغربى نفسه قوة تبشيرية كبيرة حتى وإن لم يستخدم هذا التعليم فى الظاهر لأغراض تبشيرية ، وذلك لارتباطه الوثيق بالديانة المسيحية ولما يحمله فى طياته من أفكار مسيحية . وقد رأينا كيف مكنت المدارس الحكومية المبشرين - بتظاهرها بمعارضة التحزب الدينى - من الوصول إلى أولئك الأطفال الذين امتنع آباؤهم من ادخالهم فى المدارس التبشيرية المسيحية فرارا بدينهم وعقيدتهم . وقد استطاع المبشرون فى هذه الناحية أن ينصروا بعض هؤلاء الأطفال وأن يبعدوا البعض الآخر عن دينهم حتى وإن لم يدخلوهم فى المسيحية وكلا الأمرين من جملة ماتهدف إليه أعمال التبشير . وهكذا فتحت مدارس الحكومة أمام المبشرين آفاقا جديدة لم ينتبه لها الناس فى أول الأمر ، وتلك هى نتائج كثير من الخطط الموضوعة فى شئون التعليم .

وفى سنة ١٣٣١ هـ / ١٩١٢ م كانت المدارس الابتدائية الموجودة فى جنوب نيجيريا وستعمرة لاجوس تنقسم إلى ثلاثة أقسام . القسم الأول هو المدارس التى أسستها الحكومة الاستعمارية والإدارات المحلية . وكان عددها خمسا وخمسين مدرسة وتضم نحو ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربعة وثمانين طالبا وطالبة وهو عُشر مجموع عدد الطلاب الذين كانوا يتلقون التعليم فى المدارس التبشيرية .

والقسم الثانى هو المدارس التبشيرية التى كانت تتلقى إعانات مالية من الحكومة الاستعمارية وكان عددها إحدى وتسعين مدرسة وكانت تضم نحو أحد عشر ألفا وسبعمائة واثنين وثلاثين طالبا وطالبة (١١٧٣٢) . وبالإضافة إلى ذلك يوجد عشرون ألف طالب وطالبة فى المدارس التبشيرية التى لم تكن تتلقى إعانات مالية من الحكومة . وأما بالنسبة للمدارس الثانوية فلم تكن للحكومة سوى مدرسة ثانوية واحدة بينما كانت هناك أربع مدارس تبشيرية ثانوية كانت تتلقى مساعدات مالية من الحكومة وخمس مدارس ثانوية أخرى كانت على نفقة الإرساليات التبشيرية ولم تكن تتلقى أى إعانة مالية من جانب الحكومة . وبينما لم تؤسس الحكومة مدرسة واحدة لإعداد المدرسين والموظفين فقد كانت للإرساليات التبشيرية ثلاث مدارس مهنية كانت واحدة منها فقط هى التى تتلقى مساعدة مالية من الحكومة . وفى السنوات ما بين سنة ١٣٣١ هـ / ١٩١٢ م وسنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م ارتفع عدد المدارس التبشيرية التى لم تكن تتلقى إعانات مالية من الحكومة إلى ثلاث آلاف وخمسمائة وثمان وسبعين مدرسة وكانت تضم نحو مائة وستا وأربعين ألفا وسبعمائة طالب وطالبة (١٤٦٧٠٠) .

وقد ذكر أن الخطة التعليمية التى وضعها الحاكم لوغارد سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م كان من شأنها أن تؤدى إلى تحول ملموس فى شئون الاقتصاد فى المدن الكبرى وإلى تطوير شئون الحياة فى القرى والأرياف حتى ترتفع إلى مستوى الحياة الريفية فى أوربا . وقد أكدت الخطة ضرورة إقامة المدارس فى جميع القرى فى شتى أنحاء البلاد لتعليم أبناء الفلاحين القراءة والكتابة والحساب وذلك ليتمكنوا من فهم قانون الدولة

والمسائل القضائية التى ستقضى فيها المحاكم المحلية . ويجب على هذه المدارس أن تعطى طلابها معلومات أولية فى شئون الزراعة ليعرفوا كيفية المناوبة بين المحاصيل فى الحقل الواحد مع بقاء خصوبة الأرض كما هى ، وليعرفوا كذلك طريقة تسميد الأرض وزراعة المحاصيل التى لها رواج اقتصادى . وقد أكدت خطة الحاكم لوغارد التعليمية وجوب بقاء المدن مراكز هامة للتعليم النظرى الكتابى لإعداد الموظفين والمدرسين الذين كانت البلاد فى مسيس الحاجة إليهم فى تلك الفترة . وقد ذكروا أن سبب عدم قيام الحكومة الاستعمارية بتنفيذ خطتها الموضوعة لتوسيع نشاطها التعليمى فى هذه البلاد كان يرجع إلى نشوب الحرب العالمية الأولى التى أدت إلى قيام أزمات اقتصادية وسياسية فى شتى أنحاء العالم . وفى بعض مدن هذه البلاد كانت الحكومات المحلية تشارك الإرساليات التبشيرية فى جهودها فى ميدان التعليم ، وفى بعض المناطق كانت الإرساليات هى التى تحملت كافة الأعباء ووفرت للناس وسائل التعليم . ولم يكن نصيب الحكومة الاستعمارية والإدارات المحلية فى حقل التعليم يعد شيئا فى جانب ما يعزى إلى الإرساليات من الأعمال والمجهودات فى هذا المضمار . وفى سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م شكلت إدارة شئون المستعمرات البريطانية لجنة استشارية لوضع مذكرة فى شئون التعليم فى بلدان المناطق الاستوائية التابعة للحكومة البريطانية وقد قررت هذه اللجنة أن يكون حق توجيه السياسة التعليمية والإشراف على كافة المؤسسات التعليمية فى يد الحكومة الاستعمارية . وكذلك قررت أن تقوم الحكومة بدعم وتشجيع الجهود الشخصية التى تساهم فى تقدم نشاط التعليم . ثم أوصت بضرورة تشكيل لجنة استشارية خاصة لشئون التعليم فى كل مستعمرة من المستعمرات البريطانية فى غرب أفريقيا . وعلى ضوء هذه المذكرة وضعت إدارة شئون المستعمرات البريطانية سياستها الجديدة فى شئون التعليم فى المستعمرات . وقد كانت هذه السياسة الجديدة مبنية على أساس توجيه التعليم للتنمية الاجتماعية والاقتصادية طبق ما يحقق للحكومة الاستعمارية مصالحها السياسية ومطامعها الاقتصادية . وقد كانت الحكومة

الفدرالية والحكومات الإقليمية التى خلفت الحكومة الاستعمارية تسير على خطى السياسة المرسومة لها منذ عهد الحكم الاستعمارى ، وقد اتخذت القرارات والتوصيات الواردة فى مذكرة تلك اللجنة نبراسا تستنير به فى وضع خططها التعليمية منذ استقلال البلاد .
وقد كانت الحكومة الاستعمارية منذ سنة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م حتى سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م التى حصلت فيها البلاد على الاستقلال .. تعمل فى تطوير شئون التعليم على أساس جعل المدرسة مؤسسة اجتماعية تخدم فى تنمية الحالة السياسية والاقتصادية ويكون لها أثرها الكبير فى تغيير شئون الحياة فى هذه البلاد . وأما بالنسبة لتقدم التعليم الغربى فى المناطق الإسلامية فى شمال البلاد فقد استمر عداء جماهير المسلمين لهذا النوع من التعليم ، ولم يكن ذلك بسبب خوفهم من آثار التعليم الغربى فى إفساد عقيدتهم الدينية فحسب ، وإنما كانت هناك كراهية عامة متأصلة لكل شىء له طابع غربى وذلك لأن الدول الغربية كانت ذات اتجاهين قد يبدوان متناقضين فى ظاهرهما ، ولكنهما على أى حال معاديين للإسلام .

فهذه الدول تتظاهر بالمسيحية وتعمل على نشرها وإظهارها على الأديان كلها وفى مقدمتها الإسلام . وفى الوقت نفسه هى لادينية فى اتجاهاتها وكلا الأمرين خطر كبير يهدد كيان الإسلام ويتربص بالمسلمين الدوائر . ومنشأ هذا التناقض الظاهرى أن أوربا لا ترى بأسا فى أن تكون علمانية (أى لادينية) فى شئون الحياة العملية ، ولا ترى هذا مناقضا للدين فى مفهومه الكنسى ، وهو أنه علاقة خاصة بين العبد والرب ، محلها القلب ولا صلة لها بواقع الحياة ! أما من وجهة النظر الإسلامية فإن الدين ينبغى أن يحكم شئون الحياة كلها ، وليس عقيدة منفصلة عن الحياة العملية . إن وجود مجموعة كبيرة من المدارس الإسلامية فى المناطق الإسلامية فى شمال هذه البلاد وارتباط جماهير المسلمين الوثيق بها قد أدى إلى فشل محاولات الحكومة الاستعمارية لنشر التعليم الغربى فى هذه البلاد فى تلك الفترة . وقد كان للغة العربية والتعليم الإسلامى أهمية كبيرة ومكان بارز فى منهاج الدراسة بالإضافة إلى ما يحيط بالأجواء المدرسية من المظاهر

الإسلامية السائدة في المجتمع في شتى مرافق الحياة • وقد كانت تلك المدارس الإسلامية تقدم لطلابها العلوم الإسلامية والعربية ، وكانوا يقومون بحفظ القران الكريم ودراسة علم التفسير والحديث والفقه والتوحيد واللغة العربية وعلم المنطق وما إلى ذلك • وتتراوح مدة التعليم بين ثماني سنوات واثنتى عشرة سنة أو أكثر لمن يريد أن يتخصص لمنصب القضاء والتدريس • قال ل • ج لويس L.J. Lewis : " لقد دلت إحدى الاحصائيات على أن عدد المدارس الإسلامية الموجودة في شمال نيجيريا سنة ١٣٣٢ هـ / ١٩١٣ م • يقدر بتسع عشرة ألفا وثلاث وسبعين مدرسة (١٩٠٧٣) وكانت تضم نحو (١٤٣٣١٢) مائة وثلاثة وأربعين ألفا وثلاثمائة واثنى عشر طالبا وطالبة" [1] • ولقد عقد مؤتمر في مدينة كاتشينا Katsina سنة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م تحت رعاية الحكومة الاستعمارية أبدى فيه المؤتمرون اهتماما بالغا بموضوع تدريب القضاة المحليين على الأسس القضائية الجديدة بواسطة استخدام اللغات المحلية وكذلك محاولة تكييف التعليم عامة حسب الظروف الاجتماعية القائمة في البلاد • وقال الحاكم العسكرى البريطاني في مقالته الافتتاحية التى قرأها على المؤتمر : " لقد كان لجهودنا الكبيرة في ميدان التعليم أثر قليل جدا في الوقت الحاضر في شئون حياة الشعب الشمالى الذى يقدر عدده باثنى عشر مليون نسمة • وقد كان من مهمة هذا التعليم أن يشكل شعب هذه البلاد في قالب جديد بحيث تتحول شئون حياته إلى أسلوب آخر أكثر مرونة وحيوية • وإننا واثقون بأن هذا التشكيل والتحويل سيتم يوما من الأيام • وقد يكون ذلك في المستقبل القريب • وتقدر نسبة المسلمين من هذا الشعب بسبعة وستين في المائة • ومهما كان أبناء المسلمين الذين يأتون إلى مدارسنا صغارا فإن قلوبهم قد تشكلت مبكرا بالنفوذ الإسلامى الذى سيرافقهم طول حياتهم" [2]. وبما أن القضاة هم المسؤولون المحليون الذين يرجع الناس إليهم في معرفة الشريعة الإسلامية وأحكام المسائل والمعاملات التى تستجد عليهم ، فإن لهؤلاء القضاة

(1) L.J. Lewis op. cit., P.29

(2) J.D. Clarke, Omu: An African Experiment in Education, London, 1937, P.7

أو العلماء على الأصح دورا كبيرا سيلعبونه فى حل المشكلة التى تواجه التعليم الغربى فى الشمال لأنهم هم الذين يستطيعون أن يقرروا ما إذا كان هذا التعليم الجديد صالحا أو غير صالح ، دينيا أو غير دينى ، مفيدا أو غير مفيد . " وإذا كان لدى هؤلاء القضاة روح التسامح وكانوا من النوع الذى تنفتح أذهانه لتقبل الأفكار والآراء الجديدة فلا نجد صعوبة كبيرة فى تحقيق التقدم فى عملية تشكيل الناشئين الصغار فى قوالب جديدة وتحويل أفكارهم واتجاهاتهم لأنهم سينظرون إلى أولئك العلماء وإلى آرائهم .. " إلى أن قال " يجب علينا أن نبدأ أعمالنا ببذل أقصى جهودنا فى تعليم طبقة العلماء وتثقيفهم أو على الأقل محاولة التأثير فى بعضهم قبل أن نقدم على محاولة إدراج المدارس الإسلامية فى برامجنا التعليمية "(١). وقد ظل عداء الأمراء المسلمين للتعليم الغربى والثقافة الغربية يقف حائلا دون تقدمه وانتشاره فى شمال نيجيريا . وعلى سبيل المقارنة كانت فى شمال نيجيريا سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧م ثلاث مدارس ثانوية فقط ، وما يزيد قليلا على ألف ومائة مدرسة ابتدائية . بينما توجد فى المناطق الجنوبية ثلاث وأربعون مدرسة ثانوية وما يقارب خمسة آلاف مدرسة ابتدائية . وكان أثر ذلك أن الوظائف الهامة فى المناطق الشمالية فى الخدمات الشعبية والشركات التجارية كان يشغلها خريجو المدارس التبشيرية من أبناء المناطق الجنوبية ، بينما كانت المناصب العليا فى الدوائر الحكومية فى أيدى الخبراء الأوربيين والسيراليونيين والهنود الغربيين . وقد ذكر أن تسعين فى المائة من الموظفين الأفريقيين الذين كانوا يشتغلون فى مختلف الإدارات المحلية فى شمال نيجيريا سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م وما بعدها كانوا من المثقفين الجنوبيين ومن رعايا الدول الأفريقية المجاورة . وأما بالنسبة للتعليم العالى فلم تكن لدى الإرساليات التبشيرية رغبة فى توفير التعليم العالى لشعب هذه البلاد وقد كانوا يقولون دائما إن التعليم العالى يجعل الصابئ يتجه

---

(1) Nigeria Northern Provinces, Education Conference, March 1928 (Govt. Press, Kaduna, 1928) Pp.16-18

بقلبه وقالبه نحو الاتجاه العلماني اللاديني وفي ذلك ضرر كبير على أعمال التبشير .
وحتى سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م التي تأسست فيها كلية يابا للتعليم العالي (YABA HIGHER COLLEGE) في مدينة لاجوس لم تقم الحكومة الاستعمارية نفسها بتوفير التعليم العالي لأهالي هذه البلاد . قد كانت تلك الكلية تقدم التعليم العالي لطلابها في الطب وعلم الزراعة وفي الهندسة ، وكذلك كانت تقوم بإعداد المدرسين على مستوى عال لم يتوفر مثله في أي مكان آخر في جميع أنحاء البلاد .

وقد شكلت الحكومة الاستعمارية لجنة سنة ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م لدراسة إمكان إنشاء الجامعات ووضع قرارات وتوصيات حول توفير التعليم العالي فيما يتعلق بمناهج الدراسة في الكليات والدراسات العليا . وكذلك دراسة إمكان وضع هذه الجامعات الجديدة تحت إشراف إحدى الجامعات الراقية أو المؤسسات العلمية الأخرى في المملكة المتحدة ، لتعمل مع هذه الجامعات في سبيل تنفيذ تلك القرارات والتوصيات . وفي سنة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨ م نقلت كلية يابا للتعليم العالي إلى مدينة إبادن لتكون النواة الأولى للجامعة الجديدة . وبعد فترة قصيرة من الزمن أصبحت هذه الكلية جامعة كبيرة ذات فروع كثيرة في أنحاء البلاد ، ووضعت مسؤولية تنظيم شئونها الإدارية والتعليمية تحت إشراف جامعة لندن . ولقد كانت تلك الجامعة الجديدة في أيامها الأولى تسعى جاهدة للحصول على اعتراف دولي لتدخل في عداد الجامعات الراقية في العالم ، شأنها في ذلك شأن الجامعات الباقية التي قامت في هذه البلاد بعد تأسيس الأولى ، ثم إن هذه الجامعات كانت تريد أن تجعل طلابها أشباهاً للبريطانيين في العلم والثقافة وفي أسلوب التفكير وفي الاتجاه والسلوك . ولذلك بذلت أقصى المجهودات في رفع مستوى هذه الجامعات إلى مستوى الجامعات البريطانية لئلا يفضل خريجو الجامعات البريطانية من أبناء أفريقيا على أقرانهم الذين تلقوا تعليمهم العالي في جامعات البلاد في شيء اللهم إلاّ في كون الأولين قطعوا الفيافي إلى عالم ما وراء البحار . ولقد كانت جامعات البلاد تضم أقساماً مختلفة : قسم

الآداب والعلوم وقسم التاريخ والهندسة والجغرافيا والعلوم التطبيقية والطب وعلم الاجتماع والحقوق والقانون والتربية وما إلى ذلك، ومناهج الدراسة فى هذه الأقسام هى نفس المناهج المقررة فى الجامعات البريطانية من دون ما زيادة ولا نقصان. ولئن كانت هذه الجامعات الجديدة قد نبتت على أرض هذه البلاد وظللتها سماؤها وكانت نفقاتها تستخلص من خيرات هذه البلاد الوافرة ومن خلاصة عرق جبين أبنائها الكادحين فإنها لم تكن جامعات نيجيرية فى واقع الأمر وإنما كانت جامعات بريطانية وأميريكية من حيث الاتجاه ومحتويات التعليم. ويستطيع النيجيريون أن يحصلوا على درجات علمية ذات قيمة عالمية دون أن يعرفوا عن شئون بلادهم ما يعرفونه عن أوربا. ومن المعروف أن الجامعات الأميريكية والبريطانية كان لها طابعها الخاص وتنظيمها الملائم للبيئة والظروف القائمة هناك. وإن التعليم الذى تقدمه تلك الجامعات كان أميريكيا وبريطانيا فى الاتجاه والمحتويات. وإذا سارت جامعات البلاد على خطى تلك الجامعات الأوربية فمعنى ذلك أنها كانت تريد أن تبدل شعب هذه البلاد غير الشعب وتغير شئونه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية لتعود البلاد صورة معكوسة للدول الأوربية وكأنما هى قطعة من أرض أوربا فصلت منها وألقيت على أرض أفريقيا. وإن المتتبع للغزو الفكرى الذى يشكل التعليم الغربى فى شتى مراحله وأقسامه ركنا أساسيا منه، يرى آثاره الكبيرة فى عملية الهدم والتحويل والتشكيل التى شملت جميع مرافق الحياة فى المجتمعات الأفريقية. ومع بداية قيام الحركة الوطنية كانت هناك دعوة فى أوساط المثقفين الأفريقيين تنادى بضرورة تكييف التعليم الغربى حسب الظروف المحلية لإبراز الحالة الاجتماعية والسياسية والدينية القائمة فى هذه البلاد قبل دخول الاستعمار والتبشير. وفى ذلك يقول ل. ج لويس (L.J. Lewis)

" وقد رأت الحكومة الاستعمارية والإرساليات التبشيرية ضرورة هذا التكييف عند وضع البرامج التعليمية " منذ خمسينات هذا القرن ".. قد بذلت كلتاهما جهودا كبيرة فى هذا السبيل حتى استطاع التعليم الغربى أن يحفظ جميع المبادى الأساسية

من تقاليد البلاد ونظمها الاجتماعية وفى نفس الوقت بقى كذلك وسيلة قوية لتحقيق التقدم والازدهار.(١) »

وقد وجدت هذه الدعوة آذانا صاغية فى صفاف المثقفين الأفريقيين ، وإن كان كثير من المسؤولين الأجانب وبعض المثقفين النيجيريين يعارضون بشدة إدراج معارف البلاد من حضارة ونظم اجتماعية فى مناهج التعليم العالى . وكانوا يحتجون دائما بأن معارف البلاد كانت بالية ليس فيها مايستحق أى اهتمام من جانب طلاب الكليات . قال ل . ج لويس L.J. Lewis : "قد فات هؤلاء القوم أن المثقفين الأفارقة الذين حملوا على أكتافهم مسؤولية تفجير الثورة الاجتماعية التى تؤدى إلى تغيير أسلوب الحياة القديمة فى المجتمعات الأفريقية المتخلفة إلى أسلوب الحياة الأوربية المسيحية المتحضرة إذا لم يكن لديهم معلومات وافية عن شئون مجتمعاتهم المحلية فلا يتم لهم ماكانوا يسعون وراءه.(٢) » وبالإضافة إلى ماكانت جامعات البلاد تقدمه بواسطة برامجها التعليمية وأقسامها المختلفة والدورات التدريبية التى تقام فيها وما توفره من الإمكانات فى مجال إعداد البحوث العلمية وفى إقامة المؤتمرات والندوات العلمية ، فقد انفتحت أمامها مجالات أخرى بسبب قيام حركة تكييف التعليم حسب الظروف المحلية وأصبح لزاما عليها أن تقوم بإعداد البحوث العلمية فى الدراسات الأفريقية وبإجراء بعض التعديلات والتنظيمات فى مناهج الدراسة لتلائم البيئة والظروف الاجتماعية السائدة فى البلاد .

« وإذا أريد أن يستقر أمر الجامعات فى أفريقيا الاستوائية فإن أول خطوة نحو ذلك هو دراسة شئون المجتمعات الأفريقية وطريقة تغيرها تحت نفوذ الدول الغربية . ويجب اعتبار هذه الدراسة مادة إلزامية ضمن منهاج الدراسة لامجرد مادة اختيارية .

(1) L.J. Lewis, op.cit., P.69
(2) Ibid P.113

إن الخطر الذى يهدد غرب أفريقيا يشبه الخطر الذى تعانى منه بلاد الهند ٠ وإن التفاوت الكبير القائم بين المفكرين الجدد وبين جماهير الشعب سيزداد يوما بعد يوم فى الاتساع والعمق حتى يستفحل خطره فى النهاية بحيث لاتنفع صلة القرابة ولا الولاء القومى فى لمّ شعث المجموعتين". (١) وعلى الرغم من أن الجامعات هى المصدر الوحيد الذى كان ينبغى أن تتوفر فيه المعلومات القيمة التى ترتكز عليها هذه التغييرات والتعديلات فى عملية وضع المناهج الجديدة التى تسير عليها المدارس بشتى مراحلها وأنواعها إلّا أن هذه الجامعات كما سبق أن قلنا كانت أجنبية على البلاد التى أقيمت جدرانها فوق أرضها لأنها كانت تخرج سنويا مجموعة كبيرة من أبناء هذه البلاد يعرفون كل مايتعلق بشئون بريطانيا سياسيا واجتماعيا وتاريخيا واقتصاديا فى حين لا يعرفون عن شئون بلادهم إلّا قليلا ٠ وقد أبدت جامعة إبادن وجامعة مدينة إيفى وكذلك بقية الجامعات ـ اهتماما كبيرا بتنمية برامج البحوث العلمية فى مجال الدراسات الأفريقية فى التاريخ والشئون الاجتماعية والجغرافيا ودراسة اللغات المحلية ودراسة الأديان الوثنية الموجودة فى البلاد والحضارة الأفريقية القديمة وما إلى ذلك ٠ وبذلك استطاعت هذه الجامعات أن تسهم فى إدخال بعض التعديلات فى مناهج الدراسة فى مختلف المراحل التعليمية ٠ وقد كانوا يقولون " إن المؤسسات العلمية العالية فى هذه البلاد لاينبغى أن تكون فقط مراكز لنشر الحضارة الغربية والثقافة الأوربية كما هو شأن الجامعات الراقية ، بل يجب أن تكون مؤسسات مهنية فى هدفها ونيجيرية فى محتويات التعليم الذى تقدمه لطلابها ." (٢) ولكن ياترى هل بإمكان

---

(1) Sir. Eric Ashby, Functions of Universities in the West African Intellectual Community, Ed. J.T. Saunders and M. Dowuona. London (Ibadan University Press, 1962) P.55

(2) Quoted in L.J. Lewis, op. cit., P.112 from " Eastern Region of Nigeria, University of Nigeria: Progress Report (Government Printer, Enugu, 1960) P, 3

جامعات البلاد أن تعمل فى معزل من نفوذ الحضارة الغربية لتبرز معارف البلاد فى صورتها الحقيقية ؟ إن التعليم الغربى فى هذه البلاد سواء قبل حركة تكييفه حسب الظروف المحلية أو بعدها وفى شتى مراحله وأشكاله كان بلا شك استعمارى الهدف وصليبى الغاية وفى بعض الأحيان وتحت ظروف خاصة يوجه هذا التعليم نحو الاتجاه العلمانى اللادينى • وإن المدارس الأجنبية كانت تعلم الأفريقيين العلوم الغربية والتعاليم المسيحية وتخرج لنا أناسا قد انبهرت نفوسهم بالحضارة الأوربية أيما انبهار • وأصبحوا ينظرون إلى المجتمعات الأفريقية التى كانت فى حالة من التأخر والانحطاط والجهل والفقر قبل دخول الحضارة الغربية إليها نظرة احتقار وازدراء • وقد كان المثقفون الجدد يسعون جادين ليروا كل شيء فى المجتمع الأفريقى وهو آخذ فى طريقه فى التحول والتبدل تحت نفوذ الحكم الأجنبى ليلحق بركب الحضارة الغربية • وإذا كان هذا هو شأن التعليم الغربى وأهدافه وغاياته ، وتلك هى طبيعة المدارس الأجنبية ومهمتها ، وكان ذلك هو حال المثقفين الجدد ، فكيف ننتظر من رجال الاستعمار ورسل التبشير أن يستجيبوا لتلك الدعوة ويدرجوا معارف البلاد فى البرامج التعليمية بطريقة ترفع من شأن هذه المعارف وتبرز خصائصها ومميزاتها وخاصة فى المناطق الإسلامية التى قامت فيها الحضارة وازدهر فيها العلم قبل دخول الحضارة الغربية إليها بقرون كثيرة ؟

إن البحوث والرسائل التى تقدمها جامعات البلاد حتى الآن فى الدراسات الأفريقية كانت تصور أفريقيا فى صورة من التخلف العلمى والحضارى فى جانب ما أحرزته الدول الغربية فى العصور الحديثة من التقدم والازدهار فى مضمار الحياة • وكان الهدف من وراء هذه الحركة إظهار خصائص ومميزات الحضارة الغربية لتبقى على مدى الحياة هى المسيطرة والمتحكمة فى كيان الأمم الأفريقية • وإذا نظرت إلى القارة الأفريقية اليوم رأيت آثار الحضارة الأوربية واضحة جلية فى كل ناحية من نواحى الحياة • ورغم قيام الحركة الوطنية التى آلت إلى الاستقلال السياسى فكأن الحكم

الاستعمارى الأوربى مايزال قائما على قدم وساق فى القارة الأفريقية . وإذا كانت جيوش الاحتلال الأوربى قد تولت عن القارة الأفريقية مدبرة فإن الغزو الفكرى الأوربى مايزال هو المسيطر على جميع مرافق الحياة فى أفريقيا .

ورد فى أحد منشورات وزارة الاعلام النيجيرية الصادرة عام ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م . أن عدد المدارس الابتدائية الموجودة فى جميع أنحاء البلاد سنة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م . يقدر بخمس عشرة ألفا وثلاثمائة وأربع وعشرين مدرسة (١٥٣٢٤) وكذلك توجد فيهما ألف ومائتان وأربع وثلاثون مدرسة ثانوية (١٢٣٤) وسبع وستون مدرسة صناعية (٦٧) ومائة وتسع وستون مدرسة لإعداد المدرسين (١٦٩) وست جامعات . ولقد زاد عدد هذه المدارس زيادة كبيرة حتى عمت جميع المدن والقرى القريبة والبعيدة . وقد بلغ عدد الجامعات الموجودة حاليا فى أنحاء البلاد ثلاث عشرة جامعة وكلها تتجه نحو الاتجاه العلمانى اللاديني . وإذا كان يوجد فى بعضها مراكز لتعليم اللغة العربية لإعداد المدرسين الذين يتولون تدريس مادة اللغة العربية والتعليم الإسلامى فى المدارس الابتدائية والثانوية الإنكليزية ، كما توجد فى بعضها أيضا أقسام للدراسات العليا العربية على مستوى دراسة الماجستير والدكتوراه ، إلّا أن الدراسة فى هذه الأقسام كانت على أساس مجرد اعتبار اللغة العربية إحدى اللغات الحية فى العالم وكونها داخل نطاق الدراسات الشرقية . ولذلك فتحت هذه الأقسام أبوابها لقبول الطلاب المسيحيين والوثنيين بجانب الطلاب المسلمين . والغريب جدا أن لهؤلاء الطلاب المسيحيين والوثنيين إقبالا عجيبا على الدراسات العربية لم يوجد مثله فى صفوف أبناء المسلمين أنفسهم . وبعد فترة قصيرة من الزمن وجد من بين هؤلاء المسيحيين والوثنيين من يحسن القراءة والكتابة باللغة العربية ويحفظ بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويعرف الشئ الكثير من التاريخ الإسلامى . ولقد استطاع بعضهم أن يؤلف كتبا ورسائل عديدة فى بعض الموضوعات الإسلامية الخطيرة وكانوا يتصدون دائما للنقاش والجدال فى بعض المسائل الدينية يستدلون

بالآيات والأحاديث لترجيح آرائهم ومعتقداتهم فيها . وقد كان خطر هؤلاء الناس على عوام الناس من المسلمين كبيرا جدا ، لأنهم لم يكن يخالجهم أدنى الشك فى أمر كل من يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية على أنه من زمرة المسلمين المخلصين وخاصة إذا قرأ أمامهم آية قرآنية أو روى لهم حديثا نبويا .

وقد ذكر لى الأستاذ عبد السلام أولاتندى (١) أنه كان يحاضر الطلاب المسلمين يوما فى جامعة لاجوس فجرى بينه وبين أحد خريجى قسم اللغة العربية بجامعة إبادن نقاش حول قصة مريم وكان الرجل مسيحيا ويحفظ عن ظهر قلب كثيرا من الآيات الواردة فى القرآن فى شأن المسيح عيسى وأمه . ثم ذكر الأستاذ أن ذلك المسيحى قال له : إن القرآن قد أثبت أن المسيح عيسى كان ابنا لله . واستدل على ذلك بآيات كثيرة من جملتها قوله تعالى " ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا "(٢)... الآية . ثم ذكر تفاصيل ذلك النقاش وكيف دحض مايتمسك به ذلك الرجل من الحجج الواهية ثم تناول الآيات التى كان يستدل بها وأوفاها شرحا وتوضيحا . وقد تبين من خلال هذا النقاش أن ذلك المسيحى كان على جهل مطبق باللغة العربية وعلوم القرآن والأحاديث النبوية . ولكن لو التقى مثل هذا الرجل بمسلم عادى لايعرف اللغة العربية ولا يفهم معانى الآيات القرآنية ووقف أمامه مثل هذا الموقف ، ألا يكون له تأثير كبير فى تغيير أفكار ذلك المسلم العادى ومعتقداته ؟

نعود بعد ذلك إلى دراسة السياسة التعليمية المتبعة فى كل من المناطق الجنوبية والمناطق الشمالية الإسلامية لنلقى نظرة فاحصة على أسباب اختلاف هذه السياسة بعضها عن بعض ، وبين الأجواء والظروف المحلية التى كان المستعمرون والمبشرون يتذرعون بها فى تبرير خططهم المتباينة فى كلا المنطقتين . ولنكشف فى النهاية النقاب عن الأهداف الكامنة وراء ذلك كله . لقد ذكرت فيما سبق أن المبشرين كانوا قد دخلوا إلى المناطق الجنوبية

---

(١) هو أحد المثقفين المسلمين المعاصرين له جهود كبيرة فى سبيل الدعوة الإسلامية فى مدينة لاجوس العاصمة . ويقوم بنشر التوعية الإسلامية عبر أحاديثه ومحاضراته القيمة التى يلقيها فى إذاعة وتليفزيون المدينة .

(٢) سورة التحريم . [١٢]

الوثنية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى وبينت الظروف المحلية القائمة فى تلك الفترة، والتى مهدت الطريق أمام توغلهم وفتحت أبواب المنطقة على مصاريعها أمام أعمال التبشير ، فانتشرت أوكار المراكز التبشيرية والكنائس المسيحية ومدارس الإرساليات فى كثير من المدن والقرى . ولقد كان المبشرون طلائع جيوش الاحتلال البريطانى، فما إن دخلوا أرض البلاد وتناثروا فى أرجائها واكتشفوا فيها الأماكن الحساسة وأحرزوا بعض التقدم فى أعمالهم حتى جاءت على أثرهم جيوش الاحتلال البريطانى فأخضعت شعب الجنوب بقوة السلاح ، وفرضت سيطرتها السياسية والاقتصادية على هذه البلاد وأفسحت المجال أمام الإرساليات التبشيرية لتنفيذ مخططاتها الصليبية وأعطتها كل دعمها وتأييدها ، فانتشرت المسيحية بين الأهالى، ولم تمض فترة طويلة حتى ظهرت آثار الحضارة الأوربية المادية فى تلك المجتمعات الأفريقية المتخلفة، فازدهرت فيها الحياة وانفتحت أمام شعب هذه البلاد آفاق جديدة لم يكن لهم عهد بها من قبل ، فأدى ذلك بطبيعة الحال إلى الإقبال الشديد على اعتناق المسيحية والانبهار بالحضارة الغربية، والخضوع المذل للنفوذ الأجنبى المتوغل . هذه هى حال المناطق الجنوبية الوثنية بالنسبة لدخول التبشير وتقدم أعماله فيها . قد كانت الدعايات التبشيرية تتوغل وتزحف داخل هذه المناطق دون أن تلقى مقاومة عنيفة من جانب الوثنيين ، أللهم إلاّ ماكان نتيجة الحماسة الطائشة من جانب بعض المبشرين المتهورين . كانت المنطقة مرتعا خصبا لأعمال التبشير ومراكز هامة انطلق منها أولئك المبشرون المحليون الأوائل الذين ساعدوا فى دفع عجلة حركة التبشير إلى الأمام فى كافة أرجاء البلاد . وإن ذلك كله لمما يفسر لنا سبب ذلك الاهتمام الكبير الذى أولاه المبشرون للقسم الجنوبى فى ميدان التبشير بوجه عام وفى حقل التعليم بوجه خاص .

إن المناطق الجنوبية تتكون من الإقليمين الغربى والشرقى ومنطقة لاجوس وكان يوجد فى كثير من المدن الكبرى وبعض القرى فى الإقليم الغربى ومنطقة لاجوس عدد من المسلمين . وقد عمت ظاهرة الأمية جميع أرجاء هذه البلاد وكان شعبها فى حالة شديدة من

التخلف الحضارى والثقافى ، ولم يكن للأقلية المسلمة سوى عدد قليل من المدارس المحلية غير المنظمة التى أقامها بعض العلماء فى بيوتهم وكانت متخلفة تماما وقاصرة عن توفير متطلبات المجتمع من حيث الحضارة والثقافة بالإضافة إلى أنها كانت قليلة تعد بالأصابع . ورغم أن هدف الإرساليات التبشيرية من توفير التعليم الغربى لأهالى هذه المناطق منذ قيام حركة التبشير فيها هو نشر التعاليم المسيحية وتقرير أسلوب الحياة الأوربية فى سبيل تحويل المجتمعات الأفريقية إلى مجتمعات مسيحية ، فقد فتحت أبواب مدارسها لقبول أبناء المسلمين والوثنيين ولم تكن لتخفى عن الناس غايتها ، بل كانت فى أول الأمر تشترط موافقة أولياء أمور الأطفال على تعميد أبنائهم كخطوة أولية يجب أن تتم قبل قبولهم فى المدارس . ولما تبين للمبشرين أن ذلك سينفر بعض الوثنيين فضلا عن المسلمين ألغوا هذا الشرط واكتفوا بالحصول على موافقة الآباء على تعليم أطفالهم المبادىء والمعتقدات المسيحية والعلم الغربية .

وعندما عرف المبشرون أن الوثنيين أقل تحمسا لدينهم وأضعف مقاومة لمجابهة تيارات الأديان الأخرى الزاحفة ، وأنه لم تكن لديهم مقومات روحية يستطيعون أن يثبتوا بها أقدامهم ويصمدوا بها فى مكافحة خطر الحرب العقدية .. عندما عرفوا كل هذا استخفوا بالأديان الوثنية واستهانوا بما قد يأتى من جانب الوثنيين من خطر ، ففتحوا أبواب المدارس أمام أبنائهم دون قيد ولا شرط معتمدين فى ذلك على أن تحويلهم سيكون سهلا ميسورا داخل المدرسة . ولكنهم قد أدركوا من قبل ومن بعد أن الإسلام هو العقبة الكأداء التى تقف دائما فى طريقهم ، وأن المسلم هو العدو اللدود الذى لا يرفع عنهم السلاح ولا يكف عن مطاردتهم حيثما حلوا أو ترحلوا . لم يستطع المبشرون أن يكظموا غيظهم الشديد من المسلمين أو يخفوا حقدهم الشديد وعداوتهم المتأصلة فى أعماق قلوبهم للإسلام . لقد أظهروا للمسلمين عداءا سافرا حيث اشترطوا فى قبول أبنائهم فى المدارس تغيير أسمائهم الإسلامية إلى أسماء أخرى لا تمت إلى الإسلام بأدنى صلة فى الوقت الذى كانوا يوافقون على استعمال الأسماء الوثنية والألقاب الوطنية لغير المسلمين . وقد كانوا يفرضون عليهم حضور صلوات القداس التى تقام فى كنيسة

المدرسة وشهود الاجتماعات الدينية المسيحية . وكان لزاما على كل طالب أن يقتنى الكتاب المقدس والكتب الدينية المسيحية الأخرى ، وأن يولى مادة الديانة المسيحية اهتماما أكبر ، لأنها هى المحور الذى يدور عليه التعليم كله ، وبقدر اهتمامه بهذه المادة وقوة فهمه فيها يكون نجاحه ويكون له الحق فى الانتقال من فصل إلى آخر . وإذا كانت المناطق الجنوبية على تلك الحالة من الانحطاط والتأخر بسبب انتشار الأمية بين شعبها فقد كانت حال الأقلية المسلمة الموجودة فيها لا تختلف عن حال القبائل الوثنية المتخلفة حضاريا وثقافيا ، وأصبح الناس جميعا فى حاجة شديدة إلى الحضارة ثم جاء المبشرون فقاموا بتوفير وسائل التعليم لهؤلاء القوم ، ونشروا بينهم الحضارة والثقافة ولكنهم شنوا من خلال ذلك حربا شعواء على الأديان كلها واتخذوا التعليم وسيلة لنشر المسيحية والعلوم والأفكار الغربية ، وقد أظهروا للمسلمين خاصة عداءا شديدا وحقدا كبيرا ولكن هؤلاء المبشرين كانوا هم الوسيلة الوحيدة للتعليم . ولم يكن للناس غنى عن الأخذ بأسباب التقدم والرفاهية .. فماذا كان موقف المسلمين تجاه هذه الأوضاع القائمة والظروف المحيطة بالتعليم الغربى والتبشيرى ؟

كان أمام المسلمين طريقان لا ثالث لهما إما الامتناع الكامل عن تلقى هذا التعليم المعادى للإسلام وإما أن يقبلوا تلك الشروط التى وضعها هؤلاء المبشرون بالنسبة لقبول أبنائهم فى المدارس التبشيرية ، ويدخلوهم فيها ليتلقوا التعاليم المسيحية والعلوم الغربية سواء ترك هؤلاء الأطفال دين آبائهم أصلا ـ وهذا قليل جدا ـ أم احتالوا على المدارس بتغيير الأسماء والتظاهر بترك دينهم الأصلى ليتمكنوا من دخول المدارس لتحصيل العلوم والأخذ بنصيب من الثقافة الغربية ، وذلك هو حال الكثرة الكاثرة . ولقد نظر بعض المسلمين إلى حاجة المجتمع الماسة إلى وسائل التقدم والرقى فى تلك الفترة التى كانت البلاد فى حالة شديدة من التخلف العلمى والحضارى فطمعوا فى التعليم الغربى والثقافة الأوربية بعد أن ظهرت بعض آثار هذا التعليم فى المجتمع . ولم تكن لديهم رغبة فى اعتناق الديانة المسيحية على الإطلاق ،

فقد ظنوا أن طريقة الاحتيال على المدارس أهون من ترك دينهم الأصلي من أجل الحصول على الثقافة الأجنبية . فأصبح الواحد منهم يتسمى بجورج داخل المدرسة ويعرف بهذا الاسم بين زملائه وهو الاسم الذي يكتبه فوق كتبه المدرسية وتحمله شهاداته العلمية وجميع أوراقه الرسمية . وأكبر من ذلك كله أن هذا الطفل المسلم الذي اختار أبوه طريقة الاحتيال على المدارس قد أصبح يشهد صلاة القداس في كنيسة المدرسة ويدرس الكتاب المقدس ويجبر على حضور الاجتماعات الدينية المسيحية ولكنه يفعل ذلك كله حينما يكون داخل المدرسة وفي أوقات الدراسة . ولكن إذا عاد بعد الظهيرة إلى بيته خلع عن نفسه الاسم المستعار ورجع عن الاحتيال إلى طبيعته الحقيقية ودينه الأصلي فهو معروف بين أهله وعشيرته ومعارفه باسم إسلامي لأنه خرج من أسرة مسلمة . وقد ظن هؤلاء الناس أن أبناءهم يستطيعون أن يأخذوا التعليم الغربي والثقافة الأوربية بهذه الطريقة دون أن يتحولوا إلى المسيحية أو يكون للتعاليم المسيحية والثقافة الغربية أي أثر في سلوكهم واتجاهاتهم . وقد كانوا يحسبون الأمر هينا ويعتقدون أن أطفالهم متى ما تخرجوا من تلك المدارس سيعودون بكل سهولة إلى دينهم الأول . ولكن هل كان هؤلاء الأطفال حين دخلوا تلك المدارس ـ على معرفة تامة بأمور دينهم ، وعلى بصيرة مما كان عليه آباؤهم ، وعلى يقظة بما يحاك ضد دينهم من المكايد حتى يستطيعوا أن يكونوا في مأمن من خطر المروق عن دينهم والانسياق وراء التيارات المعادية له ؟ ثم إن هؤلاء الأطفال قد دخلوا تلك المدارس في سن مبكرة ولم يكن لديهم من المقومات الروحية مايتحصنون به ليدفعوا عن أنفسهم تلك الأخطار المحدقة بهم . وقد نتجت عن ذلك أضرارا بالغة لم تكن في حسبان هؤلاء المسلمين حيث عاد إليهم أبناؤهم إما صابئين وإما علمانيين متسمين بالإسلام أو متنكرين للأديان كلها . وقد وجدت فئة قليلة من هؤلاء الأطفال أصبحت حربا كبيرة على دينهم الأول وأصبحت عميلة للاستعمار ونصيرة للمبشرين . وحقيقة أن التعليم الإسلامي لم يكن متيسرا في تلك الفترة في المناطق الجنوبية بسبب حداثة

عهدها بالإسلام . وإن القدر الضئيل الموجود فيها من ذلك التعليم كان يسير على أسلوب جاف منفر ، كما كان قاصرا في الوقت نفسه عن الوفاء بمتطلبات المجتمع . ولكن دخول أبناء المسلمين في مدارس التبشير قد أدى إلى ما أدى إليه من إفساد عقيدتهم وإبعادهم عن الإسلام . أما الفريق الآخر من المسلمين فقد امتنعوا عن إدخال أبنائهم في تلك المدارس حفاظا على دينهم وعقيدتهم ، ولأنهم كانوا يعرفون أن التعليم الغربي وسيلة إلى غاية ، هي نشر التعاليم المسيحية والعلوم الغربية وهذه الغاية وسيلة إلى غاية أخرى كانت هي المقصودة بالأصالة وتلك هي محو الإسلام من الوجود أو زعزعة عقيدة المسلمين لإبعادهم عن الإسلام الذي هو مصدر قوتهم وعزتهم . وقد كانوا على يقين تام من أنه لا يمكن استخلاص الوسائل والحصول على المنافع التي يقدمها التعليم الغربي دون التأثر بغاياته . ولكن ابتعاد المسلمين عن الأخذ بالتعليم الغربي والثقافة الأوربية في تلك الفترة التي كانت شئون المجتمعات الأفريقية تأخذ طريقها نحو التحول والتغير سياسيا واجتماعيا وثقافيا تحت نفوذ القوة الاستعمارية إلى أسلوب الحياة الأوربية مع عدم تطوير التعليم الإسلامي في مواجهة خطر ذلك التعليم الأجنبي الغازي .. إن ذلك الابتعاد من جانب بعض المسلمين وتفريطهم في اتخاذ الموقف المناسب في ساعته قد أدى بطبيعة الحال إلى تأخر المسلمين عن ركب الحضارة الغربية ، الأمر الذي جعلهم في معزل عن الحياة الواقعية ، وخف بذلك وزنهم في المجتمع وأصبحوا مستضعفين في الأرض . وأما غيرهم الذين انساقوا وراء التيارات الغربية وانكبوا على التعليم الغربي فقد أصابوا شيئا مما يشتهونه وأصبحوا محط الأنظار ويشار إليهم بالبنان ، وقلدوا بعض المناصب في الخدمات الشعبية في ظل الحكومة الاستعمارية . والواقع أن الكثرة الكاثرة من المسلمين في الإقليم الغربي ومنطقة لاجوس قد انخدعوا بحطام الدنيا وزخارفها وغرهم المبشرون والمستعمرون في دينهم غرورا كبيرا فأقبلوا على المدارس الأجنبية إقبالا شديدا سواء أكان ذلك عن طريق التخلي عن الإسلام بالكلية أم عن طريق الاحتيال بتغيير الأسماء والتظاهر بقبول الديانة

المسيحية . وقد وجد في هذه المناطق أفراد وأسر مسلمة بقيت متمسكة بدينها وعقيدتها فابتعدت عن المدارس التبشيرية وعن التعليم الغربي كله ، ولكنها في الوقت نفسه كانت مقصرة تقصيرا كبيرا حيث لم تسع لتطوير التعليم الإسلامي ولم تأخذ نصيبها من أسباب الرقي والتقدم فتخلفت هذه المجموعة علميا وحضاريا وتأخرت كذلك عن ركب الحضارة الغربية وأصبحت أقلية مستضعفة لا وزن لها في المجتمع ، بينما كان المسيحيون عملاء المستعمرين والمبشرين من أبناء المسلمين يحسب حسابهم في المجتمع ويقلدون المناصب في شئون الإدارات المحلية وفي شتى القطاعات الخاصة والعامة في البلاد . ومن بين شعب المناطق الجنوبية خرجت النخبات الوطنية الأولى التي قلدتها الحكومة الاستعمارية أعلى المناصب في المناطق الشمالية الإسلامية .. وقد مرت على المناطق الشمالية فترة كانت نسبة أبناء الجنوب المثقفين في شتى الدوائر الحكومية فيها تربوا على السبعين في المائة وكانت قبائل إيبو الوثنية من الإقليم الشرقي تحتفظ بالمراكز الحساسة في المناطق الشمالية منذ أيام الحكم الاستعماري وحتى بعد حصول البلاد على الاستقلال إلى فترة اندلاع نار الحرب الأهلية في هذه البلاد سنة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م التي تم فيها إجلاء هذه القبائل برمتها إلى مناطقها . وأما بالنسبة للخطط التعليمية في المناطق الشمالية الإسلامية . فقد كانت مرسومة في غاية من الدقة والإحكام . فبما أن المناطق الشمالية تتألف من المسلمين، وكان للإسلام فيها قوة رهيبة، ولم يكن الإسلام دين جماهير شعب هذه المناطق فحسب ، بل كان كذلك نظامها للحياة ، فقد استطاع شعب الشمال بفضل الإسلام أن يقيم في أراضيه الفسيحة الأرجاء إمارات إسلامية على مدار التاريخ ، انتشر فيها التعليم العربي الإسلامي والحضارة الإسلامية . ولقد كان زحف جيوش الإمارات الشمالية الإسلامية شديدا جدا على المناطق الجنوبية الوثنية إبان فترة دخول الإرساليات التبشيرية إليها . ولو لم تكن هناك إمدادات من قوة خارجية استعمارية لاكتسح هذا الزحف المناطق الجنوبية بأسرها . ولقد كان الشماليون شديدي التمسك بعقيدتهم الإسلامية، مما جعل الجهود الأولية التي بذلها التجار الأوربيون والمبشرون

تذهب أدراج الرياح ، وأغلق أبواب المنطقة فى وجه التيارات الاستعمارية والتبشيرية حقبة غير يسيرة من الزمن . ولقد كان التعليم الوطنى فى حوزة المدارس الإسلامية عندما وطئت أقدام جيوش الاحتلال البريطانى أرض المناطق الشمالية، وكانت هذه المدارس شديدة التمسك بالدين، وإن كانت غير منظمة، وكانت تسير على الأساليب القديمة البالية، وذلك بالإضافة إلى أنها كانت متخلفة تماما عن الوفاء بمتطلبات المجتمع من حيث الحضارة والثقافة ، وأنها كانت دائما تأبى أى إصلاح تعليمى وتطور علمى وحضارى .

ولو كان بإمكان شعب الشمال تطوير تلك المدارس الإسلامية عن طريق حركة محلية واعية قبل قيام الحكم الاستعمارى وحتى بعد قيامه ، لكان ذلك خطوة جليلة الخطر . ولكن حينما بدا مثل هذا الأمل غير متيسر التحقيق على الصعيد المحلى تدخلت القوة الاستعمارية المسيحية بعد فرض سيطرتها السياسية على البلاد بقوة السلاح ، فأخذت على عاتقها مهمة إصلاح مناهج التعليم الإسلامى وتطويرها وأصبح أمام هذه المدارس أحد أمرين : فإما أن تتطور فيصبح التعليم فيها علمانيا لادينيا تستعمل فيها اللغات المحلية بدل اللغة العربية ، والحروف اللاتينية بدل الحروف العربية ، وتقرر فيها العلوم الغربية المسيحية والثقافة الأوربية بدل العلوم والثقافة الاسلامية ، وإما أن تتحجر فى موقفها فحينئذ تموت فتختفى . ولما أراد المبشرون أن يبدأوا أعمالهم التبشيرية بإقامة المدارس والمراكز فى المناطق الشمالية بعد الاحتلال البريطانى لها واجهتهم مقاومة عنيفة من جانب جماهير شعب هذه البلاد المسلمة ولم يكن عداء هؤلاء المسلمين للتعليم الغربى المسيحى فقط وإنما كان عداؤهم كما أشرنا من قبل شاملا لكل شئ له طابع غربى ومظهر مسيحى .

ولقد كان المسلمون الشماليون مضرب الأمثال فى قوة إيمانهم بدينهم وشدة تمسكهم بالعقيدة الإسلامية مما أحبط جميع مساعى المبشرين وأوصد أبواب المنطقة أمام حركة التبشير ولم يتمكن المبشرون من إقامة المراكز والمدارس التبشيرية على التراب الإسلامى

فى المناطق الشمالية مثلما استطاعوا أن يقيموها فى المناطق الجنوبية.

وقد أقلق هذا الأمر الحكومة الاستعمارية التى كانت تحكم هذه البلاد بيد من حديد وإن كانت تتظاهر دائما بعدم الرغبة فى التدخل فى شئون هذه البلاد الدينية خوفا من قيام رد فعل من جانب المسلمين قد يشكل خطرا كبيرا على وجودها فى هذه البلاد.

ولما ظهر الأمل فى توفير التعليم الغربى المسيحى عن طريق إنشاء المدارس التبشيرية أمرا غير متيسر تحقيقه ، أصبح ذلك الأمر محصورا فى تحويل التعليم وتطوير المدارس الإسلامية الموجودة على طريقة علمانية لادينية . ولقد كبر على الاستعمار الغربى الغازى أن تبقى المناطق الشمالية إسلامية التعليم كما كانت فى سابق عهدها ، وكبر عليه أيضا أن يترك المسلمين شئون دينهم بعد أن أبى عليهم من قبل أن تظل بلادهم إسلامية الحكم وأن يترك لهم أرضهم . ولما رفض المسلمون الشماليون قبول التعليم الغربى المسيحى ولم تنفع معهم جميع محاولات الإرساليات التبشيرية ومن ورائها الحكومة الاستعمارية تشجعها وهى متخفية عن أنظار الناس ، قررت الحكومة سياسة تعليمية دقيقة محكمة كانت مختلفة تماما عن السياسة المتبعة فى المناطق الجنوبية فى محتوياتها وغاياتها . وكما سبق أن أشرنا فى معرض حديثنا عن الحركة التبشيرية فى المناطق الشمالية فإن الحكومة الاستعمارية قررت أن تكون وسائل التعليم كلها تحت هيمنتها لتتمكن من تغيير المناهج التعليمية وتطويرها ، لتستطيع جميع المدارس المحلية الحصول على الإعانات المالية المقررة لها من جانب الحكومة لتدعيم نشاطها فى سبيل تقدم التعليم فى هذه البلاد . وقد عينت الحكومة وزيرا لشئون التعليم وأوعزت إليه أن يقوم بدراسة سياسة كرومر التعليمية فى مصر المسلمية ويسير على نفس الخطة فى المناطق الشمالية الإسلامية . وكانت أول خطوة اتخذتها الحكومة هى قرارها الذى أصدرته وأعلنت فيه اعترافها بالمناهج التعليمية التى تسير عليها المدارس الإسلامية وكذلك الشهادات العلمية التى كانت تمنحها طلابها . ولكن هذه المدارس كما سبق أن قلنا كانت متخلفة وغير منظمة ، وقد اتخذت الحكومة ذلك ذريعة لضرورة إجراء بعض الإصلاحات والتنظيمات

فى شئون التعليم . وعلى هذا الأساس أسست الحكومة أول مدرسة إقليمية فى مدينة كانو تحت إشراف وزير التعليم ، وكانت المدرسة تقبل الطلاب من جميع المدارس الإسلامية الموجودة فى أنحاء المنطقة . وقد ذكروا أن مهمة هذه المدرسة كانت إعداد المدرسين للتعليم فى المدارس المحلية وإعداد الموظفين للعمل فى إدارات الحكومة المحلية وتثقيف أبناء الأمراء والزعماء وتدريب بعض الطلاب على الصناعات المحلية . ولكن الذى يهمنى من هذا كله هو أن الاستعمار قد استطاع أن يستغل الوضع استغلالا كبيرا . فإذا رفض أهل الشمال أن يجيبوا داعى التبشير ويقبلوا التعليم الغربى المسيحى فإن الخطوة التالية هى محاولة إبعادهم عن الإسلام والتعليم الإسلامى بنشر التعليم العلمانى اللادينى بينهم . ولابد أن يتحقق فيهم الجهل بدينهم ليتحقق فيهم من بعدُ أن من جهل شيئا عاداه . ولكن لا يمكن أن يتم ذلك عن طريق استعمال القوة وإنما يجب أن توضع لذلك الخطط الدقيقة مع أخذ كل الحذر من استثارة حفيظة نفوس المسلمين ضد تنفيذ هذه الخطط المرسومة .

ولقد جعل التعليم فى المدارس الحكومية فى المناطق الشمالية باللغة المحلية بدلا من اللغة العربية التى دخلت إلى هذه المناطق مع دخول الإسلام وانتشرت فيها انتشارا كبيرا ، ولو أن الاستعمار جعل التعليم باللغة الإنكليزية فى أول الأمر لنفر منه المسلمون نفورا كبيرا ، ولكنه أدخل قدرا قليلا من اللغة الإنكليزية إبتداء من الصف الثالث . وكذلك جعلت الكتابة بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية . وقد قام وزير التعليم بوضع المقررات والكتب التى تستعمل فى مختلف الفصول والمراحل الدراسية حسب الخطة الموضوعة . ولقد استغل المستعمرون عقول هؤلاء المسلمين بالتظاهر بعدم الرغبة فى التدخل فى شئونهم الدينية وبإعلان الاعتراف بالمناهج التعليمية التى تسير عليها المدارس الإسلامية واعتبار شهاداتها فى قبول الطلاب فى المدارس الحكومية ، ومما ترده الحكومة دائما من أنها لا تريد بالتعليم غير تدريب

الموظفين وإعداد المدرسين على الأساليب الجديدة فى الأعمال الإدارية وفى حقل التعليم . وهكذا استطاع الاستعمار أن يحول التعليم عما كان عليه منذ دخول الإسلام إلى هذه المناطق ويوجهه نحو الاتجاه العلمانى الصرف . ولكن ذلك لم يحدث فجأة ، ولم تتم عملية التحويل والتغيير هذه دفعة واحدة ، وإنما وضعت لها خطط طويلة الأمد تنفذ حلقاتها واحدة واحدة حتى تمت أدوار الخطة وحصل بعد تمامها المراد . ومن هنا تتوارد علينا بعض التساؤلات لأننا قد أثبتنا من قبل أن مسلمى هذه البلاد كانوا شديدى التمسك بالعقيدة الإسلامية وأنهم كانوا يعادون كل شيء له طابع غربى ومظهر مسيحى . وإذا كان الأمر كما قلنا فكيف نجحت فيهم خطط الاستعمار فى ميدان التعليم ؟ ألم يكونوا قد رفضوا المبشرين من قبل وأبوا عليهم أن يقيموا مدارس تبشيرية فى بلادهم ؟ فكيف سمحوا بعد ذلك للاستعمار المسيحى أن يقبض على وسائل التعليم ؟ ألم يعلموا أنه لن يرضى عنهم حتى يحول دينهم أو يغير اتجاه التعليم ليقطع صلتهم بدينهم ويضعف بذلك تمسكهم به ؟ إن بعض الإجابة على هذه التساؤلات قد وردت متناثرة فى ثنايا هذا الفصل وفى بعض الفصول السابقة.. لم يكن هؤلاء المسلمون ليتهاونوا فى أمور دينهم . بل كانوا فى يقظة تامة لما يدبر لهم الاستعمار والتبشير من المكايد والحيل . ولذلك قاوموا الزحف التبشيرى الذى حاول أن يدخل مع جيوش الاحتلال ولم يمكنوه من الدخول فضلا عن التمكن والانتشار . ولكن الذى حدث فى المناطق الشمالية هو ما حدث أيضا فى البلدان الإسلامية الأخرى . ذلك أنه لما دخل الاستعمار إلى هذه البلاد فرض سيطرته العسكرية والسياسية عليها وجعل أعزة أهلها أذلة ونزع منهم زمام الحكم وجعله خالصا لنفسه . ولم يهن المسلمون ولم يستكينوا . وإنما غلبوا على أمرهم . ولكن رغم ذلك فقد أبوا أن يكون للاستعمار سلطان عليهم فى تحويل عقيدتهم وتبديل دينهم فمنعوا دخول المبشرين إلى بلادهم . ومن هنا بدأ الاستعمار يخلق الظروف والأجواء الممهدة للتغيير السياسى والاجتماعى

والثقافى . وقد قرر أولا سياسة الحكم غير المباشر باستخدام الطاقة المحلية فى بعض شئون إدارات الحكومة المحلية لأنه لم يكن فى مقدوره أن يغرض الحكم المباشر ويأتى بالخبراء والموظفين والجنود جميعا من أوربا للعمل فى المستعمرات. ومن هنا وجد الاستعمار مايتعلق به ويتخذه سببا لضرورة توفير التعليم الغربى لتدريب الموظفين والمدرسين المحليين على الأساليب الجديدة فى الأعمال الإدارية وفى حقل التعليم .

ولما كان المبشرون هم الوسيلة الوحيدة للتعليم ، قد مُنِعوا من دخول هذه المناطق لأنهم أعداء غير مقنعين فلم يبق أمام الاستعمار إلاّ أن يلجأ إلى التظاهر بسياسة حيادية فى شئون الدين وفى مجال التعليم . ولكنه لم يكتف بسياسة الحياد وإنما تظاهر ببعض الحب للإسلام والعمل من أجل مصلحة المسلمين ." قد أعلن اعترافه بالمناهج التعليمية التى تسير عليها المدارس الإسلامية واعتبار شهاداتها فى قبول الطلاب فى المدارس الحكومية . واحتضن الاستعمار المدارس الإسلامية وأغدق عليها الإعانات المالية فترة من الزمن . ثم قرر أن تكون لمادة تعليم الدين الإسلامى مكانة بارزة فى مناهج الدراسة فى المدارس الحكومية . وكان يسمح لطلاب هذه المدارس بعد أوقات الدراسة بحضور مجالس العلم فى بيوت بعض علماء المسلمين الكبار . وبما أن هذه المدارس كانت داخلية فقد خُصِّص فيها مكانٌ ليكون مسجدا ، وكان يسمح للطلاب بأداء الصلوات الخمس . وقد عيّن من بينهم إمام وخطيب . وزيادة على ذلك كله قرر المستعمر أن تكون فترة شهر رمضان إلى مابعد عيد الفطر عطلة رسمية للمدارس الحكومية وكانت هناك عطلة أخرى فى أيام عيد الأضحى . ثم إن الاستعمار لم يجعل التعليم فى بدايةالأمر باللغة الإنكليزية ، وإنما جعله بلغة هوسا "[1] ولم يكن ذلك بسبب حبه لهذه اللغة أو أنه لا يريد أن ينشر فيهم اللغة الإنكليزية ولكن ذلك كان حيلة مدبرة وخطة مرسومة ، فقد أراد الاستعمار أن يستند إلى العوامل المحلية لإقصاء التعليم الإسلامى من ميدان التعليم . فمتى ما استطاع أن يغير أداة التعليم ، فعند ذلك

(1) See, Sir Charles Orr, op. cit., pp. 265 - 273

يسهل عليه تحويل مضمونه وتوجيهه نحو الاتجاه الذى يهواه . وإذا تم له سوق مجامع عقول الناس إلى التعلق بالعوامل الوطنية ، فلن يجد صعوبة كبيرة بعدئذ فى استدراجهم إلى قبول التعليم الغربى ولو بعد فترة من الزمن . وقد كان هناك مجموعة من المدرسين الأوربيين كان لهم باع طويل فى لغة هوسا ، وكان بعضهم مبشرين وإن لم يظهروا للناس فى ثوب التبشير ، وعلى هذه المجموعة اعتمدت الحكومة الاستعمارية فى التعليم فى مدارسها . وهذه هى صورة الخطط تنعكس فيها المكايد والحيل وتفصح عن غاياتها بأدنى التأمل والنظر . وحقيقة لم يتمكن الاستعمار من إقامة مدارس تبشيرية فى هذه البلاد ، ولم يبن الكنائس فى المدارس الحكومية ، ولم يشترط على المسلمين تغيير الأسماء الإسلامية، ولم يقرر مادة الديانة المسيحية على الطلاب ، ولم يوصد أبواب مدارسه فى وجه أى راغب من أبناء المسلمين إذا كان حاصلا على شهادة علمية من إحدى المدارس الإسلامية . وإذا كان الاستعمار لم يُمكّن من التبشير العلنى فى هذه البلاد ولم يقدر على المجاهرة بالأعمال المعادية للإسلام مثلما كان يفعل المبشرون ورجال الاستعمار فى المناطق الجنوبية ، فإن الخطط التعليمية التى وضعها الاستعمار فى المناطق الشمالية المسلمة كانت تلتقى مع أعمال هؤلاء المبشرين ورجال الاستعمار الذين خاضوا غمار الحرب العقدية فى المناطق الجنوبية من حيث الهدف والغاية . وعلى الرغم من أن الاستعمار لم يفلح فى تمكين المسيحية فى المناطق الشمالية الإسلامية فقد أحرز نجاحا لاشك فيه فى نشر العلمانية اللادينية وإبعاد المسلمين عن الإسلام وإضعاف تمسكهم به . ومهما اختلفت خطط المستعمرين والمبشرين فى كلا الجزئين الجنوبى والشمالى وتنوعت وسائلهم فى تنفيذها فإن هذه الخطط والوسائل جميعا تلتقى على خصومة واحدة وحرب واحدة : الخصومة للإسلام .. والحرب على المسلمين . وشمل هذا الموقف وقفه الاستعمار والتبشير فى جميع البلاد الإسلامية .

وكل مافى الأمر هو أن اختلاف الخطط وتباين الوسائل كان تبعا لقوة الإسلام فى كل منطقة ، وشدة تمسك المسلمين بالعقيدة الإسلامية ، وقوة مقاومتهم لما يدبر لهم

من الحيل وما يحاك ضدهم من المكايد . وقد كان لهذه السياسة التعليمية آثار بالغة في تغيير الأوضاع القائمة في هذه المناطق في مختلف مجالات الحياة . وقد ظهر لي من خلال هذه الدراسة أن الاستعمار لا هو ترك التعليم الوطني القائم يسير في طريقه ويمضي في اتجاهه حتى يأتيه التطور الذي هو من سنة الله في هذا الكون ، ولا هو في الوقت نفسه كان راغبا في توفير التعليم الغربي للمسلمين لئلا يصبح هذا التعليم أداة قوة سياسية في يد المسلمين الذين يزداد تعدادهم بسرعة بالنسبة للوثنيين، وهم في ذات الوقت لم يخضعوا لسلطان الاستعمار الروحي فيصبحون بذلك مركز خطر للاستعمار ولأصحاب الأديان الأخرى الموجودة في هذه البلاد . ولذلك حاول الاستعمار إلغاء المدارس الإسلامية مع أنه لم يفتح في المنطقة إلّا مدارس إنكليزية قليلة . وقد كان دائما يسعى لزيادة الجهل وتعميقه وإنشائه ، كان يسعى أولا لنشر الجهل بالنسبة للإسلام وتعاليمه فحصر التعليم الديني في نطاق ضيق وفتح التعليم اللاديني في مواجهته ، وضيق الموارد المالية على التعليم الديني وأغدق على التعليم اللاديني وحده . ولم يكن التعليم الديني وحده يؤهل الإنسان للحصول على المناصب عند الحكومة الاستعمارية بل كان التعليم اللاديني الوسيلة الوحيدة للحصول على مناصب عديدة مغرية في المظهر والأجر . ولكن الاستعمار بجانب ذلك قد حدد القدر الذي يقدمه لهؤلاء المسلمين من التعليم الغربي نفسه ليتحقق فيهم الجهل والضعف من هذه الناحية أيضا . ولم يقصد الاستعمار بهذه السياسة سوى كسر شوكة المسلمين وإضعاف قوتهم حتى لا تغنيهم كثرتهم من الأمر شيئا . وليصبحوا غثاءا كغثاء السيل أو قطيعا ينساق وراء الراعي ويذهب حيثما يوجهه . ومع مرور الأيام والحكومة الاستعمارية تسير على هذه السياسة في شئون التعليم استطاع المبشرون أن يتسللوا إلى بعض المحافظات التي توجد فيها أقلية وثنية ذات شأن في المجتمع مثل محافظتي زاريا Zaria وجوس Jos وفي بعض أحياء الأجانب المقامة في خارج بعض المدن الإسلامية ، فأقاموا فيها بعض المدارس التبشيرية ولكنهم لم يستطيعوا أن يقيموا الكنائس في تلك المدارس ولم يشترطوا على أبناء المسلمين

الذين دخلوا مدارسهم تغيير الأسماء الإسلامية ، ولم يجبروهم على دراسة الديانة المسيحية ، بل كانوا فى بعض الأحيان يدرسون لهم صورة مشوهة من تاريخ الإسلام ويعرضون لهم المسلمين الأوائل فى صورة المتسلطين النهابين المخربين . وكل ذلك من أجل حمل الأطفال الصغار على النفور من الإسلام والإقبال على التعليم الغربى المسيحى ، والتعلق بالغرب حتى يصبحوا غربيين . وقد كان هؤلاء المبشرون يختارون عددا من نجباء الطلاب فيبعثونهم إلى أوربا لمواصلة دراساتهم على نفقة الهيئة العليا للإرساليات التبشيرية . وقد لجأوا إلى ابتعاث الطلاب إلى الخارج ليزدادوا جهالة بدينهم وقيمهم ومثلهم ويزدادوا تعلقا بأفكار الغرب واتجاهاته . وفى الابتعاث إلى الخارج يتم تطبيع الطلاب بطباع غير إسلامية . ومع مرور الزمن يصير التطبع طبعا فينسلخ هؤلاء الطلاب من حيث لا يشعرون من دينهم وقيمهم وتراثهم وحتى من تقاليدهم وعاداتهم السليمة وطريقتهم فى التعامل مع الناس بصدق وأمانة وإخلاص ويغدون غربيين أو أشباها للغربيين .

هذه هى الظروف المحيطة بالتعليم الغربى فى المناطق الإسلامية ، وتلك هى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى أوجدها الاستعمار ليحمل الناس على الإقبال الشديد على هذا التعليم ويرغبهم فى الثقافة الغربية . إن السيطرة العسكرية التى حققها جيش الاحتلال البريطانى هى التى مكنت القوة الاستعمارية من فرض سيطرتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على هذه البلاد وهى التى اعتمدت عليها حتى تمكنت من تحويل وتغيير جميع شئون هذه البلاد . ولكن بينما كان المسلمون يرفضون سلطان الاستعمار الروحى ويأبون عليه أن يتخذ التعليم وسيلة لتحويل دينهم وتغيير عقيدتهم ، فإنهم فى الوقت ذاته كانوا يخضعون لسيطرته الثقافية . وكما قررنا سابقا أن الاستعمار وإن كان قد أخفق فى اتخاذ التعليم الغربى وسيلة لنشر الديانة المسيحية فى المناطق الإسلامية فإنه قد استطاع أن يحرز نجاحا لاشك فيه فى نشر الثقافة الغربية وتحويل التعليم بشكل عام نحو الاتجاه العلمانى الصرف . وقد كان

الهدف من المدارس الأجنبية فى بداية الأمر تنصير المسلمين • ولكن لما لم يتمكنوا من ذلك قنعوا أنفسهم بإخراجهم من الإسلام أو زعزعة عقيدتهم •

وفى ذلك يقول القس صموئيل زويمر (Rev. Samuel Marinus Zwemer) زعيم المبشرين فى خطابه الذى ألقاه على زملائه المبشرين فى مؤتمر القدس سنة ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م " لقد قبضنا أيها الإخوان فى هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر الميلادى إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم فى الممالك الإسلامية ونشرنا فى تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التى تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية •• إنكم أعددتم نشئا فى ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها • وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية • وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقا لما أراده له الاستعمار المسيحى • لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل • ولا يعرف همه فى دنياه إلا فى الشهوات • فإذا تعلم فللشهوات وإذا جمع المال فللشهوات • وإن تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهوات يجود بكل شىء "(١) •

إن الواقع فى المناطق الشمالية المسلمة بالنسبة للتعليم الغربى أن الكثرة الكاثرة من المسلمين قد امتنعوا من إدخال أبنائهم فى المدارس الأجنبية والمدارس الوطنية الإنكليزية التى أقامتها الحكومات المحلية • ولم يتغير موقف مجموعة كبيرة من المسلمين حتى بعد ظهور آثار الثقافة الغربية فى المجتمع • ولقد أبدى المبشرون والمستعمرون اهتماما كبيرا بالقسم الجنوبى من الناحية التعليمية وكانوا يفسرون ذلك بأن الشعب الجنوبى حين دخل التبشير والاستعمار إلى بلاده كان هذا الشعب يشعر بالنقص الذاتى بسبب انتشار ظاهرة الأمية فى أرجاء بلاده وقيام حالة التأخر والانحطاط مما جعله يهرع إلى قبول التعليم الغربى والثقافة الأوربية لإكمال ذلك النقص ورفع مستوى بلاده

---

(١) أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى • تأليف د • على محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق ص ٦٣ • وكتاب المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام تأليف الشيخ محمد محمود الصواف ص ٢٩٧ — ٢٩٨ •
وكتاب جذور البلاء تأليف عبد الله التل ص ٢٧٥ — ٢٧٦ •

الحضاري والاجتماعي إلى مكانه اللائق . وعندما أراد هؤلاء المبشرون والمستعمرون والمستعمرون أن يقوموا بمثل ذلك النشاط في مجال التعليم في القسم الشمالي حصل صراع عنيف بين التعليم الإسلامي والثقافة الإسلامية وبين التعليم الغربي والثقافة الأوربية وقد بذل الاستعمار كل مافي وسعه لتنحية التعليم الإسلامي عن شئون المجتمع والتقليل من شأنه ، وبسبب وجود عوامل محلية معادية لسياسة الاستعمار التعليمية ضن الاستعمار بالتعليم الغربي نفسه على الشعب الشمالي فعمّ الجهل بسبب ذلك جميع أرجاء المنطقة وتأخر المسلمون علميا وحضاريا . وقد كان لسياسة الاستعمار في بسط التعليم الغربي للشعب الجنوبي وحصر هذا التعليم وتحديده بالنسبة للشعب الشمالي أبعاده العميقة في مستقبل شعوب كلا الجزئين الشمالي والجنوبي . وقد برهنت الأيام والأوضاع القائمة في هذه البلاد على أن للاستعمار قصدا في ذلك، إنه كان يريد أن يكون غير المسلمين في وضع أفضل من المسلمين . وإذا كان المسلمون الذين يشكلون الأكثرية الساحقة قد غلبوا على أمرهم وحيل بينهم وبين مصدر العزة والسعادة في مجتمعهم ، وقطعت الصلة بينهم وبين تراثهم ، وفي الوقت نفسه كانوا محرومين من التعليم الغربي بينما كان الوثنيون والمسيحيون الذين هم الأقلية تفتح أمامهم مجالات التقدم العلمي والحضاري . فهل هناك شيء أدل من هذا على أن الاستعمار قصد الوقيعة بالمسلمين بسعيه في نشر الجهل بينهم ليصبحوا في المستقبل أمة مستضعفة في الأرض ؟

إن سياسة التمييز بين المسلمين وغيرهم في التعليم الغربي بعد أن قضى الاستعمار على التعليم الوطني وحوّل شئون المجتمع كلها إلى الاتجاه الغربي العلماني ، قد أخرت المسلمين كثيرا في شتى مجالات الحياة، وأدت إلى تفوق الأقلية المسيحية والوثنية عليهم . وقد أتيحت الفرصة أمام الجنوبيين فتقدموا على الشماليين في كل شيء حتى استطاعوا أن يحتلوا جميع المراكز الحساسة في مختلف القطاعات الهامة في الحكومات

الشمالية ، فى حين كان الشماليون لا يصلون إلّا إلى أدنى الوظائف والمناصب المتواضعة. وقد تغير هذا الوضع بعد حصول البلاد على الاستقلال وخاصة بعد فوز الشماليين فى الانتخاب العام سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م ، فقد ظهرت جوانب ضعف الشماليين وتخلفهم فى العلوم الغربية والثقافة الأوربية عندما أسند إليهم سبيل الحكومة فلم يستطيعوا ذلك ، فأشركوا معهم بعض الجنوبيين ، وتم بذلك تشكيل حكومة ائتلافية بين الحزب الشمالى الفائز وبين أحد الأحزاب الجنوبية . ومنذ ذلك الوقت ازداد تعلق الشماليين بالتعليم الغربى وإقبالهم على الثقافة الأوربية ، فجندوا كل طاقاتهم لإدراك مافاتهم فى هذا السبيل وإلحاق شعبهم بركب الحضارة والثقافة الغربية . وكان لذلك أثره الكبير فى انتشار العلمانية اللادينية فى المناطق الشمالية المسلمة .

ولقد بدأت سلطة المدارس الأجنبية فى التقلص منذ قيام الحركات الوطنية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية حيث توقفت هذه المدارس عن النمو والتكاثر فانتشرت المدارس الوطنية فى جميع أنحاء البلاد ولكن الأخطار التى كانت تتمثل فى وجود المدارس الأجنبية ماتزال قائمة ، إذ إن المدارس الوطنية نفسها لاتختلف فى جوهرها ونتائجها عن المدارس الأجنبية ، وإنما كانت تستسقى من ينابيعها وتسير على منوالها وكأنه لم يحصل فى الأمر سوى وضع كلمة الوطنية بدلا من الأجنبية عندما انتقلت المدارس التى أقامتها الحكومة الاستعمارية إلى يد الحكومة الوطنية بعد الاستقلال .

::*:*:*:*:*:*:*:*

((المبحث الثانـــي))

ميدان التطبيب

إن من سنة الله تعالى في مخلوقاته أن تصيبهم بعض الأمراض والأسقام والأوجاع والآلام ، ومن رحمته تعالى أنه لم يخلق داء إلا جعل له دواء . قد علمـــه بعضا من خلقه ليستخدموه في خدمة إنسانية نبيلة لإنقاذ بني البشر مما يفتك بهــم من الأمراض والأسقام . وإن وسائل الصحة لمن ضرورات الحياة في المجتمـــع البشري ، فحيثما وجدنا البشر لابد أن تكون هنالك آلام وأسقام ، وإذا لم يكـــن بينهم من يخفف تلك الآلام ويقضي على تلك الأمراض عن طريق العلاجات الطبيـــة التي علمها الله هذه الفئة من الناس فلن تتحقق بينهم السعادة .

وتظهر أهمية الطب بالنسبة لحياة الإنسان من أن المريض المتألـم لايتـردد في التضحية بأشياء كثيرة في ملكه من أجل أن يتخلص من آلامه ، وقد لايرضـى بتقديم هذه الأشياء في غير هذه الحال .

وكذلك إذا رأى الإنسان قريبا له مريضا سواء كان ابنا له أو أما أو زوجـة فإنه سيزداد رضاه في التضحية بكل مايملك وذلك لقلة قيمة هذه الأشياء في عينـه بالنسبة لشفاء قريبه المريض .

ولقد أدرك المبشرون هذه الحقائق منذ فترة طويلة وعرفوا ميول الإنســـان في مثل هذه الحالات فسخروا الطب في سبيل تحقيق غاياتهم الخاصة ومصالحهـــم الذاتية .

يقول أنا ملغان : " حيثما تجد بشرا تجد آلاما وأسقاما ، وحيثما تكــون الآلام والأسقام تكون حاجة الناس إلى الطبيب شديدة جدا." [1] وحيثما تكون حاجـــة الناس إلى الطبيب لمعالجة مايصيبهم من الأمراض والأسقام فهناك تكون الفرصة سانحـة تماما للتبشير فيهم . وبهذه الطريقة اتخذ المبشرون الطب وسيلة للوصول إلى مختلـف

(1) A.A.Milligan, Facts and Falks in our Fields Abroad, Philadelphia, 1921, P.133

طبقات الناس ليكرزوا بالمسيحية بينهم • ولقد اهتمت الإرساليات التبشيرية منذ قيام حركة التبشير فى هذه البلاد بتوفير وسائل الصحة على أساس اعتبارها إحدى وسائلها الهامة لنشر المسيحية بين أهالى هذه البلاد • وكان هدف المبشرين من وراء هذا العمل هو أن يظهروا للناس أن المسيحية دين الرحمة والمحبة والإنسانية النبيلة ، وأن المسيحيين والأطباء المبشرين منهم بوجه خاص جماعة الرحمة وأهل الخير يحبون البشرية جمعاء ويسهرون من أجل راحتهم وسعادتهم •

ولكن لو قارنا بين الاهتمام الذى أبداه المبشرون بمجال التطبيب منذ قيام حركة التبشير فى هذه البلاد وبين ذلك الاهتمام الذى أولوه جانب التعليم باعتبار المجالين التعليمى والتطبيبى وسيلتين من أهم وسائل التبشير عند جميع الإرساليات •• لو قارنا بين الاهتمامين علمنا عن طريق استعراض جهود المبشرين فى كل مجال منهما والوقوف على نتائج تلك المجهودات أن اهتمام المبشرين بمجال التطبيب أقل بكثير مما كان عليه الأمر فى مجال التعليم • والسر فى ذلك أن مجال التعليم أوسع من مجال التطبيب ، فإن أبواب التعليم مفتوحة أمام الأصحاء رجالا ونساء وأطفالا ونسبة الأصحاء فى المجتمع بطبيعة الحال أكثر من نسبة المرضى • ثم إن الإنسان يقدم على التعليم وهو فى حالة جيدة من الصحة يتفتح ذهنه لقبول ما يلقى إليه من الأفكار والمبادئ والعلوم، بالإضافة إلى أن الدافع للتعليم عادة يكون اختياريا من أجل الحصول على مطامع ومصالح دنيوية • وكذلك فترة التعليم فإنها طويلة ومستمرة على مدار عمر الإنسان يتنقل فيها من مرحلة إلى أخرى لينتهى فى آخر سلسلة المراحل إلى دائرة العمل حيث يعيش بقية حياته ليزداد تعلقا وتأثرا بما حصل عليه من العلم فى مراحل حياته التعليمية •

وفوق ذلك كله فإن وسائل التعليم من مدارس وكتب وأدوات مدرسية أقل مؤنة وكلفة من وسائل التطبيب بحيث إنه لو وجد مدرس واحد ومعه نسخة واحدة من الكتب المقررة فى مختلف المواد استطاع أن يقوم بمهمته خير قيام مدة طويلة من الزمن • بينما وسائل التطبيب من المراكز الصحية والملاجات والمعدات

الطبية الحديثة أكثر كلفة ومؤونة ، إذ أنه بالمقارنة لو وجد طبيب واحد ومعه نموذج من الأدوية لبعض الأمراض فإنه لايستطيع أن يقوم بمهمته على الوجه الأكمل لأن المرضى سيستهلكون مامعه من الأدوية خلال فترة قصيرة من الزمن •

ثم إن الإنسان لايتقدم إلى الطبيب إلاّ فى حالات خاصة يكون فيها قلق البال لايدرى ماذا يقال له ، لأن همه كله فى الشفاء مما ألمّ به من المرض • وقد يقبل هذا المريض أشياء كثيرة نتيجة ضغط متزايد من الآلام والأسقام ولكنه ربما يتراجع عنها إذا عادت إليه ذاكرته وشفى من مرضه • وقد لاتحين فرصة التطبيب مع بعض الأشخاص ، وقد تقل فترة المعالجة بحيث لايمكن معها إحداث أى تأثير فى قلب المريض أو الذين يحيطون به •

ثم إذا ربط تأثير الطب بضرورة الاعتقاد والإيمان كما كان يفعل المبشرون قبل أن يباشروا معالجة المريض حيث يطلبون من المرضى الاقرار بأن المسيح هو المنقذ الشافى وأن العلاجات بغير هذا الاعتقاد لاتخفف/شيئاً من الآلام/ ولا تشفى الإنسان من المرض ، وإذا اتفق أن مات المريض أو تأخر شفاؤه بعد هذا الاعتقاد وتعاطى ذلك العلاج فسوف يكون لذلك رد فعل عكسى فى نفوس الناس تجاه ما يدعو إليه الطبيب المبشر •

من هذه الزوايا كلها يمكننا أن نفهم ذلك الاهتمام الأكبر الذى أولاه المبشرون جانب التعليم • ولقد كانت الإرساليات التبشيرية تخصص بعثة طبية لكل مركز تبشيرى فى المدن والقرى • وكان اهتمام البعثة يتوجه قبل كل شىء نحو رعاية صحة المبشرين الأجانب الذين كثيرا ما يتعرضون للأمراض نتيجة عدم ملاءمة المناخ الأفريقى لمزاج الأوروبيين • وكانت البعثة تقوم بتدريب بعض الأولاد على المعلومات الأولية فى شئون الطب لمساعدتها فى أعمالها • وبجانب ذلك كله كانت تقوم بمعالجة الناس بإمكاناتها الطبية المحدودة فى حالات الطوارئ • وقد بدأت مراكز التبشير عند بعض الإرساليات التبشيرية مراكز للتطبيب ، ووجهت فيها عناية خاصة بأعيان الناس ووجهائهم ، وقد استطاعت الإرساليات بهذه الطريقة أن تستغل

هؤلاء الناس لمصالح تبشيرية . ولقد قام المبشرون منذ فترة طويلة بإنشاء مستشفيات عامة ومراكز صحية ومستشفيات للتوليد ومستوصفات اختصاصية لمعالجة أمراض الأطفال والأمراض العقلية والأمراض المعدية وأمراض الأسنان والعيون . وكذلك أقاموا مآوى صحية لمعالجة وتحسين حالة المجذومين ، وأنشأوا دوريات طبية متنقلة منتشرة فى معظم أنحاء هذه البلاد . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى كانت لبعض الإرساليات التبشيرية الموجودة فى المناطق الجنوبية مستشفيات فى بعض المدن والقرى. وقد تم فى تلك الفترة إنشاء مستشفى إيى إينو IyiEnu Hospital لجمعية إرساليات الكنيسة الإنكليزية قرب مدينة أونتشا Onitsha والمستشفى المعمدانى فى مدينة أبوماشو Ogbomosho ومستشفى الطائفة الولزلية المنهجية فى مدينة إليشا Ilesha ومستشفى روح القدس لجمعية الإرساليات الأفريقية فى مدينة أبيوكوتا Abeokuta.وقد كان المبشرون فى سياستهم فى ميدان التطبيب يلاحظون الأمراض المنتشرة فى المنطقة التى يريدون العمل فيها فيبادرون إلى إنشاء مستشفى خاص لتلك الأمراض فى تلك المنطقة،ثم يأتون بأطباء اخصائيين مبشرين للعمل فيها ، وكانت هذه المستشفيات تصرف الأدوية والعلاجات للمرضى مجانا . ولكن ياترى ماذا كان هدف المبشرين من وراء جهودهم فى مجال التطبيب؟ هل هذه الجهود من أجل غايات إنسانية نبيلة ، أم إنها مجرد وسائل تستغل لتحقيق مصالح أخرى بعيدة كل البعد عن الغاية الأساسية التى تهدف إليها وسائل الصحة فى حقيقتها ؟

يقول بول هارسون Paul Harrison فى كتابه (الطبيب فى البلاد العربية) : " إذا كان للأطباء المبشرين مستوصف أو مستشفى فإن مهمتهم الأولى – التى هى التبشير بالمسيحية – تكون أسهل ، وذلك لأن الطبيب المبشر يجد فى غرفة الاستشارة فرصا مناسبة ليدخل التعاليم المسيحية فى قلوب المرضى ، وبهذه الطريقة يكون كل من دخل المستشفى للمعالجة قد تلقى من طبيبه المبشر تلك البشارة التى توجهه نحو المسيح ".(1) . وقد جاء فى كتاب الغارة على العالم الاسلامى

(1) P.W.Harrison, Doctor in Arabia, London, 1943, P.141

ترجمة محب الدين الخطيب وساعد اليافى عن مجلة العالم الاسلامى التبشيرية قول المستر هابر فى " وجوب الإكثار من الإرساليات الطبية لأن رجالها يحتكون دائما بالجمهور ويكون لهم تأثير كبير على المسلمين أكثر مما يكون للمبشرين الآخرين" (١) قال جوليوس رشتر J.Richter: " يمكن للطبيب عن طريق التطبيب فى المستشفى أن يخاطب المسلمين بكلام كثير لو سمعوا بعض هذا الكلام فى مكان آخر غير المستشفى ومن شخص آخر غير الطبيب لامتلأوا غيظا وغضبا " (٢) . إن كل مايقوم به المبشرون من مجهودات وأعمال فى مجال التطبيب إنما هو من أجل تحقيق غاية واحدة هى إدخال المرضى تحت حظيرة المسيحية " . "ولقد استخدم المبشر الأفريقى صمويل كراوذار Samuel Crowther والمبشر الأوربى هوب واديل Rev. Hope Wadell عملية التطعيم ضد الجدرى وسيلة للتبشير فى بعض مدن المنطقة الشرقية من هذه البلاد." (٣) وقد قال الدكتور أراهارس : " يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شئ ثم هو طبيب بعد ذلك " (٤) ويجب بعد ذلك أن نلقى نظرة خاطفة إلى ماكان يجرى داخل مستشفيات الإرساليات لنعرف مدى اهتمام المبشرين فيها بالتبشير أكثر من التطبيب . كانت مستشفيات الإرساليات فى بداية الأمر قبل إنشاء المستشفيات الحكومية والأهلية تتشدد كثيرا فى شروط قبول المرضى للمعالجة فيها . وكانت تفرض على المريض قبل معالجته الإقرار بفكرة التثليث " وأن المسيح هو الشافى القدير " (٥) . وأن

---

(١) الغارة على العالم الاسلامى . ترجمة محب الدين الخطيب وساعد اليافى ص ٦٠ .

(2) J.Richter, The History of the Protestant Missions in the Near East, New York, 1910, P.252

(3) . J.F.A. Ajayi, op.cit., P.159

(٤) الغارة على العالم الاسلامى . ترجمة محب الدين الخطيب وساعد اليافى ص ٦٢ .

(5) Anna A.Milligan, op.cit., P.158

الأدوية والعلاجات بغير هذا الاعتقاد لاتخفف الآلام ولاتشفى من الأمراض، ولايمكن أن يجد المريض أى عناية من قبل المستشفى ولوكان يموت أمامهم صرعا إلّا بعد ذلك الإقرار " وركوع المريض أمام الطبيب ليسأل المسيح المنقذ أن يشفيه من مرضه." (١) وكما يسير التعليم والتبشير جنبا إلى جنب ، فكذلك الحال بالنسبة للتطبيب والتبشير ،

وقد كان الأطباء المبشرون يلقون صعوبات كثيرة فى التوفيق بين مهنتى التبشير والطب . وحتى الممرضة التى تسهر الليالى الطويلة فى تخفيف الآلام عن المرضى فإنها لاتدخر وسعا فى انتهاز هذه الفرصة للتبشير فيهم . وقد كان المبشرون فى محاولاتهم مع المرضى يقدمون لهم الإنجيل ويعرضون عليهم التعاليم المسيحية بأسلوب بسيط مركز لايدعو إلى التطرف فى النقاش والجدال . وكانوا يذكرون لهم الخدمات التى تقوم بها الإرساليات التبشيرية فى مجال التطبيب ليستنتجوا من ذلك أن المسيحيين جماعة الرحمة ومنقذو البشرية من الأمراض والأسقام . وتوجد داخل مستشفيات الإرساليات دوريات تبشيرية تتنقل بين المرضى صباح مساء لتعليمهم مبادىء الديانة المسيحية وتلقينهم الدعاء فى أوقات صلوات القداس . وقد كانت لبعض الإرساليات مراكز صحية متنقلة ودوريات طبية جوالة فى السيارات تتنقل بين المدن والقرى النائية وتصرف العلاجات للمرضى مجانا وتكرز من خلال ذلك بالمسيحية بين الأهالى . وكان طبيب الإرساليات فى بعض الأحيان يقوم بزيارة المريض فى بيته إما للمعالجة وإما لمجرد الزيارة بعد نقاهة المريض من مرضه ،

وكان هدف المبشرين من وراء ذلك هو محاولة اتخاذ المريض واسطة لجمع عدد من الناس وخاصة أقربائه الذين يأتون إليه لعيادته ، فحينئذ ينتهز الطبيب هذه الفرصة السانحة ليبشر فى هذه المجموعة من الناس . وبهذه الطريقة يتمكن الطبيب من الوصول إلى جميع طبقات الناس وهو يتستر وراء التطبيب لينفذ من خلاله إلى جميع الناس ، حتى أولئك الذين لايخالطون غيرهم خوفا من

---

(١) Anna A.Milligan, op.cit.,P. 32

أن يكون للمتسللين الدخلاء تأثير عليهم . يقول بول هارسون Paul Harrison

"إن بإمكان الطبيب المبشر أن يصل بتبشيره إلى جميع طبقات المسلمين بواسطة المرضى الذين يعالجهم ، وبإمكانه أن يغير الذين حوله ويجعل منهم نصارى أو يترك في نفوسهم أثرا عميقا." (١) . وعلى الرغم من ضيق مجال التبشير في ميدان التطبيب ، إذا قيس بالمجال الواسع المتاح أمام التعليم الغربي ، فقد كانت آثار أعمال المبشرين في مجال التطبيب بالغة جدا بحيث إنه لايكاد يخرج مريض من مستشفيات الإرساليات إلّا قد صبأ من دينه ويصبح بعد ذلك يطأطئ رأسه للمسيح الذي يعتقد أنه هو الذي شفاه من مرضه ، وأنقذ حياته من الهلاك. قد استطاع المبشرون أن يؤثروا في بعض المسلمين الضعاف الإيمان حيث أغراهم المبشرون بتظاهرهم بالمحبة والرحمة والشفقة وادعائهم بأن الأطباء المبشرين مبعوثون من قبل الله لإنقاذ الناس من الأمراض ونشر السعادة بين بني البشر.

ومنذ أن احتلت الحكومة البريطانية الاستعمارية هذه البلاد لم تبد اهتماما كبيرا بشئون الصحة ، وإنما وكلت الأمر إلى الإرساليات فترة طويلة من الزمن ، وكانت تقدم لها الإعانات المالية لتدعيم نشاطها في هذا المجال كما كانت تفعل في ميدان التعليم العام ، وبذلك استطاع المبشرون أن يستغلوا مجال التطبيب استغلالا كبيرا . وعندما بدأت الحكومة الاستعمارية في إنشاء المستشفيات والمستوصفات لم تكن جهودها في هذا المجال توازي جهود الإرساليات . وقد ظلت الإرساليات فترة طويلة تسيطر على شئون الصحة سيطرة كاملة في معظم مناطق هذه البلاد . وإن قلة مستشفيات الحكومة في معظم هذه المناطق مما ساعد المبشرين كثيرا في تحقيق غاياتهم التبشيرية . وفي بعض المدن والقرى لاتوجد مستشفيات إلّا مستشفيات الإرساليات . وفي بعض الحالات يكون المستشفى المختص بالمرض الذي أصاب المريض مستشفى تبشيريا ، وفي مثل هذه الحالات لا يجد الأهالي مناصا من غشيان مستشفيات المبشرين سواء أرضوا بذلك أم لم يرضوا به . وحتى في الوقت الحاضر فإنه رغم وجود المستشفيات الحكومية والأهلية لا يزال

---

(1) Paul W. Harrison, op.cit., P.276

عدد مستشفيات الإرساليات فى بعض المناطق يربوا على عدد المستشفيات الأخرى بنسبة كبيرة • ولنستعرض بعضا من إحصائيات المستشفيات الحكومية والتبشيرية والأهلية فى بعض مناطق هذه البلاد لنعرف الدور الذى تلعبه الإرساليات فى ميدان التطبيب •

فى ولاية نجد بينوى Benue Plateau State من المناطق الشمالية توجد تسعة مستشفيات عامة لحكومة الولاية بالإضافة إلى ثلاثة أكواخ بنيت سنة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م على شكل مستشفيات • وبذلك يرتفع عدد المستشفيات الحكومية إلى اثني عشر مستشفى • وللإرساليات التبشيرية عشرة مستشفيات عامة وثلاثة مستشفيات أخرى للولادة • ومن جملة المستوصفات المنتشرة فى أنحاء الولاية والبالغ عددها مائة وأربعة وخمسين مستوصفا (١٥٤) تمتلك الإرساليات التبشيرية تسعة وخمسين مستوصفا • ويوجد فى الولاية أيضا خمسمائة وثمانية وخمسون (٥٥٨) مستوصفا لمعالجة المجذومين تمتلك الإرساليات التبشيرية منها ستة وأربعين مستوصفا فقط • وتقوم السلطات المحلية بتمويل المجموع الباقى وإدارة شئونه • وتوجد فى الولاية مدرستان حكوميتان لإعداد الممرضين والقابلات هما مدرسة التمريض فى مدينة جوس (Jos) ومدرسة إعداد القابلات فى مدينة جوس أيضا • بينما توجد للإرساليات التبشيرية ثلاث مدارس لإعداد الممرضين والقابلات وهى فى مستشفى (سيدة الرسل) Our Lady of Apostles فى مدينة جوس ومستشفى التبشير فى مدينة جوس ومدرسة الإرساليات التبشيرية للتمريض • وكانت حكومة الولاية تقدم إعانات مالية كبيرة سنويا لكل من الإرساليات والسلطات المحلية تمكينا لهما من القيام بنفقات المستشفيات والمستوصفات والمدارس لتقدم شئون الصحة فى هذه البلاد •

وأما فى ولاية الشمال الشرقى فقد أنشأت الحكومة ستة عشر مستشفى عاما فى مختلف المدن وثلاثة مستشفيات أخرى لأمراض الأسنان ومستشفى واحدا للتوليد ومركزا واحدا لإعداد الممرضين والقابلات بينما تمتلك الإرساليات التبشيرية خمسة

مستشفيات عامة وثلاثة مستوصفات ومأوى لمعالجة المجذومين وواحدا وخمسين مستوصفا وعشرة مستشفيات للولادة وأمراض الأطفال وثلاثة عشر مركزا للاسعاف • وفى ولاية الشمال الأوسط يوجد اثنا عشر مستشفى عاما،للحكومة منها خمسة مستشفيات وللإرساليات ثلاثة ، وتشرف جامعة أحمد بيلو على الأربعة الباقية • وهناك مستشفيان لمعالجة المجذومين لكل من الحكومة والإرساليات • وللحكومة خمس مدارس لإعداد الممرضين والقابلات وللإرساليات مدرستان للتمريض • وهناك مستوصفات كثيرة فى أنحاء الولاية تشرف عليها السلطات المحلية • وكانت الحكومة تقدم إعانات مالية ضخمة إلى الإرساليات والسلطات المحلية فى هذا المجال •

وفى ولاية الشمال الغربى يوجد خمسة عشر مستشفى عاما ، للحكومة منها أربعة عشر وللإرساليات مستشفى عام واحد فقط • وهناك خمسة عشر مستشفى للولادة وأمراض الأطفال ، تمتلك الحكومة منها ثمانية مستشفيات وللإرساليات ثلاثة وللسلطات المحلية أربعة • وفى الولاية أيضا مائة وثمانية وخمسون مستوصفا (١٥٨) للسلطات المحلية منها مائة وتسعة وثلاثون مستوصفا وللإرساليات تسعة عشر مستوصفا فقط • وكذلك يوجد فى الولاية أربعمائة وتسعون مستشفى لمعالجة المجذومين ، للحكومة منها أربعمائة وستة وسبعون مستشفى وللإرساليات أربعة عشر مستشفى فقط • وأما فى ولاية كانو من المناطق الشمالية فقد خفت وطأة الإرساليات التبشيرية وتكاد الحكومة تسيطر على شئون الصحة كلها • فقد أنشأت الحكومة ستة مستشفيات عامة ومستشفيين اختصاصيين لأمراض الأسنان والأمراض المعدية ، وسبعة مستشفيات للولادة وأمراض الأطفال • وكانت جامعة أحمد بيلو تقوم بإدارة شئون المستشفى الوحيد فى المنطقة لتجبير العظام • وتمتلك إرسالية مناطق بلاد السودان الداخلية Sudan Interior Mission المستشفى الوحيد لأمراض العيون ومستشفى معالجة المجذومين • وليس للإرساليات مدرسة للتمريض ، وإنما كانت مدارس إعداد الممرضين والقابلات كلها حكومية • وفى ولاية كوارا من المناطق الشمالية أنشأت الحكومة أحد عشر مستشفى عاما وخمسة مستشفيات لمعالجة المجذومين ومستشفى

واحدا للولادة في مدينة إلورن وثلاثة مستشفيات للأمراض المعدية وثلاثة مراكز صحية في الأرياف • وتمتلك الإرساليات التبشيرية أربعة عشر مستشفى عاما في هذه الولاية • وبعد هذا ننتقل إلى المناطق الشرقية ونبدأ بولاية الشرق الجنوبي •

كانت حكومة ولاية الشرق الجنوبي تمتلك سبعة مستشفيات عامة ومستوصفين لأمراض الأسنان ومستشفى واحدا للولادة وأمراض الأطفال وخمسة مستشفيات لمعالجة المجذومين وتسعة مراكز صحية ، بينما تمتلك الإرساليات التبشيرية أحد عشر مستشفى عاما وستة مستشفيات أخرى اختصاصية ، وهناك ثلاثة مستشفيات أهلية ومستشفيان آخران لبعض الشركات التجارية •

وأما في ولاية الشرق الأوسط ، فقد أنشأت الحكومة أحد عشر مستشفى عاما وأربعة مستشفيات للولادة وأربعة مستشفيات لأمراض الأسنان وأربعة وثلاثون مركزا صحيا ومستشفيان لمعالجة المجذومين ، وهناك مستشفى تابع لكلية الطب في مدينة أينوجو Enugu • بينما أنشأت الإرساليات التبشيرية سبعة عشر مستشفى عاما وثلاثة مستشفيات أخرى اختصاصية • وهناك أيضا اثنان وعشرون مستشفى ومستوصفا أهليا ومستشفى واحد لشركة تجارية • وأما في ولاية أنهار "الزيت" الشرقية فقد أنشأت الحكومة سبعة مستشفيات عامة وخمسة مستشفيات أخرى اختصاصية ومستشفى واحدا عسكريا وأربعة مراكز صحية • وأما الإرساليات التبشيرية فإنها لاتمتلك غير خمسة مستشفيات عامة • وهناك في الولاية اثنا عشر مستشفى أهليا ومستشفيان آخران لأمراض الأسنان ومستشفى واحد لإحدى الشركات التجارية • وأما في ولاية المنطقة الغربية فقد أسست الحكومة عشرين مستشفى عاما واثنى عشر مستشفى إقليميا ومستشفيين اختصاصيين • وللإرساليات التبشيرية أربعة عشر مستشفى عاما في بعض المدن الرئيسية في هذه المنطقة • وكذلك يوجد في الولاية أربعمائة مستوصف وثلاثمائة مستشفى للولادة وأمراض الأطفال تشرف عليها السلطات المحلية وتقوم كلية الطب والمستشفى الجامعي بجامعة إبادن وكلية الطب وكلية الصيدلة

بجامعة مدينة إيفى بإعداد الأطباء والممرضين والقابلات وخبراء الطاقة الإشعاعية والصيدليين ، وفى ولاية الغرب الأوسط يوجد سبعة عشر مستشفى عاما للحكومة وستة مستشفيات عامة للإرساليات التبشيرية وأربعة مستشفيات أهلية • وتقوم الحكومة بتقديم مساعدات مالية كبيرة لكل من الإرساليات والشركات التجارية وبعض الأهالى الذين أسسوا مستشفيات ليتمكنوا من تنمية مستشفياتهم وإقامة مستوصفات جديدة فى القرى والأرياف البعيدة عن المدن الرئيسية التى تتوفر فيها وسائل الصحة •

هذا ملخص إحصائيات المستشفيات الحكومية والتبشيرية والأهلية المنتشرة فى ربوع هذه البلاد • وقد استقينا المعلومات الواردة فى هذا الملخص من كتاب صغير حول نيجيريا نشرته وزارة الاعلام النيجيرية عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) (1) وقد رأينا من خلال هذا الاستعراض الدور الكبير الذى تلعبه الإرساليات التبشيرية فى مجال التطبيب بحيث تكاد جهودها تربو على جهود الحكومة الاستعمارية والمحلية فى بعض المناطق • ولو لم يكن ضيق مجال التبشير فى ميدان التطبيب كما أسلفنا وقيام المستشفيات الحكومية والأهلية الذى أدى إلى تقلص سلطة مستشفيات الإرساليات لكان لجهود المبشرين فى هذا المجال شأن خطير فى عملية تحويل الناس إلى المسيحية •

ومهما يكن أثر وسيلة التطبيب فى هذه البلاد بالنسبة لأثر المجال الواسع فى ميدان التعليم الغربى فقد اعتبرت جميع الإرساليات مجال التطبيب أثمن الفرص المتاحة أمامها للتبشير بعد ميدان التعليم •

ولئن لم يفلح المبشرون فى جعل مستشفياتهم معاقل حقيقية لتنصير كل من دخلها للمعالجة ، فقد استطاعوا أن يرفعوا من شأن المسيحية والمسيحيين فى مجال الخدمات الاجتماعية بفضل كون الإرساليات التبشيرية هى الهيئات الدينية الوحيدة التى تقيم المؤسسات الخيرية فى هذه البلاد • وقد أدى ذلك إلى تغير مشاعر بعض الناس تجاه أعمال المبشرين وخاصة عندما انتهجوا سياسة اعتدالية فى شئونهم الصحية بإلغاء بعض الشروط الشديدة والطرق المنفرة ، وذلك نتيجة نفور مجموعة

(1) Fedral Ministry of Information, Nigeria Handbook, Lagos, 1974. P.109-117

كبيرة من الناس من دخول مستشفياتهم وانصرافهم إلى المستشفيات الحكومية والأهلية .

إن أثر أعمال المبشرين فى مجال الصحة فى نفوس الصابئين كان كبيرا جدا ، فإن هذه الأعمال من شأنها أن تزيد الصابئ قوة فى إيمانه وتمسكه بدينه وولائه لرسل التبشير الذين أسدوا إليه هذا الخير الجليل وأنقذوا حياته من الهلاك . فأما أثر هذه الأعمال فى أصحاب الأديان الأخرى فإنها إن لم تكن سببا مباشرا لإدخالهم فى حظيرة المسيحية ، وتلك هى الغاية الأساسية التى تهدف إليها هذه الأعمال فإنها تؤدى على الأقل إلى تقريب هؤلاء الناس إلى المبشرين ليبثوا فيهم أفكارهم ومعتقداتهم سواء تمكنوا من تحويلهم أم لم يتمكنوا من ذلك ، فإنه إذا لم يستطيع المبشرون أن يحولوا هؤلاء الناس إلى المسيحية فإنهم لا يخسرون المعركة تماما بل تترك أعمالهم أثرا عميقا فى نفوس المرضى الذين شفوا على أيديهم وفى نفوس أقربائهم الذين يهمهم أمر شفائهم . ومن شأن هذا الأثر أن يقرب هؤلاء الناس الى المبشرين ويحببهم إلى الناس جميعا ، وهذا يخفف من شدة عداوة الناس للمبشرين ويهدئ من روح العصبية الشديدة تجاههم ويجعل بعض الناس ينظرون إلى أعمال المبشرين من زاوية الخدمات الاجتماعية والأعمال الخيرية نظرة إعجاب وتقدير ، ولا يلتفتون إلى الغاية الأساسية التى يهدف إليها المبشرون بهذه الأعمال .

وبذلك تكون وسيلة التطبيب قد حققت نوعا من النجاح فى هؤلاء الناس ، وإن هذا النجاح المحدود نسبيا هو الذى يمهد الطريق أمام نجاح كبير يمكن أن يأتى فيما بعد عن طريق وسيلة أخرى أقوى أو خطة أخرى أدق ، أو عن طريق اتصالات متكررة بين الأطباء المبشرين وبين هؤلاء الناس فى مجال التطبيب نفسه، فإن القلوب مجبولة على حب من أسدى إليها المعروف وقدم إليها الخير والإحسان. وكما سبق أن قلنا فإن الأعمال التى يقوم بها المبشرون فى مثل هذه المجالات وإن كانت فى ظاهرها أعمال خير إلاّ أنها فى حقيقتها وجوهرها أعمال نفعية لم يقصد من ورائها غايات إنسانية نبيلة . إن تشابه ظواهر الأشياء لا يدل على

وحدة القيمة والجوهر . فما قيمة عمل الصياد الذى يضع طعما دسما فى كلابه ليغرى به فريسته ؟ ولو أن الفريسة أكلت من الطعام حتى شبعت ولم تقع فى الفخ المضروب لها، فهل يرضى الصياد بذلك أم يحنق عليها ؟ وهل الطعام الذى أكله هذا الصيد — سواء وقع فى الفخ أم لم يقع — إحسان وخير قصد به الصياد منفعة الصيد أم الغاية منه محاولة الوقيعة بالصيد لينتفع به الصياد فى مصالحه الذاتية ؟

* * *

المبحث الثالث :

دور وسائل الاعـــلام فى الدعاية التبشيرية

إن لوسائل الإعلام من كتب ومجلات وجرائد ومحلات بيع الكتب والمحطات الإذاعية والأجهزة السينمائية والتلفزيونية أهمية كبيرة فى المجتمع من حيث التأثير فى الناس وتغيير معتقداتهم الدينية واتجاهاتهم السياسية وشئونهم الاجتماعية • ولقد أدرك المبشرون ما لمجال النشر من أهمية كبيرة فى الدعاية التبشيرية فى هذه البلاد فأولوه عنايتهم الخاصة لأنهم عرفوا أن أشد الوسائل أثرا فى الناس انتاج النشرات المسيحية.بالإضافة إلى مايقدمه النشر من خدمة كبيرة لجميع وسائل المبشرين الأخرى فى مختلف مجالات أعمالهم التبشيرية •

إن الكتب والمجلات والجرائد والنشرات كانت توجه للتبشير بين طلاب المدارس والمتعلمين من الكبار والمثقفين • وأما الإذاعة والسينما والتلفزيون فإنها توصل الأخبار المسيحية إلى الناس جميعا وهم فى عقر دارهم • ولقد استغل المبشرون جميع أوجه الأعمال الاجتماعية للتبشير ، حتى تلك التى لايسبق إليها الوهم لأول وهلة أنها وسائل تبشيرية • ومن ذا يظن أن محلات بيع الكتب التى هى فى ظاهر أمرها مؤسسة تجارية صرفة قد اتخذها المبشرون وسيلة لنشر المسيحية بين الذين يدخلونها لشراء الكتب ، وذلك زيادة على كونها وسيلة قوية لنشر الكتب المسيحية فى المجتمع • وقد قررنا سابقا أن هناك مجموعة كبيرة من الأوربيين قد جاءوا إلى هذه البلاد تجارا ومدرسين وأطباء وموظفين ومستكشفين وحكاما وجنودا ولكنهم كانوا طلائع وروادا للاستعمار الصليبى • إن غاية المبشرين من وسائل النشر هى نشر مبادئ ومعتقدات وتعاليم الديانة المسيحية بين جميع طبقات المجتمع من الطلاب والمثقفين والكبار الذين استطاع المبشرون أن يعلموهم القراءة والكتابة باللغات المحلية وطبقة الأميين من الرجال والنساء الذين تنجح فيهم طريقة الإذاعات المسموعة والمرئية • ولقد أدرك المبشرون منذ بداية حركة التبشير الحديثة فى مستعمرة سيراليون فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى أنهم لن يستطيعوا أن يحققوا أى نجاح فى أعمالهم التبشيرية بين العبيد المحررين فى تلك المستعمرة إذا لم يتعلموا بعض اللغات المحلية ليستطيعوا أن يتفاهموا مع هؤلاء الناس ويتعرفوا على شئونهم السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية • إن وسيلة التبشير الأولى التى قام بها المبشرون فى تلك الفترة هى محاولة تعلم اللغات الأفريقية لأنهم يعرفون

أن نجاح أعمالهم فى الدعاية التبشيرية يرتكز على معرفة لغات الشعوب الأفريقيـــــة . إن الأفريقيين الذين جاء المبشرون إليهم لينشروا فيهم الديانة المسيحية لايفهمون لغة هؤلاء المبشرين ، وكذلك المبشرون الأوربيين أنفسهم لا يعرفون لغات الشعوب الأفريقية . فكيف يستطيع المبشرون أن يقوموا بأعمالهم فى مثل هذا المجتمع إن لم يتعلموا لغات هؤلاء الناس ؟ لذلك أصبح لزاما على المبشرين أن يتعلموا أولا قبل أن يبدأوا بتعليم الناس . ولكن بأى طريق استطاع المبشرون أن يتعلموا هذه اللغات ؟ إذا علمنا أن هذه اللغات لم تكن مكتوبة بحـــروف خاصة بهـــا ، وأن شعوب هذه البلاد لم تكن لها فى تلك الفترة مدارس لتعليم هذه اللغـــات ، وأن التعاليم الدينية التى يريد المبشرون أن ينشروها بين هؤلاء الناس تحتاج إلى دراســـة عميقة فى علوم هذه اللغات حتى يستطيعوا أن ينقلوا إليها التعاليم الدينية .. إذا علمنـــا هذا كله أدركنـــا أن مهمة المبشرين فى هذه الفترة كانت شاقة وعويصة . ولكن الغايـــــة التى يرمى إليها المبشرون هى التى جعلتهم فى جميع المواقف يستخفون بالمشاكـــــــل ويستسيغون أنواع العذاب ويقذفون بأنفسهم فى أعماق المخاطـــر . لقد بدأ المبشرون بدراسة اللغات المحلية منذ وقت مبكر عندما بدأت الإرساليات التبشيرية أعمالها بين العبيـــد المحررين الذين جمعتهم الحكومة البريطانية فى المدينة الحرة (Freetown) فى مستعمـرة سيراليون. " ولما رأى القس ج .ت رابان (J.T. Raban) وهو أحد مبشرى إرساليـــات الكنيسة الإنكليـزية أن قبائل يوربا أخذ يزداد عددها يوما بعد يوم حتى أصبحت الأغلبيـــة الساحقـة من بين سكان هذه المستعمرة الجديدة ، قام بدراسة لغة يوربا منذ سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م حتى سنة ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٢م وذلك من أجل خدمة أعمال التبشير داخل المستعمرة."(١)

" وإن القوة الدافعة وراء اهتمام المبشرين باللغات المحلية هى رغبتهم الشديدة فى تعليـم الصابئين وكل من يرغب فى اعتناق المسيحية قراءة الكتاب المقدس."(٢) والكتب الدينية المسيحية الأخرى . ولقد بدأ المبشرون بدراسة لغة هوسا ولغة إيبوا ولغة يوربا منذ قيام رحلة نهــر النيجـر المشهورة التى نظمتها الحكومة البريطانية سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١م . وقد كان مـــن بين المشتركين فى هذه الرحلة مبشران من إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية ، وكان أحدهما أوربيا وهو القس ج .ف سكون (Rev.J.F. Schon) والآخر نيجيريا وهو المبشر صموبل أجاى كراوثر

(1) J.F.Ade. Ajayi, op. cit., P.127

(2) Ibid P.131

Samuel Crowther . وإن المهمة التى كلف بها القس سكون (Schon) فى هذه الرحلة هى دراسة لغة هوسا ولغة إيبوا تمهيدا لخدمة أعمال التبشير فى المناطق الشمالية المسلمة والمناطق الشرقية الوثنية . وقد استطاع هذا القس أن يضع كتابين فى هاتين اللغتين سنة ١٢٥٩ هـ /١٨٤٣م أولهما كتاب " مفردات لغة هوسا وقواعدها اللغوية " وقد أعاد هذا القس طبع هذا الكتاب للمرة الثانية سنة ١٢٧٩ هـ /١٨٦٢م بعد أن قام بمراجعته الكتاب وأضاف إليه معلومات مستفيضة ، وثانيهما كتاب " مفردات لغة إيبو " . وهناك كتاب ثالث ألفه القس سكون (Rev. Schon) سنة ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦م وهو " قاموس لغة هوسا " . وأما المبشر النيجيرى المطران صمويل أجايى كراوذار (Samuel Crowther) فقد كلف بدراسة لغة يوربا لأنها لغته ، وقد استطاع هو الآخر أن يضع كتابه " قواعد ومفردات لغة يوربا " الذى طبعه أول مرة سنة ١٢٥٩ هـ/١٨٤٣م ، وفى سنة ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م أخرج الطبعة الثانية من هذا الكتاب منقحة ومزيدة بمعلومات كثيرة ذات أصالة لغوية وقيمة نحوية " . وقد قام هذا المبشر أيضا بترجمة أربعة أسفار من كتاب العهد الجديد إلى لغة يوربا سنة ١٢٦٨هـ/ ١٨٥١م وهذه الأسفار الأربعة هى سفر القديس لوقا وسفر أعمال الرسل وسفر القديس جيمس وسفر القديس بطرس . " (١) وإن المبشر صمويل كراوذار والمبشر توماس كنج (Thomas King) هما اللذان قاما بترجمة الكتاب المقدس بأكمله وكتب الصلوات وبعض الكتب الدينية المسيحية الأخرى إلى لغة يوربا . ولم تقتصر جهود المبشر صمويل هذا فى مجال الترجمة على لغة يوربا فحسب وإنما امتدت جهوده فى هذا المجال إلى دراسة لغة إيبو ولغة نوبة . وقد استطاع أن يؤلف فى مفردات وقواعد هاتين اللغتين كتابين نشرهما سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م. وكان المبشر القس هوب واديل Rev. Hope Waddell أول من قام بدراسة لغة إيفكى التى هى إحدى لغات قبائل المنطقة الشرقية ، ووضع فى هذه اللغة كتابا سماه " مفردات لغة إيفكى " طبعه سنة ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م . ثم بعد ذلك جاء دور القس هوج غولديا (Rev. Hugh Goldie) فقام بدراسة لغة إيفكى دراسة عميقة حتى استطاع أن يخرج للناس كتابه الجامع لعلوم هذه اللغة الذى أسماه كتاب " قواعد لغة

---

(1) J.F.Ade. Ajayi, op. cit., P.127

إيفكي مع النماذج والأمثلة " وطبعه سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م. وقد قام هذا القس كـــذلك بترجمة كتاب العهد الجديد إلى لغة إيفكي وطبعت هذه الترجمة سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م .

وفي سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م قام هذا المبشر الكبير بنشر ثلاثة من كتبه هي " قاموس لغـــة ايفكي " وكتابان آخران في قواعد هذه اللغة أحدهما بلغة إيفكي والآخر باللغة الإنكليزيـــة.

" وقد كتب القس غولديا Rev. Goldie مايزيد على مائة رسالة بلغة إيفكي في موضوعات دينيـــة مسيحية . "(١) وقد بعثت الهيئة التبشيرية العليا للشئون الخارجية العالم اليهودي الشـــاب الدكتور روب (Dr. Robb of Aberdeen) إلى نيجيريا لدراسة لغة إيفكي وفي سنـــة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م فرغ هذا العالم اليهودي من ترجمة كتاب العهد القديم إلى لغة إيفكـــي وطبع منه عدد كبير . ولكن الدكتور روب هذا لم يلبث أن غادر البلاد وانتقل إلى جاميكـــا (Jamaica) لأسباب صحية . وأما القس الألماني س . و . كولي (Rev. S.W. Koelle) الذي كان أحد مبشري إرساليات الكنيسة الإنكليزية فقد كلف بدراسة لغة كنوري وهي إحـــدى اللغات الرئيسية في المناطق الشمالية . وقد ألف هذا المبشر كتابين في قواعد هـــذه اللغة وعلومها نشرهما سنة ١٢٧١ هـ/١٨٥٤م وهذان الكتابان هما كتاب " قواعد لغـــة كنوري " وكتاب " الأدب المحلي الأفريقي " . "ولهذا المبشر كتاب آخر في مقارنة اللغات الأفريقية جمع فيه نحو ثلاثمائة كلمة وجملة من أكثر من مائة لغة أفريقية . وقد طبع هذا الكتـــاب في لندن سنة ١٢٧١ هـ/١٨٥٤م ."(٢) ومن المبشرين الأوربيين الذين درسوا لغة يوربـــا دراسة جيدة وألفوا فيها بعض الكتب المبشر ج .ت . بوون (J.T.Bowen) رئيس إرساليـــات الكنيسة المعمدانية في نيجيريا وقد ألف في هذه اللغة كتابا كبيرا أسماه " قواعد وقامـــوس لغة يوربا " طبعه ونشره عام ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م . وكذلك العالم اليهودي ديفيد هندرار (David Hinderer) من إرساليات الكنيسة المعمدانية فهو الذي قام بالإشراف على ترجمة كتاب العهد القديم إلى لغة يوربا، ثم قام هو نفســه بنقل كتاب " رحلة الحجيج " إلى هذه اللغـــة . ومنهم أيضا القـــس س . أ . غولمار (Rev. C.A. Gollmer) أحد مبشـــرى

---

(1) J.C. Anene, Southern Nigeria In Transition, Cambridge, 1966; P.51

(2) J.F.A. Ajayi, op. cit., P.129 (from the footnote)

إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية الذى قام بنقل كتاب " خلاصة العقيدة المسيحية " الذى ألفه وات (Watt) إلى لغة يوربا ، كما نقل إليها أيضا كتاب " قصص الكتاب المقدس " تأليف كارل بارث (Carl Barth). وعندما تفرغ المبشر الشهير صمويل كراوذار لدراسة لغة يوربا كانت مهمة دراسة لغة إيبو ولغة إجو (Ijaw) ملقاة على عاتق المبشر النيجيرى الآخر ج ٠س٠ تايلور (J.C. Taylor) والمبشر تايلور هذا من إحدى قبائل إيبو الأصلية • وقد أتم ترجمة كتاب العهد الجديد إلى لغة إيبو سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م وبعث بالترجمة إلى الهيئة التبشيرية العليا فى لندن للطبع • ولكن الهيئة قدمت هذا العمل إلى القس البريطانى ج ٠ف٠ سكون (J.F. Schon) للمراجعة فأبدى القس انتقادات كثيرة حالت دون خروج الكتاب إلى الطبع وقد ثبط ذلك همة تايلور Taylor وكان سببا مباشرا لتخليه عن خدمة الإرساليات نهائيا • وهناك جهود أولية قام بها القس بول Rev. Paul وهنرى جنسون Henry Johnson فى دراسة لغة نوبة وكذلك المبشر ب ٠ج ٠ وليامز (P.J.Williams) فى دراسة لغة إبيراء ولكنها جهود متواضعة بعيدة عن الدقة والعمق • إن الجهود الكبيرة التى بذلها هؤلاء المبشرون الأوائل فى وضع الحروف اللاتينية لكتابة معظم اللغات الرئيسية فى هذه البلاد ونقل مجموعة كبيرة من الكتب الدينية المسيحية إليها كانت ذات فائدة كبيرة وآثار ملموسة ، فإنها قد مهدت الطريق أمام هؤلاء المبشرين والذين جاءوا من بعدهم حتى استطاعوا أن يقوموا بأعمالهم التبشيرية بين مختلف قبائل هذه البلاد • وإن الكتب التى وضعها هؤلاء المبشرون فى قواعد وعلوم تلك اللغات كانت تعتبر مصادر أساسية اعتمد عليها جميع المبشرون الذين جاءوا من بعدهم فى تعلم هذه اللغات وفى دراساتهم وبحوثهم فى ترجمة الكتب الدينية المسيحية إلى هذه اللغات وفى تعليم الناس القراءة والكتابة وفى الدعاية التبشيرية •

" إن طريقة التهجى المتبعة اليوم فى قراءة وكتابة لغة يوربا هى تلك التى وضعها هؤلاء المبشرون منذ تلك الفترة ، وإن كانت القواعد اللغوية التى وضعوها لاتزال ترد عليها الانتقادات من حيث عدم الدقة والعمق ولكن أعمالهم فى ميدان الترجمة قد ظلت حتى اليوم

تحمل قيمة أدبية رفيعة (١) ". وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المبشرين قد أسسوا جمعية تبشيرية سنة ١٣٠٩هـ / ١٨٩١م مهمتها دراسة لغة هوسا . وكان رئيس هذه الجمعية جورج غولديا (George Goldie) . ويذكر أن هذه الجمعية قد أنشئت تخليدا لذكرى أيام المبشر المغامر الكبير ج.أ. روبنسون (J.A. Robinson) الذى مات فى تلك السنة بعد أن قام بجهود كبيرة فى ترجمة قسط كبير من الكتاب المقدس إلى لغة هوسا (٢). " إن غاية هؤلاء المبشرين من تأسيس هذه الجمعية هى تمكين بعض المبشرين من دراسة لغة هوسا من أجل خدمة أعمال التبشير ونشر الدعاية التبشيرية بين شعوب هذه البلاد المسلمة وكذلك إنشاء كلية فى مدينة ليفربول (Liverpool) حيث يستطيع الهوساويون أن يتعلموا اللغة الإنكليزية ويستطيع البريطانيون كذلك أن يتعلموا فيها لغة هوسا . ولكن هذه الجمعية لم تنجح فى تحقيق غاياتها التبشيرية (٣) ". وقد ذكر كانون روبنسون (Canon Robinson) " أن هذه الجمعية وكالة تبشيرية، ومن الواجب علينا أن نقوم بترجمة الكتاب المقدس إلى لغة هوسا وتأسيس كلية فى مدينة كانو لإعداد المبشرين (٤) ". ولقد بعثت الهيئة العليا لإرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية عددا كبيرا من المبشرين إلى طرابلس سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م لدراسة لغة هوسا استعدادا لبدء أعمال التبشير فى المناطق الشمالية الإسلامية . وقد اختيرت مدينة طرابلس بسبب وجود جالية هوساوية كبيرة فيها ولأن الحجاج الهوساويين كانوا فى تلك الفترة يمرون بهذه المدينة فى طريقهم إلى مكة المكرمة . ولكن هؤلاء المبشرين لم يمضوا فترة طويلة فى طرابلس حتى طلبوا من الهيئة التبشيرية التى بعثتهم إلى هذه المدينة أن تسمح لهم بالتوجه إلى ميدان العمل فى المناطق الشمالية من نيجيريا . وقد كان من بين هؤلاء المبشرين المبشر

---

(1) J.F.Ade. Ajayi, op. cit., P.128.

(2) E.A.Ayandele, op. cit., P.124.

(3) The Journal of Committee, Liverpool, 14 July, 1894. quoted by Ayandele P.124.

(4) CMS G3/A3/07 The Hausa Association Ocassional Paper No X111 1898.

المشهـور فى ميدان العمل التبشيرى فى شمال نيجيريا الدكتور والتار ملار (Dr. Walter Miller) الذى ولد سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م فى مدينة دفونشير (Devonshire) والذى كان منذ طفولته عدوا/لدودا للإسلام وللمسلمين الأتراك وكان يتمنى لو أنه كان بمدينة أرمينيا سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م لينتقم من الهزيمة النكراء التى منى بها المسيحيون هناك والعذاب الأليم الذى أصابهم فيهـا .(١) ولقد قام المبشرون بجهود كبيرة ونشاط واسع منذ فترة طويلة فى/سبيل نشر دعايتهم فى جميع أنحاء هذه البـلاد. وإضافة إلى جهودهم فى وضع الحروف اللاتينية لكتابة وقراءة اللغات المحلية وترجمة مجموعة كبيرة من الكتب الدينية المسيحية إلى هـــذه اللغات ونشر هذه الكتب بين جميع طبقات المجتمع، فقد كان المبشرون يبذلون جهودا كبيرة فى نشر المجلات والجرائد والمنشورات التى تنقل أخبارهم وتنشر أعمالهم التبشيرية بمختلف اللغات المحلية إلى جميع الناس. وكانوا يوزعون هذه المنشورات فى جميع المدن والقـــرى بواسطة المبشرين العاملين فى المدارس وفى الكنائس وكذلك عن طريق الفرق المسيحيـــة الجوالة ومحلات بيع الكتب . لقد عرف المبشرون أهمية الصحافة فى المجتمع حيث إنهـــا تهيئ الظروف والأجـواء أولا لقبول ماتنشـره فى المجتمع ثم بعد ذلك تخلق الرأى العـام فى هذا المجتمع وفى النهاية تقوم بتوجيه الرأى العام نحو الأهداف التى تصبوا إليهـا . ولذلك كانت جميع الإرساليات التبشيرية العاملة فى مختلف مناطق هذه البلاد تقوم بإصدار صحف ومجلات ونشـرات خاصة لنشـر دعايتها التبشيرية منذ فترة طويلـة . وإن من هذه النشرات مايصدر يوميـا أو أسبوعيا أو شهريا وبعض هذه النشرات ينشر باللغات المحلية والبعض الآخر باللغة الإنكليزية . ومنذ سنة ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م بدأت جمعية يوربـا(٢) التبشيرية تصدر أول جريدة تنشـر فى هذه البلاد، وقد أطلقت الجمعية على جريدتها اسم (Iwe Irohin) أى جريدة الأخبار وكانت تنشر أخبارها بلغة يوربا وكانت تصدر نصـف

---

(1) Walter Miller, An Autobiography, Zaria, 1953, P.1

(٢) جمعية يوربا التبشيرية فرع لجمعية ارساليات الكنيسة الانكليزيه التبشيرية فى نيجيريا وهـى التى كانت تعمل فى بلاد يوربا فى تلك الفترة وكانت لها مراكز كثيرة فى مختلف المدن والقرى داخل بلاد يوربا .

شهرية) كل أسبوعين . وإن الغاية الأساسية التي من أجلها أنشئت هذه الجريدة هـو نشر التعاليم المسيحية وأخبار الكنيسة ورسل التبشير بين الصابئين الجدد ومجموعة العبيد المحررين الذين عادوا من منفاهـم إلى بلاد يوربا في تلك الفترة . وكانت بجانب ذلك تقوم بنشـر الثقافة بواسطة مقالاتها في التاريخ والسياسة والمعلومات العامة . وكان القس البريطاني هنري تونسند Rev. Henry Townsend رئيس جمعية يوربا التبشيرية هو مؤسس هذه الجريدة والمشرف على شئونها . وقد بدأت مطبعة الجمعية تنشـر مجموعة كبيرة من الكتب والرسائل في المبادئ والمعتقدات والتعاليم المسيحية . وعندما وصلت إرساليـة الكنيسة المشيخية إلى هذه البلاد سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م كانت معها آلات الطبـــع، وكان من بين مبشريها خبراء في شئون الطباعة.وقد بدأت هذه الإرسالية التبشيرية مهمـة الطبع والنشـر في الحال ولم تمض فترة طويلة حتى استطاعت أن تطبع مجموعة كبيرة مـن الكتب المدرسية وبعض المذكرات والرسائل والكتب في التعاليم المسيحية بلغة إيفكي Efik واللغة الإنكليزية وكذلك بعض الأسفار من الكتاب المقدس . وقد كان للمطبعة الـــتي أسسهــا هذه الإرسالة التبشيرية منذ تلك الفترة أثر كبير في تقدم أعمالها في المنطقة الشرقية . وقد ســار القنصل روبرت كامبل (Robert Campbell) على منوال القس هنري تونسنـد (Henry Townsend) فأنشأ جريدته التي أسماها " الجريدة الإنكليزية الأفريقية" وكانت هذه الجريدة تعنى في المقام الأول بالقضايا السياسية ومشاكل العبيد الأفريقيين المحررين وإلى جانب ذلك تقوم بنشر الدعاية التبشيرية . وعندما بدأ مجال التعليم الغربي يؤ تـي ثماره في المجتمع وظهرت طبقة المثقفين ومجموعة كبيرة من الكبار الذين تعلموا القـــراءة والكتابة باللغات المحلية في مدارس الإرساليات هرعت جميع الإرساليات التبشيريـــة الموجـودة في المناطق الجنوبية إلى إنشاء المجلات والجرائد الخاصة بها لنشر معتقداتها ومبادئها وتعاليمها على اختلاف مذاهبها . وفي سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٧م بـــدأت إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية بإصدار أول مجلة تظهر في هذه البلاد وقد أسمتها مجلة " في أوقات الفراغ " (In Leisure Hours) ولا تزال هذه المجلة تصدر حـــتى الوقت الحاضـر . وفي نفس السنة ظهرت مجلة " جامع أخبار الكنيسة الأفريقيـــــة"

(African Church Gleaner) وهى لإحدى الكنائس الأفريقية ولكن لم تمض فترة طويلة حتى توقفت عن الصدور . وفى سنة ١٣٣٨هـ/١٩١٩م ظهرت مجلة "الأمل الأفريقى" (African Hope) . وبعد ذلك بدأت الإرسالية المعمدانية تصدر مجلة " المعمدانى الأفريقى " (African Baptist) منذ سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م.ثم ظهرت مجلة " المنهجى النيجيرى " (The Nigerian Methodist) التى أنشأتها الإرسالية الويزلية المنهجية التبشيرية (Wesleyan Methodist Missionary Society) سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م / وقد أتبعت هذه الإرسالية التبشيرية مجلتها الأولى بمجلة أخرى نقدية سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م وهى المجلة النقدية للمنهج النيجيرى (The Nigerian Methodist Review) . ولم تبدأ الإرساليات الكاثوليكية بإصدار مجلة خاصة بها حتى سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م التى أنشأت فيها مجلة " الرائد الكاثوليكى " (Catholic Herald) ومجلة الحياة الكاثوليكية (Catholic Life) ولا تزال المجلة الثانية تصدر حتى الوقت الحاضر ويبلغ معدل عدد النسخ التى تنشر من هذه المجلة شهريا نحو سبع عشرة ألف نسخة . وهناك مجلة أخرى بدأت تصدر منذ سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م وهى " مجلة تاريخ الكنيسة الأفريقية " ورغم مالهذه المجلة من أثر كبير فى جمع شمل المسيحيين الأفريقيين وتوحيد صفوفهم لمجابهة مشكلة العنصرية التى ظهرت بين المبشرين الأوربيين وبين الصابئين الأفريقيين فقد توقفت عن الصدور بعد سنوات قليلة . وهناك مجلات وجرائد كثيرة يحمل بعضها عناوين تبشيرية ويحتوى على الدعايات التبشيرية وهذه الفئة من المجلات والجرائد وسيلة ظاهرة لنشر المسيحية بين الناس . وأما الفئة الأخرى فهى مجلات وجرائد سياسية أو أدبية أو علمية أو تجارية لا تظهر عليها ملامح التبشير لأول وهلة ولكنها وسائل قوية من جملة الوسائل الكثيرة التى يستخدمها المبشرون فى الدعاية التبشيرية . ولا أريد أن أستطرد كثيرا فى ذكر أسماء المجلات والجرائد والمنشورات التى تصدرها الإرساليات التبشيرية فى هذه البلاد خوفا من التطويل الممل ولأن هذه الجرائد والمجلات والمنشورات تخدم غاية واحدة هى التبشير ، ولكن هناك منشورات دورية خاصة ذات أهمية كبيرة عند جميع الإرساليات التبشيرية ، وإن غاية الإرساليات التبشيرية من هذه المنشورات

الدورية الخاصة هى استنهاض همم القائمين بتمويل الإرساليات التبشيرية والكنائس المسيحية إلى بذل مزيد من الإعانات المالية وغيرها لتقدم أعمال التبشير داخل هذه البلاد . وهذه المنشورات تستحث المبشرين وجميع القائمين بأعمال التبشير فى هذه البلاد على مواصلة الجهود فى سبيل إنجاح مهمتهم التبشيرية فى كافة أنحاء البلاد . ويجب أن نقف قليلا لنلقى بعض الأضواء على هذه المنشورات لأنها تختلف عن النوع الأول الذى سبق الحديث عنه منذ قليل . إن إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية وإرساليات الكنيسة الويزلية المنهجية التبشيرية تقوم بإصدار أربع فئات مختلفة من هذه المنشورات الدورية .

الفئة الأولى : محضر جلسات إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية 'Proceedings of the CMS' ومحضر وقائع جلسات مؤتمر إرساليات الكنيسة الويزلية المنهجية التبشيرية Minutes of WMMS Conference وتستعرض فى هذين المحضرين أعمال هاتين الإرساليتين فى مجالات التبشير وكذلك يحتوى كل محضر على تقارير الأمين العام للإرسالية عن شئون الإرسالية وأعمال المبشرين والتقدير السنوى لنفقات الإرسالية . والفئة الثانية من هذه المنشورات هى " بيان إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية " "The CMS Report" وتقارير إرساليات الكنيسة الويزلية المنهجية التبشيرية " "The WMMS Notices" وهذه الفئة الثانية نشرات شهرية تهدف إلى نقل أخبار أعمال التبشير إلى القراء من مختلف مجالات وميادين التبشير وتحتوى كذلك على بعض المقتطفات من رسائل ويوميات المبشرين وتعليقات موجزة من هيئة التحرير . وأما الفئة الثالثة فهى " جريدة إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية " 'The CMS Intelligencer' " ومجلة إرساليات الكنيسة الويزلية المنهجية التبشيرية " 'The WMMS Magazine' وهذه منشورات ذات أهمية كبيرة وهى خاصة بطبقة المثقفين من الرجال والنساء ، وتحتوى على مقالات عديدة فى التعاليم المسيحية والدعايات التبشيرية والجغرافيا وعلم الأعراق البشرية Ethnology وتقدم فى هذه المنشورات بحوث ودراسات فى طريق تنظيم الأعمال التبشيرية ، وفيها تستعرض جهود المبشرين ووسائلهم فى ميدان العمل التبشيرى وتقدم بعض الإرشادات

والتوجيهات الهامة فى هذا الصدد . وإلى جانب ذلك تحتوى هذه المنشورات على الرسائل والتقارير التى كان يبعثها المبشرون إلى الهيئة التبشيرية العليا . وأما الفئة الرابعة فهى " جامع أخبار إرسالبات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية " 'The CMS Gleaner' وبيانات إرساليات الكنيسة الويزلية المنهجية التبشيرية " The WMMS Reports . وهذه أشهر منشورات هاتين الإرساليتين وقد أعدت إعدادا خاصا لتناسب مستوى طلاب مدارس أيام الأحد التبشيرية وتقوم بنقل أخبار المبشرين فى شتى مجالات التبشير وكذلك تنشر بعض المقتطفات من رسائلهم ويومياتهم مع تعليقات مستفيضة من هيئة التحرير .

وأما إرساليات اتحاد الكنائس المشيخية التبشيرية فإن أهم منشوراتها هو " بيان إرساليات اتحاد الكنائس المشيخية" United Presbyterian Missionary Record وهى نشرات شهرية تنقل أخبار أعمال التبشير إلى القراء وتحتوى على بعض المقتطفات من رسائل ويوميات المبشرين مع تعليقات هيئة التحرير . وتتضمن هذه النشرات أيضا التقدير السنوى لمجموع نفقات الجمعية وتقارير الهيئة التبشيرية للشئون الخارجية التى تتضمن خلاصة أعمال هذه الهيئة والقرارات التى أصدرتها وملخص البحوث التى قدمت فى اجتماعات هذه الهيئة مع ذكر تفاصيل المناقشة فى المسائل الخلافية . وأما الإرسالية المعمدانية فإنها تقوم بنشر صحيفة خاصة تتفق مع منشورات إرساليات الكنائس المشيخية فى محتوياتها . وفى سنة ١٢٦٨ هـ/١٨٥١م بدأت تصدر " مجلة الشئون الخارجية والداخلية" Home and Foreign Mission وهى تشتمل على أخبار الإرساليات الخارجية والكنائس الداخلية . وفى سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م فصلت هذه الإرسالية بين الشئون الداخلية وبين الشئون الخارجية وجعلت لكل واحدة منها مجلة مستقلة . وقد خصصت " مجلة الشئون الخارجية" Foreign Mission Journal لنقل أخبار الإرساليات المعمدانية التبشيرية فى الخارج . وهناك مجلة أخرى تصدرها الإرسالية المعمدانية خصيصا لطلاب مدارسها وهى " مجلة الوكالة التبشيرية " 'The Commission'

وأما جمعية الإرساليات الأفريقية الكاثوليكية The Catholic Society of African Missions فكانت تعتمد على المنشورات الأسبوعية التى تصدرها الجمعية التبشيرية لنشر الديانة المسيحية The Association for the Propagation of the Faith بعنوان " بيان الإرساليات الكاثوليكية

وكذلك Les Missions Catholique " سجل نشاط الإرساليات فى نشر الديانة المسيحية Annals of the Propagation of the Faith . إن جميع الإرساليات التبشيرية تقوم فى الوقت الحاضر بنشاط كبير وخطير فى الدعاية التبشيرية فى مختلف مناطق هذه البلاد، وقد مكنتها من ذلك ظروف الحكم العسكرى القائم فى البلاد . وقد انصرفت الحكومة نحو الاتجاه العلمانى الصرف معتمدة فى ذلك على مبدأ حرية التدين وسياسة الحياد التى كانت الحكومة الاستعمارية تتظاهر باتباعها فى الشئون الدينية طوال فترة حكمها . ولقد استطاع المبشرون الآن أن يجاهروا بالدعاية التبشيرية فى المناطق الإسلامية وفى بعض المدن الإسلامية الهامة التى اشتهرت بعلمائها الأجلاء ومدارسها الإسلامية الكثيرة . ولقد رأيت الشئ الكثير عندما سافرت إلى البلاد فى أيام العطلة الصيفية سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١م وكذلك عندما قمت برحلة ميدانية إلى البلاد سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م . لقد رأيت فى مدينة لاجوس العاصمة ماتقوم به جميع الإرساليات التبشيرية الموجودة بها من نشاط كبير فى حقل التبشير . إن لكل إرسالية تبشيرية من مجموعة الإرساليات التى تعمل فى هذه المدينة أراضى واسعة فى الأماكن الهامة وسط المدينة ، وقد شيدت فيها كنائسها الضخمة على الفن المعمارى الحديث. ولكل واحدة منها أيضا مكتبات كبيرة تضم مجموعة كبيرة من الكتب فى مختلف العلوم والفنون . وأهم هذه المكتبات مكتبة إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية التى تقع فى وسط المدينة. وقد تم تشييد مكتبة جديدة قرب موقع المكتبة القديمة وهذه المكتبة الجديدة عبارة عن مبنى ضخم مرتفع يضم أكثر من عشرة طوابق ، ويحتوى على قاعات المطالعة ومحلات بيع الكتب ومستودعات الكتب ، ويضم أيضا آلافا مؤلفة من الكتب والمصادر والمخطوطات النادرة والسجلات التى دونت فيها تاريخ إرساليات الكنيسة الإنكليزية وأعمالها التبشيرية فى هذه البلاد . ولكن المكتبة لا تسمح بالاطلاع على هذه المخطوطات والسجلات إلا لخواص الناس بعد إجراءات إدارية معقدة . وإن بعض هذه الإرساليات التبشيرية تنظم فرقا تبشيرية جوالة تضم عددا من المبشرين مزودين بكل ماتحتاج إليه أعمالهم من الإمكانات . وكانت هذه الفرق التبشيرية تطوف فى أنحاء المدينة صباح مساء فى سياراتها الخاصة المجهزة بمكبرات الصوت والتى تحمل شارات التبشير وهى تعلن عن مواعيد دعاياتها وأماكن إقامتها وتنشر النشرات فى الشوارع وتلصق بعضها على

الجدران ، وكانت تتنقل بين المدن والقرى لتبث فيها التعاليم المسيحية . وقد انتشرت هذه الفرق التبشيرية الجوالة فى كثير من المدن والقرى فى هذه البلاد. وقد رأيت بعضها فى مدينة لاجوس العاصمة وفى مدينة إلورن إحدى المدن الإسلامية الهامة التى اشتهرت بعلمائها الأعلام الذين أدخلوا الإسلام إلى المناطق الجنوبية ونشروا فيها العلم والثقافة الإسلامية . إن الفرقة التبشيرية الجوالة التى تعمل فى هذه المدينة تقوم بأعمالها على نطاق واسع وخطير ولديها من الإمكانات الشئ الكثير.وقد تحدثت إلى بعض العلماء المسلمين فى هذه المدينة فى شأن هذه الفرق التبشيرية والأخطار الكامنة وراء أعمالها فى المجتمعات الإسلامية، ولكن بعض هؤلاء العلماء لم يبدوا اهتماما كبيرا بشأن هذه الفرق التبشيرية ولا بأعمال الإرساليات التبشيرية بصفة عامة ، وقد قالوا إن أعمال المبشرين فى هذه البلاد تذهب سدى وإن دعاياتهم لاتجد آذانا صاغية ولا قلوبا واعية . وقد سألنى بعضهم عما إذا رأيت من أبناء هذه المدينة الأصليين أحدا صبأ من دينه الأصلى إلى المسيحية التى يدعوا إليها المبشرون منذ فترة طويلة ؟ وقالوا إن الذين يستجيبون لنداء هذه الفرق أناس أجانب جاءوا إلى هذه المدينة من القبائل الوثنية فى المناطق الجنوبية . وسيأتى حديث مفصل عن هذا عندما نستعرض آثار أعمال المبشرين فى فصل مستقل إن شاء الله تعالى . والذى نريد أن نقرره هنا قبل أن نأتى إلى مجال الدراسة المستفيضة فى آثار التبشير فى مختلف مجالات الحياة فى شئون هذه البلاد هو أن هذه الظاهرة من أمر الإرساليات التبشيرية فى المدن الإسلامية الهامة خطة مرسومة منذ عهد الاستعمار، وهى نتيجة حتمية لمبدأ حرية التدين الذى قررته الحكومة الاستعمارية وكذلك سياسة الحياد التى تظاهرت بها فى الشئون الدينية طوال فترة حكمها فى هذه البلاد . وقد سارت على نهجها واقتفت آثارها الحكومات المحلية التى خلفتها سواء فى ذلك الحكومة المدنية أو العسكرية فاتجهت نحو العلمانية اللادينية وفتحت الأبواب على مصاريعها أمام الإرساليات التبشيرية حتى استطاعت أن تحقق بعض النجاح بجهودها الكبيرة فى كثير من المجالات والميادين .

وقبل أن ننتقل إلى بقية وسائل الإعلام التى يستخدمها المبشرون فى الدعاية التبشيرية يجب أن نؤكد أن جهود الأوربيين فى ميدان الترجمة لم تقتصر على الكتب الدينية المسيحية

فحسب - وإن كان اهتمامهم بها أكبر وأوسع - وإنما امتدت هذه الجهود إلى حركة أخرى قاموا بها منذ فترة طويلة لجمع المخطوطات القيمة التى كتبها علماء المسلمين فى المناطق الشمالية فى مختلف العلوم والفنون ، وكذلك الكتب التى ألفها علماء العرب فى التاريخ والجغرافيا ووردت فيها أخبار بلاد السودان الغربى . وقد جمع هؤلاء الأوربيون هذه الكتب والمخطوطات وترجموا بعضها إلى اللغة الإنكليزية والبعض الآخر إلى اللغة الفرنسية وقد نفعتهم هذه الكتب كثيرا حيث استطاعوا أن يتعرفوا - من خلال المعلومات المدونة فيها- على أحوال شعوب هذه البلاد وعلى شئونها الدينية والسياسية والاجتماعية " إن القيمة الأساسية للمصادر العربية هى أن هذه المصادر تضم " تاريخ بلاد السودان الغربى وغيرها " فى الفترة مابين القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى والقرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى تقريبا وفى هذه الفترة لم تكن للأوربيين معرفة ببلدان غرب أفريقيا ولا لهم أى اتصال بها . " (١) ومن الكتب العربية التى وردت فيها أخبار هذه البلاد وترجمها هؤلاء الأوربيون إلى اللغة الإنكليزية أو الفرنسية كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى ترجمه إلى الفرنسية دى سلن M.G.De Slane وكتاب تاريخ ابن خلدون قام بترجمته أيضا دى سلن M.G.De Slane وكتاب بسط الأرض فى الطول والعرض المشهور بكتاب الجغرافيا لأبى سعيد المغربى على بن موسى ترجمة وتحقيق ج . ف جنيس J.V. Gines وكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لأحمد تقى الدين المقريزى ترجمه غاستون ويت Gaston Wiet وكتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لشهاب الدين ابن فضل الله العمرى ترجمة هوبكنس Hopkins وكتاب تاريخ البلدان لأحمد بن أبى يعقوب ترجمة غاستون ويت Gaston Wiet وكذلك كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصرى وكتاب صبح الأعشى لأحمد بن عبد الله القلقشندى وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموى وقد أعده للطبع ف . وستنفلد F.Wustenfeld وكتاب رحلات ابن بطوطة لمحمد بن عبد الله بن بطوطة ترجمه إلى الفرنسية ديفريمرى Defremery وسانفونيت Sanguinetti وغير ذلك من الكتب القيمة . وأما المخطوطات التى كتبها علماء المناطق الشمالية فمنها كتاب

---

(1) T.Hodgkin, Nigerian Perspectives, London, 1975 P.8

نور الألباب للشيخ عثمان ابن فوديو نقله إلى اللغة الفرنسية أ٠ هميت I.Hamet
سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٩٧م وكتاب وثيقة أهل السودان ومن شاء الله من الإخوان للشيـخ
عثمان بن فوديو قام بطبعه ونشره الدكتور بفار Dr.Bivar وكتاب تنبيه الإخوان
على أحوال أرض السودان للمؤلف نفسه ترجمه إلى اللغة الإنجليزية هـ٠ر٠ بالمار Palmer
وكذلك كتاب تعليم الإخوان تأليف هذا الشيخ نفسه وقد نقله إلى الإنكليزية
ب ٠ ج ٠ مارتن B.G. Martin وكتاب تاريخ السودان للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله
السعدى ترجمه إلى الفرنسية و ٠ هوداس O.Houdas وكتاب إنفاق الميسور فى تاريخ
بلاد التكرور للشيخ محمد بيلو ترجمه إلى الإنكليزية أ٠ ج ٠ أرنيت E.J.Arnett
وأعده للطبع وايتين وكتاب تزيين الورقات لعبد الله بن فوديو قام بترجمته وطبعه م٠ هيسكت
M.Hiskett وكتاب تأليف أخبار القرون من أمراء بلاد إلورن للشيخ أحمد بن أبى بكـر
ترجمه وحشاه ٠ب ٠ج ٠ مارتن B.G.Martin إلاّ أن الترجمة غير مطبوعة ٠ وكتـاب
مجموعة القصائد الهجائية للطاهر بن إبراهيم الفلاتى وقد أورد الشيخ محمد بيلو هذه القصائد
فى كتابه إنفاق الميسور ٠ وقد قام بفار Bivar وم٠ هيسكت M.Hiskett بترجمة
هذه القصائد فى كتابهما " الأدب العربى فى نيجيريا حتى عام ١٢١٩هـ ١٨٠٤م " ٠
وكتاب تاريخ الفتاش للشيخ محمود بن الحاج المتوكل ترجمه إلى الإنكليزية ٠ و ٠ هـوداس
O.Houdas وزميلـه م٠ ديلفـوس Delafosse وكتاب شرب الزلال لمحمد بن الحاج
عبد الرحمن البرنوى ترجمة بفار Bivar وهيسكت Hiskett ٠ وهناك كتب كثيرة قـام
هؤلاء الأوربيون بترجمتها إلى اللغة الإنكليزية أو الفرنسية تركنا ذكرها خوفا من الإطالة ٠
وإن من وسائل المبشرين لنشر المسيحية فى هذه البلاد الإذاعات والتلفزيون والأجهـزة
السينمائية ٠ وللمبشرين أجهـزة سينمائية خاصة بهم يستخدمونها لنشر دعاياتهم ويتنقلـون
بها بين مختلف المدن والقـرى يعرضون فيها أفلاما خاصـة عن تاريخ الديانة المسيحيـة
والتعاليم الدينية المسيحية وجهود المبشرين فى نشر التعليم الغربى والثقافة الغربيـة
وفى تقرير الحياة الروحية المسيحية فى المجتمعات الأفريقية ٠ ويظهر المبشرون فى هـذه
الأفلام فى صـور عالية من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة ويمثلون أحيانا دور معلـم

الأطفال أو طبيب القرية أو منقذ العبيد من أغلال العبودية أو المحسن إلى الفقراء والمساكين .. يظهر المبشرون في ذلك كله بقلوب لينة رحيمة لا تعرف الشدة وصدور رحبة واسعة لا تعرف الغضب ولا الطيش . وإن غاية المبشرين من عرض مثل هذه النماذج التي تحمل المعاني الإنسانية النبيلة إنما هي من أجل أن يحببوا المسيحية إلى الناس وينشروا المعتقدات والتعاليم المسيحية بينهم . وللمبشرين أيضا دور كبير يلعبونه في الأجهزة السينمائية العامة وفي التلفزيونات الحكومية . وكانوا يستوردون الأفلام العربية أو الإنكليزية التي يعدها بعض المستشرقين المسيحيين عن بعض الجوانب الهامة في التاريخ الإسلامي مثل الغزوات أو سير بعض أبطال الإسلام ، وقد لفق هؤلاء المستشرقون في هذه الأفلام الافتراءات والأكاذيب على الإسلام وشوهوا حقائقه تشويها بشعا وصوروا العرب المسلمين فيها جبارين ظلمة خرجوا من جزيرتهم الجرداء القاحلة حاملين فكرة استعباد البشرية فأشرعوا السيوف على من سواهم من الأمم يقتلونهم ويخربون ديارهم وينهبون أموالهم حتى استطاعوا أن يسيطروا على بعض الأمصار وأخضعوها تحت سلطانهم السياسي والديني ردحا غير يسير من الزمن . وقد عرضوا فيلما من هذا القبيل في مدينة إلورن سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م وكان عن غزوات خالد بن الوليد رضي الله عنه . وأما دور المبشرين في الإذاعات فإنه خطير للغاية . وقد خصصت لهم أوقات معينة لتقديم برامجهم الدينية في مختلف محطات الإذاعات الحكومية . ولهم جهود كبيرة يبذلونها في هذا السبيل حتى كادت برامجهم تغطي معظم الفترتين الإذاعيتين الصباحية والمسائية في كل يوم أحد . وللمبشرين محطة إذاعية كبيرة خاصة في مدينة إباجـي Igbaja وهي على مقربة من مدينة إلورن في ولاية كوارا من المناطق الشمالية . وتذيع هذه المحطة الإذاعية دعاياتها التبشيرية باللغة العربية واللغة الإنكليزية وبعض اللغات المحلية الرئيسية . وكانت هذه الإذاعة قوية بحيث كنت ألتقط إذاعتها أيام كنت في المدينة المنورة عندما أرغب في الاستماع إلى أخبار البلاد . وإن شأن هذه المحطة مثل شأن أخواتها من الإذاعات التبشيرية في شتى أنحاء العالم مثل ما في لبنان وأمريكا والسودان وأثيوبيا وليبيريا والفاتكان وغيرها فكلها أبواق للتبشير ووسيلة قوية لنشر الديانة المسيحية في العالم .

المبحـــث الرابـــع :

وسائل أخرى ذات أهمية فى مجال التبشير

إن للمبشرين طرقا عديدة فى الدعاية التبشيرية لايمكن حصرها ولا الإحاطة بها تفصيلا . وعندما يصل المبشرون إلى أى بلد من بلدان أفريقيا يبدأون أعمالهم بتنظيم رحلات استكشافية إلى المناطق التى يريدون العمل فيها ، وقد يمضون السنة الأولى والثانية فى هذه المهمة ، ويقومون خلال تلك الفترة بإرسال تقارير مفصلة عن رحلاتهم هذه إلى الهيئة التبشيرية العليا التى تتولى الإشراف على شئون ابتعاث المبشرين إلى أفريقيا لنشر الديانة المسيحية فيها . وقد وافتنا التقارير التى كتبها هؤلاء المبشرون الأوائل بأخبار المغامرات التى قاموا بها داخل مناطق مختلفة فى هذه البلاد ، وما كان من أحوال هذه البلاد وشئون أهاليها السياسية والاجتماعية والدينية . نجد ذلك فى التقارير المذكرات التى كتبها أمثال المستكشف بارث Barth والمبشر فريمان Freeman وتونسند Townsend وغولمار Gollmer وبوون Bowen وواديل Wadell وتوغول Tugwell وهندرار Hindefer وغيرهم . وإذا لم يستقر المبشر فى منطقة معينة ولم يُقم مركزا تبشيريا ولم يبن كنيسة ومدرسة ولم يقم بإرسال تقارير مفصلة عن أعماله إلى الهيئة التبشيرية العليا فى أوربا ليطلعهم على نتائج أعماله فى ميدان التبشير فإن الذين يمولون الإرساليات التبشيرية سوف لا يثقون فى قدرة هذا المبشر على العمل وحسن استغلاله للأموال الطائلة التى يبذلونها لنشر المسيحية فى هذه البلاد . وإن الحماسة الدينية الشديدة التى ملئت بها قلوب هؤلاء المشرفين على توجيه الحركة التبشيرية وتمويلها هى التى جعلتهم دائما يتعطشون إلى سماع أخبار تنصير مجموعة كبيرة من القبائل الأفريقية وهذه من جملة العوامل التى بعثت روح الإقدام والعمل فى بعض المبشرين ذوى القدرة الفائقة والولاء المفرط للهيئة التبشيرية التى بعثتهم إلى الخارج ، فقاموا بأعمال كبيرة ونشاط واسع فى سبيل نشر المسيحية فى المدن والقرى القريبة والبعيدة ، وبذلك ذللوا العقبات العاتية ومهدوا الطرق أمام توغل المبشرين الآخرين الذين أتوا من بعدهم

وللإرساليات التبشيرية طريقتان فى ميدان أعمالها التبشيرية من حيث التخطيط والتنظيم :
فبعض هذه الإرساليات تسير على خطة تركيز أعمالها على منطقة معينة أو مدينة معينة ٠
وقد يحدد بعض المبشرين دائرة أعمالهم ويركزون على أسرة معينة أو قبيلة من القبائل كما
فعل المبشر هندرار Hinderer فى مدينة إبادن والمبشر وليام كلارك William Clark
فى مدينة أوبو ماشو Ogbomosho والبعض الآخر من الإرساليات يسير على خطة توسيع
دائرة أعماله فى جميع المناطق ويستخدم جميع الوسائل الممكنة فى هذا السبيل حتى يستطيع
أن يوصل العوامل الأخرى المساعدة على تقدم أعمال التبشير إلى مجموعة كبيرة من الناس فيكون
لهذه العوامل والوسائل أثرها الفعال فى المستقبل ٠ والفريق الأول الذى ذهب إلى
تركيز الأعمال التبشيرية على منطقة معينة وعلى قبائل معينة فى المجتمع كان يطمع كثيرا فى
الأجيال المعاصرة ويعتقد أن تنصيرهم أمر سهل ، فهو يريد أن يكون من الأجيال المعاصرة
من يلقى أعباء الأعمال فى تنصير الأجيال القادمة على عواتقهم ٠ إنه كان يطمع فى النتائج
العاجلة ٠٠ كان يريد أن يكسب إلى حظيرة المسيحية مجموعة كبيرة من الصابئين ٠ وقد
نفهم من عمل هذا الفريق فى تحديد نشاطه بمنطقة معينة أنه كان ينظر إلى قلة إمكاناته
المالية التى لا تفى بتحمل تكاليف إنشاء المراكز التبشيرية وإقامة الكنائس وبناء المدارس وابتعاث
المبشرين والأساقفة إلى مختلف المناطق ، أو أن هذا الفريق كان ينظر إلى ناحية صحة
المبشرين الأوربيين الذين كثيرا ما كانوا يتعرضون للأمراض بسبب عدم ملاءمة المناخ الأفريقى
لمزاجهم ٠ وأما الفريق الآخر الذى يرى توسيع دائرة أعماله فى الآفاق واستخدام
الوسائل المتعددة فى سبيل تحقيق أهدافه فكان يعلق أملا كبيرا على الأجيال القادمة
وينظر إلى صلابة قلوب الجيل المعاصر وشدة تمسكه بما كان عليه من الأديان ومن أجل
هذا لجأ إلى السياسة الطويلة الأمد ، ولم يطمع فى النتائج القليلة العاجلة ، ولم يضيق
فى الوسائل والطرق التى يستخدمها فى أعماله ، بل كان هذا الفريق يعتمد على الإمكانات
المالية الضخمة التى فى حوزته وتحت تصرفه ، ويستخدم العوامل الأخرى الممهدة لتقدم
أعمال التبشير من نشر الحضارة والثقافة الغربية والعمل على تقدم الشئون التجارية والتأثير
على الشئون الاجتماعية والسياسية فى هذه البلاد ٠ ولقد كانت روح التنافس الطائفى بين

الإرساليات التبشيرية دافعا قويا حمل هذا الفريق على الامتداد والتوسع وهو يعلق آماله الكبيرة على الأجيال القادمة التي تدخل في المسيحية زرافات ووحدانا عندما تظهر آثار أعمال التبشير ونتائج خطط المبشرين ووسائلهم في المجتمع . قال لفنستون Livingstone " إذا اعتبرنا نسبة الصابئين الحقيقة من بين سكان المناطق التي تعمل فيها الإرساليات التبشيرية نتيجة مباشرة لأعمال هذه الإرساليات ، واعتبرنا انتشار المبادئ والتعاليم المسيحية والحضارة والثقافة الغربية في جميع أصقاع هذه البلاد بين الأدغال والأودية وفي المدن والقرى نتيجة غير مباشرة ، فلا أتردد في الجزم بأهمية الطريقة الثانية أكثر من الأولى . ولا يعني ذلك أنني أنتقص من قيمة عملية تحويل الناس إلى المسيحية ، ولكن فائدة ذلك مقصورة على الصابئ شخصيا . ولو قارنا بين هذا النجاح المحدود الذي يمكن تحقيقه في صفوف الأجيال المعاصرة عن طريق التركيز على منطقة معينة وقصر أعمالنا على التحويل والحصول على مجموعة من الصابئين ، وبين أعمالنا في نشر بذور التعاليم المسيحية والثقافة الغربية والحضارة الأوربية في جميع الأصقاع بالنسبة للحصاد الكبير الذي يمكن أن نجتنيه في المستقبل عندما تخضع لنا الرؤوس ، فهناك تظهر الأهمية التي قررناها ، ويتضح بطلان الموازنة بين الطريقتين . فإن العمل على مدى أطول من الزمن أكثر أهمية من تركيز الأعمال على نقطة معينة محدودة "(1) . وليس كل مبشر يوافق على فكرة السياسة الطويلة الأمد التي كان يقررها لفنستون Livingstone بالنسبة لتنصير السواد الأعظم في المجتمع في المستقبل . " وفي نظر كثير من المبشرين فإن تفضيل لفنستون Livingstone للطريقة غير المباشرة التي هي المخطط الطويل الأجل في سبيل تنصير الأجيال القادمة بواسطة حسن استخدام الخطط والوسائل وتوسيع دائرة الأعمال التبشيرية .. إن تفضيل هذه الطريقة على الطريقة المباشرة التي هي الهجوم السافر في سبيل الكرازة بالمسيحية لتنصير العدد القليل من الجيل المعاصر يبدوا في نظر كثير من المبشرين تطرفا وأمرا يثير العجب "(2) . ولكن رغم ذلك فقد أخذت

---

(1) R.Oliver, The Missionary Factor in East Africa, London, 1952 P.10

(2) J.F.A. Ajayi, op.cit., P. 91

معظم الإرساليات التبشيرية بفكرة تفضيل الطريقة غير المباشرة فى نشاطها فى مجال الدعاية التبشيرية . وإن نفوذ دعاة الإنسانية فى مجرى العلاقات الأوربية الخارجية ورغبة الأوربيين الشديدة فى نشر الحضارة الغربية والثقافة الأوربية ومالهم من المصالح الجمة فى قيام الشئون التجارية بين الدول الأوربية وبين بلدان أفريقيا واعتبار ذلك كله من جملة العوامل الممهدة لنشر المسيحية فى هذه البلاد ، كل ذلك هو الذى أدى بالناس إلى التفكير فى أجدى الطرق فى التأثير وهل يكون ذلك عن طريق العمل على المدى الطويل بحشد جميع الطاقات والانطلاق نحو الامتداد والتوسع ، أم تركيز الأعمال فى نقطة معينة محددة لضمان فعالية هذه الأعمال وظهور نتائجها فى القريب العاجل . إن جميع الإرساليات التبشيرية التى كانت تعمل فى هذه البلاد منذ قيام حركة التبشير الحديثة فيها باستثناء الكنيسة المشيخية تؤمن بفكرة السياسة الطويلة الأمد ، وتوسيع دائرة الأعمال التبشيرية ، وإقامة سلسلة مراكز تبشيرية فى كافة أنحاء مناطق البلاد امتدادا من شواطئ البحر المحيط حتى أقصى المناطق الشمالية . وقد بذلت هذه الإرساليات مجهودات كبيرة فى هذا السبيل فأقامت عددا كبيرا من المراكز التبشيرية الرئيسية والكنائس المركزية والمدارس فى معظم المدن الهامة ، وعددا من المراكز الفرعية والكنائس المحلية فى بعض المدن الصغيرة والقرى القريبة والبعيدة ، وكانت ترسل إليها مجموعة كبيرة من المبشرين والقسس والأساقفة . وقد رأى المبشر القس فريمان Rev. Freeman وهو رئيس إرساليات الكنيسة المنهجية فى ساحل الذهب ونيجيريا . " إن انتشار أعمال المبشرين فى كافة المدن والقرى سيحقق فى المستقبل القريب " تقدما اجتماعيا " ويحدث تغييرا جذريا فى شئون المجتمعات الأفريقية وهذا التغيير من شأنه أن يمهد الطرق أمام توغل المبشرين الذين يأتون فى المستقبل للعمل فى هذه البلاد فيجنوا ثمار أعمال السابقين الكادحين . وقد تنبأ هذا المبشر بحتمية انتشار أساليب الحياة الأوربية والمبادئ الأخلاقية الغربية ولكنه لم يحدد وقتا معينا لحدوث هذا الانتشار الكبير الذى يؤدى إلى تغيير كثير من شئون بلدان المناطق الاستوائية فى أفريقيا."[1] وقال المبشر توماس بوون Thomas Bowen من الإرساليات المعمدانية :

---

(1) J.F.Ade Ajayi, op.cit., P.91-92

" إن إرساليات الكنيسة المنهجية توسع دائرة أعمالها على نطاق كبير في ميدان الدعاية التبشيرية في هذه البلاد ، ولكن جهودها ومساعيها في هذا السبيل لم تكن مركزة تركيزا يتلاءم مع توسعها الإقليمي ، لأنها جهود ومساع ضئيلة واهية ، وكذلك إمكاناتها المالية فإنها كانت محدودة جدا بحيث لاتكفي لتنفيذ الخطط التي رسمتها هذه الإرساليات في ميدان عملها التبشيري . وأما إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية التي تعتبر أكبر جميع الإرساليات التبشيرية الموجودة في هذه البلاد فإنها كانت تدعم جميع مراكزها بالعدد الكافي من المبشرين ورجال الدين وتنفق أموالا طائلة لتنفيذ خططها وبرامجها التبشيرية وكانت تعمل بجهد أكبر وكفاءة كبيرة وإمكانات مالية ضخمة . وإن المحاولات الضعيفة تضيع معها الإمكانات المالية مهما كثرت وتذهب معها المجهودات المبذولة في أدراج الرياح مهما عظمت تلك المجهودات." (1) وفي ذلك يوازن هذا المبشر بين العمل على مدى أطول من الزمن وبين تركيز العمل في منطقة معينة محدودة ويرى توسيع دائرة الأعمال التبشيرية في حدود الإمكانات المتوفرة لضمان فعالية مايبذل من الجهود وحتى لاتذهب الأعمال في متاهات الضياع . إن إرساليات الكنيسة المشيخية هي الإرسالية التبشيرية الوحيدة التي تفضل تركيز العمل في منطقة معينة . ومنذ أن دخلت هذه الإرسالية منطقة كلابار من الإقليم الشرقي سنة ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م ركز مبشروا هذه الإرسالية أعمالهم فيها فترة طويلة من الزمن ، ولكن رغم ذلك لم يستطيعوا أن يحولوا أحدا من أهالي المنطقة إلى المسيحية إلّا بعد سبع سنين من العمل الجاد المتواصل ، ولم يستطيعوا أن يقيموا الكنائس في المدن والقرى حتى سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م وكل ما استطاعوا عمله منذ أن دخلوا المنطقة هو أنهم أقاموا مراكز تبشيرية وبنوا مدارس أيام الأحد لتعليم الإنجيل وكانوا يقومون بالدعاية التبشيرية وإلقاء المواعظ في أفنية بيوت الزعماء المحليين وفي الأسواق . ولم تتخذ هذه الإرسالية أسلوب الهجوم السافر لاكتساح جميع مناطق هذه البلاد ومحاولة إدخال جميع أهاليها تحت حظيرة المسيحية ، بل قصرت أعمالها في منطقة كلابار في الإقليم الشرقي ، وكانت

---

(1) Bowen to Taylor 7th Sept, 1851 Bowen Letters.

تعلق آمالا كبيرة على تنصير الجيل المعاصر في المنطقة . وقد كانت هذه الإرسالية على يقين تام من أنه لن تمضي فترة طويلة من الزمن حتى تخرج من بين هذا الجيل الذي قصرت عليه أعمالها مجموعة من الصابئين ، وعلى عواتق هذه المجموعة يلقى عبء الأعمال التبشيرية لنشر الديانة المسيحية في جميع المناطق الأخرى الباقية في هذه البلاد . ومن أجل هذا فضلت هذه الإرسالية طريقة تركيز نشاطها التبشيري في منطقة معينة محدودة وظلت تعارض بشدة فكرة توسيع دائرة هذا النشاط وامتداده إلى منطقة أخرى إلاّ بعد إحراز النجاح في تلك المنطقة المعينة واستقرار أمر المسيحية فيها وظهور نتائج أعمال المبشرين في شتى نواحي الحياة ولو بعد مئات السنين . أما الإرساليات التبشيرية التي تؤمن بالسياسة الطويلة الأمد في ميدان العمل التبشيري — وعلى رأسها إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية -فقد اتخذت حيال فكرتها هذه بعض التنظيمات ورسمت بعض الخطط ووضعت بعض الوسائل الكفيلة بإنجاح أعمالها . ولقد قررت هذه الإرساليات التبشيرية ضرورة إقامة سلسلة مراكز تبشيرية في جميع المدن والقرى ، وإعداد رجال الدين المحليين وإنشاء الكنائس المحلية وتكوين هيئة أسقفية محلية لهذه الكنائس وتحديد دائرة أعمال المبشرين والقسس والأساقفة وتنظيم شئون الطوائف المسيحية ، وكل ذلك من أجل تقدم أعمال التبشير ونجاح الخطط التي تسير عليها هذه الإرساليات . قال هنري فين (Henry Venn) سكرتير الهيئة العليا لإرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية : "إن ازدهار شئون الكنائس المحلية يرتكز أساسا على الحكم الذاتي والدعم الذاتي والجهد الذاتي من جانب الأفارقة أنفسهم في سبيل نشر المسيحية في هذه البلاد ، وإن المبشرين الأوربيين المغامرين الذين يقومون بالأعمال التبشيرية في بعض المناطق الأفريقية إذا لم يعدوا للمستقبل عدته ولم يعملوا لإعداد رجال الدين المحليين فإنهم يقيمون بيوتهم فوق الرمال . ومن الحكمة أن نركز في خططنا التبشيرية منذ البداية على أهمية إنشاء الكنائس المحلية وتكوين هيئة أسقفية محلية لإدارة شئونها . ويجب ألاّ تعتمد هذه الهيئة اعتمادا كليا على الدعم الخارجي والإدارة الأجنبية المباشرة ."(1)

---

(1) W. Knight, The Missionary Secretariat of Henry Venn, London, 1882, Pp.416-417

وهذه خلاصة الأفكار التى استفادها هنرى فين (Henry Venn) من خلال دراستـه الطويلة لتاريخ أعمال الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية التى كانت تعمل فى الهند منـذ الأحقاب الطويلة الماضية. وإن هناك فارقا كبيرا فى المبادئ والتعليمات المسيحية بين مهمة المبشرين ومهمة القس . فالمبشر يدعو عامة الناس إلى المسيحية ويجيب على استفسارات الصابئين ويتنقل بين أحياء القرية والمدينة وبين مختلف المدن والقرى ليركز بالمسيحية بين الناس ، وينشر بينهم التقاليد والمعتقدات والمبادئ المسيحية . وأما القس فهو الذى يشرف على الشئون الدينية لطائفة معينة من المسيحيين المحليين ويقود الناس فى صلوات القداس فى الكنيسة ويعلم الصابئين الجدد الأناشيد الدينية والتراتيل والأدعية . وبينما لا يطلب المبشر مقابل أعماله أجرا من هؤلاء الناس الذين يريد تحويلهم إلى المسيحية لأنه موفد من قبل الهيئة العليا للإرساليات التبشيرية التى تمول حركة التبشير ويحظى بوافر رعايتها وعنايتها ويتقاضى مرتبا كبيرا منها فإن الطائفة المسيحية المحلية هى التى تتكفل بإعطاء القسس المحليين مساعدات مالية مقابل تفرغهم للإشراف على شئونها الدينية لأن الثور الذى يدرس الحنطة يجب على أصحابه أن يطعموه منها . وإذا نزل المبشر الأوربى بأرض قوم دعاهم إلى اعتناق المسيحية ، وإذا استطاع أن يجذب مجموعة من الناس إلى ما يدعو إليه كوّن منهم طائفة مسيحية وعين عليهم زعيما من بينهم وهكذا يعمل حتى تجتمع لديه طوائف كثيرة . ثم بعد ذلك يقوم هذا المبشر بإنشاء صندوق خاص لدعم الشئون الدينية وتنمية الكنائس المحلية ، ويستحث جميع أفراد هذه الطوائف على تقديم المساعدات المالية لدعم هذا الصندوق ، وإن كانت المساهمات المحلية لا تعد شيئا فى جانب الإعانات المالية الضخمة التى تقدمها الهيئة العليا للإرساليات التبشيرية فى الدول الأوربيـة فى سبيل تقدم أعمال التبشير فى هذه البلاد . وإن من مهمة هذا المبشر أن يعمل كل ما فى وسعه لتوحيد صفوف هذه الطوائف المسيحية حتى يكوّن منها كتلة مسيحية موحدة وتقوم بإدارة شئون هذه الكتلة المسيحية هيئة أسقفية محلية ، وتكون لها مراكزها التبشيرية وكنائسها المحلية ، وهى التى يجب عليها أن تقوم بدفع رواتب رجال

الدين المحليين من صندوقها الخاص . ومتى ما استطاع المبشر الأوربى أن يحرز مثل هذا النجاح فى منطقة عمله فقد حقق انتصارا كبيرا فى ميدان العمل التبشيرى . ويجب عليه بعد ذلك أن يتقدم إلى منطقة جديدة لاستكشافها ونشر المسيحية فيها . وهكذا تسير خطط الاستكشافات وعملية التنصير وتنظيم شئون الصابئين . وإن المبشر الذى يجول الأقطار الأفريقية ويدعو أهاليها إلى الديانة المسيحية ، إذا استطاع أن يكوّن من بينهم كتلة مسيحية ويقيم لها كنائس محلية فما عليه بعد ذلك إلاّ أن يقوم بتزويدها بالقسس والمبشرين المحليين ، ويبذل قصارى جهده فى توجيه هؤلاء القسس وتشجيعهم على العمل. ويرى القائمون بأمر التبشير وجوب انتقال المبشر من منطقة إلى أخرى إذا رأى أنه قد حقق قدرا من النجاح فى أعماله فلا يجوز له أن يبقى فى منطقة معينة طول عمره يزاول مهمة القس بين الصابئين وإذا قصر نشاطه على منطقة معينة وبين مجموعة الصابئين ولم يتقدم فى سبيل امتداد هذا النشاط وتوسيعه إلى المناطق الأخرى المجاورة فلن يتحقق هدف الهيئة العليا للإرساليات التبشيرية فى نشر المسيحية فى جميع مناطق هذه البلاد ، ولن تتهيأ الفرصة للصابئين الأفارقة لتقرير الحكم الذاتى بإنشاء صندوق تنمية الكنائس المحلية ليغطوا نفقات أعمال التبشير من غير ما حاجة إلى الدعم الخارجى أو الاعتماد الكلى عليه. وقد قال هنرى فين (Henry Venn) : " يجب علينا أن نعد الأفريقيين لمهمة الأسقفية والقسوسة[1] ويجب أن نستخلص أجور أعمال رجال الدين المحليين من المساهمات المحلية التى يقدمها الأفارقة أنفسهم وعلينا أن نقاوم كل ما من شأنه أن يحبب إلى المبشرين الأوربيين منصب القس فى الكنائس المحلية لأنه حتى لو توفرت لدينا الإمكانيات اللازمة لتعيينهم قساوسة فى الكنائس المحلية فإن قيامهم بهذه المهمة سيؤدى إلى ضعف شأن المجموعة المسيحية ويجعلها عالة فى جميع أمورها على العوامل الخارجية ".[2]

---

(١) جاء فى القاموس العصرى (عربى ـ إنكليزى) كلمة قسوسة بمعنى "Priesthood" تأليف إلياس أنطون إلياس وادوارد . إلياس ص ٥٣٩

(2) W. Knight, op. cit., P. 419

وهكذا رأينا جميع الإرساليات التبشيرية التي دخلت غمار الحرب العقدية في هذه البلاد منذ قيام حركة التبشير الحديثة تؤكد أهمية إعداد رجال الدين المحليين وإنشاء الكنائس المحلية في المدن والقرى وتعتبر ذلك من جملة العوامل الأساسية المساعدة على إنجاح السياسة الطويلة الأمد وخطة توسيع دائرة أعمال التبشير إلى كافة أنحاء مناطق البلاد . وقد قررنا سابقا أن الإرساليات التبشيرية الرئيسية الخمس التي كانت تعمل في هذه البلاد منذ قيام حركة التبشير الحديثة فيها لم تنتهج جميعها تلك السياسة ولم تسر جميعها على تلك الخطة في أعمالها ، وقد ذكرنا ما كان من أمر الإرسالية المشيخية في منطقة كلابار من الإقليم الشرقي في هذه البلاد . وإننا نعود بعد ذلك لنؤكد أن إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية والإرسالية المعمدانية والإرسالية الويزلية المنهجية كانت جميعها تؤمن بتلك السياسة وتقرر تلك الخطة في أعمالها ، وقد بذلت جهودا كبيرة ومساعي واسعة في هذا السبيل . وتلك هي الحقيقة الكامنة وراء نجاحها الكبير في ميدان التبشير وانتشار مراكزها التبشيرية وكنائسها ومدارسها في جميع المناطق ، وإن من جملة الوسائل والطرق التي استخدمها المبشرون في ميدان العمل التبشيري في هذه البلاد محاولة حشد المجموعات المسيحية وإقامة قرى مسيحية يعيش فيها المسيحيون في استقلال تام عن المجتمعات الأفريقية في جميع نواحي الحياة . وعندما قامت مجموعة صغيرة من الصابئين في المجتمعات الأفريقية في الفترة الأولى من قيام حركة التبشير الحديثة في هذه البلاد ، وكانت في تلك الفترة أقلية قليلة لا وزن لها في تلك المجتمعات الأفريقية ، حصلت مشاكل كثيرة نتيجة اختلاف المبادئ وتباين المعتقدات وتصادم الأفكار . ومن أجل تفادي وقوع الاضطهادات على تلك الأقلية المسيحية وتجنيبها أخطار الحياة في الوحدات السكنية العائلية كما ذكر أحد المبشرين ، أراد بعض المبشرين التابعين لبعض الإرساليات التبشيرية أن يجمعوا الصابئين الأفارقة في مكان واحد يسكنون فيه معتزلين المجتمعات الأفريقية كلها وما كان عليه أهلها من الأديان . وقد أدرك هؤلاء المبشرون الفوائد الجمة التي

تأتى من وراء ذلك حيث يتمكنون من القيام بأعمالهم التبشيرية بين تلك المجموعات . وقد كان بعض هؤلاء المبشرين يريدون أن ينشئوا أحياء مسيحية داخل المدن والقرى ويجعلوا فى وسط كل حى من هذه الأحياء مركزا تبشيريا كنقطة اجتماع لكافة المسيحين القاطنيين فى المدينة ولتكون ملاذهم عند الفزع . وذهب فريق آخر من هؤلاء المبشرين إلى أبعد من ذلك إذ كانوا يريدون أن ينشئوا للمسيحيين مدنا وقرى مستقلة يعيشون فيها تحت سلطان هؤلاء المبشرين الروحى والسياسى . قال المبشر هنرى تونشند (Townsend) : " هناك ميل شديد من جانب المبشرين لجمع الصابئين فى مكان واحد وقد أدرك الصابئون أنفسهم ما يشجعهم على ذلك من المصالح ولكن لم تكن لدينا قرية مسيحية نموذجية واحدة فى هذه البلاد لنتخذها مثالا يحتذى فى بقية أنحاء البلاد . ولكن الصابئين يحاولون قدر استطاعتهم أن يقيموا بيوتهم حول المراكز التبشيرية." (١) " إن عددا كبيرا من الصابئين الأفارقة الذين اعتنقوا المسيحية على يد المبشر توماس شمبنس (Thomas Champness) وكانوا تحت إشرافه وتوجيهه يشكلون مجموعة مسيحية تعيش فى وحدات سكنية فى ناحية المدينة . ونحن نعلق آمالا كبيرة على هذه المجموعة ونرجوا أن تكون هذه القرية الصغيرة مركز انطلاق أعمال التبشير إلى القبائل المجاورة فى المستقبل ." (٢) وقد وقعت حادثتان تتعلقان بالمسيحيين المضطهدين الذين خرجوا فى مجموعة كبيرة من بعض المدن ليؤسسوا لأنفسهم قرى مسيحية أو يحتلوا بعض القرى الصغيرة . ففى سبعينات القرن التاسع عشر الميلادى خرجت مجموعة من الصابئين من مدينة أبيوكوتا إلى القرى المجاورة لهذه المدينة احتجاجا على موقف الحكومة المحلية تجاه المبشرين الأوربيين حيث نفتهم الحكومة المحلية من المدينة بعد ما لاحظت أخطار تدخلهم فى شئونها السياسية .

قال القس جيمس جنسون (Rev. Johnson) : " إن نسبة المسيحين فى هذه القرى الصغيرة

---

(١) Townsend Annual letter for 1865 dated 1st Feb. 1866
CMS CA2/085

(٢) Methodist Missionary Notices Vol. xvi P.210
25 Nov. 1861 Mann Journal Entry.

كانت قليلة جدا إلى جانب سكانها المسلمين والوثنيين بحيث لا يمكن أن نطلق عليها اسم القرى المسيحية". (١)

وقد وقعت الحادثة الثانية قرب مدينة أسابا في الإقليم الشرقي من هذه البلاد في ثمانيات القرن التاسع عشر الميلادي، فعندما بدأت الإرساليات الكاثوليكية أعمالها التبشيرية اشترت مجموعة من العبيد وأنشأت لهم قرية صغيرة قرب مدينة أسابا وبعثت إليها المبشرين والقساوسة، وحاولت أن تجعل هذه القرية منفصلة تماما عن سائر المدن والقرى المجاورة لها، ومستقلة في جميع شئونها الدينية والسياسية والاجتماعية. ولكن هذه الإرسالية التي ظلت تعمل في تلك القرية طوال عشرين سنة لم تستطع أن تحقق من أهدافها إلّا شيئا يسيرا. ولما أدركت هذه الإرسالية فشل خطتها هذه عدلت عنها إلى استخدام وسائل أخرى فبعثت مبشريها إلى داخل المدن والقرى فأقاموا فيها المراكز التبشيرية والمدارس وركزوا على وسيلة التعليم، وبذلك استطاعوا أن ينشروا المسيحية بين الناشئين الصغار. وقد كان المبشر هنري تونسند (Townsend) ينكر أن تكون هذه القرى التي هاجرت إليها مجموعة الصابئين أو التي حاولت بعض الإرساليات التبشيرية أن تنشئها في بعض مناطق هذه البلاد قرى مسيحية في حقيقة أمرها. وقد قال هذا المبشر: "إن فكرة إقامة القرى المسيحية قد نشأت أصلا لدى الطائفة الكاثوليكية وأكثر من اجتهد في تطبيقها في مدينة باراغويي (Paraguay) هم الآباء اليسوعيون حيث كانوا يقومون بتنصير سكانها الهنود وينشئون لهم قرى مسيحية مستقلة يتولون الإشراف على شئونها الدينية والسياسية والاجتماعية". (٢)

وكانت هناك محاولة من جانب الإرساليات الكاثوليكية لإنشاء مثل هذه القرى المسيحية المستقلة قرب مدينة لاجوس وهذه المحاولة تستحق الذكر والملاحظة في هذا الصدد. فعندما قام الأب برغيرو (Father Broghe-ro) المبشر الأكبر للإرساليات الكاثوليكية في مدينة

---

(١) The Report on the State of Churches in Yorubaland 1887 CMS CA2/056

(٢) J.F.Ade Ajayi, op.cit., P. 114

وادای (Whydah) بزيارته الثانية لمدينة لاجوس سنة ١٢٨٠هـ ١٨٦٣م ورأى الأراضي الفسيحة الممتدة على طول شواطئ المحيط الأطلسي قال : " إذا استطاع المبشرون أن يحشدوا في هذه الأماكن الواسعة مجموعة صغيرة من المسيحيين الأفارقة وتمكنوا بعد ذلك من القبض على زمام أمرها والإشراف على شئونها الدينية والاجتماعية ، فلن تمضى فترة طويلة من الزمن حتى تقوم في هذه المنطقة دولة مسيحية نموذجية تكون ملاذا للشعوب المتناثرة في جميع مناطق هذه البلاد "(١) ولم تخرج هذه الأمنية إلى حيز الوجود لمدة تزيد على عشر سنوات نتيجة الحرب الأهلية التي اندلع أوارها في فرنسا سنة ١٢٨٧هـ ١٨٧٠م.

وفي سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٥م قدم جيمس مارشال (James Marshall) من الإرساليات الكاثوليكية طلبا إلى الحاكم البريطاني الذي يحكم مستعمرة ساحل الذهب ومنطقة لاجوس لمنحه أرضا خارج مدينة لاجوس . " وقد صرح جيمس مارشال (James Marshall) أن غرضه من هذا الطلب هو إنشاء مؤسسة زراعية لتنمية المستوى الزراعي، وكان هذا أمرا ضروريا في هذه المستعمرة بسبب تأخر الشئون الزراعية في هذه الناحية من أفريقيا ". (٢)

وقد أنشئت هذه المؤسسة في قرية توبو سنة ١٢٩٣هـ ١٨٧٦م وسميت مؤسسة القديس يوسف ولكن الذي كان يجرى داخل هذه المؤسسة أكثر بكثير من الأعمال الزراعية التي تستتر وراءها هؤلاء المبشرون . قال الأب بيل (Father Bel) الذي كان يرأس هذه المؤسسة سنة ١٣٠٦هـ ١٨٨٨م : " بالإضافة إلى الأولاد الذين كانوا تحت كفالة ورعاية الآباء اليسوعيين فإننا كنا نقطع بعض الأسر الأفريقية الفقيرة جزءا من أرض الإرسالية إذا قبلت الالتزام بالأنظمة والشروط التي وضعناها في حق كل من يطلب قطعة من أرض الإرسالية للمزراعة فيها . وإن هذه الأسر الأفريقية الفقيرة تقوم بزراعة الأرض التي نمنحها إياها لمصالحها الذاتية ولكنها تدفع أجرا عينيا ضئيلا مقابل انتفاعها بهذه الأرض، ويجب على هذه الأسر أن تقبل تحويل أولادها إلى المسيحية وتقدمهم إلى الآباء اليسوعيين

---

(1) Father Broghero 1863, Annals of the Propagation of the Faith 1865, P. 81-82

(2) Father Cloud tothe Governor of Gold Coast 1875, cited Notes by Father pages on the History of Topo, 'Rapport de Topo-Badagry' by Father L. Freyburgher with Notes by Father Pages Quoted in J.F.A Ajayi, op.cit., P,115

لينشئوهم على العقيدة الكاثوليكية ويرضعوهم لبان التعاليم الكاثوليكية . وعندما كان هؤلاء الأولاد يبلغون رشدهم كان من واجبنا أن نقرر لهم مصيرهم في الحياة ونعمل على تقدمهم ، ولأجل هذا أقطعنا هذه الأسر الفقيرة قطعا من أرض الإرسالية مسبقا لتزرعها . وعندما يكبر هؤلاء الأولاد وقد تلقوا من التعاليم المسيحية ما يمكنهم من أن يعيشوا حياة أفضل بدون إشراف الإرسالية نسمح لهم بالزواج". [1] قال الأستاذ أجايي : " وبالإضافة إلى كون قرية توبو التي أقيمت فيها هذه المؤسسة الزراعية مصحة للأوربيين ومنطقة زراعية خصبة ، فإنها كادت أن تصبح دويلة مسيحية مستقلة بسبب ما بذله هؤلاء الآباء اليسوعيون فيها من جهود كبيرة لتحويل أهاليها إلى المسيحية." [٢] وبطبيعة الحال فإن محاولة الإرسالية الكاثوليكية حشد المجموعات المسيحية في قرية مستقلة قد لقيت معارضة عنيفة من جانب الحكومة الاستعمارية البريطانية التي/كانت تحكم مستعمرة لاجوس ، وكذلك من الإرساليات البروتستانتية والأهالي المواطنين . وقد أحست الإرسالية الكاثوليكية نفسها منذ وقت مبكر بأن فكرة إقامة القرى المسيحية المستقلة لمجموعة الصابئين الأفارقة تضر بمصالحها أكثر مما تنفعها وأدركت هذه الإرسالية أيضا أن تبني مثل هذه الفكرة ومحاولة إخراجها إلى حيز الوجود في بلاد لم تكن خاضعة للحكومة الكاثوليكية لا يتناسب مع المنطق السليم لما عرف من التنافس الشديد بين الطوائف المسيحية ، والنزاع القائم بين مختلف الدول الأوربية الاستعمارية حول اقتسام بلدان أفريقيا فيما بينها . وقد كانت الإرساليات البروتستانتية تعارض بشدة فكرة إقامة قرية مسيحية تكون منفصلة عن المجتمعات الأفريقية ومستقلة عن سلطة الحكومة المحلية في شئونها السياسية والاجتماعية والدينية وذلك لما يترتب على هذا العمل من أخطار جسام قد تؤدي إلى كسر شوكة الأقلية المسيحية واستئصال شأفتها . وقد أشرنا فيما سبق إلى أن بعض القرى التي هاجرت إليها مجموعة الصابئين البروتستانتيين لم تكن قرى مسيحية مستقلة في حقيقة أمرها ، لأنها لم تكن منفصلة عن المجتمعات الأفريقية بل كانت خاضعة لسلطة الحكومة المحلية في جميع شئونها ، ولأن عدد

---

(1) Father Bel to Father Planque in "Les Missions Catholiques" 21 Dec. 1888 Cited in J.F.A. Ajayi, op.cit., P.115

(2) J.F.Ade Ajayi, op.cit.. P. 116

كل من المسلمين والوثنيين فيها يربو على عدد الصابئين . وقد أشرنا من قبل إلى أن ما كان يجرى فى مؤسسة القديس يوسف التى أنشأتها الإرسالية الكاثوليكية فى قرية توبو لم تكن مجرد تدريب الأولاد على أعمال الزراعة والفلاحة وإنما كان المبشرون يقومون إلى جانب ذلك بتعليم هؤلاء الأولاد الديانة المسيحية . وقد كان القسم الخاص بتربية الأطفال وتعليمهم فى هذه المؤسسة بمثابة دار الأيتام ، لأن هذا القسم كان يقبل الأولاد الصغار تحت حضانته ويجعلهم تحت كفالة المبشرين الذين يتعهدون بتربيتهم وتنشئتهم على أساليب الحياة المسيحية . ويتكفل هذا القسم لهؤلاء الأولاد ببعض مستلزمات الحياة من المسكن والملبس والمأكل والمشرب فترة إقامتهم فى هذه المؤسسة . " وتبدأ الأعمال اليومية فى هذه المؤسسة مبكرا بصلاة القداس وبعدها يقوم المبشرون بتدريس كتاب خلاصة العقيدة المسيحية لهؤلاء الأولاد . وهذا الكتاب مؤلف على طريقة الأسئلة والأجوبة . وبعد ذلك يذهب هؤلاء الأولاد للعمل فى المزارع حتى منتصف النهار ويتوقفون عن العمل لتناول طعام الغذاء . وبعد ذلك تأتى الفترة الدراسية الثانية ويتوجه هؤلاء الأطفال إلى مبنى الموسسة لتلقى التعاليم المسيحية . وتستمر هذه الفترة حتى الساعة الرابعة والنصف وبعدها يعود الأطفال للمرة الثانية للعمل فى المزارع حتى غروب الشمس ".(1) ولقد سلك المبشرون طرقا عديدة واستخدموا وسائل كثيرة فى سبيل نشر المسيحية فى كل بلاد دخلوها . وحاولوا منذ أيام الاستكشافات البرتغالية فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى أن ينصروا الملوك والزعماء الأفريقيين ليقودوا رعاياهم جملة واحدة إلى اعتناق الديانة المسيحية ولكنهم كما أشرنا إلى ذلك من قبل فشلوا فى هذه المحاولة فشلا ذريعا . وقد لقوا صعوبات كثيرة فى تنصير الملوك والزعماء الوثنيين فضلا عن الملوك والأمراء المسلمين . وحتى المناطق الوثنية القليلة فى الإقليم الشرقى التى تنصر فيها عدد من زعماء القبائل الوثنية فإن بغية المبشرين لم تتحقق فيها إذ لم يدخل أتباع هؤلاء الزعماء فى حظيرة المسيحية ، وفوق ذلك فقد اعتبروا

---

(1) M.J. Walsh, Catholic Contribution to Education in Western Nigeria, London, 1953, Pp.120-22

عمل زعمائهم هذا خروجا على تراث القبيلة وتقاليدها . ولم يكن من بين المبشرين الذين عملوا في هذه البلاد أحد كرس نفسه لمهمة تنصير الملوك مثلما فعل المبشر هوب وادل (Hope Wadell) مع الملك أيو (King Eyo) ملك منطقة كلابار في الإقليم الشرقي من هذه البلاد . فقد استنفد هذا المبشر جميع قواه واستخدم جميع الوسائل في هذا السبيل . وإن فشل محاولاته وجهوده الكبيرة لبرهان قاطع على صعوبة هذا الأمر إن لم يكن دليلا على استحالته . ولما يئس المبشرون من تحويل الملوك والزعماء إلى المسيحية قنعوا أنفسهم بتنصير الأفراد" وجندوا لذلك كل طاقاتهم . وقد حققوا بعض النجاح في هذا السبيل ، ولكن هناك عددا من المبشرين تصدى لتنصير بعض الأسر الأفريقية الوثنية وقصروا أعمالهم التبشيرية على أسرة معينة" من هذه الأسر حتى استطاعوا بعد فترة قصيرة من الزمن أن ينصروا أفرادها ويجعلوا من أبنائها من يذود عن حمى المسيحية ويستميت في سبيل نشرها وتقدم أعمال التبشير . وكان المبشر دافيد هندرار (Rev. D. Hinderer) أحد هؤلاء المبشرين المغامرين القلائل الذين وقفوا حياتهم لخدمة أعمال التبشير وركزوا على أسرة أفريقية معينة حتى تمكنوا من تحويل معظم أفرادها إلى المسيحية " ولقد بعثت الهيئة الملية للإرساليات التبشيرية المبشر دافيد هندارار (Rev. D. Hinderer) إلى هذه البلاد لمهمة خاصة هي دراسة لغة هوسا ومحاولة الاتصال بالقبائل الهاوساوية للتعرف على شئونها ثم القيام برحلات استكشافية إلى بلاد هوسا لدراسة كيفية نجاح أعمال التبشير وتقدمها في تلك البلاد ."[1] وقد وصل هذا المبشر إلى مدينة بداغرى (Badagry) في طريقه إلى بلاد هوسا سنة ١٢٦٦هـ ١٨٤٩م ولكنه لم يستطع مواصلة رحلته إلى المناطق الشمالية المسلمة بسبب الحروب الأهلية التي قامت في أنحاء بلاد يوربا في تلك الفترة

وقد أقام في مدينة أبيوكوتا (Abeokuta) قرابة أربع سنين استطاع أن يتعلم في خلالها لغة يوربا وكان يقوم بمساعدة المبشر هنرى تونسند (Henry Townsend) والمبشر

---

(١) Secretaries to Hinderer 1849, CMS CA2/L1

غولمار (Gollmer) فى أعمالهما التبشيرية فى تلك المدينة والقرى المجاورة لها . وفى أثناء إقامة المبشر دافيد هندرار (David Hinderer) فى مدينة أبيوكوتا (Abeokuta) تغيرت فكرته حول التقدم مباشرة إلى المناطق الشمالية للعمل التبشيرى فيها قبل إتمام عملية استكشاف المدن والقرى داخل بلاد يوربا وفتح أبوابها لتوغل المبشرين فيها وإقامة سلسلة المراكز التبشيرية فيها . وقد رأى هذا المبشر أنه من التورط الكبير وعدم الدقة فى التخطيط أن يقفز المبشرون بدافع الحماسة الشديدة إلى العمل فى المناطق الشمالية لنشر المسيحية فيها تاركين وراءهم المناطق الجنوبية الوثنية لم تستقر فيها أعمال التبشير ولم تدخل المسيحية إلى معظم مدنها وقراها . ورأى هذا المبشر أيضا ضرورة وضع خطط مركزة لايصال أعمال التبشير إلى المناطق الشمالية عن طريق التقدم التدريجى بإقامة سلسلة المراكز التبشيرية فى عواصم مناطق بلاد يوربا ومدنها الهامة حتى تصل السلسلة إلى مدن المناطق الشمالية . وقد أشرنا إلى هذه الفكرة من قبل. وفى نظر المبشر هندرار (Hinderer) كانت مدينة إبادن (Ibadan) هى النقطة التالية بعد قيام أعمال التبشير فى مدينة أبيوكوتا والقرى المجاورة لها[1] . وقد اختار هذه المدينة لنفسه ودخلها سنة ١٢٧٠هـ ١٨٥٣م ليبدأ فيها أعماله التبشيرية. ولما كان من أنصار خطة تركيز العمل فى نقطة معينة محدودة فقد أستوطن هذه المدينة وبقى فيها طول أيام مقامه فى هذه البلاد ولم تكن دائرة أعمال هذا المبشر وجهوده فى سبيل الدعاية التبشيرية ممتدة إلى سكان هذه المدينة جمعاء وإنما كانت مقصورة ومركزة غاية التركيز على أسرتين كبيرتين فى المدينة . فمنذ أن دخل المبشر هندرار هذه المدينة بذل أقصى ما فى وسعه من جهود ليكسب صداقة أسرة كوديتى (Kudeti) وأسرة أريمو (Aremo) وهما أسرتان عريقتان كانتا تحتلان مراكز هامة فى شئون هذه المدينة . ويرجع السبب فى نجاح أعمال هذا المبشر بين هاتين الأسرتين إلى دقة خطة وحسن اختياره للوسائل المستخدمة لتحويلهما إلى المسيحية . وقد كان هذا المبشر محببا كثيراً إلى هاتين الأسرتين لدرجة أنه كان يتمتع بكل الحقوق والامتيازات التى يتمتع

---

(1) J.A.Atanda, op. cit., P. 279 & J.F.Ade Ajayi, op.cit., P. 96

بها أبناء الأسرتين أنفسهم . وقد عاش طول أيامه في المدينة تحت كفالة وحماية إحدى هاتين الأسرتين وهي أسرة كوديتي (Kudeti) " وقد كانت هاتان الأسرتان دعامتين قويتين ارتكز عليهما نجاح أعمال التبشير وانتشار الديانة المسيحية في هذه المدينة . ولم تمض فترة طويلة من الزمن حتى خرج من بين أبناء هاتين الأسرتين عدد كبير من رجال الدين المسيحيين الأساقفة والقساوسة الذين نشروا المسيحية في أنحاء مناطق شمال بلاد يوربا .*(1) وكان من بين رجال الدين المحليين الذين نشأوا في حجر هذا المبشر وتربوا عليه ولازموه عشرات السنين حتى نبغوا في التعاليم المسيحية واحتلوا مراكز هامة في شئون الكنائس المسيحية في هذه البلاد القس دانيل أولوبي (Rev. Daniel Olubi) الذي عيّن رئيسا عاما لكنائس إرساليات الكنسية الإنكليزية التبشيرية في مدينة إبادن (Ibadan) ومدينة أويو (Oyo) ومدينة أبوماشو (Ogbomosho) سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م ومن بين هؤلاء الرجال أيضا المؤرخ النيجيري الكبير القس صمويل جنسون (Samuel Johnson) وقد عيّن هو الآخر قسيسا على مدينة أويو (Oyo) سنة ١٣٠٤هـ ١٨٨٦م.ولم يكن المبشر دافيد هندرار (David Hinderer) وحده الذي سار على هذه الخطة، فهناك عدد من المبشرين ساروا على منواله ووقفوا حياتهم لخدمة أعمال التبشير بين بعض الأسر الأفريقية ، كان من بينهم المبشر شانبنس (Rev. Champness) والمبشر وليام كلارك (William Clarke) .

ونذكر على سبيل المثال جهود المبشر وليام كلارك ومساعيه الكبيرة في هذا الصدد. وصل هذا المبشر إلى هذه البلاد سنة ١٢٧١هـ ١٨٥٤م وهو أحد مبشري الإرساليات المعمدانية، وكان مغامرا كبيرا مثل المبشر هندرار الآنف الذكر . وقد استقر وليام كلارك في مدينة أبوماشو (Ogbomosho) وجعل أعماله التبشيرية مقصورة على أسرة أبوولا (Agbo-Ola) في حارة أوكي أفو (Oke-Afo) وكانت هذه الأسرة إحدى الأسر الوثنية الكبيرة في المدينة. وقد عاش هذا المبشر طول أيامه في المدينة تحت كفالة

---

(1) Anna Hinderer, op. cit.,

راجع كتاب المبشرة هندرار لمزيد من الإيضاح

وحماية هذه الأسرة واستطاع أن يحقق نجاحا كبيرا في تحويل هذه الأسرة إلى المسيحية.
وقد لعبت هذه الأسرة أدوارا هامة في ميدان التبشير في هذه المدينة، وعلى جهود أبنائها يعتمد نجاح أعمال الإرساليات التبشيرية المعمدانية، وعلى أيدي أبنائها القساوسة ورؤساء الكنائس انتشرت المبادئ والمعتقدات والتعاليم المعمدانية في مناطق بلاد يوربا ، وقد وفروا على الأوربيين كثير عناء في مهمتهم الشاقة وكانوا لهم عونا كبيرا في خدمة أعمال التبشير، وبذلك قللوا من حدوث احتكاكات كثيرة ومشاكل عويصة بين هؤلاء المبشرين الأوربيين وبين مختلف المجتمعات الأفريقية الوثنية .

إن القسس الأفارقة الثلاثة الأول الذين اعتمدت عليهم الإرساليات المعمدانية في أعمالها التبشيرية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي في هذه البلاد كانوا من الأولاد الصغار الذين أخذتهم هذه الإرساليات من الأسر الأفريقية في مدينة إجايي (Ija ye) أثناء وقوع الحروب الأهلية فيها . وقد نقلت هذه الإرساليات هؤلاء الأولاد إلى مدينة أبيوكوتا (Abeokuta) سنة ١٢٧٩هـ ١٨٦٢م لتلقي التعاليم المسيحية في المدرسة التبشيرية لإعداد رجال الدين المحليين . وكانت هذه المدرسة تابعة لإرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية وتحت إشراف المبشر هنري تونسند (Henry Townsend). وكان على رأس هؤلاء القسس المحليين الثلاثة القس موسى لاد يجو ستون (Rev. Moses Ladejo) الذي نشأ تحت كفالة أحد المبشرين الأوربيين ورافقه فترة من الزمن يساعده في أعماله التبشيرية وفي ترجمة مواعظه إلى لغة يوربا . وقد عينت الإرساليات المعمدانية موسى لاد يجو ستون (Rev. Moses Ladejo Stone) قسيسا سنة ١٢٩٨هـ ١٨٨٠م كانت البعثات التبشيرية في كثير من المناطق الأفريقية توقع مع عدد من الأسر الأفريقية الفقيرة عقود اتفاقية تقوم تلك البعثات التبشيرية بموجبها بتقديم مساعدات عينية إلى هذه الأسر الفقيرة ، وتضمن هذه العقود لتلك البعثات حق اختيار بعض أطفال هذه الأسر لتربيتهم على حسابها كما تتضمن هذه العقود بين فقراتها مادة تنص على أن الأسرة التي توقع على مثل هذه الاتفاقية

مع الهيئات التبشيرية تكون مجبرة على رد قيمة المساعدات العينية المقدمة لها من قبل تلك الإرساليات وكذلك تكون ملزمة باسترجاع النفقات المصروفة على أبنائها،إذا هي خالفت شروط الاتفاقية . وتختار الإرساليات التبشيرية ـ بموجب هذه الاتفاقية ـ من أطفال تلك الأسر الفقيرة صبيانا دون الخامسة من العمر وتضعهم تحت كفالة بعض مبشريها فترة من الزمن ثم ترسلهم إلى المدارس التبشيرية وينقطع هؤلاء الصبيان عن أهلهم خلال تلك الفترة وينشّئون تنشئة مسيحية ويربون على أساليب الحياة الغربية،ثم ترسلهم الإرساليات إلى كلية فورابى فى جبل اليون أو إلى أوربا لإتمام التعليم العالى. بعدئذ يعادون إلى أفريقيا ليستخدموا فى الأعمال التبشيرية ويستغلوا فى الأغراض الاستعمارية.وللمبشرين وسائل عديدة تظهر فيها الأغراض التبشيرية ظهور الشمس فى رابعة النهار ووسائل أخرى خفية قد تبدو بريئة فى مظاهرها الخارجية ولكنها تحمل فى طياتها نفس الأغراض التبشيرية والمصالح الاستعمارية التى تمهد فى إليها الوسائل الظاهرة.فهناك أوجه كثيرة من النشاط الاجتماعى كانت الهيئات التبشيرية تستغلها لغاياتها التبشيرية ومصالح دولها الاستعمارية.

فميدان الأعمال الاجتماعية الذى يشمل أعمال البر والإحسان،والعمل التبشيرى بين النساء والترغيب فى الزواج بالأجنبيات المسيحيات ، وتأسيس الجمعيات المسيحية للشبان والشابات وإقامة ملاجئ الأطفال وبيوت الطلبة وإنشاء الأندية الرياضية والثقافية والجمعيات الكشفية،ونشر الكتب والمجلات والصحف اليومية .. هذه كلها مظاهر بريئة قد يكون فيها بعض المنافع فى ناحية العلاقات الاجتماعية إلاّ أن هذه المنافع غير مقصودة فى ذاتها وقد أسلفنا أن هذه الجوانب كلها ميدان فسيح للتبشير.

وبما أن الكلام عن هذه الجوانب من النشاط الاجتماعى فى أعمال التبشير معناه إعادة الكلام على حركة التبشير كلها من وسائل الدعاية التبشيرية وطرقها وخطط العمل،وقد سبق الحديث عن كل ذلك،فسنكتفى هنا بالإشارة إلى الجوانب التى لم تسبق الإشارة إليها من قبل لا على وجه التفصيل خوفا من التكرار ، ولكن على وجه الإيجاز لإبراز النقاط الهامة

في الموضوع . وقد أكدنا مرارا أن وسائل التبشير كثيرة ومتنوعة لا يمكن حصرها ولا الإحاطة بها تفصيلا، فكم من وسيلة استخدمها المبشرون ثم تركوها إلى غيرها عندما أثبتت التجارب أن الوسيلة الثانية أجدى من الأولى، أو عندما يتبين فشل الأولى في تحقيق الغاية التي تُستخدم من أجلها . إن الأعمال الاجتماعية هي المناسبات العارضة التي تربط بعض البشر بعضهم ببعض، وتتيح الفرص للناس أن يتعرف بعضهم إلى البعض الآخر . وإن البشر شعوب مختلفة الألوان ومتباينة اللغات، وفيهم قبائل متعددة مقسمة إلى فرق كثيرة وطبقات مختلفة حسب الأعمال والاتجاهات الشخصية فقلما تتاح الفرص لاجتماع هذه الفرق والطبقات بالبعض الآخر، ومن أجل ذلك لجأ الناس إلى خلق الأجواء الاجتماعية لجميع أفراد هذه الفرق المختلفة والطبقات المتعددة في بعض المناسبات في الأندية الرياضية والثقافية وفي الجمعيات وفي الملاجئ وبيوت الطلبة وفي اتصال الناس بعضهم ببعض عن طريق الكتب والصحف والمجلات وغير ذلك . وغاية المبشرين من إقامة مثل هذه العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الأفريقية هي محاولة اختراق الأسوار المضروبة حول الأسر المسلمة والوثنية لكي تتفتح أمامهم أبواب جديدة يتوغلون منها للتبشير بينهم، وكان المبشرون يحاولون أن يجعلوا نشاطهم الاجتماعي مسايرا للتعاليم والمبادئ المسيحية بحيث يكون هذا النشاط عاملا أساسيا من العوامل المساعدة على نشر الديانة المسيحية في المجتمع .

ويبدأ هذا النشاط الاجتماعي بالصلات اليومية للأفراد والجماعات، وما يتصل بالأطفال الصغار والأمهات داخل نطاق الأسرة ثم تتوسع تلك الصلات حتى تشمل دائرة العلاقات الاجتماعية خارج البيوت وفي المدارس وفي المعامل والمصانع وفي الإدارات والمؤسسات المختلفة بين الشبان والشابات والطبقة المثقفة . وقد أوجد المبشرون عن طريق نشاطهم الاجتماعي مناسبات متعددة أتاحت لهم فرص الاتصال برجال ونساء وأطفال في المجتمعات الأفريقية الإسلامية والوثنية على حد سواء، لم يتح لهم مثلها من قبل . وقد تعرفوا من خلال هذا الاتصال على أحوال هذه المجتمعات من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والدينية وتظاهروا بإصلاح تلك الحالات ساعين إلى تغيير الأوضاع القائمة والتأثير على

الرأى العام ، مستخدمين فى ذلك الدعايات البراقة والأمانى المعسولة . وتقوم الأندية الرياضية والثقافية بعلاقات اجتماعية مختلفة الأنواع . فهناك حفلات خطابية وأدبية وسياسية ورياضية تقام فى تلك الأماكن فى فترات متقطعة،وفيها تلقى محاضرات ودروس فى التعاليم المسيحية،ومن بين الأشياء التى تحتويها تلك الأندية مطاعم وفنادق رخيصة لمحبى الاقتصاد وأسباب تسلية يهرع إليها طلاب المدارس ويقصدها الشبان والشابات. على أن القائمين بتمويل هذه الأندية وتنظيم شئونها لا يهمهم فى المقام الأول أن يستمتع الناس بما تضمه هذه الأندية من أسباب التثقيف والترويح والتسلية وإنما الذى يهمهم أكثر هو أن يستغلوا هذه الأسباب فى لفت أنظار الناس إلى ما يجرى داخل تلك الأندية وترغيبهم فى غشيانها للاستماع إلى صوت المبشرين ورجال الاستعمار ،أو على الأقل لاستخدام تلك الأسباب فى تثبيت حب الغرب والثقافة الغربية فى قلوب الأفريقيين . وإن مهمة هذه الأندية هى التأثير على أولئك الذين سيقلدون مهام الأمور فى المستقبل،أو معاونة بعض الذين عندهم رغبة شديدة فى الوصول إلى المراكز الأساسية والمناصب العليا حتى يصلوا إلى غاياتهم المنشودة ويظهروا على مسرح الأحداث فى شئون المجتمع. وبما أن الكُتاب الأوربيين والأفريقيين الذين بحثوا موضوع التبشير والاستعمار فى هذه البلاد فى كتبهم ورسائلهم ومذكراتهم قد أهملوا بعض هذه الجوانب من الأعمال الاجتماعية فى أعمال المبشرين ،بدعوى أن تلك الجوانب تعنى بالنشاط الاجتماعى الصرف ، وأنها لا صلة لها البتة بالتبشير ،أو بسبب استصغار شأن هذه الجوانب فى ميدان الدعاية التبشيرية ، فقد رأينا إدراجها ضمن الوسائل المستخدمة فى الدعاية التبشيرية فى هذه البلاد ، رغم أن القائمين بهذه الأعمال يحاولون قدر استطاعتهم أن يظهروا للناس أن أعمالهم مجردة من الأغراض التبشيرية. وما فعلت ذلك عن أمرى وإنما هو لقيام الأدلة الظاهرة والحجج القاطعة التى تدل بوضوح على أن غايات القائمين بهذه الأعمال الاجتماعية تبشيرية استعمارية . وبذلك تكون تلك الأعمال أدوات للتبشير ووسائل لتحقيق الأطماع الاستعمارية .

إن الجمعيات المسيحية للشبان والشابات تعمل في معظم المدن الهامة وخصوصا في محيط الطلاب والطبقات المثقفة . وقد استطاعت هذه الجمعيات عن طريق نشاطها الاجتماعي أن تجتذب إلى حظيرة المسيحية رجالا ونساء وشبانا وشابات لم يكونوا ليتقبلوا النصرانية لو أن تلك الجمعيات استعملت معهم الطريقة المباشرة في الدعاية التبشيرية . وإن الهدف الرئيسي لهذه الجمعيات هو تنشئة الشبان والشابات على الأسس والتعاليم المسيحية ونشر الديانة المسيحية في مصافهم. ولجمعيات الشبان المسيحيين والشابات المسيحيات مركز رئيسي في مدينة لاجوس العاصمة، ولها فروع كثيرة في بعض المدن الهامة وفي الجامعات وبعض المدارس الثانوية . ومن المنظمات المسيحية التي تستغل النشاط الاجتماعي في سبيل التبشير الجمعيات الكشفية للفتيان والفتيات ولكن نصيبها في هذا المضمار ضئيل جدا . وأعمال البر والإحسان هي من جملة الوسائل التي استغلها المبشرون لغايتهم التبشيرية وأطماعهم الاستعمارية. فقد أدركوا أن الإحسان خلق جميل وهو في معناه الحقيقي عطف من القوي على الضعيف وبر من الموسر على المحروم. ويتبدى هذا العطف والبر في صور مختلفة أبرزها وأهمها الإعانة المالية . وقد يجري الإحسان مجاري أخرى متعددة كالتعليم المجاني وتوزيع الكتب مجانا وإقامة الملاجئ لإيواء الأطفال المساكين وكذلك بيوت الطلبة وإنشاء صندوق الإعانات لإغاثة منكوبي الحرب والمتضررين بالفيضانات ومساعدة الفقراء المعوزين وما يجري هذا المجرى . ولم يكن المبشرون محسنين بالمعنى النبيل الذي تتضمنه كلمة الإحسان ولكنهم كانوا يستغلون وسائل الإحسان والأعمال الخيرية للوصول إلى أغراضهم التبشيرية ومطامعهم الاستعمارية . ورغم ذلك كانوا يضنون بالخير الذي يقدمونه للناس ولا ينفقون إلّا بمقدار ما ينتظرونه من الفوائد العاجلة. فلا تعطى الأموال إلّا للبعيدين عن الكنيسة الذين يرجى دخولهم تحت حظيرة المسيحية. وكلما زاد اقترابهم إليها بدأت تقل المعونة التي يعطونها تدريجيا وإذا دخلوها منعت عنهم الإعانات المالية إلّا في أوقات الحاجة الشديدة .

" وقد تأسست جمعية مسيحية لإغاثة منكوبي الحرب إبان الحرب الأهلية التي قامت في مدينة إجايي (Ija ye) لتقديم إعانات مالية وغيرها إلى الأقلية المسيحية في المدينة ولرعاية الأولاد الصغار الذين قدمتهم الأسر الفقيرة إلى المبشرين "(١). وقد خصص بعض المبشرين أجنحة خاصة في المراكز التبشيرية جعلوها ملاجئ لإيواء الأطفال الفقراء وكانوا يقومون بإطعامهم وكسوتهم وتربيتهم . وإذا كانت هذه الطريقة وغيرها قد نجحت في تحويل أبناء الوثنيين إلى المسيحية فإنها في الوقت نفسه قد فشلت في مهمتها الأولى في مصاف أبناء المسلمين إذ إنها لم تستطع أن تجعل منهم نصارى حقيقيين وإن كانت لم تبقهم مسلمين كآبائهم .

التبشير في محيط النساء

إن المرأة هي مدار الحياة الاجتماعية وعنصر أساسي في كيان الأسرة. والتمكن من التبشير في محيط النساء يجعل الأمل كبيرا في الوصول بالدعاية التبشيرية إلى الأسرة كلها . ومن أجل ذلك كانت الجهود المبذولة في تنصير المرأة ، ومن أجل ذلك أيضا كانت جمعية الشابات المسيحيات والمدارس التبشيرية الخاصة للبنات . ولهذا السبب نفسه بعثت الإرساليات التبشيرية النساء المبشرات ليعملن بين النساء الأفريقيات. وقد أدرك المبشرون ما للأم في أطفالها من قوة التأثير على سلوكهم واتجاهاتهم ، وكذلك عرفوا دورها الكبير في المحافظة على عقيدة أطفالها . ومن أجل ذلك أولوا جانب العمل بين النساء اهتماما كبيرا ووضعوا في سبيل ذلك الخطط المتعددة . وهناك تعلات كثيرة تذرع بها المبشرون لتبرير الاهتمام بأمر التبشير بين النساء الأفريقيات وعلى الأخص المسلمات منهن ، منها ما كانوا يزعمون من أن المرأة غير الغربية متأخرة ورازحة تحت نير العبودية وأنه لا يمكن أن تتحرر وتتقدم إلا إذا دخلت في النصرانية. ولا يمكن حصر الأقاويل الكثيرة التي قالها المبشرون في حق النساء غير الغربيات المسيحيات ، وكان غرضهم من ذلك هو إثارة عواطف الأغنياء الذين

---

(1) J.F. Ade Ajayi, op. cit., P. 163

يمولون حركة التبشير فى إفريقيا للبذل فى سبيل تقدم أعمال التبشير فيها. كما أرادوا بذلك أيضا أن يفلوا من عزيمة أهالى هذه البلاد ، ويحملوهم على الشعور بالنقص فى أنفسهم حتى ينساقوا وراءهم ويترسموا خطاهم.

إن المرأة نصف المجتمع وهى نصف خطير فى هذا المجتمع لما تؤديه من رسالة خطيرة. فالأم هى المدرسة التى لا بد أن يتخرج منها كل إنسان . وإذا صلحت المرأة صلح خريجو هذه المدرسة وإذا فسدت فسد خريجوها . ولقد أدرك المبشرون والمستعمرون هذه الحقيقة وعرفوا أهمية المرأة ودورها الكبير فى المجتمع ، وأن إحداث التغيير فى شئون هذا المجتمع لن يكون إلا من طريق تغيير حياة المرأة تغييرا جذريا وإفسادها أخلاقيا واستخدامها حربا على القيم الروحية والأخلاقية والاجتماعية . وكما كانت العلمانية مذهبا هداما وشعارا خادعا خلابا يخفى وراءه الحرب على الدين والإلحاد عن قيمه ومثله وأسسه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية .. وكانت الدعوة إلى القومية والشعوبية شعارا خادعا كذلك ومعولا هداما استخدمه المستعمرون لمواجهة الدين وكسر شوكته وتمزيق وحدة الأمة وإضعاف قوتها . . . كذلك كان الأمر بالنسبة لقضية المرأة التى يتعمدون إثارتها تحت شعار تحرير المرأة ليظهروا للناس فى مظاهر المدافعين عن حقوق المرأة والمحررين لها من العبودية والمنقذين لها من المظالم والمناضلين من أجل مصلحتها .

إن قضية المرأة مشكلة كبيرة كان المستعمرون والمبشرون والمستشرقون والنخبات الوطنية التى تلقت العلم والمعرفة على أيديهم كلهم جميعا هم المحدثين لها والمتولين كبرها ، ويقصدون من ورائها اجتذاب المرأة إلى قبول السير على نهج المخططات الموضوعة لها ، وإغراءها بقبول ما يأتيها من الغرب ، واستغلالها فى تغيير شئون المجتمع ، وإفسادها واستخدامها فى حرب القيم الروحية والأخلاقية وغيرها . ولئن كانت هناك للمرأة قضية أو مشكلة فإنهم هم سببها . إن ما يزعمونه من حلول هذه المشكلة ووسائل للتغلب عليها لبرهان قاطع على ذلك . إنهم هم الذين تسببوا بوسائل التعليم والاعلام فى إثارة المشاكل

برفع دعاوى المساواة المريضة بين المرأة والرجل في أمور كثيرة ، فسووا بينهما في مجال التعليم وفي مجالات العمل ، ودعوا إلى تعرية المرأة من زيها وأخرجوها من بيتها وزينوا لها التبرج في الشوارع وفي الأسواق ، والاختلاط بالأجانب ، ولم تعد قوامة للبيت ولا صالحة لإخراج الأجيال العظام ، وأصبحت وسيلة لإفساد المجتمع نتيجة انفلاتها من تعاليم الدين الحنيف واستجابتها لداعي الفساد والانحلال الأخلاقي والإباحية ، حتى قامت المشكلة وعم الفساد أرجاء البلاد ، وتم لأنصار قضية المرأة ما أرادوا من تغيير في أهم جوانب الحياة في هذا المجتمع ، فجاءت الأجيال الناشئة طبق ما خططوا لها . إن تعليم المرأة في حد ذاته شيء حسن مرغوب فيه، ولا يكون مصدر قلق إذا التزم الحدود الشرعية وسار على تخطيط قويم لا يصادم فطرة المرأة وطبيعتها . ولكن مصدر القلق كله هو التوسع غير المحدود في مجال تعليم المرأة وفي نوع التعليم الذي يعطى لها، وفي الغاية منه، وفي عدم وضع تخطيط قويم يرتكز على أسس تعاليم الدين الحنيف والفطرة السليمة، وفي إنكار اختلاف فطرة المرأة عن فطرة الرجل، مما يقتضي وجوب اختلاف مناهج تعليم المرأة عن تعليم الرجل ، واختلاف مجالات العمل بينهما ، أي أن أساس المشكلة كامن في أهداف هذا التعليم وغاياته . ولقد كانت الغاية الأساسية من التعليم الغربي في بادئ الأمر مقصورة على تنصير المرأة ثم صارت فيما بعد إخراجها من الدين سواء دخلت في النصرانية أم لم تدخل فيها . ومن هنا امتدت خطوط المشكلة إلى جوانبها الأخرى حتى دفعوا المرأة لمزاحمة الرجل في مجال التعليم وفي مجال العمل بدعوى مساواتها للرجل في كثير من الأمور ، وبدعوى التحرر والتمدين والتحضر، حتى وإن صادم ذلك فطريتها وطبيعتها الأنثوية . ولقد سارت قضية المرأة على الخطط المرسومة لها طبق دراسة دقيقة، فكانت بداية الحركة في مجال التعليم على اختلاف مراحله الجامعية والابتدائية والثانوية ثم امتدت إلى الدعوة إلى تحرير المرأة بإخراجها من بيتها وتعريتها من زيها واختلاطها بالرجال الأجانب، فكانت النتيجة ظهور أمهات من الطراز الذي يريده مثيرو القضية والمؤيدون لها ، أمهات رضعن لبان التعليم الغربي ولم يعدن قوامات

للبيوت ولا مدرسة صالحة لتكوين الأجيال العظام،بل أصبحن وسائل للإغراء بالفاحشة وإفساد المجتمع وانحلاله وسقوطه نتيجة بعده عن قيمه الروحية والأخلاقية ،وانسياقه وراء الغرب وترسمه خطاه ،حتى آل أمر هذا المجتمع إلى ما آلت إليه حالة الدول الغربية التي سبقته في هذا المضمار وقادته عن عمد إلى حافة الهاوية .

الأم مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعبا طيب الأعراق

(حافظ إبراهيم)

الفصل الثالـــث :

ظهور الحركة القومية فى الكنيسة وامتدادها الى شئون الحكم والسياسة.

ظهور الحركة القومية فى الكنيسة
وامتدادها إلى شئون الحكم والسياسه

إن الإرساليات التبشيرية التى كانت طلائع جيوش الاحتلال البريطانى إلى دولة نيجيريا ، وكانت أداة طيعة فى أيدى الحكام البريطانيين المستعمرين فاستخدموها فى تحقيق السيطرة السياسية والمطامع الاقتصادية فى مختلف مناطق هذه البلاد.. إنها هى نفسها التى بدأت السعى من حيث تدرى ومن حيث لاتدرى فى إضعاف سلطانها الروحى أولا ثم القضاء على حكم الاستعمار الاستبدادى فى هذه البلاد ثانيا ؛ وذلك لما أحاط بالكنيسة المسيحية من ظروف وأوضاع وأزمات طوال النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى جعلتها موطنا خصبا نبتت فيه الحركة القومية الزنجية وانطلق منه دعاة القومية والوطنية الذين شرعوا السلاح فى وجه طغيان الكنيسة لإنهاء السلطة المطلقة التى كان المبشرون البيض يمارسونها فى شئون الكنيسة وفى ميدان التبشير وكذلك لمجابهة سياسة التمييز العنصرى التى كانوا يتبعونها فى معاملاتهم مع الصابئين الأفارقة حتى امتدت خطوط الحركة بعد الحرب العالمية الأولى إلى ميدان السياسة للاجهاز على الحكام المستعمرين فى حكمهم الاستبدادى واستغلالهم الهشع .

وهكذا أصبحت الكنيسة المسيحية فى هذه البلاد منتدى خاصا لمناقشة القضايا القومية قبل فترة ظهور الصحف والمجلات التى أنشأها دعاة القومية فى خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى .

وقد خفيت هذه الحقيقة عن أنظار الباحثين الذين كتبوا عن الحركة القومية الزنجية وأدوار التطور الدستورى فى نيجيريا . ومن هؤلاء الباحثين ج س كولمان J.S.Coleman فى كتابه "المدخل إلى القومية النيجيرية" وجوان وهرى Joan Wheare فى كتابه " المجلس التشريعى النيجيرى . وكذلك كالو ازيرا Kalu Ezera

في كتابه " التطور الدستوري في نيجيريا " . قد تغاضى هؤلاء الباحثون جميعا عن الحركة القومية التي نبتت في الكنيسة المسيحية منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي وأخذت تنمو وتشتد وتتسع دائرتها حتى امتدت إلى مجال السياسة خلال العقد الثاني من هذا القرن العشرين . وقد أكد كولمان (Coleman) أن الحركة القومية لم تبدأ في حقيقتها في هذه البلاد حتى عام ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م وأن الحركة التي قامت في الكنيسة المسيحية في الفترة ما قبل عام ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م إنما هي حركة انتقادية بمعنى أنها كانت حركة غير بناءة . وقد حاول في كتابه تبرئة الإرساليات التبشيرية من مسئولية إثارة روح القومية في نفوس الصابئين الأفارقة حيث قال : " إنه لم يكن هناك علاقة مباشرة بين نشاط الإرساليات التبشيرية وبين قيام الحركة القومية النيجيرية "[1] إن الصلة الوثيقة القائمة بين نشاط الإرساليات التبشيرية وبين قيام الحركة القومية في هذه البلاد ، تلك الصلة التي لم يدركها كولمان (Coleman) وزملاؤه أو حاولوا تجاهلها ، كانت بينة واضحة في سجلات الإرساليات وتقاريرها الرسمية بحيث لا يمكن لأحد أن يحاول إخفاءها عنا أو تبرئة الإرساليات من سوءات التورط في إثارة روح القومية بأعمالها غير الانسانية . فالحركة القومية النشطة التي بدأت بعد الحرب العالمية الأولى واستمرت حتى سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م التي نالت فيها البلاد استقلالها السياسي ـ وهي الفترة التي ركز عليها هؤلاء الباحثون في كتبهم وبحوثهم ـ كانت ترجع من حيث نشأتها وتطورها وامتدادها إلى شئون السياسة والحكم ومجال الاقتصاد وإحياء الحضارة الوطنية ، إلى الأوضاع والظروف القاسية المحيطة بالكنيسة المسيحية ونشاط الإرساليات التبشيرية الأجنبية ، ذلك أن نظرية القومية الزنجية التي تبناها المبشرون والصابئون الأفارقة كانت مستنبطة من مفهوم آية وردت في سفر المزامير من الكتاب المقدس على

---

(1) J.S.Coleman, Background to Nigeria Nationalism, Calif. 1958 P. 96

ما سنبينه فيمابعد إن شاء الله تعالى .

ثم إن ظهور الصحافة منذ ثمانينات القرن التاسع عشر الميلادى وما لعبته من الدور الهام فى تهييج روح القومية فى نفوس الصابئين الأفارقة وفى نشر مبادىء القومية وأفكارها فى مختلف مناطق هذه البلاد وبين مختلف طبقات المجتمع كان إلى حد كبير بجهود المثقفين الأفارقة المسيحيين الذين امتعضوا من الظروف الحرجة التى كانوا يعيشونها والتى كانت مليئة بالمظالم المتراكمة والهموم والأحزان التى سادت أجواء الكنيسة المسيحية والمراكز التبشيرية ، وذلك نتيجة سياسة التمييز العنصرى التى كان المبشرون البيض ينتهجونها فى تلك الفترة وتصرفاتهم غير الانسانية تجاه الصابئين الأفارقة . ولما كان معظم دعاة القومية الأوائل من رؤساء الكنائس والمبشرين المحليين قريبى عهد بالثورة العنيفة التى قامت فى أوربا ضد طغيان الكنيسة المسيحية وجور الحكام الاقطاعيين المستبدين ، فقد نظروا نظرة الإعجاب إلى أبطال هذه الثورة فى نضالهم ومقاومتهم للمظالم وتنظيمهم الحركات الثورية لرفعها وإصلاح الأوضاع الاجتماعية السيئة التى سادت المجتمع الأوربى فى أحقاب التاريخ فساروا من ثم على منوالهم وبدأوا يثورون فى وجه سلطان الكنيسة الطاغى فى هذه البلاد منذ النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى . ويجب أن نستعرض فى إيجاز نظرية القومية الزنجية لدراسة منشأ روح الحركة القومية الزنجية ومفهومها من حيث التصور والتطبيق العملى قبل أن نبدأ فى دراسة العوامل الأساسية التى أدت إلى قيام الحركة القومية وطبيعتها والأدوار والمراحل التى مرت بها وما رافقها من المشاكل والأزمات الاجتماعية وآثار ذلك كله على أعمال الإرساليات التبشيرية ، وما أدى إليه من الانقسامات داخل الكنيسة المسيحية وبين الفرق المسيحية المتعددة ثم فى نهاية المطاف نعرج على دراسة امتداد الحركة القومية إلى مجال السياسة والحكم لفك أغلال العبوديات السياسية وإنهاء الاستغلال الاقتصادى وإحياء الحضارة الوطنية وتقديسها وكيف تم سوق مجامع عقول المسلمين والمثقفين منهم بوجه خاص إلى

التعلق بالنعرات القومية والشعوبية حتى ضعفت رابطة العقيدة الإسلامية فى نفوسهم وتقلص سلطانها فى الهيمنة على شئون حياتهم السياسية والاجتماعية وما إلى ذلك •

قال الأستاذ أيند يلى Professor Ayandele " نشأ مفهوم القومية الزنجية من آية وردت فى الكتاب المقدس فى سفر المزامير جاء فيه " يأتى شرفاء من مصر ، كوش تسرع بيديها إلى الله ." (١) • وقد ضمن المثقفون المسيحيون كلمة " كوش " التى وردت فى هذه الآية معانى عاطفية وجدانية عميقة بعثت روح القومية وفكرة الوحدة الجنسية فى نفوس المسيحيين الأفارقة حيث اعتقدوا أن الشعوب الأفريقية المسيحية ستبلغ شأوا عاليا ومنزلة رفيعة فى مستقبل حياتها القومية حتى تصبح قبلة أنظار العالم بأسره حسب وعد الله لها بذلك فى كتابه المقدس • وقد علقوا آمالا كبيرا على هذا التنبوء واعتقدوا حتمية تحققه فى مستقبل الأيام حين يظهر الجنس الزنجى على رؤوس بقية الأجناس البشرية ليقودها إلى الله • ويظهر لى من هذا أن مفهوم القومية الزنجية التى استنبطه دعاة القومية الأفارقة من الكتاب المقدس كان بإيعاز من أساتذتهم المبشرين البيض وتوجيههم ، ويبدو أن هؤلاء المبشرين الأوربيين أرادوا أن يوجهوا أنظار الأفارقة إلى أنهم لم يكونوا ذوى شأن يذكر فى سابق عهودهم الطويلة وأنهم قد ارتقوا إلى منزلة رفيعة بسبب اعتناقهم المسيحية ولذا يجب عليهم أن يقيموا بناء حياتهم القومية على أساس العقيدة المسيحية إذ بها وحدها يبلغون مالم يحلموا به فى أحقاب التاريخ الطويلة الماضية •

إن الحركة القومية الزنجية التى قامت فى الكنيسة المسيحية فى هذه البلاد حركة ثورية لمواجهة طغيان الإرساليات التبشيرية الأجنبية فى الاحتفاظ بالسلطة المطلقة للمبشرين البيض فى شئون الكنيسة وفى مجال التبشير وكذلك سياسة التمييز العنصرى التى كانت تتبعها هذه الإرساليات، وتصرفاتها الأخرى غير الانسانية التى كانت تواجه

---

(1) E.A.Ayandle, op. cit., P.177

نقلنا ترجمة الاية من الكتاب المقدس ٦٨ : ٣١ سفر المزامير (النسخة العربية) •

(٢) ترجمة كلمة "كوش" بالحبشة فى النسخة الإنكليزية.

بها الصابئين الأفارقة ، كما أنها تهدف إلى محاولة إظهار الخصائص الوطنية الأفريقية من ناحية الحضارة والتقاليد والعادات، والرفع من شأن الأهالي الأفارقة من المستوى الدنيء الذي أنزلهم فيه المبشرون البيض ، وإنهاء المظالم الاجتماعية التي سادت أجواء الكنيسة المسيحية . وإذا كانت الإرساليات التبشيرية تقوم بإعداد رجال الدين المحليين منذ وقت مبكر من قيام حركة التبشير في مناطق غرب أفريقيا وتفتح أمامهم بعض الفرص للعمل في مراكزها التبشيرية وكنائسها وللوصول إلى بعض المناصب والمنازل المتواضعة في شئون الدعاية التبشيرية فإن سبب ذلك راجع إلى أن مناطق أفريقية الغربية لم تكن صالحة لسكنى الأوربيين بسبب مناخها الجاف وحرارتها الشديدة اللافحة وكذلك وجود بعض الأوبئة التي كانت تودي بحياة الأوربيين مما لم يمكنهم من استيطان هذه البلاد والاستقرار فيها .

وكان ذلك سببا مباشرا جعل القوى الاستعمارية الصليبية تعتمد على استخدام الوكلاء المحليين لتحقيق مصالحها في شئون الإدارات المحلية وفي مجال الاقتصاد وفي ميدان الدعاية التبشيرية . " إن الحركة القومية الزنجية في غرب أفريقيا كانت تتبنى فكرة تحويل أفريقيا كلها إلى المسيحية وتتضمن الفكرة نظريا ضرورة إقامة مملكة لاهوتية مسيحية تبسط نفوذها السياسي وسلطانها الروحي على كافة الأقطار الأفريقية " (١) . وقد كان شيئا طبيعيا جدا أن تكون الكنيسة المسيحية منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي مركز انبعاث روح الحمية القومية وإثارة الطموح السياسي والاجتماعي في نفوس الصابئين الأفارقة والمثقفين منهم بوجه خاص وذلك لما ساد أجواء الكنيسة المسيحية منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي من الظروف والأوضاع السيئة والأزمات الاجتماعية المتراكمة ، إلا أنه طوال تلك الفترة لم تكن لهم شكاوى سياسية ضد الحكومة الاستعمارية التي كانت تحكم مستعمرة لاجوس

(1) E.A.Ayandle, op. cit., P.177

وقد كانوا ينظرون إلى الحكم الاستعمارى نظرة إجلال وتقدير ، ويرون أنه الكفيل لهم بضمان الأمن والاستقرار ورفع مستواهم الاجتماعى إلى أعلى المنازل فى المجتمعات الأفريقية المتخلفة . فلقد اعتنق هؤلاء الصابئون الأفارقة المسيحية وأذعنوا لمبادئها وتعاليمها من غير أن يكونوا على بينة من أمرهم أو يكونوا على بصيرة من أمر المسيحية نفسها . وقد كانوا يؤكدون فى مناسبات كثيرة أن المسيحية قد حذرت أتباع الكنيسة فى نصوص صريحة من خطر التعلق بالشئون السياسية المحضة . وقد شاعت هذه الفكرة فى صفوف المثقفين الأوائل ، ولذلك ظلت الحركة القومية محصورة فى حدود إصلاح شئون الكنيسة المسيحية وإنشاء الكنائس الأفريقية الانفصالية لمدة خمسين سنة بعد نشأتها . ثم عندما اتسعت دائرة تفكير هؤلاء المثقفين المسيحيين وبدأوا ينظرون إلى مدى أبعد ، وأصبحت تجيش فى أذهانهم أفكار سياسية ، أدركوا أن جميع نشاطهم القومى فى الكنيسة المسيحية إن هو إلا مراحل تمهيدية وجهود أولية لتهيئة الظروف المناسبة لقيام حكومة محلية عن طريق دعمهم وتأييدهم ومؤازراتهم لتقدم أعمال التبشير وانتشار المسيحية فى هذه البلاد " إن الاستقلال السياسى الذى كان دعاة القومية يسعون إلى تحقيقه لا يمكن أن يتحقق حتى تستقر المسيحية فى هذه البلاد وتنتشر فيها انتشارا كبيرا . وإن المثقفين المسيحيين هم الذين سيتم ذلك الاستقلال على أيديهم ، وهم الذين سيتولون السلطة الكاملة فى الحكومة الجديدة . وما إن يتحقق لهم الاستقلال فى إدارة شئون الكنائس حتى يأتى بعد ذلك الاستقلال السياسى بطريقة تلقائية مثلما تأتى النتائج بعد قيام الأسباب.(١) »

وقد سبق أن تحدثت عن خطة القس هنرى فين Rev. Henry Venn السكرتير العام لإرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية فى تنظيم شئون المجموعات المسيحية بواسطة إعداد رجال الدين المحليين وإنشاء الكنائس المحلية والعمل على جعل هذه

(١) E.A.Ayandele, op. cit., P. 179

الكنائس تعتمد على الدعم الذاتي المحلي في تمويل نشاط الدعاية التبشيرية وفي توسيع دائرة أعمالها ثم تشكيل هيئة محلية للقساوسة في كل منطقة . وذكرت ما أدت إليه هذه الخطة من النتائج حيث بعثت في نفوس الصابئين الأفارقة روح الاعتداد بالنفس والرغبة في إظهار الخصائص المحلية والعمل من أجل التخلص من سيطرة المبشرين البيض على شئون الكنيسة وأعمال التبشير . ولقد كرس المبشرون والمستعمرون منذ فترة طويلة مجهودات كبيرة في سبيل تكوين طبقة جديدة في المجتمعات الأفريقية تشمل رجال الدين المحليين والمثقفين العلمانيين والوكلاء التجاريين الذين ينتظر أن تنتقل إليهم سلطات الملوك والحكام المحليين كما ينتظر أن تتفجر على أيديهم الثورة الاجتماعية التي كان المبشرون والمستعمرون يسعون إلى إحداثها عن طريق الكنيسة ووسائل الدعاية التبشيرية والحكم الاستعماري والتعليم الغربي والمبادئ والنظم الأوربية في ظل سيطرة القوى الاستعمارية العسكرية .

قال القس الأمريكي المستكشف توماس بوون (Thomas Bowen)

" لم تكن هناك حضارة قدر لها البقاء والرقي في تاريخ البشر إلا وهي تقسم الناس في المجتمع إلى الطبقات العليا والوسطى والأدنى من أجل أن تضمن لنفسها البقاء والقوة . ويجب أن نؤكد أن التقسيم الطبقي شيء ملازم للمجتمع الانساني ولا يمكن أن تستغني عنه أي حضارة مهما كان نوعها وكيفما كانت تلك الحضارة من حيث الرقي والتخلف . ولم تكن هناك في أفريقيا طبقة الرجال النبلاء الذين يستطيعون بمجهوداتهم الكبيرة أن يحققوا للمجتمع الأفريقي الوحدة والقوة ويوجهوه نحو الاتجاه السليم الأمثل، كما لم تكن في أفريقيا أيضا الطبقة الوسطى التي تتزود بانجازات الطبقة العليا وتتلقى المعرفة والقوة والحوافز الدافعة إلى العمل من السادات الأفاضل لتطبقها من أجل إسعاد الملايين من الناس العاديين . وباستثناء بعض الزعماء السياسيين المحليين الذين كانوا هم أنفسهم همجيين ، فقد كانت مجتمعات بلاد السودان الغربي مخلدة إلى حالة الجمود والركود، وقد بقى الناس فيها فقراء جهلاء وهالكين بسبب عدم وجود طبقة

الرجال النبلاء .(١) ولقد ظن المبشرون والمستعمرون أن مايبذلونه من جهود كبيرة فى إعداد الطبقة الوسطى من الأفريقيين للخدمات التبشيرية فى الكنيسة وفى حقل التبشير وكذلك الخدمات الشعبية فى الإدارات المحلية فى شئون الدولة سيجعل هذه الطبقة خاضعة لسيطرة الأوربيين السياسية والاجتماعية والاقتصادية وسلطانهم الروحى مدى الحياة . ولكن هؤلاء الأفريقيين الذين تلقوا التعليم الغربى فى مدارس الإرساليات وأصبحوا مثقفين بارزين أو رجال دين مبشرين قد صاروا هم أنفسهم كارهين لرسل التبشير وللعلاقة القائمة بين حركة التبشير وبين الحكم الاستعمارى . وذلك عكس ماكان يتوقعه الأوربيون المتسلطون . فقد كانوا يعتقدون أن تحويل الأفارقة إلى المسيحية وتعليمهم فى مدارس الإرساليات ودخولهم الحياة الاجتماعية بتوظيفهم فى الخدمات الشعبية لدى الحكومة الاستعمارية أو استخدامهم فى شئون الكنيسة وأعمال التبشير أو فى شئون التجارة لدى الشركات الأجنبية . كل ذلك إن لم يجعلهم خاضعين للنفوذ الأجنبى مدى الحياة فسيجعلهم يطمئنون إلى سيطرة الأجانب على شئون بلادهم لفترة طويلة على الأقل . ويجب أن نؤكد هنا أن ماوصل إليه الأمر فى هذه البلاد فى شتى مجالات الحياة لم يكن قط هو الغاية القصوى التى كان يعمل المبشرون من أجل تحقيقها . هناك أسباب كثيرة أدت إلى ظهور الحركة القومية فى صفوف الطبقة الوسطى التى رباها المبشرون والمستعمرون ، وليس فى استطاعتنا الإحاطة بتلك الأسباب تفصيلا ، ولكننا سنذكر هنا أهمها قبل أن نعرج على دراسة الأزمات الاجتماعية التى وقعت فى فترة ظهور هذه الحركة فى الكنيسة المسيحية وآثار ذلك على أعمال التبشير. قد أثبتنا من قبل أن الحركة القومية نشأت من داخل الكنيسة المسيحية وأن دعاتها الأوائل هم رجال الدين والقساوسة المحليون ، وأن أهداف الحركة ظلت محصورة لمدة لاتقل عن خمسين سنة فى محاولة إصلاح الأوضاع المحيطة بأعمال التبشير فى شئون إدارة الكنائس والمراكز التبشيرية التى كان المبشرون البيض يسيطرون عليها

---

(1) Rev. T.J. Bowen, Adventures and Missionary Labours in Several countries in the Interior of Africa, Charleston, 1857, Pp. 339-340

سيطرة كاملة ، وأنها اهتدت بعد ذلك إلى إحياء الحضارة الوطنية وإظهار الخصائص المحلية ، وأنه في المرحلة الأخيرة عندما تراكمت المظالم السياسية والاجتماعية اشتدت روح القومية في نفوس المثقفين المسيحيين ووسعوا دائرة نشاط الحركة ومددوها إلى الاجهاز على الحكام المستعمرين ومطالبتهم بالاستقلال السياسي . وليس هناك أي دافع تبشيري يمكن أن يبرر به المبشرون عملية الاستعباد والاستعمار وذلك لأنها من وجهة نظر الدين ظلم وجور واعتداء على حقوق الآخرين وانتقاص وإهانة لبنى البشر . ولقد فشلت المسيحية الغربية في تحقيق أهدافها في شعوب الأقطار التى منيت بالغزو التبشيري، لأنه كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالاستعمار الأوربي منذ بداية توغله، حتى أصبح مفهوم التبشير يرتكز على تفوق العنصر الأبيض والحضارة الأوربية كما أصبح التبشير نفسه وسيلة قوية لتحقيق سيطرة الأوربيين السياسية والاقتصادية والدينية . ونحن نعلم أن روح المسيحية القائمة على المحبة والسلام والإخاء والتى جاء بها سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام لا يمكن أبدا أن تقبل حتى ولو نظريا فكرة استعباد شعب لشعب آخر ، وأن هناك فارقا جوهريا عميقا في مختلف الجوانب بين الاستعمار الذى هو ظلم واستغلال وخداع ومحو للقيم والحضارة وبين روح المسيحية . ولكن الذى رأيناه هو أن الكنيسة المسيحية في جميع الأقطار التى ابتليت بالاستعمار الأوربي قد ربطت مصيرها بالوجود الاستعماري ، وذلك مخالفة بينة واضحة لتعاليم المسيحية . ولقد قامت عقبات كثيرة في وجه انتشار المسيحية في أفريقيا كان من بينها ما يتعلق بجوهر الديانة المسيحية الغربية التى كانت الإرساليات التبشيرية تبشر بها من ناحية مفاهيمها المعقدة وتعاليمها ومبادئها الأخلاقية المتناقضة مع المبادىء الإنسانية والفطرة السليمة، ومن بينها أيضا مواقف الأوربيين العدائية تجاه الأديان التى سبقت المسيحية إلى أفريقيا والحضارات التى سادت أرجاءها قبل توغل الحضارة الأوربية . إن ارتباط حركة التبشير بالغزو الاستعماري الأوربي وربط المسيحية الغربية بعجلة الحضارة الأوربية كان عاملا أساسيا من جملة العوامل التى أدت إلى

ظهور الحركة القومية فى صفاف الصابئين الأفارقة خاصة وقد بنى الأوربيون ذلك كله على أساس تفوق العنصر الأبيض على جميع الأجناس والعناصر الأخرى فى سلم الأصالة البشرية .

وبناء على ذلك كانت آراء المبشرين والمستعمرين فى شعوب البلدان المستعمرة تتلخص فى اعتبارهم أقواما همجيين متأخرين ومستضعفين فى الأرض ، واعتبار الأديان والحضارات القائمة فى تلك البلدان مجموعة عادات شريرة وحشية وتقاليد بالية وخرافات شيطانية أدت إلى انتشار الفساد والفوضى والظلم ، مما جعل هذه البلدان تعانى حالة التأخر والانحطاط قرونا طويلة ، وعلى هذا رأى المبشرون والمستعمرون وجوب استعباد هذه الشعوب واستعمار أراضيها والقضاء على الأديان والحضارات القائمة فيها ومحوها من الوجود . فمن هنا بدأت المشكلة كلها حيث تقررت بذلك فى أنظار الأوربيين سيادة العنصر الأبيض وتفوق حضارته وظهور الديانة المسيحية الغربية على الأديان كلها .

ولكن ياترى هل هذه السيادة مطلقة أم نسبية ؟ أى أن الأفريقى مثلا لو تحول إلى المسيحية وأخذ قسطا كبيرا من الحضارة الأوربية ، فهل يصبح بذلك غربيا لا يتميز عليه الأوربى بشىء آخر ؟ !! . ورغم أن المبشرين والمستعمرين سعوا إلى محو الأديان بتحويل مجموعة من الأفارقة إلى المسيحية كما سعوا أيضا إلى محو القيم والحضارات بإلزام الصابئين بالأخذ بالحضارة الغربية وأبعدوهم عن شئون مجتمعاتهم حتى غدا هؤلاء الصابئون حائرين بين عالمين كبيرين : عالم أفريقى وثنى وعالم أوربى مسيحى ، واستولت الفوضى الفكرية على عقولهم لأنهم قطعوا أواصر ارتباطهم بمجتمعهم القديم واعتنقوا المسيحية وانبهرت عقولهم بالحضارة الأوربية وبدأوا يتطلعون إلى المجتمع الأوربى المتقدم فى عالم الماديات وأرادوا أن ينصهروا فى بوتقته .. رغم ذلك كله فقد واجهتهم الصدمة العظمى عندما رفض الأوربيون أن يكونوا إخوة لهم فى الدين

مساوين لهم فى المنزلة . ومن هنا نجمت مشكلة التمييز العنصرى الذى يعتبر أكبر دافع إلى قيام الحركة القومية فى صفاف الصابئين . ولم يكن من الممكن بأى حال من الأحوال أن يرضى المبشرون والمستعمرون بأن يرتقى الصابئون الزنوج ليساووهم فى المنزلة فضلا عن أن يكونوا أعلى منهم ، ولكنهم دائما وأبدا كانوا يريدون من هؤلاء الصابئين أن يكونوا أشخاصا يُستتبعون ويُستغلون فى شئون بلادهم حفاظا على سيادة العنصر الأبيض وسيادة حضارته ، ومن أجل تحقيق السيطرة السياسية والاقتصادية والدينية . وفى الوقت الذى انبهرت فيه عقول الصابئين الأفارقة بالحضارة الغربية وجميع معطياتها أيما انبهار حتى إن أحدهم ليعتقد أن حصوله على الثقافة الغربية يجعله إنسانا آخر أرفع منزلة وأعلى درجة من أبناء جنسه الذين لم يحصلوا على مثل هذا النوع من الثقافة حتى كان من العبث وقتئذ أن يحاول إنسان إقناع المثقف الأفريقى بأنه ليس أوربيا عندئذ واجهتهم مشكلة التمييز العنصرى وكانت فى الحقيقة صدمة كبرى خيبت آمالهم وأدت بطبيعة الحال إلى تغيير موقفهم تجاه الحضارة الغربية وحركتا التبشير والاحتلال الأجنبى . وقد كان المثقفون الأفارقة يعتقدون بأنهم إذا تعلموا اللغة الإنكليزية وحصلوا على العلوم الغربية الحديثة، وأخذوا بالتقاليد والعادات الأوربية والمبادئ الأخلاقية الغربية ، وتشبهوا بأساتذتهم الأوربيين فى المظاهر الخارجية، وقلدوهم فى كل شىء، فإنهم سيصبحون بذلك فى مستوى الأوربيين فى مجال الحياة الاجتماعية وفى شئون الكنيسة وحقل التبشير وفى مجال الحكم والسياسة ، حيث يكون معيار التفاضل بينهم مبنيا على أساس القدرة العلمية والخبرة العملية لا على أساس اللون أو الجنس . ولكن الصدمة كانت عنيفة جدا عندما بدا الأمر على عكس ماهو متوقع تماما . وبدلا من أن يسر الأوربيون ويمتلئوا غبطة وفرحا من تقليد الأفارقة لهم فى كل شىء وجد الصابئون أنهم قد أصبحوا أضحوكة لجميع طبقات الأوربيين بما فيها طبقة المبشرين ورجال الدين . بل إن الأوربيين الذين سعوا إلى طمس الحضارات ومحو القيم والتقاليد والعادات القائمة فى المجتمعات الأفريقية بدأوا يسعون بعزم وجد لنشر حضارتهم

وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم على أنقاضها أخذوا ينظرون بعين الاحتقار والازدراء إلى الأفريقيين الذين تعلقوا بأذيال الحضارة والثقافة الأوربية لأنهم يمثلون صورة شوهاء للأوربيين . إنهم مجرد مقلدين وببغاوات لا يحسنون غير المحاكاة والتقليد .

ومن هنا بدأ الأفارقة يتحيرون من أمرهم . إذا كان الأوربيون قد سعوا في هدم ما وجدوه في بلادهم من قيم روحية وحضارة محلية ومبادئ اجتماعية ، وحملوهم على احتقارها حتى نبذها الأفارقة وتبرأوا منها وأخذوا يتعلقون بما جاء به الأوربيون من حضارة وثقافة وقيم ومبادئ ، وانكبوا عليه حتى بدأ يسيطر على جميع شئون حياتهم . فماذا يا ترى يكون سبب احتقار الأوربيين لهم بعد ذلك كله ومواجهتهم لهم بمشكلة التمييز العنصري والمعاملات الأخرى غير الانسانية ؟! . من هنا بدأت أنظار الأفريقيين تتجه نحو إظهار خصائصهم الوطنية وأصبحوا ينظرون إلى العادات والتقاليد المحلية نظرة افتخار واجلال وتقدير ، كما أخذوا يأسفون من الانبهار الشديد الذى أعمى أبصارهم وعقولهم حتى قبلوا الحضارة الأجنبية دون التمييز بين الغث والثمين وبين النافع منها والضار . ولكن الذى يجب أن نبقيه فى أذهاننا ونحن بصدد الحديث عن الحركة القومية التى نهضت لرد اعتبار الأفريقيين بتعظيم الحضارات الأفريقية وتقدير العادات والتقاليد المحلية ، وتدعو إلى إظهار الخصائص الوطنية فى جميع شئون الحياة الخاصة والعامة ـ الذى يجب أن نبقيه فى أذهاننا هو أن هذه الحركة فى حد ذاتها قائمة على النعرات القومية الجاهلية وكانت تدعو إلى العودة إلى التمسك بالحضارة الأفريقية المتخلفة البالية ، والعادات والتقاليد الوثنية والأديان الأفريقية الوثنية .

ثم إن الفترة التى اعتبرها القوميون عهد النهضة الحضارية فى هذه البلاد والتى ابتدأت بظهور الحركة القومية كانت حركة إحياء الحضارات الأفريقية قائمة فيها على أساس إحداث بعض التغييرات السطحية فيها ، وإصلاح المظاهر دون الجوهر والتمسك بالقشور والحفر عليها دون اللباب . ويتمثل ذلك فى عودة الأفريقيين إلى استعمال

الأسماء الأفريقية واللغات المحلية ، والقيام بكتابة تاريخ الشعوب الأفريقية ودراسة تقاليدها وعاداتها وأديانها الوثنية ، وذلك لأن المسيحية الغربية قد خيبت آمالهم بسبب ارتباطها بالإمبريالية وسعيها في محو الحضارات الأفريقية لتأكيد سيطرة العنصر الأبيض والحضارة الأوربية . وقد بدأت مشكلة التفرقة العنصرية أول مابدأت في هذه البلاد في داخل الكنيسة المسيحية، وكانت المشكلة تدور حول شئون إدارة الكنائس والمراكز التبشيرية وإدارة الإرساليات، وهناك قانون ثابت في نظام الكنيسة وشئون التبشير يقضي بمنع وضع الأوربي تحت سلطة الأفريقي بأي حال . وهذه هي الحقيقة الكامنة وراء احتكار الأوربيين منصب الرياسة وجميع المناصب الدينية الهامة في إدارة شئون الإرساليات والكنائس والمراكز التبشيرية، وامتناعهم من تعيين الأفريقي أسقفا لأن ذلك يجعل المبشرين الأوربيين تحت سلطته . وقد كانوا يشغلون الأفارقة في المناصب الدنيا تحت سلطة المبشرين البيض ، كما كانوا يمنعون الصابئين الزنوج من الاشتراك معهم في بعض مجالات النشاط الاجتماعي الهامة، إضافة إلى أن الأفارقة المستخدمين في شئون التبشير وشئون التجارة وشئون الخدمات الشخصية كانوا يتقاضون أجورا ضئيلة جدا لا تسمن ولا تغني من جوع ، وكانوا يحرمون من الامتيازات والحقوق المعنوية التي كان يتمتع بها الأوربيون المساوون لهم في غالب الأوقات في المستوى العلمي والخبرة العملية . وقد وصل الأمر في بعض الأحيان إلى إغلاق المبشرين الأوربيين أبواب الكنائس الكبرى في وجه الصابئين الزنوج . وأكثر من ذلك أن هؤلاء الصابئين قد مروا بفترة حرجة في تاريخ التبشير المسيحي في هذه البلاد اعتبروا فيها الديانة المسيحية مقصورة على العنصر الأبيض بل اعتقدوا أنها ديانة خاصة بذلك الجنس فقط . ولما اشتدت سياسة التمييز العنصري على الصابئين الأفريقيين وكادت أن تسلبهم جميع حقوقهم حتى أصبحوا يشعرون بالغربة وهم في عقر ديارهم وقعت نزاعات عنيفة ومشاكل كبيرة داخل كنائس الإرساليات التبشيرية في مستعمرة لاجوس بين الصابئين الأفارقة والمبشرين البيض . وقد كانت النزاعات والمشاكل القائمة في كنائس إرساليات الكنيسة

الإنكليزية التبشيرية أشد وأعنف منها في كنائس الإرساليات الكاثوليكية والمشيخية والمنهجية والمعمدانية • ولما أدركت الهيئات التبشيرية الأجنبية خطورة الحركة القومية على أعمال التبشير وتقدم المسيحية في هذه البلاد بدأت محاولة استرضاء القوميين والسعي من أجل توجيه نشاطهم بقصد استغلاله لمصالحها الذاتية أو إضعاف قوة حركتهم بصرفها عن جادة الطريق والاتجاه السليم • وقد أبدت الإرساليات التبشيرية تجاوبا لمطالب الصابئين وأعلنت موافقتها على خطة القس هنري فين التبشيرية في تنظيم شئون المجموعات المسيحية وشئون الكنائس وأعمال التبشير مما يحقق لهم استقلالا جزئيا في تلك المجالات • وقد نقلت إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية القس النيجيري جيمس جنسون (James Johnson) من سيراليون إلى مدينة لاجوس سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م ليقوم برعاية شئون هؤلاء القوميين • وقد استحوذ على تفكير هذا الرجل أن انتشار أعمال التبشير في أفريقيا لا يكون إلّا عن طريق الأفريقيين • وبنى فكرته هذه على أساس ما كان يعتقده من أن السبب المباشر لنجاح الإسلام وتقدمه في أفريقيا كان يكمن وراء اعتماده على استعمال الدعاة والأبطال الأفارقة وكذلك عدم تغييره لبعض العادات والتقاليد الأفريقية المتأصلة • وقد فات هذا القس أن سبب نجاح الإسلام في أفريقيا يعود إلى جوهر الدين الإسلامي نفسه ، وسهولة تعاليمه ومعتقداته ومبادئه وما تتضمنه أحكامه وشرائعه من المبادئ الإنسانية السامية من الصدق والعدالة والمحبة والمساواة والإخاء وغير ذلك • فاته أيضا أن العرب المسلمين الذين جاءوا إلى بلدان أفريقيا ونشروا فيها الإسلام وأقاموا مع شعوبها العلاقات التجارية وتبادلوا المنافع الكثيرة ثم انخرطوا في المجتمعات الأفريقية دعاة خير ومصلحين فاعتنقت شعوبها الإسلام وقبلت حضارته الراقية ونظامه الاجتماعي السليم عن تفهم وعلى بصيرة وإيمان ، حتى استطاعت أن تقيم حكومات إسلامية على أراضيها في أحقاب التاريخ •• وكذلك المسلمون الذين أدخلوا الإسلام إلى بلاد الهند وغيرها من دول آسيا •• فات هذا الرجل أن هؤلاء جميعا لم يعرف عنهم احتقارهم وكراهيتهم واضطهادهم لغيرهم

من الشعوب بسبب اللون أو الجنس أو الدين ، وأن الدعوة الإسلامية لم تقم في تلك الأقطار بفرض الاستعمار على شعوبها ولا باستغلال موارد البلاد الاقتصادية كما فعل الأوربيون في تبشيرهم بالمسيحية الغربية .

ويعتبر القس جيمس جنسون (Rev. James Johnson) هذا أبرز شخصية في الحركة القومية التي ظهرت في الكنيسة المسيحية في هذه البلاد طوال الفترة الأولى قبل امتداد الحركة إلى شئون السياسة والحكم . وكان القس جيمس جنسون يعتقد أن نجاح الحركة القومية يتوقف على انتشار المسيحية في هذه البلاد وأن المقومات الأساسية لهذه الحركة لا توجد إلا في الديانة المسيحية مما جعل إمكان فصل الحركة القومية عن المسيحية أمرا في غاية الاستحالة . كان القس جيمس جنسون وزملاؤه المبشرون الأفارقة يسعون إلى إنشاء هيئة القساوسة المحليين . وقد قال : " إن إنشاء هذه الهيئة المحلية قضية دينية ، وفي الوقت نفسه هي مسألة الجنس الزنجي . ولكنها رغم ذلك ليست هي الغاية كلها وإنما هي نصف الطريق فحسب . وإذا قامت هيئات محلية للقساوسة في مختلف مناطق هذه البلاد فالمرحلة التالية بعد ذلك هي أن تتحد جميعا لتكون الكنيسة الأفريقية المستقلة التي ستقضي على الروح الطائفية وتوحد بين كافة المسيحيين الأفريقيين لتكون منهم دولة أفريقية واحدة.[1] " وكان القس جنسون يؤمن بأن الكنيسة الأفريقية المستقلة التي كان يتطلع إلى قيامها إذا استقر أمرها وقويت شوكتها " ستضع لنفسها مسيحية أفريقية خاصة وستتبنى هذه المسيحية الأفريقية الجديدة مجموعة من مبادئ ومعتقدات الأديان الوثنية التي تحمل بعض أوجه الشبه بالمبادئ والمعتقدات المسيحية كما أنها ستقرر استعمال اللغات المحلية وتضع لنفسها التراتيل والترانيم والطقوس الدينية الخاصة لأن كنيسة انكلترا ليست كنيستنا نحن.[2] " .

---

(1) CMS CA/0123 J. Hohnson to Taylor 1873

(2, CMS CA1/025e Cheethan to Wright 1873 quotes Johnson's article in the (NEGRO)

وعلى ضوء هذا كله يتبين لنا أن الحركة القومية بالنسبة للقس جيمس جنسون ماهي إلا حركة دينية روحية ولكنها حركة شاملة لجميع نواحي الحياة . إنها حركة عنصرية تفصل بين العنصر الأبيض والعنصر الزنجي . إنها تقرر المسيحية الغربية للعنصر الأبيض والمسيحية الأفريقية للعنصر الزنجي . وإذا كانت المسيحية الغربية تقوم على الحضارة والعادات والتقاليد الأوربية فيجب أن تقوم المسيحية الأفريقية أيضا على الحضارة والعادات والتقاليد المحلية . إن غاية هذه الحركة هي إبعاد العنصر الأبيض من شئون الكنيسة في هذه البلاد وإعادة السلطة إلى أيدي الأفريقيين وإقامة الكنيسة الأفريقية المستقلة تمهيدا لحشد المجموعات المسيحية كتلة واحدة لإقامة دولة أفريقية مسيحية . ولقد نتج عن الحالات المضطربة والظروف الحرجة التي قامت داخل كنائس الإرساليات منذ بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي انسحاب معظم الصابئين الأفارقة من كنائس الإرساليات الأجنبية وإنشاء كنائس أفريقية متعددة في بعض المدن الكبرى في المناطق الجنوبية منذ سنة ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٨ م . وقد استطاعت هيئة القساوسة المحليين في مدينة لاجوس أن تضم كافة الكنائس الموجودة في المدينة تحت سلطتها الإدارية سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م . ولكن رغم قيام الحركة القومية في الكنيسة المسيحية في تلك الفترة وإنشاء هيئة القساوسة المحليين واحتلال الأفريقيين المراكز الهامة في شئون الكنائس المحلية بعد نزع سلطة إدارتها من أيدي المبشرين البيض وجهود المبشرين المحليين من أجل إظهار الخصائص الوطنية في شئون الكنيسة ومجال التبشير .. رغم ذلك كله فقد رأينا أن الحركة القومية الأفريقية ظلت تخضع لتوجيهات القوى الأجنبية التي لاتزال تتقرب إليها وتحاول أن تتظاهر لها بشعور عاطفي لنصرتها في التغلب على مشكلاتها . وعلى الرغم من أن الحركة القومية قامت أساسا ضد طغيان الكنيسة والمعاملات غير الإنسانية التي كان المبشرون البيض يعاملون بها الصابئين الأفارقة فقد حاولت الهيئات التبشيرية الأجنبية منذ وقت مبكر استغلال هذه الحركة لصالحها وأهدافها الصليبية بإثارة شعور ديني

وعاطفة وجدانية مشتركة فى نفوس المسيحيين الأفارقة من أجل حشد طاقاتهم وتكتيل قواهم وجهودهم لإقامة حكومة شعبية مسيحية فى هذه البلاد . ولكن فشل الديانة المسيحية فى تحقيق مبدأ الأخوة والمساواة والعدالة بين الأوربيين الذين أتوا بالمسيحية إلى هذه البلاد وبين الصابئين الأفارقة وعدم تمكنها من القضاء على روح التنافس الشديد والنزاعات العنيفة القائمة بين مختلف الإرساليات التبشيرية العاملة فى البلدان الأفريقية ..كل ذلك كان عاملاً أساسياً أدى إلى فشل الهيئات التبشيرية ومعظم المبشرين الأفريقيين عندما أرادوا أن يستغلوا الحركة القومية الأفريقية لصالح المسيحية الغربية عن طريق جعل رابطة العقيدة المسيحية أساس الوحدة القومية الأفريقية . وهو السبب نفسه الذى أدى بالصابئين إلى التبجح والتفطرس بالنعرات القومية الأمر الذى قادهم فى آخر المطاف إلى انتحال مسيحية جديدة لا شرقية ولا غربية ولكنها أفريقية فى معتقداتها ومبادئها ومظاهرها أوخليط بين هذه وتلك . قد لاحظ المبشرون الأوربيون وتلاميذهم الأفارقة على السواء الآثار السياسية التى يمكن أن تترتب على طموح الصابئين ونضالهم من أجل تولى السلطة الإدارية فى شئون الكنائس . قال أدولفوس مان (Adolphus Mann): " لقد بذل مجلس الكنيسة المسيحية " فى هذه البلاد " كل ما فى وسعه لإثارة روح الثورة فى هذه الكنيسة وإن الصيحة الموجهة ضدهم بأن انقذوا الأهالى وراعوا حقوقهم هى أسوأ ما يمكن أن يوجه ضدهم وهم لا يستطيعون أن يتحملوا ذلك . وهذه الحركة الثورية التى تجرى الآن فى الكنيسة ضد العنصر الأبيض ، أفلا يكون لها امتداد إلى الشئون السياسية فى المستقبل ؟" (١)

ومنذ الفترة الأولى من قيام الحركة القومية فى الكنيسة المسيحية فى سبعينات القرن التاسع عشر الميلادى ظهرت عدة صحف ومجلات اتخذها القوميون وسيلة قوية لتحقيق أهدافهم الوطنية وغاياتهم السياسية . وقد لعبت هذه الجرائد والمجلات أدواراً هامة فى إثارة المشاعر الوطنية فى نفوس الصابئين المثقفين فى أقصى البلاد وأدناها . وإذا كانت

(1) CMS G3/A2/02 Adolphus Mann to Lang 1882

هذه الصحف والمجلات قد حملت على عواتقها مهمة تعزيز ودعم الحركة التبشيرية بنشر التعاليم والمبادئ المسيحية في طول البلاد وعرضها ، فقد رأينا أنها كانت تفعل ذلك بطريقة تخدم في المقام الأول مصالح الأفريقيين القومية وقضاياهم الوطنية في مختلف كنائس الإرساليات الأجنبية . وبسبب ظهور الصحف والمجلات أصبح في مقدور القوميين إيصال آرائهم وأفكارهم إلى زملائهم في مختلف المناطق ، كما أصبح في استطاعتهم إعلان رغباتهم وإظهار طموحهم بصوت واحد، وبشكل يترك في نفوس الناس آثارا بالغة . لقد قامت هذه الصحف والمجلات بإيجاد الأجواء الملائمة لتقبل آراء هؤلاء القوميين وأفكارهم ، كما قامت أيضا بإثارة المشاكل وروح الطائفية وتعميق جذور العنصرية ومحاولة التأثير على شئون البلاد سياسيا واجتماعيا وثقافيا ودينيا .

لقد صبت هذه الجرائد والمجلات جام غضبها على سياسة التمييز العنصري التي تسير عليها مختلف الإرساليات الأجنبية في شئون الكنائس . وكذلك تصرفات أفراد المبشرين البيض صارت توجه ضدها الانتقادات الشديدة . ولم تمض فترة طويلة حتى امتد نشاط القوميين إلى شئون الدولة فبدأوا يهاجمون الحكومة الاستعمارية في حكمها الاستبدادي وسيطرتها المطلقة على جميع شئون البلاد على ما سنبينه فيما بعد . وقد تكلمنا عن دور الصحافة في نشر الدعاية التبشيرية عند معرض حديثنا عن الوسيلة الثالثة لنشر المسيحية في هذه البلاد ، وذكرنا في ذلك الفصل مجموعة من هذه الصحف والمجلات مع بيان مؤسسيها ومحرريها وتاريخ بدء صدور كل واحدة منها . ولكن يجدر بنا أن نذكر هنا فئة معينة من تلك الصحف والمجلات ظهرت في فترة قيام الحركة القومية الأفريقية واهتمت بالقضايا الوطنية التي يناضل من أجلها القوميون ، كما وضعت نصب أعينها الخلافات والنزاعات التي تدور رحاها داخل كنائس الإرساليات الأجنبية . ومن بين تلك الفئة جريدة أخبار مدينة لاجوس " Lagos Times " التي بدأت تصدر منذ سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩ م . والجريدة الأفريقية الإنكليزية " Anglo - African " التي ظهرت

سنة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ م ، وكذلك جريدة مراقب مدينة لاجوس " Lagos Observer " التي ظهرت سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ م، ومن بينها كذلك جريدة النسر وناقد مدينة لاجوس " The Eagle & Lagos Critic " التي بدأت منذ سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م ، وجريدة المرآة " The Mirror " التي ظهرت سنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ م وغيرها.

ومن هذه الأوضاع التي سردنا بعض مظاهرها نشأ الاتجاه لدى معظم المسيحيين الأفريقيين إلى الاستقلال عن الإرساليات الأجنبية والانسحاب من الكنائس التي أنشأها المبشرون البيض . وقد أدت تلك المحاولات الاستقلالية والحركات الانفصالية التي رقمتفي الكنيسة المسيحية في هذه البلاد إلى قيام الكنائس الأفريقية المستقلة وظهور العبادات الوثنية المستحدثة وكنائس المتنبئين التي كانت تتبنى اتجاهات منحرفة وتقرر بدعا وخرافات استحدثها بعض الأفريقيين الذين تأثروا بالمعتقدات والمبادئ المسيحية ومزجوا بينها وبين مفاهيم ومعتقدات الأديان الوثنية الأفريقية . والانقسام والانفصال داء عضال ومرض متأصل في العالم المسيحي وبين الأجيال المسيحية المتعاقبة . فلم تكد المسيحية تحقق الانتصار على الدولة الرومانية حتى بدأت تنقسم على نفسها إلى مذاهب متعددة وتتفرق وحدة المسيحيين إلى طوائف شتى من بينها الطائفة الكاثوليكية والأرثوذكسية وغير ذلك . وكذلك انفصلت بعض الطوائف المنشقة عن الكنيسة الرومانية أثناء حركة " الاصلاح " البرتستانتي في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي فظهرت الكنيسة الإنكليزية والكنيسة المشيخية والكنيسة اللوثرية . وقد تفرعت من الكنيسة الإنكليزية نفسها كنيسة جديدة هي الكنيسة المنهجية الويزلية . ولم تكن هذه الحركات الانفصالية لتقف عند هذا الحد فقد وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث قامت فيها أيضا طوائف مسيحية متعددة من بينها

الطائفة المعمدانية وطائفة الكنيسة الرسولية وطائفة كنيسة عيد الحصاد وكنيسة المجيئيين السبتيين وكنيسة شهداء الرب .. وغير ذلك .

وإذا كانت هذه هي حال المسيحية في أوربا وأمريكا حيث انقسمت على نفسها وتشعبت مذاهبها وتعددت طوائفها فإننا لم نكن مبالغين في قولنا إن الانقسام والانفصال داء عضال ومرض متأصل في العالم المسيحي وبين الأجيال المسيحية المتعاقبة . وعلى هذا فإن الانقسام الذي وقع في الكنيسة المسيحية في بلادنا لم يكن إلّا امتدادا لما وقع في أوربا وأميركا في أحقاب التاريخ .

كما أن حركات الطوائف المسيحية الجديدة التي ظهرت في هذه البلاد والتي أدت إلى قيام الكنائس الأفريقية المستقلة وكنائس المتنبئين وظهور العبادات الوثنية المستحدثة لم تكن إلّا نظير تلك الحركات " الاصلاحية " التي قامت في أوربا على أيدي مارتن لوثر Martin Luther وجون كالفن John Clavin وهولدرلتش زونغلي Huldrelich Zwingle في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي وكذلك تشارلز Charles وجون ويزلي John Wesley في القرن الثاني عشر الهجري ـ الثامن عشر الميلادي مما أدى إلى قيام كنائس انفصالية متعددة في أوربا .

ولقد وقعت حوادث تاريخية متعددة في كنائس الإرساليات الأجنبية في مستعمرة لاجوس ومناطق دلتا النيجر وفي بلاد يوربا كان لها وقع أليم في نفوس المسيحيين الأفريقيين واهتزت لها مناطق غرب أفريقيا كلها وتداعى المسيحيون الأفريقيون لتنظيم حركات ثورية ضد المبشرين الأجانب . وقد قامت مشكلات ونزاعات عنيفة داخل الكنيسة المسيحية كانت عقبة كأداء واجهت الديانة المسيحية في تلك الفترة وكادت في بعض الظروف الحرجة أن تقلع جذور المسيحية من أساسها في هذه المناطق . ولا أحد يدري ماذا كان يمكن أن يكون مصير أعمال التبشير في تلك

الفترة لو لم تظهر الحركة القومية الأفريقية التى وجهت أنظار المسيحيين الأفريقيين إلى الاستقلال من سيطرة الإرساليات الأجنبية والانسحاب من الكنائس الرسمية إلى إنشاء الكنيسة الأفريقية المتحدة والكنيسة المعمدانية المحلية والكنيسة الأفريقية المنهجية المتحدة وهيئة القساوسة المحليين التى أنشأت فى مدينة لاجوس ومنطقة دلتا النيجر ٠

وإذا كان المسيحيون القوميون قد سعوا إلى قيام الكنائس الأفريقية من أجل أهداف وطنية وغايات سياسية فإن الجهود الكبيرة التى بذلها المبشر أدوارد ولمات بليدين Rev. Edward W. Blyden فى سبيل إنشاء الكنائس الأفريقية لم تكن مقصورة على الأهداف الوطنية والغايات السياسية من أجل القضاء على سيطرة الأوربيين المحتلين ٠ ولكن فوق ذلك كله كانت بدافع حقد صليبى يغلى فى صدره ، إذ كان يعتقد أن الكنائس الأفريقية وحدها هى التى تستطيع أن توقف تيار الإسلام الزاحف وتقضى عليه قضاء نهائيا ٠ قال المبشر أدوارد بلدين Rev. Edward W. Blyden بأنه " لقد تنبأ محمد نفسه / فى آخر الزمان سيأتى الزنوج إلى مكة لتدمير المسجد الحرام تدميرا كليا بحيث لا يعاد بناؤه بعد ذلك أبدا " (١) ٠ هكذا ذكر هذا المبشر فى كتابه من غير أن يذكر مصدره ٠ وقد كان ينبغى له أن يظهر لنا ذلك لنعرف مدى صدقه أو على الأقل ليبعد عن نفسه مظنة الاختلاق والتقول خاصة وهو يعلم أنه يتكلم فى حق عدوه الأكبر ٠

ونحن المسلمين لا نقبل من أى إنسان كان أن يتكلم جزافا أو يرمى بالقول على هواه وخاصة إذا كان فيما يتعلق بالدين ٠ فلابد عندنا من إسناد الكلام إلى مصدر موثوق به ويكون مرجعه إلى الشارع الحكيم ، إما فى كتاب الله العزيز وإما فى كتب سنة نبينا المطهرة ٠ أما أن رأينا أى إنسان يقول فى شأن ديننا ما يملى له هواه أو يبدى لنا ما يغلى فى صدره من الحقد ، فإن كلامه مردود إليه

---

(1) Edward. W.Blyden, The African Problem and other Discourses London,1890, Pp.54 & 104

وأنى لهذا المبشر من دليل قاطع

إلا أن يأتينا بدليل قاطع/على ما ادعاه! ولو لم يحوزه ذلك لا ظهره قبل ان نطالبه به .

وبما أن النزاعات والخلافات التى قمت فى الكنيسة المسيحية فى هذه البلاد كانت نزاعات وخلافات داخلية فى الديانة المسيحية كما رأيناها فى ثنايا هذا الفصل فقد أدت بطبيعة الحال إلى قيام مشاكل اجتماعية وسياسية ودينية كانت مسؤولة عن التحول والتغيير الذى حدث فى نواحى الحياة منذ دخول التبشير والاستعمار إلى هذه البلاد . ومن ساحة الكنائس المسيحية امتدت حركات المقاومة إلى شئون الحكم الاستعمارى لتناهض السيطرة الأجنبية التى تمارس ألوانا من المظالم على حساب الشعوب المستضعفة .

إن تاريخ مشكلة التمييز العنصرى فى هذه البلاد طويل حافل بالآلام والآثام التى اختلطت بحياة البلاد وتطورها . فقد ظهرت الاضطهادات العنصرية فى صورة الاستعباد والاستغلال وحرمان أهل البلاد من الوظائف الحكومية وأعمال الإدارة فيما عدا الأعمال الثانوية وما تدفعه حكومة الاحتلال لهم من المرتبات الضئيلة ، وكذلك التفرقة فى المعاملة بقوانين ما وراء البحار بين المستوطنين الأوربيين وبين أهل البلاد ووضع تشريعات خاصة بهم وتقييدهم بأصفاد التأخر وحرمانهم من الحقوق السياسية وأهم الحقوق المدنية .

ولقد اتضحت للمثقفين الأفارقة العلاقة القائمة بين الاستعمار والتبشير ، ولكن ذلك كان فى نطاق محدود وفى زاوية ضيقة ، حيث لم يفهموا حقيقة الخطط وغاياتها فهما صحيحا . وإذ لم يفهموها على حقيقتها فكيف يهتدون إلى الوسائل الناجعة لمكافحتها ؟ وعندما بدأ النضج النسبى فى عقول المثقفين الأفارقة منذ فترة الحرب العالمية الأولى على وجه التحديد ، وبدأت النخبات المثقفة التى صنعتها أيدى المبشرين واحتضنها المستعمرون تتطلع إلى شئون السياسة ، لم يكن ذلك ليقلق الحكومة الاستعمارية والهيئات التبشيرية . لقد قامتا فى الوقت

المناسب فرضمتا خططا محكمة مدروسة لخلق الاتجاهات السياسية وتنظيم شئونهـا وتوجيه نشاط الساسة المحليين المستغلين المستغلين واعطاء روح المقاومة صـورة مشوهة تبعدها عن الواقعية . ولئن كان الجاه الأوربى قد تحطم فى عيون الشعـوب الأفريقية بعد الحربين العالميتين ، حيث اكتشف كثير من مكايد الدول الاستعمارية ومخططاتها وظهر للناس أن المبشرين عملاء مأجورون للقوى الاستعمارية حاملـون رسالة لم تكن سماوية ، وإنما كانت دنيوية غايتها تحقيق مصالح الدول التى ابتعثتهـم إلى الخارج ، كما ظهرت حقيقة أمر الاستعمار الذى كان سندا للحركات التبشيريـة والسلاح الذى يحميها ويظللها .. فقد كانت النخبات المثقفة التى ظهرت فى هـذه الفترة قد رضيت — من حيث تدرى ومن حيث لا تدرى — بأن تكون القوى الاستعمارية نفسها هى المنظمة والموجهة لحركات المقاومة ، فسارت الأمور على المجارى التى خطط لها الاستعمار . إن حركات مقاومة الاستعمار التى تتمثل فى الحركات القوميـة والشعوبية كانت منذ نشأتها حركات / عاطفية مشبوبة موجهة ضد العسف والإرهـاق الذى يلحقه الاستعمار بالشعوب المستضعفة . وإن شعب هذه البلاد الذى تأخـر عن عالم الحضارة وتخلف عن ركب الحياة الراقية لم يكن فى إمكانه فى تلك الفـترة أن يدرس ويتفهم خططا وضعها من هو أرقى منه عقلا وإدراكا وتفهما للحيـاة .. وضعها لاستعباده واستغلاله ، فكان يخضعه ويستذله بالعلم والنظـام بينما هذا الشعب يحاول التخلص منه بالحركات العاطفية والأعمال المرتجلـة التى لا تنفذ إلى الأعماق ولا تقوم على الأسس السليمة ، والتى كانت فى واد وخطـط الاستعمار فى واد آخر .. وكانت نتيجة تباعد ما بين وسائل الكفاح وبين خـطط الاستعمار أن خسرت الشعوب المستضعفة المعركة .. إن الاستعمار الـذى أراد أن يضمن مستقبله فى هذه البلاد وأن يحول بين أهلها وبين كل تنبه ويقظـة ووعى سليم فى المستقبل ، قد عزم منذ وقت مبكر على إفساد الحياة السياسية والاجتماعية لتفكيك عرى وحدة شعب هذه البلاد ، وإخماد جذوة المقومات الروحية بإثـارة

روح القوميات والقبليات فى نفوس النخبات المثقفة . وإن الحركات القومية كما تبدو فى ظاهرها حركة عاطفية قامت كرد فعل للمظالم المتراكمة التى ظهرت فى شئون الكنيسة المسيحية وفى شئون السياسة الاستعمارية . ولكنها كانت فى حقيقتها من أفاعيل أيدى المبشرين والمستعمرين لتفريغ قضية النضال وحركة المقاومة من قيمتها الأساسية وتحويلها عن الاتجاه السليم لإضعاف قوتها بقصد استغلالها للمصالح الاستعمارية . ولقد قسمت الدول الاستعمارية فيما مضى مناطق نفوذها فى أفريقيا لا على أساس ماضى الشعوب الأفريقية فى تاريخها الطويل ، بل على أساس السباق فى احتلال السواحل وأحواض الأنهار والقضاء على الحكومات القائمة .

وهكذا تمت الاستعمار الشعوب الأفريقية فى إطار هذا الوضع المفتعل وفق الحدود الإدارية للقوى الاستعمارية ، لا الحدود الطبيعية لحضارة القارة ودولها السالفة . وإن فكرة الشعوبية والإقليمية والقبلية لم تأت من القاعدة وإنما نبتت ونمت وترعرعت بين الطبقة المثقفة من دعاة القومية ورجال السياسة الذين رباهم الاستعمار والتبشير . وكذلك فكرة إنشاء النقابات العمالية والأحزاب السياسية التى تزعمت حركات المقاومة وقبضت على زمامها لمطالبة القوى الاستعمارية بالحقوق السياسية والمصالح الاجتماعية مثل تحسين أحوال المعيشة ورفع الأجور وإنهاء الاستغلال الاقتصادى .. وقد كان الاتجاه الذى تسير عليه الحركة القومية بوحى وتوجيه من رجال الاستعمار لتفريق شمل شعب هذه البلاد حتى يشغلوه بالبعد الإقليمى المحدود والرابطة العنصرية والدموية والعرقية واللغوية ويبعدوه عن فكرة التجمع على أساس الرابطة الروحية . وإن الحرب فى ذلك كله كانت من أجل القضاء على الإسلام كنظام مجتمع ومنهج حياة ، ومن أجل القضاء على الرابطة الإسلامية كعامل أساسى من عوامل التجمع والوحدة بين الشعوب . إن هناك حقا صعوبات تواجه الشعب النيجيرى ، وله مشكلاته القومية والقبلية ، ومشكلات الدين واللغة وغيرها ، ولكن بدلا من أن يعمل رجال الاستعمار والتبشير على حل هذه المشكلات وإزالة

الخلافات راحوا يعمقون جذورها ويمدون خطوطها . وكانت النتيجة فرقة في مكان الوحدة وضعفا في مكان القوة فتمزقت وحدة شعب هذه البلاد كما تمزقت قبلها وحدة شعوب أوربا عندما ظهرت فيها الحركة البروتستانتية في القرن السادس عشر الميلادي ، وتحولت أوربا بعدها عن المسيحية كلية وعادت مرة أخرى إلى الوثنية اليونانية والرومانية وظهرت القوميات في عصر " النهضة الأوربية " الذي قامت فيه الثورة العنيفة على الكنيسة المسيحية . إن محاولة القوى الاستعمارية الغربية إثارة الحركات القومية وتوجيهها ، والاهتمام بمشاريع هذه الحركات واستغلالها لصالحها الذاتية ، من شأن ذلك كله تقوية الشعوبية والقومية والقبلية وتعميق وتمديد الخطوط التي تفرق بين الأوطان وتشتت الشعوب . وكما أدت إثارة القومية الطورانية في تركيا إلى تمزيقها وإبعادها عن التمسك بعنصر التجمع الروحي حتى تغلبت النعرة القومية على النزعة الدينية والروح الوطنية على الروح الدينية وأدت إثارة القومية العربية في البلاد العربية إلى تمزيق دولة الخلافة الإسلامية وكسر شوكة المسلمين وظهور النعرة القومية للقضاء على النزعة الدينية .. كذلك كان الأمر بالنسبة لبلاد السودان الغربي التي أثار فيها رجال الاستعمار والتبشير روح القوميات والقبليات لتمزيق وحدة هذه البلاد ، والقضاء على الإسلام فيها ، وتفريغ القضايا السياسية والاجتماعية من المحتوى الإسلامي ، واحلال نظام حكم غربي محل نظام الإسلام الشامل ، واستبدال رابطة القومية والقبلية برابطة العقيدة الإسلامية لعزل شعوب هذه البلاد بعضها عن بعض . وإن مقومات القومية التي عول عليها دعاة القومية لتقوية شعور العداء للمستعمرين المتسلطين والتي تتمثل في نظرية العرق وعنصر اللغة والتاريخ والأرض والمصالح المشتركة قد لعبت دورا كبيرا في تقوية الوطنية الشعوبية وتدعيم مقوماتها وتمزيق وحدة الشعوب الأفريقية وإضعاف قوتها . ورغم أنه ليس في جملة هذه العناصر عنصر خالص يمكن أن تقوم عليه القومية ولا حتى جميع العناصر مجتمعة ، فإن ملابسات الحركات القومية من أحداث

تاريخية دليل كاف على أنها حركات مفتعلة نفخ الاستعمار فى روحها واحتضنها قصدا لإضعاف الشعوب واخماد النزعات الدينية .

نعود بعد هذا كله لنقرر أن السياسة الاستعمارية ـ التى أنشأت الروح القومية ابتداء ـ لم تكن ترضى عنها إذا تجاوزت حدودا معينة وأصبحت خطرا على المصالح الاستعمارية ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تكن لتقضى عليها قضاء كاملا خشية ظهور البديل الأخطر وهو الروح الإسلامية المجاهدة . لذلك فإنها كانت تقاوم الحركة القومية أحيانا لا لتقتلها ، ولكن لتردها إلى الحدود المعقولة التى لا تشكل خطرا على مصالحها ، وتحرص فى الوقت ذاته على استمرار تغذيتها فكريا وسياسيا حتى تظل المسيطرة على مجرى السياسة فى المنطقة ، وذلك لإبعاد شبح الإسلام الذى يمكن أن يجمع القوى الشعبية فى حركة جهادية خطيرة على الاستعمار والتبشير معا فى وقت واحد .

ـ • ـ

البـــــاب الثالـــــــث

آثار النفوذ الغربى على مختلف شئون الحياة فى هـــــــذه البــــــلاد

المبحث الاول : التغيير السياسى .

المبحث الثانى : التغيير الاجتماعى والحضارى .

المبحث الثالث : التغيير الدينى .

الباب الثالث

آثار النفوذ الغربي على مختلف شئون الحياة في هذه البلاد

لقد قدمنا لهذه الرسالة بتمهيدين استعرضنا في أولهما صورة واقعية لحالة الممالك الاسلامية التي قامت في بلاد السودان الغربي منذ أحقاب التاريخ الطويلة قبل غزو القوى الاستعمارية الغربية لهذه البلاد ، وذكرنا النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة والأسس الحضارية القائمة فيها ، وما للإسلام فيها من تاريخ طويل حافل بالأمجاد ، حيث بسط سلطانه على ربوع هذه البلاد وانتشرت فيها الحضارة والثقافة الاسلامية ، وظهرت آثار ذلك كله في كافة مجالات الحياة الخاصة والعامة . ثم قمنا بدراسة دوافع الغزو الاستعماري الغربي للعالم الإسلامي في التمهيد الثاني ، وقررنا بعد تتبع الحوادث التاريخية وتلمس الأهداف الكامنة وراء غزو القوى الاستعمارية الغربية للبلدان المختلفة ، واحتلالها أراضي الآخرين من هنا وهناك ، قررنا بعد ذلك كله ـ ولسنا مبالغين ولا مغالين ـ أن الدافع الأول لهذا الغزو إنما هو الحقد الصليبي الدفين في أعماق القلوب ، وأن الأطماع الاستعمارية الأخرى ليست إلا دوافع عرضية قامت أثناء الطريق إلى تحقيق الهدف الأكبر الذي هو محاولة القضاء على الإسلام ومحوه من الوجود ، وتحطيم قوة المسلمين التي ظلت زمنا طويلا تشكل خطرا كبيرا في وجه أحقاد الدول الغربية الدينية وأطماعها الدنيوية . وبعد أن استعرضنا حالة هذه البلاد قبل الاحتلال الغربي ، وحددنا الغاية الأساسية من غزو الدول الاستعمارية العسكري والفكري لهذه البلاد ، قدمنا دراسة مستفيضة عن طبيعة هذا الغزو في امتداده العسكري وفي انتشار نفوذ الغرب من الناحية الفكرية والثقافية ، كما فصلنا القول في عرض النشاط التبشيري وفي دراسة وسائل المبشرين في نشر الدعاية التبشيرية .

وها نحن أولاء بعد ذلك كله بصدد دراسة آثار النفوذ الغربي على شئون الحياة في جوانبها الهامة في المناطق الشمالية الاسلامية وبين الجماعات المسلمة في المناطق الجنوبية من هذه البلاد . ونحب أن نؤكد أننا لم

نقصد من وراء دراسة تلك الأوضاع والأحوال التى تقدم الحديث عنها مجرد عقد المقارنة بين حالة البلاد فى العهود الماضية التى صورناها فى التمهيد الأول وبين حالتها القائمة منذ تعرضها للغزو الاستعمارى الغربى وحتى بعد رحيل القوى الاستعمارية عنها كما هى ظاهرة جلية فى صلب موضوع هذه الرسالة نعم إننا لم نقصد من وراء هذه الدراسة مجرد عقد المقارنة بين حالة الماضى وبين حالة الحاضر ولكننا نهدف إلى محاولة كشف النقاب عن حقيقة الحرب العقدية القائمة ، والصراع الحضارى الواقع ، وما وراء هذه الحرب من غايات ونتائج ، وما أحدثه هذا الصراع الحضارى العنيف من آثار أدت إلى تغيير جميع الأحوال والأوضاع القائمة فى هذه البلاد . وإذا ألقينا نظرة خاطفة على الأحوال القائمة فى هذه البلاد من نواح مختلفة منذ قيام الحكم الاستعمارى وبداية الحركات التبشيرية على النحو الذى أوضحناه فى ثنايا هذه الرسالة ، فإننا سندرك المدى البعيد الذى يمكن أن يبلغه النفوذ الغربى فى تغيير شئون الحياة الخاصة والعامة فى هذه البلاد . ولم يكن من قبيل الصدفة أن نشاهد آثار النفوذ الغربى ظاهرة فى جميع نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية وأن نراها شاملة لجميع الزوايا الخفية والظاهرة من تلك النواحى المختلفة بحيث لم يبق منها جانبا ولم تذر منها زاوية . وتختلف أبعاد تأثير النفوذ الغربى وقوته وشموله لجميع مجالات الحياة فى المناطق المختلفة فى هذه البلاد .

ويرجع السبب فى ذلك إلى اختلاف موقف الشعوب والقبائل المختلفة تجاه توغل هذا النفوذ ، وتباين مقدار استعداد بعضها لتقبل الأفكار الغربية والحضارة الأوربية ، وكذلك لتفاوت درجة انبهار بعضها بتلك الأفكار والحضارة الغربية .

فبينما نجد المناطق الشمالية الإسلامية تقيم حواليها لفترة طويلة حصونا منيعة لصد الغزو الاستعمارى الأوربى ولمنع توغل الأفكار والحضارة الأوربية فى شئون بلادها ، فإننا نشاهد المناطق الجنوبية الوثنية تفتح أبواب بلادها على مصاريعها لتوغل الغزو الأجنبى وتسرب الأفكار والحضارة الغربية

على عكس ما كان عليه الأمر تماما فى المناطق الإسلامية ٠ وإن الذى يهمنا أكثر هو دراسة مظاهر هذا النفوذ الأجنبى فى مختلف شئون الحياة فى المناطق الشمالية الإسلامية وبين الجماعات المسلمة فى المناطق الجنوبية ،وقوة رد فعل المسلمين لأطماع الاستعمار ومقاومتهم ضد غايات الغزو الصليبى ، ومدى استعداد بعض المسلمين المستغفلين لتقبل الأفكار الغربية والحضارة الأوربية المادية ومفاهيمها اللادينية ٠ ولئن كانت هناك فى الحقيقة فوارق كبيرة بين المناطق التى رسخ فيها قدم الإسلام وقويت فيها شوكته منذ قرون طويلة وبين المناطق التى دخل فيها الإسلام خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ،

فإننا سنتقرى الخطوط العريضة فى دراسة مظاهر النفوذ الغربى وآثاره ونتائجه فى هذه المناطق المختلفة ٠ ويرجع السبب فى موقف الرفض الذى اتخذته المجتمعات الإسلامية تجاه الغزو الأجنبى فترة طويلة من الزمن حتى أجبرت على الاستسلام ، وموقف القبول الذى اتخذته المجتمعات الوثنية إلى طبيعة الأسس الدينية والاجتماعية والحضارية التى كانت سائدة فى تلك المجتمعات ٠ ولقد أقام الإسلام حصنا منيعا حول أتباعه ليحميهم من داخله ، وليبعد عنهم سهام الأعداء ، وكان من الصعب جدا اختراق جدران هذا الحصن أو تسلقها دفعة واحدة ، لأن الإسلام دين بنى قواعده على أسس العقيدة السليمة والنظم السياسية والاجتماعية والحضارية القويمة ٠

وإن روح المقاومة الشديدة التى ورثتها الأمة الإسلامية حتى أصبحت بعيدة المنال هى التى جعلت القوى الاستعمارية حتى بعد أن تمكنت من تحطيم القوة العسكرية والسياسية للدولة الإسلامية تنتهج خططا دقيقة قائمة على خطوات تدريجية طويلة المدى حتى لا يحس الناس بالأهداف البعيدة التى تكمن وراء تلك الخطط ، أو يشعروا بالأساليب والوسائل التى يجرى بها تغيير

شئون المجتمع ، وكأن هذا التغيير يجرى من تلقاء نفسه • وقد رأينا كيف أدى موقف الرفض الذى اتخذه المسلمون تجاه الغزو الأجنبى فى المناطق الشمالية إلى اختلاف السياسة الاستعمارية والخطط التبشيرية ووسائل الاستغلال الاقتصادى فيها عما كان عليه الأمر فى المناطق الجنوبية •

إن وسائل الاستعمار والتبشير لتغيير شئون المجتمع فى حالاته السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية تتلخص فى جملتها فى هذه النقاط الهامة التالية وهى : التوجيهات اللادينية فى شئون الحكم ، وفى مجال التعليم والاعلام وإثارة الحركات القومية ، وقضية تحرير المرأة ، وسياسة الاستغلال الاقتصادى والحملات التبشيرية ، واستخدام الوكلاء المحليين عملاء مسخرين لخدمة مصالح القوى الاستعمارية فى تلك المجالات ، ليتم بذلك قطع الشجرة بأحد أغصانها •

المبحث الاول

التغيير السياسي

منذ أن زحفت القوى الاستعمارية الغربية على هذه البلاد بدأت تتخذ وسائل عديدة لتغيير شئون الحياة السياسية من أجل تحقيق سيطرتها التامة عليها لتتمكن بعد ذلك من تحقيق ما وراء تلك السيطرة من أهداف استعمارية وأحقاد دينية ومطامع اقتصادية • ولقد عمدت تلك القوى إلى تحطيم سلطان المماليك الإسلامية وإضعاف شوكة المسلمين وتفكيك عرى الوحدة بينهم ، فأقامت الحدود المصطنعة ، وأحدثت التقسيمات[1] السياسية الجديدة القائمة على أساس الغزو والاحتلال ، فتوزعت البلاد على الدول الغربية المستعمرة • فكان من آثار ذلك أن تقلص السلطان الروحي للحكومات الإسلامية وضعفت قوتها السياسية عندما قطعت أوصالها وفرق شملها وحطمت عرى الوحدة بينها •

وإن المملكة الإسلامية التي أقامها الشيخ عثمان بن فوديو منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي والتي بسطت سلطانها على ربوع المناطق الشمالية المترامية الأطراف ثم بدأت تمدد خطوط جهادها لاكتساح المناطق الجنوبية الوثنية قبل توغل الغزو الصليبي فيها في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، إن هذه المملكة الإسلامية القوية قد تعرضت لحملات ضارية وهجمات عنيفة من جانب القوى الاستعمارية لوقف مدها الزاحف من اكتساح المناطق الجنوبية أولا ، ثم لتحطيم قوتها من الداخل ، وتقطيع أوصالها ، وفصل إماراتها بعضها عن بعض ، وقطع أواصر الاتصال بينها ، والقضاء على عوامل التجمع والوحدة بين شعوبها المسلمة •

وهكذا تمكنت القوى الاستعمارية من إخضاع تلك الشعوب الإسلامية تحت نير الحكم الاستعماري ضعيفة مستضعفة في الأرض • والتقسيمات السياسية والإدارية القائمة

---

(١) جاء في الغارة على العالم الإسلامي ترجمة محب الدين خطيب ومساعد اليافي ص٢٠ "مقدمة المسيو شاتلية" ما يلي : "والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية ، إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الواجهة السياسية وسوف لا يمضي غير زمن قصير حتى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوربية ")

على أساس الغزو والاحتلال لم تكن وليدة الصدفة ، فلقد كشفت الأيام عن جوانب السياسة الاستعمارية والأحقاد الدينية فيها ، إذ إن حملات الغرب على هذه البلاد وعلى شعوبها المسلمة لم تقف عند حدود احتلال أراضيها وتقسيم بلادها ، بل امتدت إلى ما هو أبعد من ذلك في محاولة تغيير شئون الحياة المختلفة في هذه البلاد . وقد بدأت تلك المحاولة بالتنظيمات السياسية الجديدة التي وضعتها القوى الاستعمارية والنظم الجديدة التي قررتها في شئون الحكم ، مما أدى إلى حدوث تحولات خطيرة وقيام أوضاع جديدة لها أبعادها العميقة في مستقبل هذه البلاد .

فمنذ أن تمت سيطرة الغرب العسكرية على جميع المناطق الشمالية المسلمة وقام الحكم الاستعماري الغربي فيها أخذت الحكومة الاستعمارية تسير في سياستها نحو الاتجاهات المعاكسة للدين . بدأت ذلك بمحاولة فصل الدين عن شئون الحكم حتى استطاعت في نهاية الأمر أن تنحى الدين من شئون الدولة كلها ومن معظم الجوانب الهامة في شئون الحياة في المجتمع .

واستطاعت كذلك أن تحول اتجاه التعليم عن وجهته الدينية وأن تمحو الحضارة والثقافة التي كانت سائدة في المجتمع ، ثم أقامت على أنقاضها المدنية الغربية المادية ونشرت التعليم الغربي اللاديني ، وقررت أسلوب الحياة الغربية المسيحية . وكانت نتيجة ذلك كله أن رسب في أذهان الناس مفهوم جديد للدين ضيّق آفاقه الواسعة ووظائفه المتعددة وحصره في نطاق محدود لا يتجاوز نطاق شعائر التعبد ، وحدد دائرة أعمال الشريعة الإسلامية في نطاق الأحوال الشخصية فضؤلت بذلك جذوة القيم الروحية وظهرت قيم أخرى لا دينية .
وقامت مدينة غربية مادية مهدت القوة الاستعمارية لها كل الطرق حتى سيطرت على شئون حياة المجتمع كلها .

وقد ظهرت هذه الاتجاهات في مجالات كثيرة كان أبرزها شئون الحكم والقضاء ومجال التعليم ومجال الاعلام .

وإذا علمنا أن الإسلام هو دين الدولة فى المناطق الشمالية ، وأنه هو الرابطة القوية التى تربط إماراتها بعضها مع بعض حتى اتحدت تحت راية واحدة التفت حولها شعوبها ، وأعطى ذلك التكتل مظهر القوة والوحدة والتضامن للمناطق الشمالية الواسعة ، وسار نظام الحكم فيها على نهج الإسلام ، وتقررت الشريعة الإسلامية وازدهرت فيها الحضارة والثقافة الإسلامية ..

ثم علمنا بعد ذلك ما كان من سيطرة القوة الاستعمارية الغربية على هذه المناطق منذ أوائل هذا القرن ، فماذا نتصور أن يكون موقف الدول المسيحية الاستعمارية من الإسلام الذى كانت تعتبره أقوى عدو لها وخطرا كبيرا يهدد كيان غزوها الاستعمارى ، وعقبة كأداء تقف فى وجه أحقادها الدينية ومطامعها الاقتصادية فى كل مكان حطت فيه رحالها ؟ هل يمكن أن نتصور أن القوى الاستعمارية بعد سيطرتها العسكرية على هذه المناطق ستترك الأمور تجرى فى مجاريها الطبيعية ؟ هل يمكن أن تترك الإسلام ـ الذى عرفنا موقفها منه منذ عصور طويلة ـ ليظل هو المسيطر على شئون الحكم والمهيمن على جميع شئون المجتمع ، وخاصة فى ناحية الحضارة والثقافة والمدنية ؟

حقا إن بعض الحكام المستعمرين كانوا يتظاهرون بالعطف والتودد للإسلام، وبعض الكُتاب يعدون هذا العطف وذلك الودّ نابعين من روح الإنسانية الطيبة والأسس الأخلاقية النبيلة ، ويحتجون دائما بتقرير الحكومة الاستعمارية نظام الحكم غير المباشر فى المناطق الشمالية المسلمة ، وإعلانها سياسة الحياد فى شئون الدين وتقريرها مبدأ حرية التدين ، واعترافها بالتعليم الإسلامى فى المرحلة الابتدائية واعترافها بالشريعة الإسلامية فى حدود الأحوال الشخصية ، وقيامها بالإشراف على مهمة إعداد القضاة والمدرسين وتدريبهم على الأسس الغربية فى شئون القضاء والتعليم . ولكننا لن ننخدع بسياسة المراوغة والحيلة ما دمنا علمنا الأهداف الاستعمارية والأحقاد الدينية الكامنة وراء هذه السياسة ، وأن الحكام المستعمرين لم يفعلوا ذلك القدر الضئيل إذ فعلوه متظاهرين بالعطف والود إلاّ خوفا

من استثارة حفيظة المسلمين ضد أهدافهم ، وتحاشيا لقيام انبعاث روحي قوى يكون عقبة في طريق أطماعهم في هذه البلاد . وبما أنه قد تقدم حديث مستفيض عن الجانب السياسي والثقافي في آثار النفوذ الفرنسي على شئون هذه البلاد بما لا نحتاج معه إلى زيادة، فإننا نحب أن نؤكد هنا أن نظام الحكم غير المباشر الذى قررته الحكومة الاستعمارية في المناطق الشمالية الإسلامية لم يكن من أجل إصلاح وتطوير أسلوب الحكم القائم في تلك المناطق، وإنما كان من جملة المحاولات المقصودة لإحلال الحكم البريطاني محل الحكم الإسلامي ، كما أنه كان نوعا من المخططات الدقيقة القائمة على خطوات تدريجية كانت تتحاشى دائما إحداث ثورة عنيفة تستهدف وقوع تحولات جذرية دفعة واحدة في شئون الحكم والقضاء وفي شئون الدين وفي مجال التفكير والسلوك .

ولذلك رأينا السلطات الاستعمارية – رغم تظاهرها بالاعتراف بالشريعة الاسلامية في هذه المناطق في بادئ الأمر – تلجأ بعد تمكنها من نزع السلطة الفعلية من أيدى الحكام والأمراء المحليين إلى تقرير القوانين البريطانية ، وتبني نظام الحكم على الأسس الديمقراطية ، ثم تعمل على تحديد المجالات التى تعمل فيها الشريعة الإسلامية شيئا فشيئا حتى قصرتها وحصرتها في نطاق الأحوال الشخصية وبعض جوانب الحياة الاجتماعية . وكما هو الحال في معظم المناطق الإسلامية الواقعة تحت الحكم الاستعمارى ، فقد قامت ازدواجية مقصودة في شئون القضاء بين القوانين البريطانية وبين الشريعة الإسلامية ، حيث تستعمل الأولى في المسائل الهامة في شئون القضاء وخاصة في المسائل الجنائية وتعتبر الثانية قوانين شعبية تطبق في حدود ضيقة .

ولقد أقامت الحكومة الاستعمارية المحكمة العليا محل المحاكم الإقليمية الشرعية الكبرى ، وحصرت اختصاصات المحاكم الصغرى في نطاق ضيق ، ثم أنشأت محاكم أخرى في معظم المدن الكبرى ، وكانت تحكم بالقوانين البريطانية ، وتتاح

للمحامين كل الفرص لممارسة أعمالهم فيها ٠

وهكذا رأينا كيف استطاعت الحكومة الاستعمارية عن طريق سياسة الحكم غير المباشر أن تخضع الحكومات الإسلامية فى المناطق الشمالية تحت سيطرتها السياسية ، وأن تغير نظام الحكم القائم فيها ، وأن تحول أسلوب القضاء ، وقد أبقت الشعب الشمالى المسلم على حالة التخلف والانحطاط الحضارى والثقافى ، وعزلته عن الاتصال بالعالم الخارجى ، بعد أن نزعت السلطة الحقيقية من أيدى الأمراء والحكام المحليين ، وأخضعتهم مقهورين تحت حكمها الاستبدادى ، وأجبرتهم على الاستسلام لسيطرتها فى شئون التشريع وإدارة دفة الحكم فى بلادهم ، فأصبح هؤلاء الأمراء والحكام مجرد موظفين لا يملكون من الأمر شيئا سوى أن يتلقوا الأوامر والتوجيهات من السلطات الاستعمارية فى كل صغيرة وكبيرة وينفذوها بحرفيتها ٠

ولقد فرضت الحكومة الاستعمارية الحظر على نقل الأسلحة والمعدات الحربية ، ومنعت الدعاة المسلمين من التنقل بين المدن والقرى لنشر الدعوة الإسلامية وكسب الأنصار والأتباع، وكانت الموافقة على السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج وبناء المساجد وإنشاء المدارس الإسلامية لا تصدر إلّا من الحكام البريطانيين على الأقاليم ٠

ولقد ذكرنا فى معرض الكلام عن مجالى التعليم والإعلام فى نشر الدعاية التبشيرية فى هذه البلاد أن المسلمين كانوا يقاومون كل مايوضع من المخططات لمحاربتهم من حيث إنه يمس عقيدتهم ودينهم مساسا ظاهرا ، وأن ما يوجه ضدهم من هذه المخططات لإحداث ثورة حضارية وثقافية كان يأتى إليهم فى صورة مقنعة لا تتضح آثارها ونتائجها إلّا بعد أمد طويل ، عندما تقضى على الحضارة والثقافة القائمة وتتقلب شئون المجتمع وتقوم حضارة جديدة على أنقاضها ٠ ولكنهم حتى إن أدركوا أبعاد هذه الخطط فى حين وضعها وقدروا فداحة الخطب حين وقوعه فإن روح مقاومتهم لم تكن تستمر قوية فترة طويلة ثم كانوا يقعون ضحايا

الخطط المدبرة حيث تقوم الظروف الخاصة والأوضاع المعينة التى افتعلها المبشرون والمستعمرون لتجبرهم على الاستسلام ولوكانوا كارهين • ولذلك رأينا أعمال الاستعمار والتبشير فى مجال نشر الحضارة الغربية والمدنية الأوربية فى بلاد المسلمين تجرى فى نشاط وتستمر فى الانتشار•

وعندما استعرضنا الخطط التعليمية التى وضعتها الحكومة الاستعمارية فى المناطق الشمالية المسلمة ، ذكرنا أن الاستعمار قد فرض التعليم الغربى على شعوب تلك المناطق وجعله الطريق الوحيد للوصول إلى المنازل المرموقة وللحصول على وسائل العيش والرفاهية فى مجالات الحياة الجديدة التى كان يحاول أن يقيمها فى هذه البلاد • ولكن المسلمين كانوا ينظرون إلى الأمر بمنظار آخر ، فإنهم لم يروا ضرورة ملحة فى نشر التعليم الغربى فى بلادهم إذ لم يروا منه ما يوفر لهم وسائل العيش والرفاهية ويرفع من وضعهم الاجتماعى ، بل على العكس فقد رأوا فيه حربا عقيدية وصراعا حضاريا وإن تستر بستار خادع ليخفى وراءه غاياته الحقيقية • لذلك اتخذ المسلمون موقف الرفض تجاه التعليم الغربى واستمر ذلك قرابة خمسين سنة من قيام الحكم الاستعمارى فى هذه البلاد •

وكان نتيجة هذا الموقف الصلب أن تظاهرت الحكومة الاستعمارية – كما قررناه غير مرة – فى بادئ الأمر بإعلان اعترافها بالتعليم الإسلامى فى المرحلة الابتدائية واعتباره شرطا أساسيا فى قبول الطلاب فى المدارس الإنكليزية • وذلك لاسترضاء المسلمين حتى تخف حفيظتهم الثائرة ضد أهدافها أولا ثم لتمهيد الطريق لقبول التعليم الغربى والثقافة الغربية ثانيا •

وقد حاولت دون جدوى التوفيق بين التعليم الغربى وبين التعليم الإسلامى ولما لم تستطع تطويع التعليم الإسلامى للظروف والأوضاع القائمة لجأت متعمدة إلى التركيز على اللغات المحلية فى التعليم ، وأبدت اهتماما كبيرا بلغة هوسا، ووضعت الحروف اللاتينية لكتابتها بدل الحروف العربية التى كانت تكتب بها منذ زمن بعيد •

وهكذا كانت الخطط التعليمية تجرى على الخطوط المرسومة لها لم تحد عنها قيد شبر ، فقد فتحت المدارس الإنكليزية فى مواجهة المدارس الإسلامية ، وكانت تجرى فيها الموازنة المتعمدة بين العلوم الإسلامية والآداب العربية فى حالتها المتأخرة فى المدارس الإسلامية آنذاك وبين العلوم الغربية والآداب الأوربية فى حالتها الراقية ، مع المصالح المادية التى تتحقق عن طريقها .

وكانت هذه الموازنة تجرى لقصد تفضيل العلوم الغربية على العلوم الإسلامية وإبراز نواحى النشاط الثقافى والمدنية الحية فى الغرب ، وتفضيلها على الثقافة والحضارة الإسلامية ، ليخلق ذلك كله فى نفوس المسلمين تخاذلا وشعورا بالنقص وليحملهم من هذه الطريق على الرضا بالخضوع للحضارة الغربية المادية .

ولقد حولت الحكومة الاستعمارية اتجاه التعليم بدعوى التطوير والإصلاح، وأخذت تعمل على تنحية التعليم الإسلامى شيئا فشيئا عن مجال التعليم العام ، حتى حصرته فى نطاق ضيق ، وأصبح مادة واحدة ضمن المواد المقررة فى مناهج الدراسة . وقد استبدلت الحكومة الاستعمارية بمناهج التعليم الدينى فى المدارس الإسلامية مناهج التعليم اللادينى ، وشجعت الشباب المسلمين على الذهاب إلى الدول الغربية لإكمال دراستهم العالية فيها لتحقق فيهم الغاية التى كانت تسعى جاهدة من أجلها ، وهى أن تحقق فيهم الجهل المطبق بدينهم وقيمه ومثله ، وبعدهم عنه بكل وسيلة ، وتصرف عقولهم إلى التعلق بقيم الغرب ومثله ، وإلى الانبهار بحضارته المادية .

لقد عرف المبشرون والمستعمرون ما للثقافة الإسلامية من عظمة وقوة ، لكونها مصدرا من مصادر عزة المسلمين ، كما عرفوا أن اللغة العربية هى الرابطة القوية التى تربط حاضر المسلمين بتراثهم الماضى ، ثم إنهم بعد ذلك كله أيقنوا أنه لن يتم تحطيم مصدر قوة المسلمين وقطع صلتهم المتينة بالماضى إلّا بشن حرب شعواء على التعليم الإسلامى والكتابة بالحروف العربية ، لتقطع صلتهم تماما

بالقرآن الكريم وجميع الكتب الدينية واللغوية والتاريخية والفكرية والأدبية ، وليصبح القرآن مجرد كتاب دين لا علاقة له بشئون الحياة .

ولقد عرفنا أن المسلمين منذ مطلع العصور الحديثة قد أخذوا يتأخرون في ميادين كثيرة ، كان أبرزها ميدان العلوم النظرية والتطبيقية ، وميدان الاختراعات المادية ، وميدان السياسة الدولية وميدان اختراع وسائل الحرب الحديثة وغير ذلك، ولكن يجب ألاّ ننسى أن المسلمين في العصور الوسطى قد أدوا للعالم بأسره رسالة من أعظم الرسالات التي أدتها أمة من أمم الأرض ، كانت أهم العوامل التي أدت إلى قيام حركة النهضة الحديثة في أوربا .

وإذا اتفق أن تقوم في أوربا عوامل عامة أدت إلى قيام حركة النهضة فيها كما قامت من قبلها ومن بعدها حركات مماثلة في مختلف بلدان العالم قديما وحديثا ، فما ذلك إلاّ دليل على أن العالم دائما كان يندفع نحو تقدم مستمر لا يمكن لأي قوة أن تقف في وجهه، ولا أن تجعل أقطارا معينة تتقدم وأقطارا أخرى في معزل لا تحس بهذا التقدم . إن المدارس الأجنبية المنتشرة في هذه البلاد والتي كانت تحمل آثارا للنهضة الأوربية إلى بلدان أفريقيا لنشر الحضارة والمدنية الغربية فيها ، كانت منذ البداية وسيلة قوية لتحويل عقائد الناس وتغيير قيمهم ومثلهم والمسلمين منهم بوجه خاص . ثم عادت تلك المدارس مع مرور الأيام وسيلة لإخراجهم من دينهم والقضاء على القيم الروحية سواء في ذلك أدخلوا المسيحية أم لم يدخلوها .

ولم تدخر الحكومة الاستعمارية وسعا في استغلال وسائل عديدة لتنفير الناس من التعليم الديني ، وقد وضعت خططا دقيقة مقصودة فرقت بين طلاب العلم الديني وعلمائهم وبين طلاب التعليم اللاديني ومدرسيهم ، حيث جعلت الفريق الأول في مستوى الحضيض وضيعت مستقبله في المجتمع ، بينما رفعت الفريق الآخر إلى القمة وأمنت له مستقبلا زاهرا في شئون المجتمع . فكانت نتيجة ذلك أن يترسب في أذهان الناس المستغفلين نفور من التعليم الديني لكساد

تجارته وإقبال على التعليم الغربى اللاديني لرواج تجارته . هذا ولئن كانت الاتجاهات اللادينية فى مجال التعليم أقدم وأخطر منها فى مجال الإعلام فإن آثار هذه الاتجاهات فى مجال الإعلام كانت أعم وأشمل . إذ بينما توجه مناهج التعليم لتحويل أفكار واتجاهات الآلاف من الناس ، فإن وسائل الإعلام المختلفة توجه للتأثير على الملايين من القراء والمستمعين والمشاهدين .

ولقد رأينا كيف سخرت وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتلفزيون وسينما لتحويل عقيدة المسلمين ، ولتغيير أفكارهم واتجاهاتهم ، ولنشر الفساد فى الارض ، ولإشاعة الفاحشة،ولإغراء الناس بالجرائم ، مما أدى إلى زعزعة عقيدة المسلمين وتحطيم مبادئهم الأخلاقية وقيمهم الروحية ومثلهم العالية ، فانهدم بسبب ذلك أساس بناء مجتمعهم . فأنّى للبناء أن يقوم بعد انهيار أساسه وتقويض أركانه ؟!

لم يكف المستعمرين أن ينهجوا فى سياستهم سبلا متشعبة تلتقى عند خط معاكس لطريق الدين الحنيف من أجل أن يضمنوا بقاء سيطرتهم المطلقة واستقرار النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى فرضوها على شعوب هذه البلاد . وقد رأينا أنهم منذ بداية فترة تهدد ظلام الاستعمار وبلوغ الشعوب المستعمرة مرحلة التفتح الفكرى والنضج العقلى النسبى -وهى مرحلة حتمية لابد أن تبلغها مهما طال أمد الاستعمار أو كان دهاء المستعمرين أو بلغت خططهم من الدقة - رأينا أنهم فى هذه الفترة ذاتها لم يتركوا هذه الشعوب لتقرر مصيرها فى الحياة من غير ما تدخل فعلى من جانبهم لخلق الأجواء وافتعال الأوضاع وتقديم الحلول لتسيير الأمور على الخطوط المرسومة لها حتى تصل إلى الغايات التى كان يهدف إليها الاستعمار .

إن أبعاد التغييرات الجذرية التى أحدثها الحكام المستعمرون فى شئون الحكم والقضاء ، وفى مجال التعليم ومجال الإعلام ، وفى شئون الاقتصاد وغير ذلك كانت عميقة فى مستقبل شعوب هذه البلاد . وقد أدى ذلك إلى قيام انقلاب

اجتماعى شامل حيث تمكنت القوى الاستعمارية من الإطاحة بالحكومات المحلية القائمة واستبدت بالسلطة المطلقة فتبدلت أحوال المجتمعات الإسلامية وتغيرت النظم التى كانت سائدة فيها ، وتحولت اتجاهات الناس ، ومحيت مظاهر البلاد ومعالمها المميزة لها . ورغم أن هذا الانقلاب الاجتماعى الشامل كان فى أساسه من أجل بقاء السلطة الفعلية فى يد الغرب واستمرار السيطرة المطلقة للدول الغربية على البلدان المستعمرة دهورا لا تنتهى — إذ إن مصالحها الاستعمارية ومطامعها الاقتصادية وأحقادها الدينية لا يمكن أن تنتهى عند أى حد مهما كان نجاحها فى تحقيقها — رغم ذلك كله فإن الوسائل التى استخدمتها الدول الاستعمارية فى تفجير هذه الثورة الاجتماعية المنيفة وأخضعت بها الشعوب المستعمرة تحت سيطرتها قد حملت فى طياتها عوامل معينة دفعت إلى الاتجاه المعاكس للسيطرة الغربية ، فقامت حركات المقاومة ولكنها كانت تجرى على الخطوط المرسومة لها وتدور فى حدود الحمى المضروب حولها .

إن النخبات الوطنية المثقفة طاقة محلية صنعها الاستعمار ليستغلها فى تحقيق مصالحه الذاتية ثم ليعول عليها فى تحطيم نفوذ السلطات المحلية ولكن من غير أن يبوئها مكان السلطة والحكم . وعندما بدأ نفوذ الاستعمار يضعف ، وأخذ سلطانه السياسى يتقلص ، وبلغت الطبقة المثقفة مرحلة التفتح الفكرى والنضج العقلى النسبى لم ترض القوى الاستعمارية التى صنعت هذه الطبقة الجديدة وطبعتها بالطابع الغربى حتى غدت غريبة فى مجتمعها ودخيلة على أهلها ..

لم ترض بتفويض الأمر إليها ولا بفك قيود الاستعباد والاستغلال عن الشعوب المستقهرة حتى أجبرتها الضغوط الشديدة والمقاومات المنيفة فتكفلت بتوجيه حركات المقاومة لقصد إضعافها وتحويل اتجاهها عن الوجهة السليمة فافتعلت الأوضاع وأحدثت المشكلات وأثارت النعرات القومية والنزعات الإقليمية والقبلية فتعلقت بأذيالها النخبات الوطنية وهى تظن أنها وجدت الطريق

الأقوم لاسترداد ضالتها المنشودة من يد قوى الاحتلال الغربي ، فخضعت للتوجيهات التي قدمتها الحكومة الاستعمارية وقبلت الشروط والالتزامات التي فرضتها .

ولم تدر هذه النخبات الوطنية أن تلك التوجيهات والشروط والالتزامات قد روعيت فيها مصالح الحكومة الاستعمارية قبل مراعاة مصالح الشعوب المستعمرة. ولقد تكلمنا فيما سبق عن تلك الأوضاع المصطنعة التي أحدثتها القوى الاستعمارية عندما آذنت على الرحيل عن هذه البلاد حيث ذكرنا ما فرضته الحكومة الاستعمارية على شعوب البلاد من قبول نظام الحكم الديمقراطي الذي أقامته على ركيزة النعرات القومية والنزعات القبلية والإقليمية والمصالح الذاتية وصراع الطبقات ، كما ذكرنا ما نفخته من روح تأليف الأحزاب السياسية من أجل خوض معارك الانتخابات لكسب الأصوات والفوز بالمقاعد وتولي زمام الحكم .

إن الذي يهمنا هنا هو دراسة آثار تلك الأوضاع السياسية الجديدة على شئون الحياة السياسية في المناطق الشمالية الإسلامية وبين الجماعات الإسلامية في الجنوب . ولا يمكن أن ننخدع أبدا بما كان الكُتّاب الغربيون والببغاوات المحليون يقررونه دائما في بحوثهم وفي مؤلفاتهم من" أن الشعوب الجنوبية هي التي أخذت تتأثر بالنفوذ الغربي بصورة تدريجية بينما لم يتأثر الشماليون المسلمون في شيئ جوهري لأن السلطات المحلية الحاكمة قد رفضت إحداث أي تغيير في شئون بلادها كما أنها كانت تنظر إلى طموح الجنوبيين في شئون السياسة نظرة اتهام وحذر على أن الحركة الإقليمية حركة غير ملائمة[(١)]".

ونحن لاننكر وجود فوارق كبيرة في قوة تأثير النفوذ الغربي على شئون الحياة في كلتا المنطقتين الشمالية والجنوبية ولكننا لانقبل مايقال من أن التغييرات التي حدثت في المناطق الشمالية لم تغص إلى الأعماق ولم تتناول النواحي الأساسية وإنما كانت تغييرات سطحية تناولت المظاهر دون الجواهر ووقعت على القشور دون اللباب .

---

(١) J.Spencer Trimingham, Islam in West Africa, Oxford, 1959, P.209

ولو استنطقنا الوضع الحالي في المناطق الشمالية لحدثنا عن أخباره الشيئ الكثير ولقد أجبرت الشعوب الشمالية المسلمة تحت وطأة الأوضاع السياسية الجديدة على استبدال نظام الحكم الديمقراطي بنظام الحكم الإسلامي واستبدال الولاء القبلي والقومي والإقليمي برابطة العقيدة الإسلامية حتى أصبحت الرابطة القومية والإقليمية أساسا تدور شئون الحياة حولها ، وعقيدة تبنى عليها الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية بوجه خاص ، وصار الناس لا يسعون إلّا من أجل الوصول إلى غايات دنيوية ومصالح مادية • فتقررت في هذه البلاد قوانين وضعية ونحيت الشريعة الإسلامية من مجال التشريع والحكم وحصرت في زاوية ضيقه وأصبح المسلمون يتحاكمون إلى المحاكم الإنكليزية التي تحكم بغير ماأنزل الله ثم اعتزوا بالولاء القبلي والقومي وتعلقوا بالعصبية الجاهلية وجعلوا ذلك أساس الوحدة السياسية والتضامن القومي حتى قاتل المسلمون بعضهم بعضا وأوقع بعضهم على المخالفين لهم في الاتجاه السياسي أشد العذاب وأكبر التنكيل ووالى بعضهم المسيحيين والوثنين وقاتلوا تحت لواء أحزابهم إخوانهم المسلمين ، ورفضوا هيمنة النزعات الدينية على الطريقة التي يتم بها اختيار الممثلين والمرشحين ولم يكونوا يعتبرون بهما عندما يدلون بأصواتهم في الانتخابات • ولم يعد للدين وجود في حياتهم إلّا في صورة وجدان ديني منعزل عن السياسة وعن شئون الحياة العملية وإن كانت المناطق الشمالية من هذه البلاد ودولة السنغال تعتبر خيرا من غيرهما من بلاد غرب أفريقيا في هذا المجال إذ بقيت بعض المشاعر الدينية متعلقة بالسياسة على أساس أن الدين يمكن أن يكون رباطا إضافيا يقوى رابطة القومية مما جعل السياسين الجنوبين يضيقون ذرعا بهذه النظرية ويأبون إدخال عنصر الدين في شئون السياسة •

وحقيقة إن مسلمي المناطق الشمالية لم يستشرفوا إلى الغرب ليقدم لهم الحلول الملفوفة المختومة حتى يتغلبوا على الحالات المتوتره التي كانت البلاد تعيش فيها أثناء قيام الصراع السياسي • ولكنهم رغم ذلك قد تأثروا إلى حد كبير بالحلول التي قدمها الغرب من أجل تحقيق وحدة الشعب المتجانسة المزعومة ، وقد كانت النزعة

الدينيــة المتبقيــة عندهـم ضعيفـة بحيث تعتبر جزءًا من مقومات الحركة القومية ، ويظهـر ذلك فى مناوأة بعض المسلمين لإخوانهـم المخالفين لهـم فى الاتجاه السياسى وتوددهـم إلى المسيحين والوثنيين الموافقين لهـم فى ذلك .

وأكبر من ذلك أن حزب المسلمين الفائـز فى حلبـة الصراع السياسى لم يستغل الفرصـة المواتيـة لهـ ، مع أن الأغلبيـة الساحقـة فى المناطق الشماليـة للمسلمين وأصحاب الأديـان الأخـرى بضعـة آلاف . وقد كان بإمكانهـم إجراء بعض التعديلات والاصلاحات فى شـئون الحكم والقضاء وفق التعاليم الإسلاميـة ولو على النطاق الإقليمى المحـدود .

إن آثار القوميـة والعلمانيـة المترسخة فى أذهان هؤلاء المسلمين هى التى جعلتهـم يسعون من حيث يدرون ومن حيث لا يـدرون إلى إقصاء الدين عن شئون الحكم ومنع إشرافـه وتوجيههـ لسلوك الدولـة والشعب مجتمعا وأفرادا . وقد كانوا يعتقدون أن العلم يجـب أن يعمل بعيـدا عن الديـن من دون أن يتقيد بأحكامـه وآدابـه ولا يسير على نهجـه لاختلاف مجال العمل بينهمـا . كما كانوا يعتقدون أيضا أن قيام حكومـة إسلامية فى هذه البـلاد أمر مستحيل بسبب اختلاف شعوبهـا وقبائلهـا وتباين لهجاتهـا واختلاف معتقداتها ، وأن التمسك بالدين إنما هو التعصب وروح الطائفيـه مما يشكل خطرا كبيرا على الوحدة المتجانسة لشعوب هذه البـلاد ، كما يعوقها عن التقدم والتطور ، فإن الأمم الراقيـة فى العالـم لم تتطـور وتتحـرر وترتق إلى سلم الحضارة والمدنيـة إلاّ بعد أن تخلت عن قيـود الأديـان!

وقـد غفل هؤلاء المسلمون المتأثـرون بأفكار الغرب ومبادئـه ونظمه عن أن للغرب ظروفا تاريخيـة خاصـة ، وأن للديانة المسيحية التى كانت سائدة فى الدول الغربية أيضـا ظروفها الخاصـة التى كانت تبرر قيام الثورات الشعبية وظهور حركـة القوميات وقيام العلمانيـة وإقصاء الديـن عن شئون الدولـة . لقد قامت فى أوربا فى عصورها المظلمة ظروف تاريخيـة خاصـة وأوضاع اجتماعية معينة كانت نتيجة طغيان الكنيسـة فى حجرها على العقول والقلـوب

حين أنشأت صكوك الغفران وقرارات الحرمان وأخذت تتاجر بها وتعتبرها وسيلة للكسب الحرام، ووقفت فى وجه كل تفتح فكرى وكشف علمى . وتحالفت مع الملوك الطاغين المستبدين بالسلطة والحكم والإقطاعيين والطبقات المستعلية حتى خيمت المظالم على أجواء أوربا وغرقت بلادها فى دماء ضحايا الكنيسة حيث زجت الآلاف المؤلفة فى غياهب السجون وسامتهم سوء العذاب وأشد التنكيل كما سقط المئات تحت مشانق محاكم التفتيش ومقاصلها . وإذا كانت هذه هى حالة أوربا فى عصورها المظلمة وكانت تلك هى ظروفها الخاصة وأوضاعها المعينة فلا عجب إذاً أن تجد العلمانية مكانها فى الدول الغربية .

إن الصراع العنيف الذى قام فى تلك الفترة بين العلم والعقل وبين الكنيسة قد انتهى إلى قيام الثورة على الديانة المسيحية وقيام النظام الرأسمالى مع الثورة الصناعية على أساس غير دينى وقيام الثورات الشعبية والتنافس بين القوميات والصراع بين الطبقات . وقد أدى ذلك كله إلى وضع أنظمة جديدة فى شئون السياسة والاقتصاد والاجتماع فتحطمت سيطرة الملوك الإقطاعيين وانهارت أنظمة الحكم الاستبدادى وتقلص سلطان الكنيسة داخل جدرانها . هذا ولم يكن فى ظروف هذه البلاد التاريخية ولا فى أوضاعها السياسية والاجتماعية قبل الاحتلال الغربى وبعده ما يبرر قيام الثورات الشعبية فى وجه الدين الإسلامى أو ظهور التنافس بين القوميات والصراع بين الطبقات وقيام الاتجاهات المعاكسة للدين لفصله عن شئون الدولة . غير أن المستعمرين أرادوا أن يحدثوا المشكلات وأن يثيروا الفتن والاضطرابات حتى يصلوا من خلال ذلك إلى تحقيق الغايات التى يهدفون إليها .

لم يكن فى هذه البلاد صراع بين العلم وبين الدين ولم يقع قط طغيان من جانب علماء المسلمين إذ لم يحجروا على العقول ولا على القلوب ولم يضطهدوا أحدا ولم يقفوا فى وجه أن فتح الله عليه بكشف علمى أو إنتاج فكرى . كما أن الإسلام نفسه لم يسمح بالفصل بين الدين وبين الدولة لأن الدولة فى فقه الإسلام قسم من الدين لا قسيم له ، ولأن الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة وهو بذلك لا يقبل التجزئة ، ولا أن يقصر مفهومه على

دائرة العقيدة وشعائر التعبد ويكون هناك أرباب آخرون من دون الله يقننون للناس ويدين لهم هؤلاء الناس في مجال الشريعة كما يدينون لله في مجال العقيدة والعبادة (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) الآية[1] . وإن الإسلام لا يعارض كل علم ينفع البشرية ويكشف لها أسرار الكون ويحقق لها الأمن والاستقرار في حياتها والازدهار في معيشتها ويدفع في مسيرتها إلى الأمام تقدما وتطورا ورقيا ، وكذلك كل علم يحفظ لمكارم الأخلاق مكانها اللائق في المجتمع تحقيقا للأمن والاستقرار وإقامة للعدل فيه وابتغاء للخير العام . ولا يدعو الإسلام فقط إلى مثل هذا العلم بل يحث عليه ويكافئ طالبه بالثناء الجميل والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة .

إن ادعاء بعض الناس بأن التمسك بالدين تعصب ممقوت وعائق دون وحدة الشعب وتقدمه وتطور مرافق الحياة في المجتمع وأن قيام الدولة الإسلامية في هذه البلاد أمر مستحيل بسبب اختلاف شعوبها وقبائلها واختلاف اللغات والعادات والتقاليد والمعتقدات .. إن هذا الادعاء لا أساس له من الصحة ولا قيمة له في ميزان الحقيقة والواقع .

فقد قامت الدولة الإسلامية الكبرى في عصور الإسلام الذهبية واجتمع تحت سلطانها الكبير وظلالها الوارفة شعوب وأمم مختلفة اللغات والألوان والأجناس والعقائد انتشرت في بلاد متعددة متباعدة . وإذا صدقت هذه الدعوة على الديانة المسيحية التي مزقت وحدة الدول الغربية وحالت بينها وبين التطور وحجبت عنها النور وأبقتها على التخلف والانحطاط بسبب كل ما ذكرنا من الأوضاع والظروف التي كانت ترتع فيها الكنيسة المسيحية في العصور المظلمة حتى قامت في وجهها حركات موارة وثورات شعبية عنيفة قلبت الأمور على وجوهها ؛ إذا صدقت هذه الدعوة على المسيحية وقام عليها ذلك الاحتجاج فلن يصدق ذلك على الإسلام بأي وجه من الوجوه ، لأن الإسلام دين الفكر والعلم ، وهو دين الإخاء والمساواة ، — ودين الحكم والسياسة وقد عرف بنظمه الاجتماعية القويمة وأسسه التربوية السليمة .

---

(١) سورة الشورى (٢١) .

فلا مجال لقيام مثل هذه الأوضاع والظروف تحت ظل الإسلام . وبالإضافة إلى ذلك فقد قامت خارج نطاق الإسلام أيضا وحدات سياسية بين شعوب اختلفت عقائدها وأفكارها مثل (الكومنولث) البريطاني وغيره من التنظيمات السياسية الحديثة .

ونستطيع أن نقرر بعد هذا كله أن النفوذ الغربي قد أفاد هذه البلاد من ناحية ازدهار الحياة المادية وبعث الوعي والحركة ، ولكنه في الوقت نفسه حمل معه مساوئ كثيرة وأضرارا بالغة . فإلى جانب النهضة العلمية والاقتصادية كان الغزو الاستعماري والحركات التبشيرية الحاقدة وقيام الصراع القومي والطبقي والثورات الشعبية وضعف الوازع الخلقي وموت النزعة الدينية والوعي الديني الصحيح وانتشار المذاهب المادية وغلبة الأثرة والأنانية على الناس أفرادا وجماعات وفشو الإلحاد والانبهار بالحضارة الغربية والاعتقاد بتفوق الغرب والشعور بالنقص وانتشار الأفكار الغربية والأنظمة السياسية والاقتصادية التي نشأت في أوربا بسبب ظروفها التاريخيه وطبيعة الديانة المسيحية واتجاه تعاليمها ومبادئها الخاصة بها والتي أدت إلى فصل الدين عن شئون الحياة الاجتماعية واعتباره أمرا شخصيا محضا لا علاقة له البتة بشئون التشريع والسياسة والحكم ومجالات التعليم والثقافة والحضارة والشئون الاقتصادية والاجتماعية .

المبحث الثاني

التغيير الاجتماعي والحضاري

إن الحديث عن التغيير الاجتماعي والحضاري الذي أحدثه النفوذ الغربي الاستعماري والنشاط التبشيري في المناطق الشمالية المسلمة وبين الجماعات الإسلامية في الجنوب يشمل دراسة مظاهر هذه المجتمعات الإسلامية قبل توغل هذا النفوذ وقيام ذلك النشاط من جوانب مختلفة من حيث العقيدة والقيم والمثل التي كانت سائدة فيها ، والحضارة والثقافة والمبادئ الأخلاقية التي كانت منتشرة فيها ، وكذلك العادات والتقاليد ، وآثار ذلك كله على شئون الحياة الاجتماعية من الناحية الفكرية والناحية الخلقية وفي تحقيق وسائل الأمن والاستقرار وتقويم سلوك الأفراد والجماعات ، ومن جانب ازدهار الشئون الاقتصادية بارتقاء الصناعة وانتشار النشاط التجاري ورفع مستوى المعيشة وتوفير وسائل الرفاهية وغير ذلك من الجوانب الروحية والمادية في شئون الحياة الإنسانية في المجتمع ، كما أن الحديث يشمل أيضا عرض مظاهر الحضارة الغربية في جميع جوانب الحياة الاجتماعية وما أحدثته هذه الحضارة من تغييرات كبيرة في أحوال المجتمعات الإسلامية .

لقد سبقت فترة الغزو الاستعماري وتوغل الحضارة الأوربية عهود طويلة مرت بها هذه البلاد في مراحلها التاريخية ، كان الإسلام فيها قوة هائلة حررت شعوب هذه البلاد من الوثنية وعبادة الأصنام والتمسك بالخرافات والعادات الجاهلية الشنيعة كما أنقذتها من الظلم والاستبداد ورفعتها إلى القمة في الإنسانية ، فدان الناس لله الخالق واستقاموا في سلوكهم وتصوراتهم ، وقام العدل في المجتمع وتحققت فيه وسائل الأمن والاستقرار .

ثم جاءت بعد ذلك فترة تشوهت فيها صورة الإسلام وتلوث ثوبه الناصع وتغيرت معالمه وقلبت قيمه ومثله ، ومزجت مفاهيمه بالعادات والتقاليد المحلية وأسيئ تطبيق تعاليمه ، حتى صارت عبادة المسلمين سلبية اعتزالية تمثلت في الصورة الشكلية والطرق الصوفية التي تعتزل الحياة العملية وتنفر الناس من الانخراط في معركتها ، وبدت ظاهرة

جديدة في الحياة السياسية حيث قام الحكم الاستبدادي ، ثم كان التأخر والانحطاط في شئون الحياة الاقتصادية والاجتماعية نتيجة انحراف المسلمين عن جادة الطريق في سلوكهم وتصورهم من جراء ماشاب عقائدهم من شوائب وما داخلها من عناصر غريبه .

وقد كانت هذه الصورة المشوهة للإسلام ، وتلك الحالة المتأخرة الراكدة المتخلفة التي ظهر فيها المسلمون في جميع البلدان الإسلامية منذ عصر الانحطاط هي التي كانت قائمة في هذه البلاد إبان فترة الغزو الاستعماري وتوغل الحضارة الغربية المادية في أوائل هذا القرن الميلادي . ولكن رغم ذلك كانت هناك بقايا عقيدة إسلامية قوية وبقايا مبادئ أخلاقية وقيم وعادات وتقاليد قويمة . وكان هناك الأمن والاستقرار وكان للتعاليم الدينية والثقافة الإسلامية رغم كل ماأصابها من جمود أو تحريف أثر كبير في حياة الناس كما كانت المبادئ التربوية والأخلاقية مثل الصدق والوفاء والاخلاص والحشمة والعفة وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة تطبع حياة الناس بطابعها . وكانت المرأة المسلمة تحتفظ بمكانة في المجتمع وكانت لها حقوقها وعليها كذلك واجبات كانت تؤديها في أمانة واخلاص وكانت تلتزم حدود طبيعتها الرقيقة وتحافظ على تعاليم الإسلام وتهتدى بهديه ولم تعرف التبرج في الأسواق في ثياب قصيرة فاتنة ولا التكسر والتميل في مشيتها في الشوارع ولكنها بقيت في دارها تربى الأجيال وإذا خرجت لقضاء حاجة لها خرجت مستخفية في ثوبها الفضفاض وحجابها الساتر .

وكانت أواصر الأسرة والتضامن الاجتماعي قوية ولم تقم مشكلات اجتماعية وعائلية مثلما قام في البلاد اليوم . ورغم ماذكرنا سابقا من شدة روح مقاومة المسلمين لتيارات الحضارة الغربية فترة من الزمن فإن الأجيال المسلمة الناشئة التي لم تجد أمامها إلا الصورة المشوهة للإسلام ، وكانت تعتقد أنها الصورة الحقيقية للإسلام ، ثم رأت إلى جانب ذلك حالة الضعف والتأخر الحضاري والتخلف العلمي والركود والانحطاط التي كان المسلمون يعيشون فيها ، ثم بجانب ذلك كله رأت حواليها مظاهر قوة الحضارة الغربية المادية التي لم تفهمها على حقيقتها ولم تقف على مافيها من جوانب الضعف والنقص والفساد

إن هذه الأجيال الناشئة لم تلبث بحكم الطبيعة فترة طويلة حتى فتنت بالحضارة الغربية

وانبهرت بما عند الغرب . وراحت تعتنق مذاهب فكرية مستحدثة ونظما اجتماعية وسياسية واقتصادية جديدة . أحدثت تشويها جديدا للمفاهيم الإسلامية أفقدها صورتها الأصلية وزادها بعدا عن القلوب والأذهان .

ومنذ أن سيطرت القوى الاستعمارية الغربية على شئون هذه البلاد اعتزمت تغيير الأحوال القائمة فبدأت تعمل جاهدة لنشر الحضارة الغربية والمذاهب الفكرية والنظم الاجتماعية والاقتصادية الأوربية والعادات والتقاليد الغربية فأحدثت في المجتمعات الإسلامية أزمات جذرية عنيفة وثورة فكرية نفسية بسبب ماحملته الحضارة الغربية من المصالح الدنيوية والمنافع المادية بحيث أحدثت تطورا ملموسا وتقدما كبيرا في رفع مستوى المعيشة وازدهار شئون التجارة والتنمية العمرانية وتوفير وسائل المواصلات وزيادة رفاهية الإنسان وتهيئة وسائل الراحة في المأكل والمسكن والمواصلات ونشر أسلوب الحياة الانعزالية والمادية والالحادية . وحين التقى الناشئون في الحضارة القديمة التي كانت سائدة في جميع بلدان المسلمين منذ عصر الانحطاط الذي وصفناه سابقا بالحضارة الغربية الحية الواسعة الآفاق حدث صراع حاد في نفوسهم . إذ لم يتلقوا في بيئاتهم الثقافية المتأخرة غير الصورة المشوهة الضيقة الأفق التي اعتقدوا أنها هي الإسلام . فكان نتيجة ذلك شعور بالنقص الذاتي في أنفسهم حيث وقفوا على جوانب النقص في حضارتهم وقيمهم ومفاهيمهم الدينية . مما أدى بطبيعة الحال إلى النفور والإعراض عنها . والانسياق وراء تيارات الحضارة الغربية الجارفة . فحدثت تحولات جذرية عمت جميع الطبقات . وانتشرت في جميع البيئات . وشملت جميع جوانب الحياة . وإن أول من تفاعل مع هذه التيارات هم المثقفون الذين تعلقوا بأذيال الحضارة الغربية ورضعوا لبان التعليم الغربي فحجبوا عن رؤية مظاهر الإسلام الحقيقية واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ونافع لقصر عقولهم وضعف مداركهم. وعلى الرغم من أن الحضارة الغربية قد ارتقت ببعض جوانب الحياة الإنسانية من الناحية المادية فقد أخفقت في جوانب هامة في الحياة البشرية من الناحية الروحية والأخلاقية

حين عجزت عن تحرير الإنسان من عبودية غير الله الخالق والارتقاء به إلى القمة الإنسانية وتهذيب النفس البشرية وتقرير مبادئ الحق والعدل في العالم ، فكانت الأثرة والطمع الشديد إلى اللذات العاجلة والتطلع إلى الجاه والمنصب وحب الذات وحب الاستعلاء والاهتمام بتحسين الوسائل وارتقائها دون النظر في الغايات والأهداف ، مما رفع الحياة المادية إلى مستوى أعلى ولكنه أدى إلى الصراع العنيف بين الطبقات والفئات لا من أجل غاية نبيلة ومصلحة إنسانية عامة" بل لمجرد تأمين وسائل الرفاهية وتحسين مستوى المعيشة واعتبار ذلك غاية تتقاتل من أجلها الطبقات المختلفة في المجتمع .

وقد سبق أن قررنا أن الدوافع التي كانت وراء غزو الأوربيين وتوغلهم إلى هذه البلاد بل إلى جميع البلدان التي استعمروها لم تكن دوافع إنسانية ولا أخلاقية وإنما كانت دوافع مادية وأحقادا دينية صليبية وأطماعا استعمارية توسعية من أجل ذلك فشل الاستعمار والتبشير في تحقيق وسائل العيش الرغيد والتضامن الاجتماعي الذي زعم أنه جاء هذه البلاد من أجله ، وبالإضافة إلى ذلك فقد فشلت الحضارة التي يحملونها معهم في رفع المستوى الإنساني الذي يشمل الناحية الروحية والمادية في حياة الإنسان ، ويرتكز على العقيدة السليمة وما يصاحبها من قيم عليا ومبادئ قويمة.ويرجع السبب في ذلك كله إلى تصور الغرب الخاطئ لحقيقة أسرار الكون وحقيقة الإنسان والحياة . إن الثورة الاجتماعية والحضارية التي أحدثها توغل الحضارة الغربية في المجتمعات الإسلامية كانت تجرى على أيدى النخبات الوطنية التي صنعها رجال الاستعمار والتبشير واتخذها عميلة مأجورة وهم يعلمون أنها أقدر منهم في تفجير تلك الثورة إذ إن هذه الطبقة هي القادرة على منع إثارة المشاعر الدينية عندما تتحرك لمواجهة جيوش الاحتلال الغربي التي زحفت لمكافحة القيم الدينية والحضارية وإضعاف روح المقاومة وتوجيه حركات المقاومة وجهة أخرى غير سليمة .

قال ترمنغام (J.S. Trimingham) (لم يتأثر المسلمون كثيرا بمظاهر الحضارة الغربية التي تنعكس على الأحوال الاجتماعية والثقافية) (1) .

---

(1) J.Spencer Trimingham, op. cit., P.217

ولا ندرى ماذا يريد هذا الكاتب البريطانى أن يكون للحضارة الغربية من آثار عميقة على شئون حياة المسلمين الاجتماعية أكبر من التى شاهدنا من زعزعة عقيدة المسلمين وتشويه المفاهيم الإسلامية وإفساد أخلاق المسلمين وإضعاف الثقافة الإسلامية ومحاربة التعليم الإسلامى وتغيير القيم والمثل والعادات والتقاليد ، حتى قامت في المجتمعات الإسلامية مذاهب فكرية غربية وقيم مادية ، فانتشرت المبادئ الديمقراطية والرأسمالية والثقافة الغربية والعادات والتقاليد والمبادئ الأخلاقية المسيحية . وقد أدى ذلك كله إلى تحول كبير فى شئون الحياة الاجتماعية ، حيث قامت مشكلات اجتماعية كثيرة وخرجت المرأة من بيتها لتنافس الرجل فى اختصاصاته وصارت وسيلة للإغراء والفتنة والفساد وتفككت أواصر الأسرة ، وعمت البلوى وانتشرت الإباحية الجنسية ، (وقد أثبت السير هسكيث بيل Sir Hisketh Bell الحاكم البريطانى على المحمية الشمالية فى السنتين مابين سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م وبين سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م أن الهيئات التبشيرية هى التى جاءت بالأمراض الجنسية إلى أوغندا .[١]) وقال الأستاذ أيانديلى (Ayandele) (لقد بدأت الأمراض الجنسية مبكرا فى نيجيريا بين هؤلاء الذين يسمون أنفسهم بالمسيحيين قبل أن تبدأ بين الوثنيين وقد انتشرت فى صفوف الموظفين الأفارقة) .... إلى أن قال (وقد ندم معظم أولياء أمور الأطفال فى بلاد يوربا على تركهم أولادهم يتلقون التعليم الغربى على أيدى المبشرين)[٢] ونتيجة لفقدان عنصر القيم الروحية والأخلاقية فى الحضارة الغربية وتقديس الغرب للقيم المادية فقد ظهر الفساد فى المجتمع ، وقامت الفتن والاضطرابات ، وظهرت مشكلات اجتماعية جديدة ، فانهار كيان المجتمع وأصبح الناس فى متاهات وحيرة وقلق قد ضلوا سواء السبيل .

وإن للتغيير الاقتصادى فى هذه البلاد ارتباطا كبيرا بالتغيير الاجتماعى . وقد بدأ التحول الكبير فى الحياة الاقتصادية عندما ظهرت النخاسة على مسرح الأحداث التاريخية لما بدأ الأوربيون يتاجرون بالجنس البشرى ويتخذون منه أمتعة يبيعونها فى الأسواق الأوربية .

(١) E.A. Ayandele, op. cit., P.149

(٢) Ibid. P.292

وقد جلبت تجارة الرقيق التعاسة والهلاك على الشعوب الأفريقية حيث نقلت الآلاف المؤلفة إلى أوربا فاستغلت في المزارع والمناجم • وعندما بدأت النخاسة تحدث مشكلات وأزمات اجتماعية في الدول الأوربية • وأصبح أضرارها أكبر من منافعها • وبدأت تقل حاجة هذه الدول إلى الأيدي العاملة الكثيرة بسبب قيام الصناعة الآلية بعد تحطيم نظام الاقطاع وقيام نظم اقتصادية جديدة وانتشار الأسس الديمقراطية • وكانت الحاجة ماسة إلى ايجاد الأسواق خارج أوربا لبيع المنتجات والبضائع الجديدة ••• عند ذلك كله قامت الدول الأوربية تحت هذه الضغوط الشديدة والأوضاع الاقتصادية والسياسية الجديدة التي كانت تواجهها • بإلغاء تجارة الرقيق والعدول عنها إلى التجارة (الشرعية) في غلات الأرض وحاصلاتها •

ولقد كانت بلاد السودان الغربي منذ عهود طويلة تقيم علاقاتها التجارية مع بلدان شمال أفريقيا • بيد أن القوى الاستعمارية استطاعت أن تحول اتجاه الشئون الاقتصادية في هذه البلاد من الاتجاه الشمالي المؤدي إلى البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط إلى الاتجاه الغربي عبر المحيط الأطلسي إلى الدول الأوربية • وقد أقامت سلسلة من الطرق البرية والسكك الحديدية من المدن الداخلية إلى اتجاه شواطئ المحيط التي تتدفق إلى موانيه التجارية بضائع ومنتجات الغرب • وقد كان من آثار هذا التحول الاقتصادي أن قطعت العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين هذه البلاد وبين دول شمال أفريقيا وضعفت شئون الحياة الاقتصادية في المدن الإسلامية الكبرى وقامت محلها مدن ساحلية تجارية أخرى احتلت مراكز هامة في العلاقات التجارية •

ولم تكن للنفوذ الغربي آثار كبيرة على شئون الحياة الاقتصادية في المناطق الشمالية المسلمة مثلما كان له في المناطق الجنوبية • ويرجع سبب ذلك إلى مابيناه من قبل من شدة مقاومة المسلمين للغزو الاستعماري من ناحية وإلى سياسة الاستعمار في إبقاء المسلمين على التخلف والضعف من ناحية أخرى • وقد أنشأت الحكومة الاستعمارية العديد من الشركات الصناعية والزراعية والتجارية في مختلف المدن الكبرى في المناطق الجنوبية بصفة

خاصة وكانت شركات احتكارية استغلالية وكانت لها آثارها البالغة على شئون الحياة الاجتماعية . وقد حلت الفعالية الاقتصادية الجديدة محل الضعف والتخلف والتواكل والانعزالية التى فشت فى البلاد فقامت فيها نهضة صناعية وازدهرت شئون الاقتصاد ونشطت العلاقات التجارية بين هذه البلاد وبين الدول الأوربية ودبت الحركة فى عروق المجتمعات المحلية حتى أحلت القيم المادية المكانة الأولى فى البلاد وانتشرت المبادئ الرأسمالية وظهر فى الناس ميل شديد إلى جمع المال بكل وسيلة وظهر التنافس الشديد بين الأفراد وقام الصراع العنيف بين الطبقات والفئات . وقد أقيمت الوسائل الحديدة لتسهيل النشاط التجارى فى مختلف المدن والقرى حيث أنشأت الأسواق الجديدة فى المدن الهامة وفتحت الطرق البحرية والبرية ومدت السكك الحديدية من المدن الداخلية إلى اتجاه شواطئ البحر المحيط . كما أنشأت وسائل الاتصالات ووسائل النقل وأقيمت بعض المزارع والمراكز التجارية وانفتحت بذلك مجالات عمل جديدة فى المجتمع وكثرت موارد الكسب ولكنها فى الوقت ذاته زادت حدة الصراع فى المجتمع وزادت من انكباب الناس على عالم المادة .

المبحث الثالث

آثار النفوذ الغربي على الحياة الدينية في المناطق الإسلامية

لايمكننا أن نهمل الجانب الديني أو نتجاهله في دراستنا لآثار النفوذ الغربي على النواحي التي تقدم الحديث عنها لأن الإسلام هو الخط المستقيم الذى نعرف به مدى انحراف الناس عن الطريق السوى ومدى ابتعادهم عنه ، كما أنه المقياس الصحيح الذى نعرض عليه أمورنا لنعرف هل هى جارية على ذلك الخط المستقيم مطابقة لفطرتنا أم متصادمة معها ، وهل هى مضرة لصالحنا أم محققة لخيرنا وفلاحنا ، لذلك فإننا نود أن نشرح بعض الجوانب الهامة من التغييرات التى حدثت فى حياة المسلمين الدينية عن طريق الغزو الاستعمارى العسكرى وانتشار تيارات الغزو الفكرى الأوربى فى بلادهم وقد سبق أن قررنا أن أعمال التبشير فى المناطق الشمالية الإسلامية لم تأت بالنتائج التى كان المبشرون ورجال الاستعمار يتوخون منها ، وقد أخفقوا فى هدفهم الأكبر الذى هو تنصير المسلمين أفرادا وجماعات رغم ماكانوا يبذلونه من مجهودات كبيرة وأموال طائلة منذ قرن ونصف قرن .

وهناك رجال من المبشرين أقاموا فى بعض مدن هذه البلاد سنين طويلة يكرزون بالمسيحية ليل نهار ولكنهم لم يجدوا آذانا صاغية ولم يستطيعوا أن ينصروا فردا واحدا من المسلمين .

وإن النزر اليسير الذى استطاعت الإرساليات التبشيرية أن تدخله تحت حظيرة المسيحية فى المناطق الشمالية الإسلامية ، والكثرة الغالبة من الصابئين الذين انتقلوا إلى المسيحية أفرادا وجماعات فى المناطق الجنوبية كانت فى غالبيتهم من غير المسلمين . وقد أعترف المبشرون أنفسهم بفشل أعمال التبشير الظاهرة والخفية فى تحقيق غاياتها فى المجتمعات الإسلامية حيث إن الجهود المبذولة فى هذا السبيل قد ذهبت أدراج الرياح وفى متاهات الضياع ، ومن أجل ذلك لجأ هؤلاء المبشرون ورجال الاستعمار إلى زعزعة عقيدة المسلمين عندما فشلوا فى تحويلها ومحوها .

ومن هنا تظهر لنا حقيقة بواعث التبشير بوضوح فهى ماكانت من أجل إصلاح

الحياة الروحية ، بل هي حرب شعواء لمكافحة الإسلام ومحو عقيدة المسلمين وإفساد أخلاقهم ، ثم التوسل من خلال ذلك كله إلى السيطرة والاستعمار والاستغلال . (وقد صرح القس ج . أ . روبنسون Rev. J.A. Robinson سكرتير إرساليات الكنيسة الإنكليزية التبشيرية CMS بأن محاولة تنصير المسلمين تعتبر مضيعة للجهود) .(١)

وحتى في المناطق الوثنية التي انتشرت فيها الكنائس والمراكز التبشيرية ونشطت فيها الدعاية التبشيرية فإن الانتقال من المسيحية إلى الإسلام أكثر بكثير من الانتقال من الإسلام إلى المسيحية . (إن الإرسالية المشيخية التي بدأت أعمالها التبشيرية في بلاد يوربا منذ سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ م قد قامت بعمل متواصل ونشاط كبير في الدعاية التبشيرية استمر سبع سنوات متوالية قبل أن تجد " من بين الوثنيين " من تحوله إلى المسيحية حيث إنها أقامت أول حفلة معمودية لها سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م ، ولم تستطع أن تبني أول كنيسة لها إلا في سنة ١٢٧٢هـ / ١٨٥٥م .) (٢) وإذا كان رجال الاستعمار والتبشير لم يستطيعوا أن يغيروا وجه الوجود الإسلامي ذو التاريخ الطويل في المناطق الشمالية الإسلامية تغييرا كليا ولم تتحقق جميع أحلامهم ، ولم يتم لهم ما أرادوا من إقامة الكنائس المسيحية على أنقاض المساجد ورفع صوت النواقيس على المآذن ، فقد أحرزوا نجاحا لاشك فيه في تحقيق أهدافهم في عدة مجالات . فقد استطاعوا أن ينشروا التعليم الغربي والثقافة الغربية والأسس الاقتصادية الجديدة كما استطاعوا أن يفرضوا نظام الحكم الديمقراطي على شعوب هذه البلاد ، وكذلك استطاعوا أن ينشأوا من الأجيال الناشئة طبقة المثقفين المحليين سواء من دخل تحت حظيرة المسيحية من هذه الطبقة ومن انجرف مع تيارات العلمانية الهدامة ولم يدخل في المسيحية . ثم إنهم قد تمكنوا بفضل الجهود الكبيرة والأموال الطائلة والمغريات الكثيرة والدعايات من تنصير بعض المسلمين الضعفاء وكثير من الأولاد الصغار والشبان المسلمين في المناطق الجنوبية ، في حين لم يستطيعوا أن ينصروا من أبناء المسلمين الشماليين إلا عددا قليلا جدا تم اقتناصهم في مجال

---

(١) E.A.Ayandle, op. cit., P.214

(٢) J.F.Ade.Ajayi, op.cit., P. 94

التعليم وعن طريق استغلال ظروف بعض الأسر الفقيرة • إن محاولات المبشرين وجهودهم المتواصلة فى حقل التبشير قد هيأت ظروفا مواتية أمام المستعمرين والتجار البريطانيين حتى تمكنوا من الغزو والاستعمار والاستغلال • وقد أدت حركة التبشير والغزو الاستعمارى إلى قيام عهد جديد كانت عوامل التغيير الاجتماعى فيه سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم دينية أم ثقافية وليدة المؤثرات الخارجية أكثر من العوامل والظروف المحلية • (وقد ظهر أن الحكومة البريطانية كانت راغبة فى استعمال القوة لإحلال المسيحية محل الإسلام فى المناطق الشمالية •) (١) •

إن أى عمل يتعلق بمستقبل الأمم والشعوب لا يمكن أن يحكم عليه بفشل أو نجاح فى سنين قليلة ولا فى جيل واحد إذ قد لا تظهر نتيجته إلا بعد أجيال وبعد عهود طويلة• ولم نرم الكلام على عواهنه عندما حكمنا على الحملات التبشيرية بالفشل فى غاياتها الأساسية فى هذه البلاد بعد قرن ونصف قرن من قيام هذه الحملات الضارية • وإن هذه الفترة الطويلة كافية للوقوف على نجاح هذا الأمر أو فشله • وقد كانت غاية التبشير واضحة بينة منذ البداية وهو إخراج المسلمين من دينهم ليعتنقوا المسيحية اعتقادا وعملا • ولا شك أن هذه الغاية لم تتحق بل هى أقرب إلى الاستحالة منها إلى الإمكان بين الشعوب المسلمة • وذلك أن النسبة التى تم تنصيرها من المسلمين نسبة قليلة تافهة يمكن أن تلحق بالعدم لتكون نتيجة سلبية تماما • وبينما كانت مظاهر النفوذ الغربى تتوغل فى سرعة هائلة إلى المجتمعات الوثنية لتقضى على أساليب الحياة التقليدية القديمة بحيث أدت إلى قيام أزمات اجتماعية وقع الناس فيها فى قلق وحيرة من أمرهم حتى أرغموا على تمكين المسيحية الغربية من الانتشار وقبول الخضوع المذل لسيطرة الغرب وسيطرة حضارته وثقافته • فإن المجتمعات الإسلامية قد ظلت لفترة طويلة تقيم حصنا منيعا لصد توغل النفوذ الغربى • وقد تعرض هذا الحصن لهجمات عنيفة من جانب القوة الغربية الغازية حتى استطاعت فى آخر الأمر أن تحدث فيه بعض الثقوب والخروق فتسلل المبشرون والمستعمرون من خلالها إلى الداخل •واستطاعوا أن يقتنصوا أبناء المسلمين عن طريق الظروف التى اصطنعوها والتى لا تملك الأجيال

---

(١) S.J. Hogben, op. cit., P.67

الناشئة تحت وطأتها الشديدة أن يعتزل الحياة العملية الجديدة التى سيطر عليها الغرب أو تبتعد عن مجالاتها ابتعادا كليا فلجأت إلى محاولة تكييف نفسها مع الوضع الجديد وانساقت وراء تيارات الغزو الغربى الفكرى وقبلت التعليم العلمانى واعتنقت الأفكار الغربية فيما يتعلق بالدين والحياة الإنسانية .

وهكذا رأينا رجال الاستعمار والتبشير لما صعبت عليهم عملية تنصير المسلمين أفرادا وجماعات قنعوا أنفسهم بالاكتفاء بإبعادهم عن دينهم بشتى الوسائل . وقد بذلت الحكومة الاستعمارية جهودا كبيرة فى نشر الاتجاهات المعاكسة للدين فى شئون التعليم والإعلام وفى مجال التشريع والقانون وفى الشئون الاجتماعية . وكانت لهذه الاتجاهات الجديدة آثارها البالغة فى تشويه المفاهيم الإسلامية فى أذهان أبناء المسلمين المثقفين من حيث التصور والتطبيق العملى .

إن تصور الغرب فى مجال أسرار الكون وفى حقيقة الإنسان والحياة لايرتكز إلا على أساس تأليه العقل الإنسانى والاعتقاد بقوته وهيمنته على شئون الحياة الإنسانية . وذلك نقيض تصور المسلمين فى هذا الشأن . إذ أنهم يعتقدون أن هناك فى هذا الكون قوة هائلة منفصلة عنه لها الأمر والخلق والتدبير . وليست هذه القوة هى عقل الإنسان ولا ينبغى أن تكون العقل . لأنه هو نفسه من آثار تلك القوة . ومن هنا كان موقف الرفض الذى اتخذه المسلمون الواعون المتحفظون تجاه كل ما يأتى من الغرب من حضارة مادية وتعليم لاديني واتجاهات أخرى معاكسة للمفاهيم الدينية .

ولقد نجحت الخطة الجديدة التى اتبعها الاستعمار والتبشير لإبعاد المسلمين عن دينهم وخاصة فى صفاف الأجيال الناشئة وقد كانوا يحاولون أن تتم العملية وتجرى الخطط بحيث لايقف الناس على حقيقتها وغايتها حتى لاتستثير حفيظة المسلمين أو تنبههم إلى الأخطار المحدقة بهم .

وكما سبق أن ذكرنا أن نجاح النفوذ الغربى فى هذه البلاد كان كبيرا جدا من ناحية تغيير مجرى الحياة الاجتماعية وتحويل اتجاهات الناس وزعزعة عقائدهم ومحو قيمهم الأخلاقية ونظمهم السياسية والاقتصادية وتغيير عاداتهم وتقاليدهم .

وقد بدأ الإسلام يفقد سلطانه الروحي على حياة المسلمين تدريجيا عندما بدأت الطبقة المثقفة من أبناء المسلمين تتبنى تصورات قاصرة خاطئة عن الدين، وأصبحت تعتقد أن الدين محصور في زاوية ضيقة لا تتجاوز حدود الشعيرة، كما أنه أمر شخصي بكل إنسان ويجب أن يلتزم الدين حدوده المعينة الضيقة، يجب أن يلتزم حدود المساجد ويحتفظ بسلطان روحي محدود على جانب معين محدود من جوانب حياة المسلمين ويقف عند حدود الأحوال الشخصية في شئون القضاء دون أن يمد نفوذه إلى شئون التشريع والحكم والسياسة والتعليم العام والشئون الاجتماعية الهامة. وقد كان هؤلاء المثقفون الجدد ينظرون إلى مظاهر الحياة الاجتماعية بمنظار أساتذتهم الغربيين وأصبحوا يعتقدون أن التعاليم الدينية التي يقدسها آباؤهم ويحترمونها مجموعة تعاليم خرافية لا قيمة لها في ميزان العقل النير والكياسة السليمة. وطالما بقيت هذه التعاليم الدينية في أنظار آبائهم المسلمين غير قابلة للتغيير والتبديل والتعديل ولا خاضعة للتطور فستظل تحمل طابع القدم والبلى والجمود والركود وغير ذلك مما تطلقه العقلية الانهزامية على الدين والتقاليد الدينية.

يقول جب: " الواقع أن الاسلام كعقيدة لم يفقد إلا قليلا من قوته وسلطانه. ولكن الإسلام كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته. فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه وهي - في كثير من الأحيان - تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضا صريحا. ولكنها تشق طريقها بالرغم من ذلك إلى المجتمع الإسلامي في قوة وعزم. فإلى عهد قريب، لم يكن للمسلم من عامة الناس، وللفلاح، اتجاه سياسي ولم يكن له أدب إلا الأدب الديني ولم تكن له أعياد إلا ما جاء به الدين، ولم يكن ينظر إلى العالم الخارجي إلا بمنظار الدين. كان الدين هو كل شيء بالقياس إليه. أما الآن فقد أخذ يمد بصره إلى ماوراء عالمه المحدود وتعددت ألوان نشاطه الذي لم يعد مرتبطا بالدين فقد أصبحت له ميوله السياسية وهو يقرأ - أو يقرأ له غيره - مقالات في مواضيع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين. بل إن وجهة نظر الدين فيها لا تناقش على الاطلاق. وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الاسلامية لم يعد هي الفيصل فيما يعرض له من مشاكل، ولكنه مرتبط في المجتمع الذي يحيا فيه بقوانين مدنية قد لا يعرف أصولها ومصادرها ولكنه يعرف على كل حال أنها ليست مأخوذة

من القرآن . وبذلك لم تعد التعاليم الدينية القديمة صالحة لإمداده في حاجاته الروحية فضلا عن حاجاته الاجتماعية الأساسية . بينما أصبحت مصالحه المدنية وحاجاته الدنيوية هي أكثر ما يسترعى انتباهه وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية ، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئا فشيئا حتى انحصرت في طقوس محددة ، وقد تم معظم هذا التطور تدريجيا عن غير وعي وانتباه وكان الذين أدركوا هذا التطور قلة ضئيلة من المثقفين وكان الذين مضوا فيه عن وعي وتابعوا طريقهم فيه عن اقتناع قلة أقل . وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد ، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه . وقد يبدو الآن من المستحيل - مع تزايد الحاجة إلى التعليم ومع تزايد الاقتباس من الغرب - أن يصد هذا التيار أو يعاد الإسلام إلى مكانته الأولى من السيطرة التامة التي لا تناقش على الحياة السياسية والاجتماعية"(١) . إن تأثر أبناء المسلمين الذين ارتضعوا لبان التعليم الغربي بالأفكار الغربية والحضارة والثقافة الأوربية واتجاهات الغرب اللادينية كان كبيرا جدا لدرجة أن بعضهم قد وصل بهم الانبهار إلى تقديس كل ما يأتي من الغرب من أفكار أو مذاهب وإلى

---

(١) كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر تأليف الدكتور محمد محمد حسين الجزء الثاني ص ٢٠٤ - ٢٠٥ نقلا عن كتاب :

H. A. R. Gibb, Ed., Whither Islam, London, 1939, Pp. 334 - 336.

الاعتقاد بأن الخروج عليه نكران للمعروف وجريمة كبرى فى حق أساتذتهم الغربيين ، ولقد صبغت أفكار هؤلاء الناس بصبغة "الفرنجة" فتكدرت عقلياتهم حتى وجدنا من بينهم من يتضايق من المسلمين المتمسكين بالتعاليم الإسلامية ويصمونهم بالتمنت والتزمت ، ويرجعون أسباب تأخر المسلمين وانحطاطهم إلى ذلك ، حيث لم يستجيبوا لداعى التقدم والتطور ، ولم يتعلقوا بسلم الرقى والحضارة وحصروا عقولهم فى دائرة محدودة ونطاق ضيق حتى تحجرت وأصابها الصدأ فتعطلت عن النمو والارتقاء .

وليس ذلك كله بغريب من هؤلاء الناس مادمنا علمنا أنهم قد تلقوا دراساتهم العالية فى جامعات بريطانية أو أمريكية . وحتى لو كانوا قد حصلوا التعليم العالى من إحدى جامعات البلاد فإنهم قد درسوا العلم على أيدى المبشرين وتتلمذوا على المدرسين العلمانيين وترعرعوا تحت كنفهم وعاشوا تحت أجواء الحياة التعليمية الغربية .

إن أمثال هؤلاء الناس أشد خطرا على الإسلام وأكثر ضررا على المسلمين من رجال الاستعمار والتبشير أنفسهم ، لأنهم من أبناء جلدتنا ، ويتكلمون بلغتنا ، بل يصلى بعضهم معنا فى المساجد ويشتركون معنا فى المواسم الدينية ، ولكنهم عملاء مأجورون يسعون وراء مصالح الأجانب ولا يفطرون .

إنهم يعيشون بين ظهرانينا ولكنهم ليسوا معنا فكريا ونفسيا وحضاريا . إنهم لايزالون يتظاهرون لنا بأنهم منا مما جعل خطرهم أكبر وأعظم . إذ من السهل على الإنسان أن يتعرف على العدو الخارجى ويتقى شره من بعيد ويقيم حاجزا منيعا فى وجهه حتى لايمكنه من الاقتراب منه . ولكن المصيبة كل المصيبة فى العدو الداخلى الذى يتسربل فى ثياب أخ صديق ، ويبدى الحب والود تصنعا وهو فى الوقت نفسه يضمر الغدر والحقد ، ويتحين الفرصة للوقيعة بمن يخالطه . وقد رأينا كيف بدأ بعض أبناء المسلمين المثقفين يشنون حربا شعواء على الإسلام مجاراة لزملائهم المسيحيين ، فادعوا عدم صلاحية الإسلام لمسايرة الزمن واللحاق بالركب الحضارى المتقدم ، وقالوا بفصل الدين عن شئون الدولة ، وقالوا إن الإسلام يحدد حرية الإنسان بل يسلبها ، حيث يخدر أعصابه ويقف فى وجه التقدم

والحضارة والرقي ويدعو إلى الجهل والتخلف . وقد أدى ذلك كله إلى تقلص سلطان الدين في نفوس هؤلاء الناس حتى وجدنا من بينهم أناس يحملون أسماء إسلامية وهم أكثر ميلا إلى المسيحية والحضارة الغربية في عاداتهم ومظاهرهم .

ورغم ذلك كله فقد كانت هناك قلة قليلة من هؤلاء المثقفين الجدد لاتزال تتخذ موقفا معتدلا نسبيا في شأن الدين فتدعو إلى العودة التدريجية إلى الإسلام وإنشاء محكمة شرعية استئنافية عليا يتحاكم إليها المسلمون. ولاتزال البلاد تموج بين الحين والآخر بحركات إسلامية تدعو خفية وعلانية إلى العودة التدريجية إلى الإسلام . ولكن هذه الحركات حركات غير بناءة . إذ لاترتكز على أسس متينة وقواعد قويمة . ولاتصدر عن وعي صحيح وفهم سليم للإسلام . ولا تجري على خطط دقيقة مرسومة حتى تستطيع أن تحقق ماتصبوا إليه وذلك بالإضافة إلى أنها لاتدعو إلى العودة إلى الإسلام كمنهج متكامل لحياة الفرد والأسرة والمجتمع والدولة . ولاتدعو إلى تقرير الشريعة الإسلامية عقيدة وعبادة وأخلاقا وقانونا . ولقد استطاع رجال الاستعمار والتبشير قبل زوال حكم الاستعمار الفرنسي في هذه البلاد أن يكوّنوا من أبنائها طبقة النخبات الوطنية التي كان من بينها بعض أبناء المسلمين. ولاتطيق هذه الطبقة أن تسمع بالحركات الإسلامية . بل إنها تترقبها وتتحسس أخبارها عندما تبدأ تتقد جمراتها تحت الرماد لتصب عليها الماء وتطفئها قبل أن تستحيل نارا كبيرة . إنها لن تتركها تشتعل لئلا تحرقها . أو تصبح نورا ساطعا يضيء الطريق أمام المسلمين ويردهم إلى الإسلام الصحيح الشامل لكل جوانب الحياة، وذلك كله هو تحقيق لأغراض التبشير كما أنه من نتائج برامج التعليم العلماني في هذه البلاد .

يقول جب : إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة فهي تنفجر انفجارا مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها مايدعوهم إلى الاسترابة في أمرها . فالحركات الإسلامية لاينقصها إلا ~~الزعامة~~ وجود، لاينقصها إلا ظهور إصلاح الدين جديد.[1]

---

(1) كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر / الجزء الثاني ص ٢٠٦ تأليف محمد حسين نقلا عن كتاب H.A.R. Gibb, op. cit., P.365

ولقد أفصح القس صموائيل زويمر عن أغراض التبشير ونتائج التعليم الغربي العلماني غاية الإفصاح حيث أوضحها في خطابه الطويل الذي ألقاه في مؤتمر المبشرين الذي عقد في القدس عام ١٣٥٥ هـ الموافق ١٩٣٥ م نقتطف منه ما يلي ، قال القس زويمر لإخوانه المبشرين : " إني أقركم على أن الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين ، لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة .. إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو الإسلام أو رجل مستخف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش ، وآخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية .

ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليس هي ادخال المسلمين في المسيحية فإن في هذا هداية لهم وتكريما .. وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها .... ثم قال : لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية ..... إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد .

إنكم أعددتم نشأ (في ديار المسلمين) لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما أراده له الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات ، فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات ، إنه يجود بكل شئ للوصول إلى الشهوات ، إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه وانتهيتم إلى خير النتائج " .(١)

---

(١) كتاب جذور البلاء ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ تأليف عبد الله التل وكذلك كتاب المخططات الاستعمارية ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨ للشيخ محمد محمود الصواف .

وقـــد جاء فى مقدمة المسيو ساتلية فى الغارة على العالم الإسلامى مايلـــى :

" لاينبغى لنـا أن نتوقـــع من جمهور العالم الإسلامـى أن يتخـذ لـه أوضاعا وخصائـــص أخـرى إذا هو تنازل عن أوضاعـه وخصائـــصه الاجتماعيـة إذ الضعف التدريجى فى الاعتقاد بالفكرة الإسلاميـة وما يتبع هذا الضعف من الانتقاض والاضمحلال الملازم لـه سوف يفضى - بعـد انتشاره فى كل الجهات - إلى انحلال الروح الدينيـة من أساسهـا لا إلى نشأتها بشكل آخر". (١)

ولقـد قررنا سابقا أن هناك فوارق كثيرة بين المناطق الشماليـة الإسلامية وبين مناطـــق الإقلـيم الغربـى التى كانت توجـد فيها جماعات إسلاميـة دخلت فى حظيرة الإسلام خــــلال القرن التاسع عشـر الميـلادى ولا يزال المسلمون يحتفظون حتى اليوم بالأغلبيـة بين شعـــوب تلك المناطق الوثنيـة والمسيحيـة . وبينما كانت هذه المناطـق ميدانا واسعا للصـــــراع العنيف القائـم بين الحضارتـين المحليـة والغربيـة وبين الحضارة الإسلاميـة ، فقـــــد ظلـت المناطق الشماليـة تعمل جاهـدة لصـــد الحضارة الغربيـة من التوغل فضلا عن التمكن والانتشـــار وقد استمر ذلك فـــترة طويلـة من الزمن قبل أن تتمكن القوى الاستعمارية الغربيـــة من إجبارهـــا على الاستســـلام .

هذا وإننا لانقـول إنه لاتوجـد ميول مضادة للنفوذ الغربـى من جانب بعض المسلمـــين الجنوبيين كما أننا لانقول أيضا بفقدان روح المقاومـة تماما من جانب القلـة القليلة منهـــم ، ولكن تلك الميول وروح المقاومـــة كانت مشبوهـــة ضعيفـة لأن معظم هؤلاء الناس انتهازيون غـير مخلصـى الولاء للإســلام بسبب تعلقهـم بالمصالـح الماديـة والمنافع الدنيويـة التى تقدمها الحضارة الغربيـــة . وهذه من جهـة ، ومن جهة أخرى فإنه على الرغم مما شاهدناه مـــن المسلميين الشماليين أنفسهـم من شدة التحفـــظ وقوة الشكيمة وروح المقاومـة الشديدة للنفـوذ الغربـى فإن حركات المقاومـة التى قاموا بهـا للإجهاز على الاستعمار والتبشير لم تجر علـى الخط المستقيم ولم ترتكز على أسس قويمـة من التخطيط والتدبير الـلازم حـتى سقطت بلادهـم تحت أقدام الغـــزاة المحتلين الغربيين وأخمدت جذوة حركات المقاومة وأطفأت نيرانهـــــا

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافى ص ١٩ .

وذابت الروح الدينية فى مجرى الحركات القومية التى وجه الاستعمار أنظار النخبات الوطنية إليها لأنها أخف ضررا على أهدافه ومصالحه وأهون خطرا عليه من الحركات الإسلامية التى هى أكبر خطرا يهدد كيانه ومصالحه وأهدافه . وهذا كله نتيجة عدم أخذ المسلمين الحذر اللازم وتهاوى الإرادة الحاسمة فى مواجهة الأخطار المحدقة بهم واستسلامهم للوضع القائم والاستنامة عن الأخطار مما يعتبر مصدر المباغتة التى واجهتهم على طول تاريخ أيام الاستعمار والتبشير فى هذه البلاد. وفى المناطق الشمالية الإسلامية مثلا كانت مسألة الانتساب إلى الدين مرتبطة بالولادة على الفطرة السليمة ولذلك كان إباء المسلمين شديدا جدا لكل مايصادم هذه الفطرة أو يشوهها أو يكدر نبعها الصافى لأنهم يعتقدون أن سعادة الحياة الإنسانية وقوة تماسك أواصر الأسرة وبناء المجتمع ترتكز على أساس الدين . وأما فى المناطق الجنوبية فإن هذه المسألة مفتوحة على مصاريعها إذ لاتوجد عند الوثنيين روح الإباء مثلما وجدت عند المسلمين بالإضافة إلى أن الوثنية نفسها مصادمة للفطرة السليمة وخارجة عن الخط المستقيم ومنحرفة عنه إلى الجاهلية ثم إن انتشار نفوذ الغرب اللاديني فى هذا البقاع قد زاد الطين بلة . وقد رأينا كيف تجرى فيها عملية التحول من دين إلى آخر من جانب أفراد المجتمع من دون أن يحدث ذلك أى ضجة فى ذلك المجتمع إذ لايعتقد الناس أن اختلاف الولاءات الدينية يمكن أن يؤثر فى وحدة الأسرة والتضامن القومى وبناء المجتمع .

وقد وجدنا فى بلاد يوروبا بعض الأسر التى تضم أصحاب أديان مختلفة يشترك بعضهم مع بعض فى الأعياد الدينية الخاصة بكل فريق منهم من دون أن يؤمنوا بمعتقداتهم ، وقد كانوا ينظرون إلى اختلاف الأديان على أنه مجرد اختلاف الحضارات والعادات والتقاليد الذى لايمكن أن يؤثر فى بناء المجتمع والتضامن القومى .

وإن مثل هذا الموقف الجديد الذى بدأ الناس يتخذونه فى شأن الدين قد ظهر فى مصاف بعض المسلمين الجنوبيين المتأثرين بالنفوذ الغربى حيث صاروا يعتقدون الدين أمرا شخصيا محضا بالنسبة لكل فرد . وأن تغيير الإنسان ولاءه الدينى أو عدم إخلاصه

فيه أمر خاص بذلك الإنسان ولا علاقة للأسرة أو المجتمع به . ومن ثم لا يحدث ضجة كبيرة ولا يثير غضب جماهير الشعب كما هو الحال فى المناطق الشمالية المسلمة ، وفى مجتمعات بلاد يوربا التى وجدنا فيها مثل هذا الاتجاه الجديد نحو الأديان أصبح الولاء الدينى مجرد قوة مساعدة فى تدعيم شئون الحياة الإنسانية لا أساسا ركيزا يقوم عليه بناء المجتمع ولا رابطة قوية تقوم عليها الوحدة القومية . وقد ذكرنا أن تحويل الناس من الوثنية والمسيحية إلى الإسلام يعتبر ظاهرة اجتماعية منتشرة كثيرا فى مختلف مناطق غرب أفريقيا حتى فى المناطق الساحلية التى نشطت فيها أعمال الإرساليات التبشيرية وقام فيها الحكم الاستعمارى الغربى وانتشر فيها النفوذ الغربى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى .

ويعترف الغربيون أنفسهم بأن الإسلام ينتشر بين الشعوب الأفريقية انتشارا كبيرا أكثر بكثير مما تنتشر بينها المسيحية رغم كل المجهودات الكبيرة التى تبذلها الإرساليات التبشيرية ومن ورائها الحكومات الاستعمارية ، وكذلك الأموال الطائلة التى تنفقها والخطط والتنظيمات والوسائل الكثيرة التى تضعها وتنفذها من أجل إنجاح أعمال التبشير فى ربوع العالم الإسلامى . ورغم أن ذلك حقيقة واقعية يشهد بها العدو والصديق فإن لهؤلاء المبشرين من وراء اعترافهم هذا أهدافا كثيرة هى المقصود تحقيقها لا مجرد تسجيل الاعتراف بتفوق الإسلام وسبقه المسيحية .

فإذا كان الإسلام الذى ليس له فى هذه البلاد سلطة حاكمة تعمل فى نصرته ولا هيئة دينية منظمة تملك إمكانات مادية ومعنوية وطاقة بشرية تحمل مهمة نشره وتمكينه فى ربوع هذه البلاد يكسب من الأنصار والأتباع أضعاف ما تكسبه المسيحية التى تساندها الدول الأوربية والأمريكية وتعمل من أجل نشرها الهيئات التبشيرية الكثيرة ، أفلا يكون ذلك مبعث خوف وذعر ودافعا قويا لمضاعفة الجهود والإمكانات ؟

إنهم يريدون أن يستحثوا القائمين بتمويل الحركات التبشيرية على بذل المزيد من الأموال والدعم والتشجيعات ، وإرسال الحملات التبشيرية لنشر مكامن التبشير وإنشاء المدارس والمراكز والكنائس والمستشفيات وغيرها ، كما أنهم يريدون أيضا أن يدفعوا

المبشرين إلى الاستماتة وبذل النفس والنفيس والتضحية والتفانى من أجل تحقيق أهداف التبشير ووضع مخططات دقيقة تكفل النجاح للدعاية التبشيرية فى هذه البلاد.

ثم إنهم بجانب ذلك يهدفون إلى إضعاف عزيمة المسلمين ودفعهم إلى الاخلاد إلى الراحة والكسل والتواكل، وإغرائهم بأن من طبيعة دينهم أن يحرز الانتصارات الباهرة وإن لم يعملوا شيئا فى سبيل ذلك ، حتى يقعدوا عن الجهاد والدعوة الإسلامية معتمدين على أن هناك قوة معنوية تعمل تلقائيا على نشر الإسلام على ماقاله قائل أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه ! وحقا إن الإسلام يكسب عددا كبيرا من القبائل الوثنية ومن المسيحيين ، وقد دخل إلى هذه البلاد منذ عصور طويلة واستطاع أن يثبت قدمه وينتشر فى ربوعها ولم تصحبه قوة استعمارية ولا كان توغله عن غزو أو احتلال أو استغلال ، بل دخلها سلما وجاء لخير شعوب هذه البلاد وصالحها وخير البشرية جمعاء ، شأنه فى كل بلد دخله وحط فيه رحاله . ولم يعرف عن الإسلام استعماره للشعوب الخاضعة تحت نفوذه ولا استغلاله لخيرات بلادها ما عرف عن المسيحية الغربية التى كانت طليعة الغزو الاستعمارى وأداة طيعة فى أيدى الحكام المستعمرين ، كما كانت امتدادا لخطوط الحروب الصليبية الأولى ، كانت تريد أن تأخذ بثأرها وأن تحول هزيمتها النكراء إلى انتصارات كبيرة .

ولكن لايفوتنا ونحن فى نهاية هذا الفصل أن نقرر أن التقدم العددى الذى يحرزه الإسلام فى هذه البلاد والرقم القياسى الذى يضربه من ناحية الانتشار وكسب الأنصار لايمكن أن ننخدع به كما انخدع به الكثيرون . إذ لايهمنا الإسلام الاسمى بقدر مايهمنا الإسلام العملى الذى هو منهج متكامل لحياة الإنسان فى هذا الكون .

إن هناك حقيقة واحدة يجب أن نؤكدها فى هذا الصدد لأنها معضلة كبيرة تقف فى وجه أى انتصار يمكن أن يكون الإسلام قد حققه فى هذه البلاد ، وهى سرعة انتشار العلمانية الغربية والمذاهب المادية التى وضع غراسها رجال الاستعمار وتركوه فى أيدى النخبات الوطنية لتقوم برعايته وسقيه وإنمائه من بعدهم ، فكان

من آثار ذلك ظهور أسلوب جديد للتفكير وأفكار وأنظمة جديدة فى شئون الحكم والسياسة والقضاء واتجاهات جديدة نحو الدين ونظم ومبادئ جديدة فى شئون الاقتصاد والاجتماع مما غير واقع حياة المسلمين بشكل عام وشامل .

ولقد أصبحت الحكومات المحلية تعلن سياسة الحياد فى شئون الدين مجاراة لما كانت تتظاهر به الحكومة الاستعمارية فى أيام حكمها على البلاد .

وهكذا رأينا كيف أدى تعلق المسلمين بالأفكار العلمانية المعادية للدين إلى تقلص سلطان الإسلام ، وتضييق آفاق نفوذه الواسعة إلى نطاق محدود يدور حول شعائر التعبد وجانب محدود من حياة الإنسان ...

الخاتمة :

الاستشراف نحو مستقبل زاهر

لم أقصد من وراء عرض هذه الوقائع والحقائق بعث روح اليأس في نفوس المسلمين . كما أنني لا أرمي إلى القول بأن ما وصلت إليه حالهم لا يمكن أن يتغلبوا عليه . ولكني قصدت كشف النقاب عن هذه الحقائق وتلك الوقائع لنتعرف من خلال ذلك على الأمراض التي تنتاب المسلمين ، والمشكلات التي تواجههم والأزمات العديدة التي يعيشونها ، وذلك في محاولة البحث عن العلاج الناجع لهذه الأمراض ، والحلول السليمة لتلك الأزمات والمشكلات ليبادروا إلى محاولة إصلاح شئون حياتهم وتغيير واقعهم المؤسف الذي يعيشونه إلى واقع أفضل وأكثر مرونة وحيوية ... واقع إسلامي حقيقي . وحقا إن هذه البلاد قد وقعت من الانحدار والانحطاط في هوة سحيقة ووقعت في الهلاك من دون صحوة وانتباه . وقد غلبت على أمرها فترة طويلة من الزمن وتعاقبت فيها الأحداث والأزمات وقامت فيها الانقلابات الاجتماعية والسياسية وصراع الأفكار والعقائد ، ولكن رغم أن ذلك كله كان طامة كبرى ومشكلة عويصة ، فإن وسائل علاجها والتغلب عليها ليست بالأمور الصعبة المستعصية . غير أن حركات الاصلاح قد تستغرق فترة طويلة من الزمن ، وقد لا يكتمل النجاح المرجو في جيل واحد ، وطريق الاصلاح محفوف بالمخاطر والعقبات ، وإن لم يكن الهادي والرائد فيه عناية الرب والعزم القويم والإقدام على الخطوب وركوب المخاطر ، بعد دراسة عميقة لتفهم الموقف ووضع تخطيط دقيق مدروس ، وأخذ الحذر والأهبة اللازمة ، والإلمام بكافة جوانب الأمور ، فلن يمكن التغلب على تلك المشكلات .. والأزمات . ولكننا سنهتدي إلى الوسائل والأسباب التي تكفل لنا النصر المبين إذا درسنا أوضاعنا بتعقل وعلى بصيرة من أمرنا ، ونظرنا إلى حالتنا الراهنة بتفهم دقيق ، لنقف على حقيقة واقعنا وخاصة من جانب طبقة المثقفين الذين قبضوا على زمام الأمور في هذه

البلاد . وإن التجارب العديدة التي تمر بالمسلمين في هذه البلاد وتحديات العصر التي ظلت تواجههم لجديرة بأن تلفت أنظارهم إلى حقيقة ماثلة يجب ألا تغيب عن أذهانهم لحظة واحدة وهي أن مخططاتهم ومشاريعهم ومساعيهم وحركات المقاومة التي ينظمونها يجب أن تقوم على أساس تلك التجارب وتسير على ضوئها ، كما يجب أن يكون ذلك عاملا أساسيا لإنهاض هممهم وإثارة مطامحهم، وذلك لما أدت إليه هذه التحديات من الهزيمة والتخلف والضعف حين فقد المسلمون الإحساس بأخطارها وغفلوا عنها نتيجة ماغلب عليهم من الشعور بالأمن الذاتي والغفلة عن الحذر اللازم إزاء الأخطار المحدقة بهم ووضع تخطيط دقيق لمواجهتها . وجماع القول أن مصدر كل ماواجه المسلمين من مباغتات وماوقع في بلادهم من أزمات ومشكلات على طول تاريخ هذه البلاد كان راجعا إلى الاستنامة عن الأخطار والغفلة عن أخذ الحذر اللازم والأهبة والوقاية المطلوبة . ورغم أن جيوش الاحتلال الغربي قد انسحبت من هذه البلاد بخروج الحكام المستعمرين المتسلطين حتى حسب الناس أن الحرب قد وضعت أوزارها أو هدأ أوارها فإن المعركة ماتزال قائمة على أشدها، إذ لاتزال الدول الغربية الصليبية في صراع مرير مع الإسلام والمسلمين .

وإذا كانت جبهة الحرب قد تحولت من الاستعمار العسكري والسياسي إلى الاستعمار الفكري والعقدي والاجتماعي والتربوي حيث مخططات الاستعمار ومبادئه وأفكاره ونظامه وحضارته هي المتحكمة في مصائر الناس والمسيطرة على شئون حياتهم ؛ فإن الخطر مايزال ماثلا مهددا لكيان الأمة الإسلامية . وقد كان بعض الناس ينظرون إلى الغزو الفكري الأوربي على أنه سلاح خفيف، وكان الآخرون من السطحيين والسذج لايدركون مافيه من أخطار جسام . إن الغزو الفكري قد أراح القوى الأجنبية من عبء الصدام مع الشعوب الثائرة في وجهها دائما لفك أغلال الاستعمار والاستغلال حين قام في المجتمع فريق من الجيل الناشئ صنعته القوى الأجنبية على عينها بدأ يعتز بحمل لواء الثقافة الغربية والأفكار الأوربية وتخلى أبناء المسلمين منهم من دون شعور عن تراثهم الإسلامي والاستنارة بهداه ، ولم يعودوا يفكرون في تكتيل الجماعات الإسلامية على رابطة العقيدة الإسلامية ،

إن حركات الاستعمار الحديث في حساب الغربيين أنفسهم مرحلة تالية للحروب الصليبية الأولى التي انحسرت فيها جيوش الصليبيين وردت على أعقابها تجر أذيال

(ب)

الهزيمة النكراء . ولما خابت دول أوربا المسيحية فى تلك الحروب الضارية ولم تفلح حرب السلاح فى تحطيم قوة الإسلام وكسر شوكة المسلمين ، لجأت الدول الغربية إلى حرب الأفكار والعقائد فنشنت على المسلمين حربا جديدة عن طريق التبشير ووسائله المختلفة من مدارس وكنائس ومراكز ومستشفيات وغيرها ، كما رفعت راية العلمانية اللادينية فى هذه البلاد لحبس الدين بين جدران المعابد ، حتى لا يمتد سلطانه إلى ماوراء حدود تلك المعابد الضيقة ، ولم تترك مجالا من مجالات الحياة لشعوب هذه البلاد إلا شملته موجة العلمانية وتياراتها اللادينية ، لقد وضعت مبادئ الرأسمالية فى مجال الاقتصاد ، وقررت مبادئ الديمقراطية فى مجال الحكم والسياسة ، ونشرت مبادئ الحرية والتحرر التى تفضى إلى الالحاد فى مجال الاجتماع حتى أمحت القيم والمثل والأخلاق .

إن انسحاب القوى الأجنبية التى سيطرت على زمام الأمور فى هذه البلاد ردحا غير يسير من الزمن ، وانتقال السلطة إلى أيدى النخبات الوطنية التى صنعتها القوى الأجنبية بعناية خاصة طبق مخطط مدروس لم يكن ذلك كله ليغير شيئا من حالة هذه البلاد ، .. إذا علمنا أن تلك الطبقة المحلية مسخرة خاضعة من حيث تدرى ومن حيث لا تدرى للقوى الاستعمارية لتتحكم فى اتجاهاتها ومصيرها بحيث تسير شئون هذه البلاد بطريقة تحقق المصالح الأجنبية من غير أن تدرك ذلك جماهير الكادحين .

إن جذور مشكلاتنا هى الانحرافات التى وقع فيها المسلمون فى تصورهم وسلوكهم ، وكانت أسباب ذلك ترجع إلى الغزو الأجنبى المقصود المخطط والتقبل الذاتى من جانب المسلمين أنفسهم نتيجة انحطاطهم وتخلفهم عن مواكب الحضارة والمدنية مما أدى إلى تسميم أفكارهم وانحصار مفهوم الدين فى نفوسهم فى دائرة ضيقة من شئون الحياة الإنسانية .

إن الأوربيين المحتلين كانوا يحاولون دائما أن يحولوا حياة المسلمين إلى واقع غير إسلامى فى مظاهره وحقيقته ليحققوا لهم الضعف والتخلف .

إن الفتنة الكبرى التى وقع فيها المسلمون هى أنهم لما نظروا إلى دول أوربا

رأوها متقدمة فى عالم المادة فانبهرت عقولهم وأوعزت أوربا إليهم أنها كانت متخلفة قرونا طويلة وأنها لم تبدأ فى التقدم والرقى إلا بعد أن شرعت فى التخلى والابتعاد عن ربقة الدين،ثم إنهم لما نظروا إلى حالتهم من الجانب المقابل رأوا أنفسهم فى تخلف وتأخر وأيقنوا أن سبب ذلك راجع إلى تمسكهم بأهداب الدين كما كان حال أوربا فى عصورها المظلمة.وماذا نقول عن أوربا التى أصبحت متقدمة راقية وهى بلا دين، وماذا نقول عن المجتمعات الإسلامية التى انحدرت إلى الحضيض فى تخلف وتأخر وهى متعلقة بالدين ؟

إن هناك زيفا ومبالغة متعمدة فى هذا الكلام وتلك المقارنة ، إن المسلمون ليسوا ذوى الدين ولا متمسكين به بالمعنى الشامل وليست أوربا أيضا متقدمة فى حقيقة الأمر وواقعه. ولكن من تلك المقارنة حصل تشويه كبير لصورة الإسلام فى نفوس المسلمين،ومن هنا أيضا حدث الانبهار بكل ما عند الغرب،ولما حصل ذلك الانبهار لم يستطع المسلمون أن يميزوا بين الغث والسمين فيما ينقلون من الغرب،وقد نقلوا كل مايتعارض مع مبادىء دينهم ومعتقداتهم ونظمهم الاجتماعية ، نقلوا كل ما تقوله الدول الغربية عن الدين من أنه خرافة ومعوق ومخلف وأنه محصور فى زاوية المعابد لا هيمنة له على شئون الحياة العملية .. نقل ذلك كله ببغاواتنا الوطنيون وأضافوه إلى الإسلام .

إن هناك مجموعة عوامل ساعدت على تمكين الغزو الفكرى الغربى وانتشار تياراته فى ربوع هذه البلاد، منها ماهو من أنفسنا ومنها ماهو خارج عن إرادتنا .

أما ماهو خارج عن إرادتنا فهو الغزو الأجنبى المقصود المخطط فى برامجه التعليمية ووسائل الإعلام المختلفة وسياسته العلمانية اللادينية وحملاته التبشيرية والحضارة الغربية المادية والأفكار والمبادئ والنظم الأوربية التى حاول الغزاة الأوربيون نشرها فى هذه البلاد.

وأما العوامل التى كانت من أنفسنا فإنها تتمثل فى بعد المسلمين عن حقيقة الإسلام وانحرافهم عنه فى سلوكهم وتصوراتهم التى نشأ عنها انبهارهم بكل ماعند الغرب عندما عاينوا تفوقه الحضارى القائم على أساس المادة،فقد نشأ عن هذا البعد والانحراف انهزام

داخلى فى مشاعر المسلمين أدى إلى هذا الانبهار والاستعداد لتقبل النفوذ الغربى مما قاد إلى التقليد والمحاكاة ونشأ عن ذلك فى آخر الأمر تحول كبير فى شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ولم يكن هذا التحول تقدما حقيقيا فإنه كان مايزال يتسم بالتخلف الحضارى والفكرى. ثم إن الحركات الإسلامية التى قامت فى هذه الفترة لم تكن قادرة على مواجهة أخطار الاستعمار والتبشير ومواصلة الجهاد وحمل الراية فى المعركة التى أعدت القوى الأوربية لها كل العدة وظلت تعمل وفق مخطط دقيق مدروس قائم على أساس تفهم عميق لطبيعة البلاد وعقائد شعبها ونفسياته وشئون حياته، بالإضافة إلى أن تلك الحركات لم تتبن فكرة إسلامية سليمة ولم تضع لنفسها منهاج عمل واضح ، ولم تعمل وفق تخطيط دقيق مما مكن الاستعمار من النيل من قوة الإسلام وإضعاف المسلمين . وقد رأينا ماكان من نشاط الهيئات التبشيرية، ورأينا ماكان من مساعى الاستعمار وجهوده ومخططاته

وإذا نظرنا إلى الجانب المقابل لنفحص نشاط الحركات الإسلامية وجهود الدعاة المسلمين فإننا لا نجد شيئا كثيرا يستحق الذكر والتنويه عنه وكل ماكان هنالك لا يمكن أن تعتبره شيئا بالقياس إلى نشاط التبشير المسيحى من حيث الإمكانات المالية الضخمة والطاقات البشرية الهائلة والوسائل المادية الأخرى المتعددة . وإن الطاقة المحدودة التى تمتلكها الجمعيات الإسلامية والجهود القاصرة التى تقوم بها لا يمكن أن تقف فى وجه تلك القوة الهائلة والطاقات الضخمة التى تملكها الهيئات التبشيرية . وإذا نظرنا إلى الدعاة المسلمين الذين يعملون فى حقل الدعوة الإسلامية فى هذه البلاد فإننا لانجد منهم إلا عددا يسيرا جدا ممن يمكن أن نسميهم دعاة إسلاميين حقيقيين . وإن لعلماء المسلمين دورا كبيرا فى حصر مفهوم الدين والعبادة فى نطاق ضيق على طول العصور الحديثة وبين الأجيال الناشئة وذلك بسبب التعصبات والانحرافات وطريقة العزلة التى انتحلوها فيما يتعلق بمواكب الثقافة والحضارة ، وقد فات هؤلاء الناس أن الإسلام لا يفرق بين الدين والدنيا ولا يذم الدنيا إلا حين تكون هى غاية الإنسان الوحيدة وحين تصير أكبر همه ومبلغ علمه . وقد غاب عن أذهانهم أن الشعائر التعبدية التى ركزوا عليها لم يفرضها الله

سبحانه وتعالى من أجل الحصول على الثواب الجزيل في الآخرة فحسب وإنما وضعت كذلك لتكون لها آثار عميقة من واقع الحياة البشرية . وإذا كان العلماء على مثل هذه الحالة من الانحراف عن جادة الطريق ، وفي حالة التخلف الثقافي والعزلة عن مواكب الحضارة والرقي ، فمن أين تجد جماهير المسلمين من يقدم الحلول السليمة للمشكلات المستجدة؟ وقد كان ذلك سببا هاما من جملة الأسباب التي أدت إلى ابتعاد الناس عن الدين . أضف إلى ذلك اهتمام هؤلاء العلماء بالقشور دون اللباب وتركيزهم على الأمور الجانبية وترك مهام الأمور التي لا يقوم بناء المجتمع إلا على أساسها ولا تصلح حال هذه الأمة الاسلامية إلا بها إذ بها صلحت حال الأولين . إن هناك مجموعة كبيرة ممن تصدوا للدعوة ونشر العلم في هذه البلاد لم يكن لهم باع طويل في العلم والمعرفة ولم يبلغوا مرحلة العالم والداعية وإن أدرجناهم في عداد طلاب العلم فعلى سبيل تكثير سواد تلك الفئة فحسب . ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نحسب تلك المجموعة في مصاف العلماء المتبحرين الألمعيين . ومن الجانب الآخر على ما سنفصله قريبا إن شاء الله تعالى فإن الجمعيات الإسلامية التي كان يمكن أن نعلق عليها آمالا كبيرة في حقل الدعوة كانت هي نفسها تركز على أعمال جانبية وتهمل النواحي الهامة ولا تصدر في أعمالها عن تخطيط ودراسة عميقة مما يكفل لها النجاح ويحقق لها أهدافها .

وإذا استمرت الحالة على هذا الوضع المؤسف ، واستمر هذا النقص المؤلم في مصاف الدعاة المسلمين ، وظلت الحركات الإسلامية تتبنى اتجاهات قاصرة ، فإن مستقبل الإسلام في هذه البلاد ينبه إلى خطر كبير قد لا يسهل تداركه إذا لم نبادر من الآن إلى اتخاذ موقف حاسم تجاه هذه القضية ، ووضع كل ما يلزم لها من المخططات الدقيقة والجهود الكبيرة .

إن هناك حركات إسلامية قامت في هذه البلاد يتبنى أصحابها مناهج إصلاح غير متكاملة ، واتجاهات دينية قاصرة فمن بينها جماعة اقتصرت على إصلاح الانحرافات التي حدثت في عقيدة المسلمين ثم غالت في هذا الجانب . ومنها جماعة أخرى اقتصرت على نشر بعض التعاليم الإسلامية المعينة وغالت في ذلك أيضا مثل جماعة المتعممين التي ركزت على تحريم حلق اللحى ووجوب التعمم على كل مسلم ومنع النساء من حضور المساجد وما إلى

ذلك وقد جعلت القواعد التي تبنتها محورا أساسيا يدور عليه إيمان المسلم وكأنها هي القواعد الخمس التي بني عليها الإسلام ، في حين أنها كانت تهمل الأمور الأخرى الهامة في الدين . ثم إن من بين هذه الجماعات أيضا جماعة اقتصرت على النسك وغالت فيه وهي الفرق الصوفية على اختلاف مذاهبها . ومنها أيضا جماعات اقتصرت على محاولة إصلاح طريقة التعليم الغربي والثقافة الأوربية وإصلاح الأوضاع المحيطة بهذا النوع من التعليم والعمل على إبعاد أبناء المسلمين من دخول المدارس التبشيرية .

وإن هذه الاتجاهات لم تنتهج طريقة سليمة في برامجها الإصلاحية وهي بجانب ذلك قاصرة غير متكاملة .

إن البدء باصلاح انحراف الناس في العقيدة نقطة انطلاق صحيحة لأن الإسلام يقيم بناءه على أساس العقيدة ولكن الخطر كله يكمن في اقتصارنا على ذلك ومغالاتنا فيه ، وكذلك الكلام في النسك . فكلنا يعلم فضل شعائر الله وعبادته وأنها هي عمد الدين التي لا يقوم بناؤه إلا بها ولكن مع ذلك لا ينبغي أن نقتصر على النسك فقط على أنه هو الدين كله .

وأما الحركة الإسلامية التي اقتصرت على إصلاح الأوضاع المحيطة بالتعليم الغربي والثقافة الغربية فإنها تسير في اتجاه قاصر وخطير ، ذلك أنها لم تغير في مناهج التعليم إلا تغييرا جزئيا طفيفا ، يتعلق بعدم تدريس الدين المسيحي لأبناء المسلمين بينما تركت بقية المناهج على ما هي عليه ، ولم تفطن لما يحطه التعليم الغربي والثقافة الأوربية في طياتهما من مبادىء وأفكار تتعارض مع الإسلام وقيمه ومثله، وهي في الحقيقة معاول هدم لتقويض بنيان الإسلام فضلا عن أن الإسلام ليس مجرد ثقافة ، - حتى إن قدمنا الثقافة السليمة - إنما هو منهج حياة عملية كاملة .

وقد رأينا أن الخطر الذي حاولت الجمعيات الإسلامية تفاديه لا يزال ماثلا رغم أن المدارس التبشيرية قد توقفت عن النمو والتكاثر ، لأن المدارس الحكومية والأهلية ومدارس الجمعيات الإسلامية التي أسست خصيصا لإبعاد أبناء المسلمين عن ورود مدارس الإرساليات

إن هذه المدارس جميعا لا تختلف فى جوهرها وأهدافها ونتائجها عن المدارس التبشيريه لأنها وإن لم تبشر بالمسيحية ظاهرا كما كانت تعمل مدارس الإرساليات فإنها ظلت تسهم مساهمة فعالة فى دفع عجلة التعليم الغربى اللادينى إلى الأمام مما يبعد الأمة الاسلامية عن حقيقة دينها ويغير قيمها ومثلها وأخلاقها ويربطها بعجلة الاستعمار الغربى إلى الأبد، وهذا ماتهدف إليه القوى الغربية الصليبية. وحبذا أن تنتهج هذه الجمعيات الإسلامية طريقة إصلاح شامل وبناء، ولا تقتصر على جانب معين ضيق حتى يكون لجهودها النجاح المرجو.

وقد آن لها أن تعلم أن الاسلام منهج متكامل للحياة الإنسانية. وأنه بناء مرصوص تماسكت أركانه يشد بعضها بعضا، وأن عليها أن تعمل على ضوء هذا المعنى الواسع وتحت هذه الآفاق المترامية الأطراف، ولا تقتصر على جانب ضيق من هذا البناء وتهمل بقية الجوانب الهامة. وإن المسلمين اليوم فى حاجة إلى إعداد كل العدة والاستعداد الكبير لحمل الأمانة الملقاة على عواتقهم كما أن حاجتهم ماسة جدا إلى تنظيم حركة إسلامية شاملة تعيدهم إلى حقيقة الإسلام حتى يفهموه فهما صحيحا عميقا على أنه عقيدة وعبادة وشريعة وسياسة وأخلاق ومعاملات، وأنه كل لا يتجزأ وأن تجزئته فتنة كبيرة مثل منعه جملة واحدة.

قال الإمام حسن البنا (أيها الإخوان أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزبا سياسيا ولا هيئة موضوعية لأغراض محدودة المقاصد. ولكنكم روح جديد يسرى إلى قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله، وصوت داو يعلو مرددا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن الحق الذى لاغلو فيه أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلى عنه الناس.. وإذا قيل لكم: إلام تدعون؟ فقولوا ندعو إلى الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه، فإن قيل لكم: هذه سياسة فقولوا هذا هو الإسلام، ونحن لا نعرف هذه الأقسام) (١).

---

(١) مجموعة رسائل الإمام حسن البنا ص ٢٣١ دار القرآن الكريم بيروت ١٣٩٣هـ ١٩٧٤م

وإن من أوجب الواجبات علينا هدم المعبوديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بتصفية رواسب الاستعمار كلها وإزالة جميع الطواغيت التى أقامتها القوى الغربية الصليبية من قيم ومبادئ ونظم وسائر طرائق وأساليب الغرب فى شئون الحياة .

ولقد ظل المسلمون منذ أمد بعيد يلتمسون النور وسط الظلام الحالك وينشدون الطريق وسط الفلاة التى تاهوا فيها ولكنهم ليسوا بالغى غايتهم حتى يفهموا أولا ما هو النور الذى يتطلعون إليه وما هو الطريق الذى إذا اهتدوا إليه وسلكوه يقودهم إلى النجاة والأمان والسعادة .

وإننى لأختتم هذا البحث بأن أقدم هذه الاقتراحات كوسيلة لحل المشكلات التى تواجه المسلمين فى هذه البلاد علهم ينتفعون بها فى تخطيط برامج أعمالهم من أجل تحقيق مستقبل زاهر للإسلام فى هذه البلاد . ويجدر بنا أن نشير إلى أنه ليس بإمكاننا أن نقدم منهجا مفصلا لنظام سياسى إسلامى قبل أن نقيم للإسلام دولة فى هذه البلاد ، ولكن الذى نملكه هو أن نقدم خطوطا عريضة يسير عليها هذا النظام ويلتزم حدودها بحيث لا يحيد عنها قيد شبر .

أولا :

يجب أن تقوم فى هذه البلاد حركة إسلامية ناهضة من جانب النخبات الإسلامية الناشئة لا على أساس جمعية خيرية ولا حزب سياسى محض ولا مؤسسة اجتماعية ولكن كقوة جديدة وروح جديد يعيد الحياة الحقيقية إلى المجتمع ومن وراء هذه الحركة علماء المسلمين الواعون الذين يجب أن يتولوا مهمة توجيه أعمالها الإصلاحية .

ثانيا :

يجب أن تبدأ هذه الحركات مهمتها بالقيام بالعمل الجاد المتواصل فى سبيل نشر التوعية الإسلامية بين جماهير المسلمين لتوضيح حقائق الإسلام فتبدأ أولا بتصحيح التصورات والمفاهيم التى انحرف فيها المسلمون ثم تمضى بعد ذلك إلى تصحيح السلوك وتقويمه .

ثالثا :

يجب العمل على تربية جيل جديد على حقائق الإسلام وتعاليمه الرشيدة وثقافته القيمة .

رابعا :

يجب توجيه عناية خاصة إلى طبقة المثقفين الإسلاميين لتعريفها بحقيقة الإسلام من جديد ومحاولة إعادتها إلى حظيرة الإسلام قلبا وقالبا .

خامسا :

دعوة علماء المسلمين إلى محاولة تحسين حالة التخلف الحضارى والتأخر الثقافى التى كانوا يعيشون فيها منذ أمد بعيد وإلى تصفية كل مايتعلقون به من رواسب البدع المنكرة والخرافات والعادات والتقاليد الجاهلية مما شوه صورة الإسلام فى نفوس الناس وأدى إلى ابتعادهم عنه . وإن أكثر التشويهات التى حدثت فى صورة الإسلام الناصعة فى أنظار المسلمين وخاصة طبقة المثقفين منهم ، كان هؤلاء العلماء هم المسئولين عنها فى الدرجة الأولى .

سادسا :

تصحيح المفاهيم والتصورات التى انحرف فيها المسلمون وأهمها توضيح حقيقة التوحيد ذاتها . وتصحيح مفهوم العبادة ومفهوم السياسة والحكم فى الإسلام ومفهوم القضاء والقدر وغير ذلك .

سابعا :

وضع تخطيط دقيق لإنجاح جهود الحركات الإسلامية يقوم على أساس من التفهم العميق والدراسة الواسعة لحالة المسلمين الراهنة وتنظيم برامج العمل وتنسيقها وتوحيد الجبهات وحشد الطاقات لتكون الأمة الإسلامية فى هذه البلاد يدا واحدة على كل من سواهم وقوة مرهوبة الجانب يحسب حسابها فى حلبة الصراع العقدى الذى لا يزال قائما على أشده فى هذه البلاد .

ثامنا :

وضع منهاج قويم للنظام الإسلامي السياسي يقوم على أساس تقرير الشريعة الإسلامية وإيجاد الأمة الإسلامية التي تطبقها وتحولها إلى واقع عملي في شئون حياتها ومحاولة إيجاد الدولة القوية التي تهيمن على شئون الأمة وتحميها .

تاسعا :

ومن الممكن أن يحمل المسلمون في هذه البلاد عبء الدعوة الإسلامية في المستقبل القريب ولكن حبذا لو بذلت الدول الإسلامية مجهودات كبيرة في سبيل نشر التوعية الإسلامية في هذه البلاد وقدمت العون اللازم في هذا الصدد بإرسال الدعاة المخلصين للعمل فيها/ليعرفوا الناس بحقيقة الإسلام ويصححوا المفاهيم التي انحرف فيها الناس وينشروا فيها الثقافة الإسلامية والتعليم الإسلامي ، وقدمت كذلك المساعدة الفعالة في سبيل رد اعتبار المسلمين السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

ولعل هذه الرسالة تصلح أن تؤدي خدمة للأجيال الإسلامية الناشئة يتعرفون فيها إلى جهود المبشرين ونشاط الإرساليات الكبير في حقل التبشير ومساعي رجال الاستعمار ومخططاتهم المدروسة في سبيل تحقيق السيطرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذلك جهودهم الرامية إلى محو العقائد والحضارة والقيم والمثل أو زعزعة عقيدة الأجيال الإسلامية الناشئة بوجه خاص ، وتهيئتها بشتى الوسائل والأساليب لقبول النفوذ الغربي والخضوع والاستكانة لأطماع الاستعمار وأهداف التبشير ، والأمل معقود بتلك النخبات الإسلامية الطيبة التي تتأهب لتنسيق حركة إصلاحية عما قريب لإنهاض الأمة الإسلامية من كبوتها وإيقاظها من سباتها العميق ، فلعلها تجد في هذه الدراسة وأمثالها ماتستنير به للوقوف على أخطار حركات التبشير ومطامع القوى الاستعمارية وآثار أعمال التبشير والاستعمار والحضارة الغربية المادية على شئون حياة المسلمين ، ثم تضع مناهجها الخاصة وبرامج عملها الإصلاحي الدقيقة لإزالة رواسب الاستعمار

ومجابهة أخطار التبشير حتى يحقق الله على يديها النصر المبين .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، إن أريد إلّا الاصلاح ماستطعت وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قائمة المراجع العربيـــــة والمترجمـــة

موجز تاريخ نيجيريا — للشيخ آدم عبد الله الالورى — بيروت ١٩٦٥م

الاسلام فى نيجيريا — للمؤلف نفسه — بيروت

افريقيا وراء الصحراء — للاستاذ صلاح صبرى

المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب — لابى عبيد الله بن عبد العزيز البكرى
(وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، ت ١٠٩٤م
نشره راندوم (Random) ـ الجزائر ١٨٥٧م)

تاريخ افريقيا .... — تاليف اندرية جوليا — ترجمة طلعت عوضى اباظة .

تاريخ السودان — تأليف عبد الرحمن بن عبد الله السعدى
حققه ونشره هوداس وبنوست (Houdas and E. Benoist)

الديانات فى افريقية السوداء — تأليف د يشامبس (H. Deschamps)
(ترجمة أحمد صادق ، مصر ١٩٥٦م)

افريقية الغربية فى ظل الاسلام — نعيم قداح — دمشق ١٩٦١م

الدعوة إلى الاسلام : تأليف سير توماس. و. ارنولد (Sir Thomas W. Arnold)
ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور عبد المجيد عابديـــن
واسماعيل النحراوى الطبعة الثالثة ١٩٧٠م .

تاريخ الدعوة الاسلامية بين الامس واليوم — للشيخ آدم عبد الله الالورى — بيروت ١٩٦٦م

انفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور — تأليف الشيخ محمد بلو بن عثمان دان فودى نشر فى لندن عام ١٩٥١م .

الاستعمار أحقاد واطماع — للشيخ محمد الغزالى

فى موكب الدعوة = = =
الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٦٥م

الاتجاهات الادبية فى الادب المعاصر : للدكتور محمد محمد حسين
القاهرة ١٩٥٤م

الاخوان المسلمون كبرى الحركات الاسلامية الحديثة . تأليف اسحاق موسى الحسينى
بيروت ١٩٥٢م

حاضر العالم الاسلامى تأليف لوثروب ستودارد .
ترجمة نويهض وتعليقات شكيب ارسلان

الافريقيون والعرب تأليف الدكتور احمد سويلم العمرى .
القاهرة ١٩٦٧م

مجموعة الرسائل للامام الشهيد حسن البنا دار القرآن الكريم بيروت
١٣٩٣هـ ١٩٣٤م

التبشير والاستشراق : احقاد وحملات :
للمستشار محمد عزت
واسماعيل الطهطاوى

الاستعمار والتبشير فى البلاد العربية : تأليف الدكتور مصطفى خالدى والدكتور
عمر فروخ .
ط ٥ المكتبة العصرية بيروت ١٩٧٣م

المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام تأليف الشيخ محمد محمود الصواف
دار الثقافة . مكة المكرمة ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م

الغارة على العالم الاسلامى تأليف ا .ل شاتليه (A. Le Chatelier)
لخصها ونقلها الى اللغة العربية محب الدين الخطيب ومساعد اليافى
ط ٢ جدة ١٣٨٧هـ الدار السعودية للنشر

أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى . تأليف الدكتور على محمد جريشه والشيخ
محمد شريف الزيبق
القاهرة دار الاعتصام ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م

مذكرة حاضر العالم الاسلامى تأليف محي الدين القضمانى
جدة مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر ١٣٩١هـ ١٩٧١م

اوربا العصور الوسطى الجزء الاول
اوربا فى العصر الحديث الجزء الثانى
تأليف الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
ط ٥ القاهرة ١٩٧٢م .

الاسلام فى وجه التغريب : مخططات الاستشراق والتبشير .
تأليف الاستاذ انور الجندى

الاسلام والغرب . تأليف الاستاذ انور الجندى القاهرة دار الاعتصام .

نظام التعليم العربى فى نيجيريا للشيخ آدم عبد الله الالورى بيروت ١٩٦٧م

كتاب الدين النصيحة = = = = = = ١٩٦٦م

معركة المصحف فى العالم الاسلامى للشيخ محمد الغزالى

ط٢ القاهرة دار الكتب الحديثة ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م

حضارة الاسلام وحضارة اوربا فى افريقية الغربية : تأليف نعيم قداخ

دمشق المطبعة الجديدة ١٩٦٥م .

امبراطورية غانة الاسلامية : للدكتور ابراهيم على طرخان مصر ١٩٧٠م .

دولة مالى الاسلامية = = = = = ١٩٧٣م

" نيجيريا "

من سلسلة مواطن الشعوب الاسلامية فى افريقيا تأليف محمود شاكر

دمشق ، دار الفكر ١٩٦٣م

الفكر الاسلامى الحديث فى مواجهة الافكار الغربية : تأليف الشيخ محمد المبارك

ط٢ بيروت دار الفكر ١٣٨٩هـ ١٩٧٠م

المستقبل لهذا الدين : للاستاذ سيد قطب

بيروت . دار الشروق ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م

جذور البلاء تأليف عبد الله التل

دار الارشاد بيروت ، ١٣٩٠هـ

بين الدعوة القومية والرابطة الاسلامية : ابو الاعلى المودودى ، دار العروبة

بيروت .

قائمة المراجـــــع باللغة الانكليزيه

(أ) السجلات الرسمية للارساليات التبشيرية :

لقد استخدمت بعض سجلات ارساليات الكنيسة الانكليزية التبشيرية (C.M.S) ، وجدت بعضها اثناء العمل الميداني فى مستودع السجلات الوطنية النيجيرية (Nigerian National Archives) فى مدينة ابادن كما اطلعت على الصور الفوتوغرافية لبعـــض السجلات الموجودة بمكتبة جامعة ابادن (U.B.L) وكذلك حصلت على البعض الآخـر عن طريق الاتصال بمستودع السجلات والتقارير الرسمية لا رساليات الكنيسة الانكليزية التبشيرية بلندن .

ويجد القارىء فى ثنايا البحث علامات ورموزا تشير الى فئات هذه السجلات . فالسجلات والتقارير المتعلقة بارسالية غرب افريقيا التبشيرية مثلا تحمل علامة (CA1) بينما وضـع لسجلات جمعية يوربا التبشيرية علامة (CA2) كما وضع لمجموعة السجلات الخاصـــة بشئون جمعية النيجر التبشيرية علامة (CA3) . وكل مجموعة من هذه المجموعات الثـلاث مقسمة الى قسمين احدهما خاص بالرسائل الصادرة من الهيئة العليا للارساليات الانجليزيـة الى الجمعيات التبشيرية او المبشرين فى مختلف مناطق نيجيريا ، وقد وضع لهذا القســـم علامة حرف (L) والقسم الثانى خاص بالرسائل الواردة وتقارير المبشرين عن شئــــون التبشير فى مناطق اعمالهم ويشار الى هذا القسم بعلامة حرف (O) .

وقد تغيرت هذه العلامات والرموز بعد عام ١٢٩٨هـ ١٨٨٠م واصبحت تكتب هكـــــذا (G3A1/O) ، (G3/A2/O) ، (G3/A3/O) . كما ان السجلات والتقارير المتعلقة بشئون التبشير فى المناطق الشمالية الاسلامية تحمل علامة (G3/A9/O) .

اما بالنسبة للارسالية المنهجية الويزلية (M.M.S) فقد اطلعت على بعض سجلاتها الموجودة فى مستودع السجلات الوطنية النيجيرية فى مدينة ابادن . وكذلك اتصلت بمستودع سجلات الارسالية المعمدانية فى نيجيريا ومكتبة روبرسن (The Robinson Collection) فيما يتعلق بسجلات الارسالية المعمدانية كما اتصلت بمستودع سجلات جمعية المبشريـــن الافارقة فى مدينة ابادن . (Society of African Missionaries Archives)

(ب) السجلات الحكومية :

لقد اتصلت بمستودع السجلات الوطنية النيجيرية (N.A.I) ومكتبة جامعة ابادن (U.I.L) واطلعت على بعض السجلات المتعلقة بشئون الحكومة الاستعمارية البريطانية في كل من مستعمرة لاجوس والمناطق الجنوبية والشمالية . وتضم هذه السجلات معلومات كثيرة تتعلق بالحكم الاستعمارى فى هذه المناطق وسياسة الحكام البريطانيين وتقاريرهم السنوية وبيانات المجلس التشريعى الاستعمارى ومناقشاته حول شئون الادارات المحلية . وكذلك تضم معلومات عن الشئون الاقتصادية للحكومة الاستعمارية : تجارة الرقيق ، وشئون التجارة " الشرعية" ونشاط الشركات التجارية البريطانية وغير ذلك .

(جـ) الدوريات والصحف:

توجد مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات والدوريات فى مستودع السجلات الوطنية النيجيرية (N.A.I) وفى مكتبة جامعة ابادن (U.I.L) تتعلق بشئون الحكومة الاستعمارية واخبار الارساليات التبشيرية ونشاطها التبشيرى فى مختلف مناطق نيجيريا وخاصة فى المناطق الجنوبية . ويرجع تاريخ بعض هذه الصحف والمجلات الى عام ١٢٨٠هـ ١٨٦٣م وقد اطلعت على بعضها واستفدت من المعلومات الواردة فيها . واذكر على سبيل المثال بعض هذه الصحف والمجلات:

The Negro, 1873
Lagos Times, 1880-1883
Lagos Observer, 1883-1888
Lagos Weekly Record, 1891-1930
The Lagos Standard, 1899-1920
The Nigerian Pioneer, 1917, 1936
Nigerian Daily Telegraph, 1927-1936
The Nigerian Daily Times, 1926

(هـ) الكتــــــــب المطبوعــــــــة

Adeleye, R.A. Power and Diplomacy in Northern Nigeria, 1804-1906, London,(1971)

AJAYI, J.F.A. Christian Missions in Nigeria 1814-1891, The Making of a New Elite, London,(1975)

AJAYI, J.F.A. and SMITH, R.S. Yoruba Warfare in the 19th Century, Cambridge University Press,(1964)

ANENE, J.C. Southern Nigeria in Transition, Cambridge,(1966)

ANON Minutes of the Church and Native Customs Conference, Onitsha C.M.S Archives,(1914)

ATANDA,J.A The New Oyo Empire, London,(1973)

ATANDA, J.A (ed) Travels & Explorations in Yorubaland, by W.H.Clarke Ibadan,(1972)

AYANDELE, E.A. The Missionary Impact on Modern Nigeria, London, Longmans,(1971)

BABALOLA, E.O Christianity in West Africa, Ibadan,(1976)

BABALOLA, E.O The Advent and Growth of Islam in West Africa, Ibadan,(1973)

BANI, M.J. Catholic Pioneers in West Africa, Dublin,(1956)

BIOBAKU, S.O. The Egba and Their Neighbours, 1842-1872, Oxford University Press,(1957)

BROWNE, L.E. The Prospects of Islam, London,(1944)

BULLARD, Sir R. Britain and Middle East, New York,(1951)

BLYDEN, EDWARD Christianity, Islam and the Negro Race, London, (1887)

BOER, H.R. A Short History of the Early Church, Ibadan, Daystar Press,(1976)

BOVILL, E.W. The Niger Explored, London, Oxford University Press , (1968)

BOWEN, T.J. Central Africa Adventures and Missionary Labours in Several Countries in the Interior of Africa from 1849-1856, Charleston,(1857)

BURDO, A. A voyage up the Niger and Benue, London,(1880)

BURDON,J.A. Northern Nigeria. Historical Notes on certain Emirates and Tribes, London,(1909)

BUXTON, T.F. The African Slave Trade and Its Remedy, London,(1840)

C. M. S. The Yoruba Missions,(1906)

— The Church in the Yoruba Country.

— Proceedings of the Diocesan Conference at Lagos, April,(1887)

— The Niger Mission,(1909)

COLEMAN, J.S. Nigeria: Background to Nationalism, Los Angeles, University of California Press, (1958)

COOK, A.N. British Enterprise in Nigeria, Philadelphia, (1943)

CROWDER, M. The Story of Nigeria, London, (1973)

CROWE, S.E. Berlin West African Conference, London, (1942)

CROWTHER, S.A. AND TAYLOR, J.C. The Gospel on the Banks of the Niger, London, (1859)

DAVEY, C.J. The Methodist Story, London, (1955)

DENNISS, J.S. Christian Missions and Social Progress, London, (1899)

DIKE, K.O. Trade and Politics in the Niger Delta, 1830-1885, Oxford, (1956)

- 100 Years of British Rule in Nigeria, 1851-1951, Lagos, (1957)

DUVAL, L.M. Baptist Missions in Nigeria, Richmond, Virginia, U.S.A. (1928)

EKECHI, F.K. Missionary Enterprise & Rivalry in Igboland, 1857-1914, London, Frank Cass (1971)

EPELLE, E.M.T. The Church in the Niger Delta, Port Harcourt, (1955)

ERNESTO GALLINA Africa Present. A Catholic Survey of facts and figures Translated by Dorothy White, London, (1970)

FEDERAL MINISTRY OF INFORMATION, Nigeria Handbook 1974, Lagos

FEUSER, W.F. (trans) Colonialism and Alienation, Benin City, (1974) - Political Thoughts of Frantz Fanon

FINDLAY, G. and HOLDSWORTH, W. History of Wesleyan Missionary Society London, (1924)

GEARY, W.M.N. Nigeria Under British Rule, London, Frank Cass, (1965)

GRENVILLE, J.A.S. & FULLER, G.J. The Coming of the Europeans, London, Longmans, (1970)

GROVES, C.P. The Planting of Christianity in Africa, London, 1948-1958

HALLETT, R. (ed.) The Niger Journal of Richard & John Lander, London,(1965)

HARRISON, P.W Doctor in Arabia, London,(1943)

HODGKIN, T. Nigerian Perspectives, London,(1975)

- Nationalism in Colonial Africa, London,(1960)

HOBBEN, S.J. An Introduction to the History of the Islamic States of Northern Nigeria, Oxford University Press,(1967)

HINDERER,A. Seventeen Years in the Yorubaland, The Religious Tract Society, London,(1877) New Edition.

HUELIN, G. The Church and the Churches, London, Sheldon Press,(1970)

IDOWU, EB. African Traditional Religion, London, SCM Press,(1973)

JODAN, P.J. Bishop Shanahan of Southern Nigeria, Dublin,(1949)

JOHNSON, S (Pastor of Oyo) The History of the Yorubas from the Earliest Times to the Begining of the British Protectorate, C.M.S. (1973)

KNIGHT, W Memoir of Henry Venn, London, (1882)

LAST, MURRAY The Sokoto Caliphate, London, Longmans, (1967)

LEWIS, L.J. Society, Schools and Progress in Nigeria, Oxford, Pergamon Press, (1975)

MARRYAT, CAPT. The Mission or Scenes in Africa, London, (1970)

MILLER, W.R.S Yesterday, Today and Tomorrow in Northern Nigeria, (1938)

- An Autobiography, Zaria, (1953)

MILLIGAN, A.A. FACts and Falks in our Fields Abroad, Philadelphia, (1921)

MOTT, J. The Moslem World of Today, London, (1925)

NWANKITI, B.C. (Bishop of Owerri) A short History of the Christian Church, Ibadan, Dayst ar Press, (1975)

ODUYOYE, Modupe, The planting of Christianity in Yorubaland, Daystar Press, Ibadan, (1969)

OGUNTUYI, A. History of the Catholic Church in the Diocese of Ondo , Ibadan, Claverianum Press, (1970)

ORR, Sir Charles. The Making of Northern Nigeria, London, Frank Cass, (1965)

PERHAM, M. LUGARD, The Years of Adventure, London, (1956)
— LUGARD, The Years of Authority, London, (1960)

SADLER, G.W. A Century in Nigeria (Baptist) Nashville, U.S.A. (1950)
S.M.A. 100 Years of Missionary Achievement. Cork n.d (1956)
STRIDE, G.T. & IFEKA, C. Peoples and Empires of West Africa, London, (1973)

THE CHRISTIAN COUNCIL OF NIGERIA, Justice and Peace in Nigeria, Daystar Press, Ibadan, (1971)
TODD, JOHN M. African Mission, Burn and Oates, London, (1961)
TRIMINGHAM, J.S. Islami In West Africa, London, (1967)
TURNER, H.W. African Independent Church, Vols I & II, London, (1967)

WAISH, H.J. The Catholic Contribution to Education in Western Ni
London, (1951) ((Unpublished))